مكتبة

كريمة أحداد

مكتبة ٨٦٧

حلم تركي

رواية

المركز الثقافي العربي

مكتبة | ٨٦٧
سُر مَن قرأ

كريمة أحداد

حلمٌ تركيّ

مكتبة
t.me/t_pdf
٤ ٧ ٢٠٢٢

الكتاب
حلمٌ تركيّ
تأليف
كريمة أحداد
الطبعة
الأولى، 2021
عدد الصفحات: 416
القياس: 14 × 21
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9953-68-986-9
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 303339 0522 ـ 307651 0522
فاكس: 305726 522 212+
Email: markaz.casablanca@gmail.com
بيروت ـ لبنان
ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء
شارع جان دارك ـ بناية المقدسي
هاتف: 750507 01 ـ 352826 01
فاكس: 343701 1 961+
Email: cca_casa_bey@yahoo.com

كريمة أحداد

مكتبة | ٨٦٧
سُر مَن قرأ

حلمٌ تركيّ

رواية

المركز الثقافي العربي

إهداء

إلى المغتربين.. في كلّ مكانٍ وجسد

«إنّ مهمّتك ليست البحثَ عن الحبّ، بل البحثَ بداخلِك عن تلكَ الجدران والحواجز التي تبقيه بعيداً عن روحك».

جلال الدين الرومي

«لقد مضيتُ قدُماً على الرغم من خفقان القلب الذي كان يقول لي: عودي أدراجكِ».

إيريكا يونغ

«مِثل معظم الناس في العالم، أمضيتُ مُعظم حياتي منتظراً أن يحدث شيءٌ ما».

أورهان باموق

«تتمثل كبرى فضائل إسطنبول في قدرة سكّانِها على رؤية المدينة بعيون غربية وعيون شرقية».

أورهان باموق، **إسطنبول الذكريات والمدينة**

«لا تحاول أن تقاوم التغيّرات التي تعترض سبيلك، ولا تقلق إذا قُلِبت حياتُك رأساً على عقِب، فكيف لكَ أن تعرِف أنّ الجانب الذي تعيشُ فيه أفضلُ من الجانب الذي سيأتي؟».

أليف شافاك

1

الحياة الجديدة

مكتبة
t.me/t_pdf

مساء الخامس من ديسمبر 2017

جموعٌ من البشر ينزلون من الطائرة ويعبرون الردهة المؤدّية إلى مدخل المطار. أصواتٌ تتعالى، حقائبُ طافحةٌ بالذكريات وخطواتٌ ضاجّةٌ بالاندفاع تسلكُ طريقَها نحو الحياة الجديدة. سارا جنباً إلى جنبٍ في وجوم. هي في كنزتِها الخضراء الصوفية وسروالِها الجينز وشعرها البنّي الناعم الذي يغطّي كتفيها، وهو في معطفه الأسود الطويل، واضعاً كفّيه في جيبَيه. رنَت إلى الجموعِ بعينَين متوجّستَين، ومشى هوَ بخُيلاء مَن انتصَر في معركةٍ حامية. لم ينظرا إلى بعضِهما. كأنّ بينهما حاجزاً غير مرئيّ لا يستطيعان تجاوزه أو كسره، فتعوّدا عليه وعلى تلك المسافةِ التي تفصِلهما وهما يسيران في متاهاتِ الحياة.

وها هي إسطنبول أمامهما الآن، تختالُ في أضوائها ووعودِها بالسعادةِ والحرّية والنجاح. إسطنبول التي ما فتِئت تمرّ في خيالِ خالد مِثلَ حلمٍ جميلٍ مستحيل، وفي رأسِ إيمان مجهولةً وغامضةً ومخيفة مثلَ كابوس. أرسَل زفرةً من الأعماق كأنّه حفّار آبار عثرَ على الماء أخيراً بعد سنواتٍ من التنقيب، وظلّت أنفاسُها محبوسةً في حلقِها، محمومةً ومتوجّسة.

ها هما يحُطّان بقلبَيهِما المتعبَين على أرض هذه المدينة الشاسعة والبرّاقة، علّهما يعقِدان السلام مع حياتِهما القديمة التي تركاها

وراءهما في بلدِهما. حياتهما التي تتراءى لهما الآن مظلمةً ومخنوقةً كقبو. سيشقّان الطريق بكلّ ما أوتيا من قوةٍ وأمل لينسيا الحياة القديمة ويدخلا هذا الباب المُشرَع أمامهما، علّهما يبدآن من جديد.

لم تكن تعرف ما الذي يدور برأسه، ولا كان هو قادراً على تحديد الأفكار التي تتمايلُ داخل رأسِها. شخصان يجهل بعضهما بعضاً تماماً، كما لو أنّهما يلتقيان للمرّة الأولى هذا المساء. داخل رأسه سماءٌ شاسعة لا يشوبها غيم، وداخل رأسِها حديقةٌ متوحّشة ومُغلَقة. وحين لمَعت أضواءُ إسطنبول في عيونهما وهما يقتربانِ من بوابة المطار الكبيرة، فكّرَ خالد في البوسفور وفي النوارس التي تزيّن زرقة السّماء فوقه. أمّا إيمان، فتخيّلت نفسَها تسيرُ بين أشجار الأكاسيا والكستناء والزيزفون السامقة التي لطالما تناهت إليها رائحتُها مع كلّ حركةِ رياح في الروايات التركية.

كان المطرُ يهبطُ غزيراً حينَ خرجا من بوّابةِ المطارِ، تتقدّمُهما خمسُ فتياتٍ ممتلئات الأجساد بشعورٍ مصبوغةٍ بالأشقر. كانت أيامهما في المغرب متشابهةً مثل هؤلاء الفتيات تماماً، تنزّ منها رائحةُ القُبحِ والابتذال. وها هي إسطنبول أمامهما شامخةً، فسيحة وواضحة المعالم، تمدّ يدَها لهما بإلحاحٍ ممزوجٍ بالحنوّ، فيخطوان نحوَها بفضول ظاهرٍ في عيونهما. وحينَ سارت بهما سيّارةُ الأجرة الصفراء اللون نحوَ الفندق عابرةً شوارع المدينة وأزقّتها الغامضة، تحوّلت حياتُهما الماضية إلى طيفٍ بعيد.

ولكنْ، كيف وصلا إلى هنا؟ وهل يمكنُ محوُ كلّ الذي مضى؟ تلك مشكلةٌ أخرى. ما يصبوان إليه الآن هو أن تتشرّب مسامّهما هذه الحياةَ الجديدة، أن ينخرطا فيها حتى ينسيا طريقَ العودة، أن يذيبا صخور السّخطِ الجاثمة على صدريهما، العالقة في حلقيهما على شكلِ غُصَص. وبدا لهما مبنى الفندقِ كبيراً ومختلفاً. ارتعشت إيمان وهما

يدلفان إلى المصعد. اتّكأت على سوره وتطلّعت إلى زوجِها لأول مرّةٍ منذ وصولِهما، أطلقت زفرةً طويلة ثمّ قالت:

- وأخيراً وصلنا.

تمتم خالد باسماً:

- ما زال الطريق طويلاً أمامنا.

2

قُبلة في شارع الاستقلال

كانَ أغربَ شعورٍ اختبرته إيمان في حياتِها كلّها. مزيجٌ عجيبٌ من الدهشة والرغبة والخوف والحزن. بعينَين جاحظتَين محمرّتَين، نظرَتْ مباشرةً في عينَيّ كِنان الذي قبّلته للتو. نبضَ قلبُها بقوة وهي تشعرُ مجدّداً بإحساس التواجد في الشارع. كأنّها كانت في حلمٍ لذيذ لم تستيقظ منه إلّا حين مرّت درّاجةٌ ناريةٌ على مقربةٍ منها، فأسقطَها ضجيجُها القويّ من سماء أحلامِها لترتطِم بأرض الواقع. حينها، أصبحَ الإحساسُ الغالب وسط ذلك المزيج كلّه من المشاعر هو الخوف. وأخذَ هذا الخوفُ صيغةَ برد. بردٌ تولّد من أصابع قدميها، ثمّ صعِد إلى جسمها كلّه. وحين وصَل إلى رأسِها، ارتعشت والتفتتْ يمنةً ويسرة في حركتَين سريعتَين، لتطمئنّ أنّ أحداً لم يرَها.

ومع ذلك، لم يكن من الممكنِ لإيمان أن تعرِف إذا كان أحدٌ قد رآها أم لا، فالقُبلة استمرّت أكثر من عشر دقائقَ بقليل حسب تقديرِها. عشرُ دقائق، فقط، كانت كافيةً لتحصُل أحداثٌ كثيرةٌ مهمّة في العالم. طوال العشرِ دقائق هذه، ماتَ الآلافُ من الأشخاص، ووُلد الآلاف، وتزوّج الملايين من النّاس، وتطلّق المئات، وأخِذت قراراتٌ سياسية تتعلّق بدولٍ وشعوبٍ بأكملها.

لكنّ زمنَ القُبلةِ يختلف عن الزّمن العادي. طمأنتْ نفسَها. عشرُ دقائق في زمنِ القبلة قد لا تُساوي سوى بضعِ ثوانٍ في الزّمن العادي.

إنّ صدقَ القُبلة، واحتواءها للوجودِ كلّه، واستيعابَها للماضي والحاضر والمستقبل، هي المقوّمات التي تجعلُ الشعورَ بالزّمن خلالها مختلفاً عن الواقع. ومع ذلك، لم تذهب رعشةُ الخوف عن جسدِها.

كانت تلكَ القُبلة أجملَ قُبلةٍ في حياتها على الإطلاق، نوعاً من الانفصال التامّ عن العالم الخارجي. أدركت هذا في اللَّحظة التي مرّت فيها الدرّاجة النّارية بقربِها بسرعةٍ خاطفة، ونظرتْ إلى عينَيّ كِنان. هبّت ريحٌ قوية حملت إليها أصواتَ المارّة والباعة المتجوّلين والسّيارات، وروائحَ الحلويات الشرقية والشاورما والبطاطس المقلية. لم تعرِف إن كانت رياحاً حقيقةً أم مجرّد هبوبٍ قويّ للواقع أخرجَ دماغها من أحلامه، لكنّ جسدَها ارتعش على أيّ حال.

واهنةَ القوى، أسندت ظهرَها إلى حائطِ محلّ Koton للملابس، لتسترجِع أنفاسَها، وتبتعد قليلاً عن كِنان الذي كان لا يزال ينظر إليها باشتهاء وحبّ. تنفّست عميقاً وهي تُحاول الخروجَ من حالةِ الدّوخة الوجودية التي أصابتها جرّاء القبلة، وإدراكَ الزمن من جديد: السّبت الموافق للخامس من مايو 2019، السّاعةُ الثالثة بعد الظهر في الزّمن الذي اتّفق عليه البشر، وساعةُ الخوف في زمنِ مشاعرِها.

لم يخطُر على بالِها، طوال كلّ هذا الوقتِ الذي أصبحت تلتقي فيه هذا الشابّ التركي في شارع الاستقلال، أطول وأعجّ شارعٍ بمدينة إسطنبول، حيث يزوره حوالي ثلاثةُ ملايين شخص من جميع أنحاء العالم يومياً، أنّ زوجَها يمكن أن يضبطَها يوماً متلبّسةً بخيانته.

3

بداياتُ الحبّ الحُلوة

مارس 2011

أعدّت إيمان شرائحَ السلمون بالثوم والزعتر، مع سلطةِ خضار. وضعتِ الأطباق على الطاولة المزيّنةِ بالشموع. وبخطواتٍ خفيفة، توجّهت إلى غرفة النّوم. كأنّها لا تمشي فقط، بل ترقص الباليه. ارتدت فستاناً أسودَ يُظهر مفاتنها، وزيّنت وجهها بمساحيق التجميل، مغطّيةً بذلك آثارَ البثور القديمة، والدوائر السوداء تحت عينَيها، وتلك الندبة الصغيرة التي خلّفها سقوطُها على عظمِ أنفِها ذات يومٍ من أيّام طفولتها البعيدة.

بنفسِ الخطوات الرّاقصة، عادت إلى البهو، وفتحتْ، بحماس، قنّينة نبيذ أبيض.

الحِفاظ على قلبِ الرّجل يستدعي بيتاً مُفعَماً بروائح الطّعام اللذيذة والمختلفة. لذلك تحرِص إيمان، كلّ مساء قبلَ عودةِ زوجِها من عملِه، على إعداد طبقٍ جديد للعشاء. تتنوّع الأطباق بين شرائح لحم مقليّ مع الخضار المسلوقة، وطاجين الدجاج مع البطاطس المقلية، والسّمك المطبوخ في الفرن، وطاجين اللَّحم بالبرقوق، وغيرِها من الأطباق التي يتطلّب إعدادها وقتاً طويلاً. لكنّ إيمان تستطيعُ الوقوفَ في المطبخِ لساعاتٍ متتالية، من دون ملل أو تعب، مستمدّةً قوتَها من تخيُّلِ درجةِ استمتاع زوجِها بالأكل، وثنائه على موهِبتها العظيمة في الطبخ.

في تمامِ السّابعة والنّصف من مساء كلّ يوم، تشعلُ إيمان آخرَ شمعةٍ على الطاولة. تتّجه نحو النافذة، لتُشاهِد زوجَها وهو قادمٌ إلى البيت. تبتسمُ لانعكاسِ جسدِها في زجاج النافذة. وكلّ مساء، منذ سنتَين، تفعلُ الشيء نفسَه بلا كلل. ترمي بصرَها إلى الشارع، فتراه قادماً بخطواتٍ سريعة، متأبّطاً حقيبةً بها حاسوبه المحمول. تُشير له بيدِها وهي تبتسمُ بسعادة كاشفةً عن أسنانِها البيضاء المتراصّة بانتظام.

ومنذ سنتَين، لم يتغيّر تفصيلٌ واحدٌ في هذا المشهد. بعدَ أن ترتدي الفستان المثير، وتضع مساحيق التجميل، وتنتعلَ الكعبَ العالي، وتسرّح شعرَها في كعكة كأنّها ذاهبةٌ لحضور حفل فاخر، تمضغُ علكةً بطعمِ الخوخ ليحصل فمُها على رائحةٍ وطعمٍ لذيذَين. وبعدَ أن تومضَ آخر شمعةٍ على الطاولة، تمشي خمسَ خطواتٍ نحو النافذة. خمس خطواتٍ بلا زيادة ولا نُقصان. تكشِف له عن أسنانِها البيضاء. تلفِظ علكة الخوخ في القمامة قبل أن تفتح له الباب. تتوهّج عيناها وهي تستقبله بالأحضان المَلآنة بالعشق والحنان والدفء. يتشمّم عُنقها، في كلّ مرّةٍ، بنفس الاشتهاء، مبدياً إعجابه برائحةِ عطرها. تردّ عليه بابتسامة. ذلك النوع من الابتسامات التي تنمّ عن السّعادة الخالصة، فتخرج على شكل ضحكاتٍ لها صوت. وحتى عندما لا تبتسم بصوتٍ مرتفع، كان زوجها يستطيع سماع صوتِ ابتساماتِها النابعة من أعماقِ مدغدغةٍ بالعشق.

يرتمي خالد على الأريكة. بأناقة، تمدّ له كأس نبيذ. يقبّلها بعمقٍ في شفتيها قبلَ أن يرتشفَ من الكأس، مُصدراً تنهيداتٍ طويلة وعميقة ومتتابعة، كأنّما يتخلّصُ من كلّ التّعب الذي شُحِن به جسدُه طوال اليوم.

في شقّتهما الصّغيرة الواقعةِ في الطابق الخامس من مبنى مطلّ على ساحةِ الأمم المتّحدة بالدار البيضاء، يتناولان العشاء في جوٍّ لا

يشوبه إلّا الضحك وكلماتُ الحبّ والغزل، بينما تتناهى إلى سمعَيهما من الخارج أصواتُ المتظاهرين المطالبين بالعدالة والكرامة وإسقاط الفساد.

وبينما كانت الاحتجاجاتُ المطالبة بالتغيير في المغرب في أوجِ اشتعالها، والأحداثُ تتسارع في كلّ بلدان شمال أفريقيا والشرق الأوسط، وكلّ شيءٍ يتغيّر بسرعةٍ خاطفة: تُسقَط أنظمة، ويُقتَل رؤساء، ويصعد آخرون إلى الحكم، ويموت مواطنون، وتُشعَل حرائق في كلّ مكان، ظلّ عالمُ إيمان وخالد ثابتاً في مكانِه، وحتى عندما يتحرّك قليلاً، لا يتجاوز ذلك حركةَ فقاعةٍ هادئة في الهواء. كانا مختبئَين في فقاعةِ عشقِهما، غير عابئين بأيّ شيء يحدث حولَهما.

كانت إيمان في الثانية والعشرين، وكان خالِد في السادسة والعشرين. زوجان شابّان يحبّان بعضَهما بجنون، ويعشقان حياتَهما معاً، بكلّ تفاصيلها المتكرّرة.

وإذا كان القلقُ مكوّناً أساسياً من مكوّنات الحياة، كما الفرح والحزن والخوف، فإنّ القلقَ الوحيد الذي كان يراود إيمان هو أن يتأخّر خالد عن البيتِ بدقائق، فتضطرّ إلى إعادة رسمِ الكحلِ في عينيها مرّةً ثانية. ينبغي أن يكون كلّ شيءٍ مثالياً كما أرادت دائماً، غير مكترثةٍ لفكرة أنّ الرجال لا يُلاحظون الفروق الصغيرة ولا ينتبهون للتفاصيل. أمّا قلقُ خالد الوحيد، فيتمثّل في الصعود إلى منصبٍ أعلى في العمل. ما عدا ذلك، لم يكن يشوبُ حياةَ الزوجَين الهادئة قلقٌ آخر من أيّ نوعٍ كان. كأنّ الواحدَ منهما تولّد عن الآخر، وخرجَ إلى العالم منه، كانا متأكّدَين أنّهما لن يفترقا أبداً، ولو ذهبا إلى نهاية العالم.

4

رفوف الذاكرة المغبّرة

من نافذة غرفتِهما الواقعةِ في الطابق السّادس من الفندق، شاهدت إيمان نُدفَ الثلج وهي تتساقط، وانبهرت بأضواء مدينةِ إسطنبول المختلفة الألوان، التي زيّنت الظلمة وجعلت منها مشهداً احتفالياً رائعاً. لم يسبِق لها أن رأت مثل هذه الألوان في كلّ المدنِ التي عاشت فيها وزارتْها في المغرب. استندت إلى زجاج النافذة وهي تفكّر في ما ينتظرهما خلال حياتِهما في هذه المدينة، وفي الظّلمةِ القابعةِ وراء كلّ هذه الألوان البهيجة، فجثَم عليها الحزن، وتبخّر انبهارُها.

الاستمتاعُ بالأشياء ملَكة. وإيمان لم تكن من الأشخاصِ الذين يتمتّعون بهذه الملَكة. منذ طفولتِها، اعتادت على التفكير في تبِعات كلّ ما تقومُ به، وفي الحزنِ الكامن وراء الفرَح، وفي الألمِ الذي ينتظرُها بعد البهجة، وفي البكاء الذي سيأتي بعد الضحك، وفي الكراهية التي تتبعُ الحبّ. لم تكنْ يوماً قادرةً على الاستمتاعِ الكامل بلحظةٍ جميلة، وكلّما شعرتْ أنّها تنساقُ وراءَ التلذّذ بنشوةٍ من نشواتِ الحياة، سُرعانَ ما يُفرِز دماغها هرموناتِ الاكتئاب، فتنسحبُ من الحاضر، لتقبع وحيدةً في زاوية ذاكرتِها المظلمة.

لم تستطِع إيمان وهي تستندُ إلى زجاج النافذة، وتنظرُ إلى انعكاسِ زوجِها فيه، أن تتوقّفَ عن المقارنة. فهي ترى الآن ألوان إسطنبول، لكنّ ذاكرتَها تعرِض لها صوَر الدار البيضاء الرمادية. وهي الآن تشعرُ

بالدفء بينما تتفرّج على نُدفِ الثلج المتساقط في الخارج، لكنّ ذاكرتَها تُعيد لها مشاهِد ارتجافها من البردِ في المغرب، في الوقتِ الذي ترتدي فيه سروالَين، وثلاث سترات، وزوجين من الجواربِ مرّةً واحدة. وهي الآن في مدينةٍ جديدة، حيثُ يمكنها اختبارُ الكثير من التجارب المختلفة، لكنّها، مع ذلك، لا تفكّر إلّا في الحياةِ القديمة التي تركتْ وراءها، وفي ذكرياتِ السأم والملل التي تمرّ في دماغها بالعرضِ البطيء.

استلقَت على السّرير مغمضةً عينَيها، فترامى شعرُها البنّي الناعم والكثيف مغطّياً مساحةً كبيرةً من غطاءِ السّرير الأبيض. نظرَ خالد، بحياد، إلى ما أصبحت عليه المرأةُ التي أحبّها ذاتَ يوم، ثمّ استلقى إلى جانبِها، وأغمضَ عينَيه أيضاً. كانا متعبَين من السّفر الطويل، ليسَ من بلدٍ إلى آخرَ فقط، بل من حياةٍ إلى أخرى، ومن زمنٍ إلى آخر. وفي غمرةِ الصمت المخيّم منذ وصولِهما، أخذَهما الموتُ الصغير في أحضانِه، لينقُلَهما إلى صباحِ الغد، حيثُ سيبدآن الحياةَ الجديدة.

كانت مدينة إسطنبول في نهاية العام الذي جاءَ فيه خالد وإيمان، قد امتلأت بالعرب من كلّ الجنسيات، وعلى رأسِها السوريون الذين فرّوا من ويلاتِ الحرب والدّمار، والمصريون الهاربون من النّظام وأحكامِه الثقيلة بالسّجن والإعدام، بالإضافة إلى عربٍ من جنسياتٍ أخرى ممن جاؤوا لتحسين أوضاعهم المعيشية، أو بحثاً عن فرصِ حياةٍ أفضل. لذلك، كانَ الزّوجان يلتفتان في كلّ مرّة، وهما يسيران في شوارع بشكتاش، عندَ سماعِهما جملةً بلهجةٍ مشرقية أو مغاربية، فيبدآن في تخيّل سيناريوهات حياةِ كلّ واحدٍ من هؤلاء الذين يتكلّمون بالعربية، وأسبابِ قدومه إلى إسطنبول. هزّ خالد كتفَيه في لا مبالاة عندما خمّنت إيمان أنّ المرأةَ الهزيلة التي مرّت أمامهما مرتديةً عباءةً سوداء، ومحاطةً بخمسة أطفال، قد تكون سوريةً فرّت من الحرب،

بعدما فقدت زوجها وتيتّم أبناؤها. وضحِكت إيمان عندما سمِعا امرأةً تصرخ بالدارجة المغربية طالبةً من زوجِها أن يحمِل عنها رضيعَها لبعض الوقت. وقالَ خالد إنّ المغربيات لن يسكتن عن الصّراخ والعويل حتى لو ذهبن إلى القمَر.

- هناك شخصٌ وراءنا يتحدّث بالمصرية على الهاتف.. أخمّن أنّه جاء ليبحث عن تركيةٍ جميلة للزواج.

ضحِك خالد على سذاجةِ زوجته، وقال:

- هل تعتقدين أنّ كلّ الرجال في كلّ شعوبِ العالم يبحثون عن الأجنبيات الجميلات مثل الرّجال المغاربة؟

خفَت حماسها، ورأى خالد ذلكَ في نظرتِها التي انطفأت فجأةً. أضاف:

- أؤكّد لكِ أنّ هذا فارٌّ من حكم قاسٍ بالسّجن أو الإعدام.. وفي الغالب، كانَ ينتمي إلى جماعةِ الإخوان المسلمين، لكنّه لم يعد كذلك الآن.

رمقتْه إيمان شزراً وقد شعرت مرّةً أخرى أنّها عديمة الفائدة، وأنّها لا تعرف أي شيءٍ مقارنةً مع زوجِها وطبقةِ الناس الذين تنتمي إليهم. لذلك، اختارت أن تكمل المسيرَ نحو بيتِهما الجديد بصمت.

مشى الزوجان نحو زقاق سنان باشا، حيث المبنى الذي استأجرا فيه شقّةً، عابرَين شوارع وأزقّة بشكتاش الضيّقة والمتداخلة، بمبانيها العتيقة والتاريخية ومقاهيها ومحلّاتها ومطاعمها الكثيرة. كانت المنطقةُ تعجّ بالبشر. شبابٌ كُثر. طلبة جامعيون. عشّاق يسيرون بسلام ممسكين بأيدي بعضهم البعض، منهم من يتوقّفون أحياناً ليغرقوا في قُبَلٍ طويلة، غير مكترثين لأيّ شيء. كان رأسُ إيمان لا يتوقّف عن الحركة. تلتفتُ في كلّ لحظة لتحدّق في هؤلاء العشاق باستغراب غير مستوعبةٍ لما يحصل حولها. فالنّاس هنا لا يخافون من أن يُلقى القبضُ

عليهم بسببِ قبلة، ويستطيعون السّير في الشارع دون أن يشعروا بعيونٍ جاحظة تخترق أجسادَهم وحركاتِهم. أمسكت بيدِ خالد، ليسَ لأنّ المشاعر دفعتها إلى فعلِ ذلك، بل لأنّها أرادت أن تُمسِك بيده دون أن تشعر أنّها تقترفُ خطأ.

كانت الشقّة التي استأجراها منذ ثلاثةِ أيّام، تحتوي على غرفتَين صغيرتَين، مطبخ، حمّام واسع وشرفة. اختارا استئجارها مفروشةً في البداية، حتى يتأكّدا من رغبتهما في الاستقرار في المكان. رتّبا أغراضهما واقتنيا مستلزماتِ البيت بحماس كبير. كان على إيمان أن تقضي أسبوعاً فقط في إسطنبول حتى يتحوّل وحشُ الخوف داخلها إلى أرنبٍ ينطّ من الفرح والحماس والرغبة في الاستكشاف، كأنّ هذا البلد فتح عيونَها على الحياة الحقيقية، التي لم تكن تعلمُ بوجودِها حين كانت في المغرب. ولذلك، بدأت، بعد أسبوعٍ، في ارتداء التنانير القصيرة، التي لم يكن ممكناً ارتداؤها في بلدِها، والخروج للجلوسِ في شرفاتِ المقاهي وحدها، دونَ أن تخترقها نظرةُ رجلٍ شهوانية أو نظرةُ امرأةٍ مستنكرة.

وإذا كانت النساء في إسطنبول يستطعن السّيرَ في الشارع أو الجلوس في المقاهي والمطاعم لوحدهنّ دون حتى أن يلاحظَ وجودهنّ، فإنّهن في الدار البيضاء لا يمكن أن يتجاوزن عتباتِ بيوتهنّ لوحدهنّ دون أن يرغب أحدٌ في التعرّف إليهنّ، ويضطررن، في أحيانٍ كثيرة، إلى أن يقلن إنهنّ متزوّجات أو مخطوبات، ليتخلّصن من الملاحقة.

طوال هذا الأسبوع، استطاعت إيمان أن تنام مثلَ طفلٍ تعب من الرّكض واللعب طوال اليوم. نامت كثيراً وبعمق. منذ سنوات، لم تنعم بمثل هذا النوم الذي تجدُ نفسَها، عند الاستيقاظ منه، في نفس الوضعية التي نامَت عليها.

وقبلَ سنوات، كانت إيمان تتقلّبُ كثيراً في الفراش، وتفكّر كثيراً قبل أن يحمِلَها النّوم إلى عوالمه المليئة بالكوابيس، فتستيقظُ متعبةً، كأنّها ركضت وسبحت المسافةَ كلها من الدار البيضاء إلى إسطنبول.

أمّا خالد، فعلى العكسِ من زوجته، لم يعِرِ إسطنبول أيّ اهتمام، لأنّ تركيزه كان منكبّاً على العملِ فقط. وإذا كان سيحقّق حلمه في الترقّي الوظيفي، فإنّه لا يهتمّ إن كان ذلك في إسطنبول أو الدار البيضاء أو حتى في الصومال أو الموزمبيق.

* * *

كان الثلجُ يتساقطُ في الخارج بكثافة حين كان خالد يُعدّل ربطةَ عُنقه استعداداً لأول يومٍ في العمل. ألقى نظرةً أخيرة على هندامه في المرآة، وابتسم في نشوةٍ وسعادة.

لم يكن هناك ما يمكنُ أن يعكّر صفو سعادتِه سوى زوجته المستلقية على السّرير محدّقةً في السّقف. لماذا لا تهتمّ لشأنه؟ لماذا لا تبدي أيّ مجاملةٍ حتى لو كانت كاذبةً، بخصوص بذلته الجديدة؟

كانت تتثاءب بملل، دون أن تهتمّ لأمره أو تفكّر في التفوه بكلمةِ تشجيعٍ واحدة، لأنّها كانت تفكّر في ما ستفعله هذا اليوم، وهو الشيء الذي لم تفكّر فيه أبداً في حياتِها السابقة.

تخلّصت من الغطاء دافعةً إياه برجلَيها النحيفتَين، ونهضت بكسلٍ متوجّهةً نحو خزانة الملابس. ظلّ واقفاً ينظر إلى انعكاس جسدها في المرآة، وإلى ثوب النّومِ الشفاف الذي ترتديه. كانت جميلة، لكنّه لم يجدْها مثيرةً أبداً، عكسَ ما كان يبدو له في بداياتِ اشتعال حبّهما، وخاصّةً في اللحظات الحميمية. كان هناك شيءٌ ما ينقصُ أنوثتها في تلك اللَّحظة بالذات، وهو عدم الاكتراث له. تحرّكَ نحو الباب وهو

يحاول إبعادَ هذه الفكرة عن رأسه، لكنّه لم يستطع، إذ تابعت الفكرةُ حياتَها في دماغه، وتناسلت بشكلٍ رهيب.

من الطبيعي أن يغادِر الشغفُ حياةَ زوجَين بعد مرور ثماني سنواتٍ من العلاقة والعيشِ تحت سقفٍ واحد، وأن يخفُت وهجُ اشتهاء كلٍّ منهما للآخر. هذا ما يحصل دائماً في قصص الحبّ، حتى العظيمة منها. ينخفضُ منسوب الشهوة واللهفة والعشق، ويحلّ محلّه مللٌ رهيب وطويل وبلا نهاية. نبضَ قلبه بعنف وهو يفكّر في هذا، لكنّ ما كان متأكّداً منه هو أنّه لن يخونها، حتى لو عرضت عليه مونيكا بيلوتشي جسدَها. وهذه ليست مسألةَ حبّ، بقدرِ ما هي مسألة وعدٍ صادق أراد أن يبقى وفياً له إلى آخر يومٍ في حياته.

لم يمارسا الحبّ منذ أن قدِما إلى إسطنبول. لم يطلب هو ذلك، ولا اهتمّت هي للأمر. ارتعش قلبُه مرّةً أخرى. هناك شيءٌ ما يتغيّر في حياتهما وعلاقتهما، ولا يستطيع تحديدَ بداية هذا التغيّر بالضبط. تحرّك من أمامِ المرآة ومشى نحوها ببطء، باحثاً عن الدفء. احتضن جسدَها من الخلف في حركةٍ فجائية وشمَّ رقبتَها بقوة وعنف كأنّما يحاول استرجاعها. لكنّ الأشياء التي تذهبُ في الحبّ لا تعودُ أبداً. أطلقت ضحكةً قصيرة وهي تقول بدلال مصطنَع «أخفتَني». ثمّ شعرَ بجسدِها ينفلتُ منه رويداً رويداً، كما تنفلتُ الأيّام من عُمر الإنسان.

ظلّت واقفةً قليلاً، وهي تفكّر في أن تطلب منه أن يتركها لوحدها، أو تكتفي بالخروج من الغرفة دون أن تقول له أيّ شيء، لكنّها في النهاية، التفتَت نحوه، ومرّرت كفّها على بذلته في حركةٍ سريعة، كأنّها تنفض عنها شيئاً ما، ثمّ قالت وقد افترّ ثغرها على ابتسامة مصطنعة:

- بذلة جميلة!

وفي اللحظةِ التي التقت فيها نظرتَاهما، عادَ به الزّمن سنتَين إلى

الوراء. رآها في شريطِ ذكرياته شاحبةً وحزينة وهي تمشي بجواره عائدَين إلى البيت، بينما كان يرشقها بكلامٍ جارح. أرادَ أن يوقِف الشريطَ هنا، لكنّ المشهد تدفّق كاملاً إلى رأسِه. في تلك الليلة، قبلَ سنتين، انهارت إيمان لأول مرّة. سقطت على الأرض في الشارع وهي تصرخ حتى فقدت حنجرتها صوتَها: «أنا لستُ أمّك، ولن أكون أمّك أبداً».

تشبه الذاكرةُ دولاباً كبيراً، مقسّماً إلى رفوفٍ مختلفة الأحجام. تُرتّب الذكريات على هذه الرفوف حسبَ أهمّيتها وقيمتها واستعمالاتها. ومثلما للخزانات رفوفٌ نضع فيها أشياء في متناول اليد، وأخرى نخبّئ فيها الأشياء التي لا نستعملها، فإنّ الذاكرةَ أيضاً تخضع للتقسيمات نفسِها. نضعُ الذكرياتِ الجميلة في المتناول لنكون قادرين على استرجاعها في كلّ مرّةٍ نكون في حاجةٍ إلى ذلك، ونخبّئ الذكريات السيّئة في الرفوف البعيدةِ عن المتناول، وفي الأدراجِ المغلقة. خبّأ خالد هذه الذكرى في زاوية بعيدة من خزانة ذاكرته طوال سنتَين، لكنّ نبشه باستمرار في هذه الخزانة بحثاً عن شيءٍ ذي قيمة، أدّى إلى سقوطِ هذه الذكرى الثقيلة والمؤلمة.

لمّ الذكرى بسرعة، وأرجَعها إلى ذلك الدرج المُغلَق. تمنّت له زوجته حظاً سعيداً وهي تخرج من الغرفة. توجّهت إلى البهو، حيث اقتعدت كرسياً قربَ النافذة. أشعلت سيجارةً من نوع مارلبورو لايت، وراحت تتفرّج على نُدَف الثلج المتساقط بعينَين فارغتَين.

مكتبة
t.me/t_pdf

5

كلّ البِدايات تستدعي الخوف

صباح الخامس من ديسمبر 2017

بخطواتٍ واهنة، مشتْ إيمان بجوار خالد، مبتعدَين عن الشقّة التي قضيا فيها ثمانية أعوامٍ ونصف. كان المطرُ غزيراً، ومع ذلك لم يستطيعا الرّكضَ وهما يتوجّهان نحو الشارع للبحثِ عن سيّارة أجرة تقلّهما إلى محطة القطار. كأنّ الحقيبتَين المتوسّطتَي الحجم اللتين كانا يجرّانهما مثقلتان بكلّ العمرِ الذي قضياه في المغرب.

كان شعرُ إيمان المنسدل على كتفَيها الهزيلَين قد تبلّل بالكامل حين وصلا. تخلّص خالد من معطفه وهما يلِجان البوّابة الكبيرة للمطار وقد تصاعدت حرارةُ الحماسّ والتوق إلى إسطنبول في جسدِه. يستدعي بدء حياةٍ جديدة في بلدٍ جديد التخلّص من كلّ الأشياء القديمة، واقتناء أخرى جديدة مكانها، لذلك قرّرا الرحيل وهما متخفِّفان من كلّ شيء، لا يحملان معهما سوى بعضِ الملابس والأحذية. تخلّصا بلا عاطفة من ثيابِهما التي اشترياها طوال حياتِهما في المغرب، وباعا الأثاث المنزليّ الذي اقتنياه بعنايةٍ ودقّة خلال حياتِهما الزوجية. أمّا الأشياء التي لم تُبَع، بسبب ضيقِ الوقت، فقد منحاها لحارس المبنى الذي كانا يسكنان فيه.

بكتْ إيمان قليلاً حين كانا يسلّمان مفتاح الشقّة لصاحبها، لكنّها

سرعان ما اطمأنّت، وابتسمت بسعادة، حين رأت صوَر إسطنبول على الإنترنت، وسمِعت نبرة خالد المتحمّسة التي كانت تخبرها أنّ كلّ شيءٍ سيكون على ما يُرام، وأحسن.

لكنّ مزاجها المتقلّب مثل مزاج امرأةٍ في مرحلة انقطاع الطمث، ثارَ فجأةً وهما يمرّران أغراضهما من المراقبةِ الأمنية، إذ اقشعرّ جِلدُها من الخوف، أصابتها على إثره نوبةُ بكاءٍ جديدة. مسحَ خالد دموعَها، وضمّها إليه بحنان، كما كان يفعلُ قبل سنوات حين كانت تشتدّ عليها أزماتُ الخوف غير المبرَّر من كل شيءٍ وأيّ شيء. لم يعد خالد يضمّ زوجته في مثل هذه اللحظات منذ مدّةٍ طويلة، لا تستطيع إيمان تحديدَها بالضبط. وحين يكونان وحدَهما، أصبح يتظاهر بعدمِ رؤية الدموع في عينيها، وصارت لحظاتُ المواساة الوحيدة التي تحظى بها إيمان هي اللحظاتُ التي يكونان فيها في الخارجِ أمام النّاس، حيث يلعبُ خالد دورَ الزّوج الصالح الذي يحبّ زوجته ويهتمّ لأمرِها.

لا يمكن لأحدٍ رؤيةُ الزوجَين معاً دون أن تظهر عليه علامات الحسد. أمسكَ بيدِها وسارا معاً نحو جناح طائرتهما، والنظراتُ تتابِعهما من كلّ جانب، خاصّةً من طرفِ النساء اللواتي يرمقن إيمان شزراً كأنّما يقلن لها: «مَن تظنّين نفسكِ؟». لا تستطيعُ إيمان في مثل هذه اللحظات، إخفاءَ شعورِها بالمتعة، حين تراقبها عينا امرأةٍ مترهّلة الجسد وقبيحة الوجه، فتتمسّك بخالد أكثر فأكثر، كأنّها تقول لها: «هذا الرّجل لي وحدي»، فتتحوّل مشيتُها الثقيلةُ واليائسة فجأةً إلى مشيةِ طاووسٍ منتشٍ بنفسه.

عندما وصلا إلى جناح الخطوط التركية، كانت إيمان قد مسحت ما تبقّى من الدموع على وجهها. تقدّم خالد ليتسلّم تذكرتَيهما، وظلّت هي واقفةً غير بعيدٍ عنه، واضعةً يديها في جيبَيّ معطفِها، تراقبه وهو يقوم، كما دأبت العادة، بكلّ شيءٍ مكانَها.

في زمنٍ ضبابيّ مضى، لا تذكره إيمان جيّداً، كانت قمّة الرجولة والتهذيب والرومانسية والحبّ بالنّسبة إليها هي أن يفعَل زوجُها كلّ شيءٍ مكانَها. وإذا كانَ التفرّغ الكامل للزّوج وراحته وسعادتِه مهمّةَ المرأة، وطريقتَها للتعبير عن حبّها لزوجِها، فإنّ فتحَ الرجل لباب السيّارةِ بدلاً عن زوجته، وحملَ الحقيبة عنها، والتكلّف بقضاء الأغراض الإدارية عنها، والتنقّل لدفعِ الفواتير، وحملَ الأشياء الثقيلة، هي الطريقة التي يعبّر بها الرّجلُ عن حبّه وتقديره لشريكته.

وعندما كان خالد يفعلُ كلّ هذه الأشياء في ذلك الزّمن الضبابيّ، كانَ قلبُ إيمان يقفزُ فرحاً، وثقتُها بنفسِها تكبر وتنتفخُ وتتزايد، بل كانت تستمدّ قيمتَها من تصرّفاتِ زوجِها إزاءَها. لكنّ مرورَ ثماني سنواتٍ على العلاقة، جعلَ كلّ هذه الأشياء بلا معنى. تسرّب شعورٌ عارمٌ بالعبث واللاجدوى إلى داخلها، فامتلأت بالملل. تحوّل خالد إلى رجلٍ آليّ يتحرّك وِفقَ برمجةٍ معيّنة، وليسَ وِفق المشاعر والعواطف، وتحوّلت إيمان إلى دميةٍ، لا تتحرّك إلّا وفق رغباتِ خالد.

عابرةً بواباتِ المطار، مشتْ متأبّطةً ذراعَه بأناقة، بينما كان الخوف يعتصرُها. كأنّ مرورَ السنوات مع هذا الرّجل لم يكن يزيدُها معرفةً به، بلا جهلاً بهويته وأحلامه وطموحاته. رمقتْه بنظرةٍ فارغة معتقدةً أنّها اجتهدت ما يكفي لتصنّع الحنان. وجاهدَ هو على قدرِ المستطاع ليردّ عليها بابتسامةٍ ذات معنى، مطَمئِنةٍ على الأقلّ، لكنّ الاثنين لم يفلحا في إظهار أيّ نوعٍ من المشاعر.

كلّ البدايات تستدعي الخوف، وكلّ دخولٍ في أيّ معتركٍ جديد هو مدعاةٌ للقلق. الأشياءُ الجديدة هي أشياءُ لا نعرِفها بالضرورة، ونحنُ نخاف كلّ ما نجهله، لكنْ، بمجرّد ما نبدأ في التعرّف إلى عالمٍ ما، والتعوّد عليه، يتبخّر الخوف، وتحلّ الألفة مكانه. الجهلُ خوف، والمعرفةُ سكينة. تنفّست إيمان عميقاً لطردِ السّوداوية من عقلِها.

وعلى عكس إيمان التي تتمنّى لو تخطو إلى الوراء عِوَض التقدّم إلى الأمام، كان خالد يخطو مسافةَ خطوتين في كلّ خطوةٍ واحدة. هذا الرّجل الطويل ذو العينَين العسليتَين المتوهّجتَين، لطالما أحبّت إيمان حماسه وطموحه الكبيرَين، وتمنّت لو كانت تتمتّع أيضاً بهاتين الصّفتَين. ها هي تتأبّط ذراعَه الآن وتحاول الإسراع ليظلّا سائرين في نفسِ المستوى، ليلحقَ بحلمه الكبير، ويعانِقه. قالَ لها ذات مرّة إنّ الأحلامَ هاربة، وتحقيقها يستلزم الرّكض المستمرّ وراءها. وها هو قد وجدَ عملاً كمحرّر في موقع «العرب اليوم» الدولي، بعدَ أن كان صحافياً في موقعٍ محلّي مغربيّ. وهذه قفزةٌ نوعية في مساره المهنيّ، ستجعله يصِل إلى ما يصبو إليه: أن يتبوّأ منصبَ رئيس تحرير يوماً ما. وسترافقه هي في مغامرته هذه لتوفّر له كلّ الظروف المريحة، مثلَ أيّ زوجةٍ تنجز مهمّتها على أكمل وجه.

يبتسمُ لها بطريقةٍ ميكانيكية، كأنّه يؤدّي واجباً عسكرياً. كان خالد يكنّ لعمله حبّاً يفوق حبّه لنفسه وزوجته ووالدَيه وعائلته مجتمعين. وكان دائماً مستعدّاً للعملِ ليلَ نهار، بلا تعبٍ ولا شكوى، مستمدّاً طاقته من هذا الحبّ العظيم. يعملُ لساعاتٍ إضافية من دون مالٍ إضافي، لا يناقش رؤساءه في العمل، ولا يدافع عن أفكاره أمامهم، يُنفّذ كلّ ما يُطلَب منه بالحرف، يحلم كلّ يومٍ بالحصول على رضاهم، ويشعر بالانتشاء عندما يبتسمون له أو يثنون على عمله، ويصاب بالأرق عندما يغضبون منه. العملُ كان دائماً بالنسبة إلى خالد هو الحياة، والترقّي الوظيفي هو شيءٌ فوقَ الحياة. أمّا بالنسبة إلى إيمان، فخِدمة زوجِها كانت دائماً هي السعادة. ما بالُها متوجّسةً هكذا اليوم أكثر من أيّ وقتٍ مضى، منهارةً وغير قادرةٍ على الاستمرار في المشي إلى جانبه؟ تساءلتْ بينما كانا يلِجان البوّابة الخاصة بطائرتِهما المتّجهة إلى إسطنبول.

ومع ذلك، لم يكنْ خالد نموذج الزوج التقليدي، فهو لم يفرِض

على زوجته يوماً نوعاً معيّناً من اللباس، ولم يمنعها يوماً من الخروج أو العمل، ولم يشترط عليها البقاء في البيتِ لخِدمته، ولم يطلب منها يوماً أن تطبخ له، ولم يتزوّجها لتُنجب له الأطفال. كلّ ما فعَلته إيمان كان نابعاً من خيارها. هي التي قرّرت ألّا تلِج سوق العمل من أجل أن توفّر له ظروف الراحة، وهي التي اختارت أن تطبخ له كلّ يوم، وتنظّف ملابسه، وتعدّ له علبةَ طعامه التي يأخذها معه إلى العمل. كانت تفعل كلّ هذا برضى تامّ، وبحبّ. لكنّها بدأت تتساءل مؤخراً: ما فائدةُ عدم إيمانهما بتقسيم الأدوار بين النساء والرجال إذا كانت النتيجةُ في النهاية، واحدة؟

كان الزّوجان الشابّان، شأنُهما شأن فئةٍ واسعة من الطبقة المتوسّطة في المغرب، يؤمنان بأنّ الهدَف من المال الذي يجنيه خالد من العمل هو القدرةُ على توفير كلّ وسائلِ الراحة، مثل السّكن في شقّةٍ جميلة في حيٍّ نظيف، والخروجِ كلّ مساء جمعة للسّهر، وتناول العشاء في مطعمٍ راقٍ كلّ مساء سبت، والاحتفال بمناسباتٍ غربية كالكريسماس والهالوين ورأس السنة الميلادية. وكان هذا يُشعرهما بالتحرّر من وطأةِ التقاليد والعادات المغربية، ومن ذكرياتِ طفولتهما في كنف عائلتَين محافظتَين وفقيرتَين تكافحان من أجلِ لقمة العيش، ويعطيهما انطباعاً بأنهما يعيشان حياةً أوروبية. وكان هذا الارتقاء الاجتماعي، الذي تحلمُ به فئة واسعة من الشباب المغربي المتعلّم في القرن الحادي والعشرين، من ضمن الأسباب التي جعلت خالد يتمسّك بطموحه أكثر فأكثر، ويضحّي براحته من أجله، ويحلم بمغادرةِ بلدِه نحو بلدٍ أكثر تقدّماً، حيث سيحصل على دخلٍ أكبر بكثير ممّا يمكن أن يحلم به في المغرب.

بمجرّد ما اجتازَ خالد مقابلة العمل بنجاح، تراءتْ له إسطنبول شاسعةً ومفتوحة وقادرةً على استيعابِ طموحه. حَلُم ليلتَها بنفسِه داخلَ شقّةٍ كبيرة، لها شرفةٌ مطلّة على البحر، واستيقظَ من نومِه مبهوراً،

متفائلاً ومشحوناً بالطاقة. طاقةٌ ستمكّنه من أن يتسلّق جبلاً وهو يحملُ صخرةً على ظهره. حتى الموتُ أصبحَ يبدو تافهاً وضعيفاً أمام هذه الطاقة القادرة على بثّ حياةٍ خالدةٍ بداخله.

كبُر خالد وهو يحمِل حلمَ شراء شقّةٍ على كاهله، كما يحمل سيزيف الصخرةَ على ظهره، فدفعُ الإيجار كلّ شهر بالنسبة إليه، يشبه الإلقاء بالنّقود في القمامة. وبعدَ أن كان هذا الحلم بعيدَ المنال في وقتٍ مضى، صارَ الآن نُصبَ عينَيه، واضحاً مثلَ الحلم الذي رآه تلكَ الليلة.

«إذا أردتِ أن يتحقّق حلمٌ من أحلامِك، عليكِ بالتدرّب على تخيّل نفسِك في الوضعية التي ستكونين عليها بعدَ تحقيقه، وسيتحقّق بلا شكّ»، يقول لإيمان دائماً بثقة، وهو يرفعُ يديه كأنّما يلقي محاضرةً في التنمية الذاتية، متناسياً دورَ كلّ الجهد الذي يبذله في سبيل تحقيق حلمه.

«هل اقتنعتِ بكلامي الآن؟»، سألَها وهما جالسان في انتظار الطائرة. «الخيالُ وحدَه ليسَ كافياً»، ردّت من دون اكتراث، ثمّ انتبهت إلى خمسِ فتياتٍ جالساتٍ قبالتهما بشعورٍ مصبوغةٍ بالأشقر، لكنّهن ذواتُ بشرةٍ سمراء. على وجوههنّ طبقاتٌ سميكة من الماكياج. يمضغن العلكة ويتكلّمن بصوتٍ مرتفع. يرتدين سراويل جينز لاصقة، وكنزاتِ جِلد النّمر التي ترتديها في العادةِ ثلاثةُ أنواع من الفتيات: بعض النساء القادمات من أحياء شعبية في الدار البيضاء، عاملاتُ الجنس الرخيصات، واللواتي لسنَ عاملات جنس، لكنّهن يتصرّفن بنفسِ طريقة عاملات الجنس الرّخيصات.

شاردةَ الذهن، فكّرت إيمان وهي تنظر إلى الشقراوات المزيّفات المتشابهات: ماذا ستفعلُ هؤلاء الفتيات في تركيا يا ترى؟ وكيف استطعن توفير ثمنِ تذاكر الطائرة؟

شاردَ الذهن أيضاً، فكّر خالد وهو ينظر إلى الفراغ: كم سيلزمني من الوقت والعمل كي أستطيع شراء شقّةٍ تليق بي؟

أُصيب خالد بـ«عُقدةِ الشقّة» خلالَ طفولته المبكّرة، فقد عاش في كنفِ والدَين قضيا أربعين عاماً من حياتِهما واقفين في حجرات الدرس، ثمانية وعشرون عاماً منها قضياها في تسديد قرضٍ بنكيّ لشراء شقّةٍ تبلغ مساحتها ستين متراً فقط. وبسبب هذا القرض، عاشَ خالد طفولةً مرعبة بكلّ ما تحمله الكلمة من معنى.

كان خالد في الرّابعة من عمره حين قرّر والداه الحسمَ في موضوع الكراء، والحصولَ على قرضٍ بنكيّ، لأنّ «دفعَ مبلغٍ من المالِ كلّ شهر من أجل امتلاكِ شقّةٍ صغيرة بعد ثمانيةٍ وعشرين عاماً، يختلفُ بكثيرٍ عن دفعِ المبلغ نفسِه لمالك شقةٍ مستأجَرة»، تقولُ أمّه دائماً بهدوء وثقة وهي تحاول إقناعه بشراء بيت أيضاً، كما فعلتْ هي ووالده.

ولأنّ خالداً كان طفلاً هادئاً وصامتاً طوال الوقت وواسعَ الخيال ومعزولاً عن العالم الخارجيّ والأطفال الآخرين، فقد كان يقضي وقتَه في تصوّر أبشع السيناريوهات الممكنة في الحياة، خاصّةً في السّاعاتِ الثقيلة والبطيئة بعدَ الظهيرة، حين ينتهي والداه من الدّوام، أو في أيّامِ نهاية الأسبوع، التي تمرّ على هذا النّسَق: تشغّل الأمّ التلفاز، تركّز في الدقائق الأولى على مشاهدةِ المسلسل المكسيكيّ المدبلج بالعربية الفصحى، ثمّ تلتفتُ إلى زوجِها المستلقي على الكنبةِ، كأنّه نائم، لكنّه ليسَ نائماً في الحقيقة، وتقول له بنبرةٍ مفعمةٍ بالخوف: «لو مرِض أحدُنا وعجزَ عن العمل، ماذا سنفعلُ بقرضِ الشقة؟».

يفتحُ الأبُ عيناً واحدة، ينظر بريبة إلى ابنته الصغرى البالغةِ من العمر ثلاث سنوات وهي تقلّب بين يديها دميةً شعثاء الشعر، ثمّ إلى ابنه البالغ من العمر سبع سنواتٍ ونصف وهو يقوم بواجباتِه المنزليّة، ويهمس لزوجته: «لن نمرَض.. لا ينبغي أن نمرَض». كان خالد يتظاهر بالتركيز في كرّاسته، بينما يُطلِق العِنان لخيالِه الجامح. في تصوّره، البنكُ شخصٌ ينتمي إلى فصيلة البشر، وهو مالكُ البيت الذي يعيشون

فيه، بحيثُ يُدفع له مبلغٌ من المال كلّ شهر مقابل البقاء في الشقة، وإذا لم يُدفَع له ذلك المبلغ، سيُطرَدون من البيت كالحشرات. كان يتصوّر أمّه طريحةَ الفراش وغير قادرةٍ على العمل، والمالَ ينفد، والبنكَ يأتي شخصياً للقيام بمهمّة طردِهم. يتصوّر مشهداً طويلاً من البكاء والعويل بحرقة، ويتخيّلُ نفسَه شريداً في الشارع، مثلَ أولئك الأطفال متّسخي الوجوه والثياب الذين يبيعون الورد في ساحة الأمم المتحدة، والذين رآهم في المرّات القليلة التي خرجَ فيها برفقةِ أبيه. يتخيّل أمّه نائمةً على الرّصيف في ليلةٍ شتائية باردة، وأباه متكئاً في عتبةِ مبنى كبير غير آبهٍ بالمارّة. يتخيّل نفسه ضائعاً في شارعٍ ما، بينَ أشخاص لا يعرفهم. يتخيّل أمّه تتسوّلُ على الرّصيف حاملةً ابنتَها الشعثاء الشعر في حضنِها، فيشعرُ بالخوف. ترتعدُ يده التي تحاول خطّ كلمةٍ على الكرّاسة. يضغطُ على القلمِ بقوة لإيقاف اليدِ عن الارتجاف. يشحب. يضغطُ حتى يثقب الورقة. يُفسِد كلّ السطور التي خطّها من قبل بصعوبة. تتناهى إلى سمعِه أصواتٌ غير واضحة تشبه الأصواتَ التي يسمعُها في الأحلام. تردّد أمّه المتعبة بريبة: «كلّ شيءٍ بيد الله، لا أحدَ يعرف ماذا تخبّئ له الحياة». تصرخُ المرأة المكسيكية الجميلة المدعوة كاساندرا في التلفاز: «وما أدراني بالحبّ؟ وكيف أقولُ إنّني لا أحبّه؟ منذ طفولتي، قيلَ لي إنّني سأصبح زوجته في يومٍ ما، وأنا أتقبّل الأمر». يردّ عليها الرّجل الذي يرتدي قِناع بهلوان بهدوء: «هذا ليسَ حبّاً». تتساءلُ باستنكار: «أتعرِفُ أنتَ الحبّ؟ وقعتَ فيه؟».

تقولُ له أمّه بحزم: «ركّز في واجباتِك يا خالد». تتدلّى شفته السّفلى في حزنٍ ممزوجٍ بالخوف. تقول كاساندرا الجميلة بصوتٍ حنون: «أرجوك لا تحزنْ هكذا يا مهرّجي». يشخر أبوه. تصرخ أخته وهي ترمي الدّمية أرضاً في انزعاج. تختلطُ الأصواتُ والصور ببعضها في رأسِ خالد، ويكادُ قلبُه يتوقّف عن النبض.

هكذا قضى خالد طفولته خائفاً من التشرّد، وعندما كبُر قليلاً وبدأ يعي الأشياء من حولِه واكتشفَ أن البنك ليس شخصاً، تحوّل ذلك الخوفُ إلى حقدٍ على العالم كلّه، على والدَيه، والشقّة، والمبنى، وساكنة المبنى، والبنك، والمدرسة، والمال، والمتشرّدين في الشوارع، والمتسوّلين، والأطفال بائعي الورد، ودميةِ أخته الشعثاء الشعر، وكاساندرا، والمهرّج، والتلفاز، والكرّاسة. . .

ولأن الشقّة كانت تحتوي على غرفتَين صغيرتَين فقط، فإن خالداً قضى مراهقتَه كلّها وهو ينام على الكنبةِ في البهو، تاركاً الغرفةَ لأخته، ولذلك حقدَ على أخته أيضاً، وعلى الغرفة الصغيرة، وعلى الكنبة، وعلى مساحةِ الشقّة التي تبلغ ستّين متراً مربّعاً فقط.

عندما بلغَ الثامنة عشرة وانتقلَ إلى الجامعة، حقدَ خالد على الحِقد نفسه. كان ذلك حين سكبَ كلّ طاقةِ الغضب داخله في ضربِ الحائط بهاتفه المحمول الجديد، وندِم مباشرةً بعد ذلك. في تلك اللحظة بالذات، ذابَت كلّ مشاعرِ الكراهية في قلبِه، وأدرَك أن الغضبَ لا يحلّ أيّ شيء، وتحوّلت طاقة الحقد داخله، فجأةً، إلى رغبةٍ عارمةٍ في الدراسة والعمل والحلم بمستقبلٍ أفضل. ومنذ ذلك اليوم، لم تعد هناك قوةٌ أو سُلطةٌ في العالم يمكنها أن توقِفه عن البذل في سبيل أحلامِه.

عندما انتهى والداه من تسديد قرض الشقّة، كان خالد قد بلغَ الثانية والثلاثين. ذات صباح وقبلَ ثلاثةِ شهور، خرجَ من البيتِ كسيرَ الخاطر بعد شِجار طويلٍ ومتعب مع إيمان، بسببِ المِلح الزائد في عجّة البيض التي أعدّتها للفطور. قالَ لها إنّها تفعلُ ذلك عمداً، لأنّ مشاعرَها نحوه لم تعدْ كما كانت في البداية، ودافعت هي عن نفسِها أنّها تطبخ له الطّعام، كلّ يومٍ منذ ثماني سنواتٍ وثلاثة أشهر، بطريقةٍ مثالية، وأنّ الإنسان كائنٌ مجبولٌ على النّقص، ولا بدَّ أن يخطئ يوماً

ما في التقدير، وينسى أنّه وضعَ الملح في الطعام، فيضعَه مرّةً ثانية. وبعدَ أخذٍ وردّ، تحوّل الجِدالُ حول الملح إلى نقاشٍ عميق حول الحبّ والعواطف، ثمّ إلى شِجار لمدّة ساعتَين. متعباً ويائساً، خرج خالد من البيت، وصفقَ الباب خلفه بعنف. تمشّى طويلاً في شوارعِ المدينة، ولم يدرِ كيف حملته قدَماه إلى بيتِ والدَيه. دلفَ إلى الشقّة الصغيرة مهموماً، قبّل يدَ أبيه المنمّشة، ورأسَ أمّه الذي تتدلّى منه جبهةٌ متغضّنة، ثمّ جلسَ بجوارِها.

كانت الحاجّة زْهور، التي لم تحجّ إلى بيتِ الله الحرام أبداً، هي الوحيدة في العالم التي تقدِر على امتصاص غضبِ ابنها، وسكبِ الثقة بالنّفس مكانه. كلّما تشاجرَ مع زوجته، وراحَ يشتكي لها، تُردّد على سمعه: «ألف امرأةٍ تتمنّاك»، فينفَشّ همّه في الحال.

كانت تشاهِد مسلسل «سامحيني» التركي مدبلجاً بالدارجة المغربية، وتقشّر البطاطس ببطء شديد. ظلّ خالد صامتاً لبرهة، بينما هي مركّزةٌ نظرَها على الشاشة.

قالت منار التي ضبطت حبيبها مع امرأةٍ أخرى في بيتِه:

- كمال؟ ماذا تفعلُ هنا؟

قالَ كمال مصدوماً:

- منار، أرجوكِ لا تفهميني خطأً، أقسِم لك بالله أنني لم أخنكِ!

بعدَ صمتٍ قصير مشوّبٍ بموسيقى حزينة، قالت منار وقد دمعَت عيناها:

- كمال، كنتُ قلقةً جداً عليكَ ليلة البارحة.

رمقَها كمال بنظرةٍ متأثرة، ثمّ عانقَها بحنان، بينما أغمضتْ هي عينيها في حضنِه. أمّا المرأةُ الأخرى، فقد ظلّت متسمّرةً في مكانِها من الصّدمة، لأنّها لم تحقّق هدفَها القذِر في فصلِ الحبيبَين عن بعضِهما.

عندما رأتْ زهور عِناق الحبيبَين، تنهّدت بعمق. كانت يدُها قد

توقّفت عن تقشير حبّة البطاطس. وبعدَ انتهاء المشهد، وضعتِ الحبّة على الطاولة، والتفتت إلى ابنِها أخيراً.

راحت تطرح سؤالاً تلوَ الآخر دون انتظار الجواب. سألته عن أحواله وأحوالِ تلك الأفعى السامّة التي تمصّ مالَه ودمَه بلا هوادة. سألته عن مديره في العمل ومتى ينوي أن يمنحه ترقية. سألته عن موعِد إقلاعه عن التدخين، وقالت له إنّ الإدمان على السّجائر، إن لم يقتله، فسيمنعه من جمع المال لشراء شقّة. وعندما رفعت حاجبيها في إشارةٍ إلى التحذير والخبرة، ازداد عددُ التجاعيد على جبينها بشكلٍ أرعبَ خالداً. تنفّس عميقاً وقالَ بمزاحٍ ممزوجٍ بالسّخرية:

- أينَ الشّقة التي اشتريتُما أنتِ ووالدي بسببِ عدم التدخين؟

سادَ صمتٌ طويلٌ ومخيف كسرَه شخيرُ أبيه الذي غفا مرّةً أخرى. قالت زْهور من دون حماس وهي تمسِك حبّة البطاطس في يدِها:

- لقد انتهينا اليوم من تسديد آخر دفعةٍ من قرض الشّقة.

شرَعت في تقشير البطاطس من جديد، لكن بوتيرةٍ أسرَع هذه المرّة. أضافت كأنّما تبحثُ عن شعورٍ بالفخرِ داخلَها:

- الشّقةُ شقّتنا الآن.

رفعتْ عينيها إلى السّماء، وأضافت:

- الحمدُ لله.

مكتبة
t.me/t_pdf

تمتمَ بدوره:

- الحمد لله.

والحقّ أن خالداً لم يكن يشعرُ بأيّ نوعٍ من الفرح أو الامتنان، لأنّه في كلّ الأحوال لم يعد يسكن في هذه الشّقّة. شخرَ أبوه مرّةً أخرى. تحرّكت الستائرُ المزيّنة بالورود بفعلِ رياحِ بداية الخريف الخفيفة. صرخَ الممثلون في المسلسل عندما أغمي على منار. ظهرت دمعتان تشبهان لؤلؤتَين في عينَيّ زْهور. لم يعرِف خالد إذا كانت الدمعتان قد هربتا من

قلبِ أمّه حسرةً على ضياع العمر، أم تأثراً برؤيةِ مشهدِ كمال، بالعرضِ البطيء، وهو يركضُ نحوَ حبيبته منار المُلقاةِ على الأرض، بينما تُعزَف موسيقى تُبكي الحجر، مرفقةً بشهيقٍ يقطّع القلوب.

قال خالد لإيمان بثغرٍ باسم، وقلبٍ مليءٍ بالأمل:

- بعد سنتين فقط، سيصيرُ بإمكاننا شراء شقّة.

كانا يصعدان درج الطائرة، يتقدّمهما فوجُ الشقراوات المزيّفات اللواتي لم يتوقّفن عن الضّحك، كأنّهنّ سكرانات. تطلّعَ إلى زوجتِهِ بعينَين متّقدتَين بشرارةِ الحماس والتوق إلى الحياة الجديدة. وتطلّعت إليه بوجهٍ شاحب وعينَين مفعمتَين بالرّيبة والذعر من الحياةِ الجديدة. قهقهت الشقراوات المزيّفاتُ مرّةً أخرى وهنّ يلِجن الطائرة. تنفّست إيمان عميقاً، وقالت بسخرية مريرة ممزوجةٍ بابتسامةٍ مصطنعة:

- قلتُ لكَ سابقاً إنّك تعاني من عُقدةِ الشقة. هل هذا كلّ ما تريده من الحياة؟

ضحِك خالد ليُقنِع نفسَه أنّها تمزحُ معه. ضغطَ على كفّها بعد أن جلسا على مقعدَيهما. في الصفّ الثاني الموازي لهما، جلست ثلاثُ فتيات من مجموعة الشقراوات المزيّفات، وتوجّهت الاثنتان المتبقّيتان إلى مقصورةٍ أخرى.

قالت إحدى الفتيات الثلاث، وكانت ممتلئةً جدّاً وتضعُ شامةً مزيّفةً فوق شفتها:

- كلّهم يفسدون حياتكِ في الأخير، لكنْ، أن يعذّبكِ مقابل المال، أفضلُ من أن يعذّبكِ بلا شيء.

قهقهن مرّةً أخرى بانتشاء، بينما كانت الطائرةُ ترتفعُ عن أرض المغرب، رويداً رويداً.

6

العالم خيطٌ مترابط من الأشياء والأحداث والتفاصيل

مع حلول الظهيرة، كانت إيمان قد استعدّت للخروج. ارتدت سروال جينز ومعطفاً طويلاً ووشاحاً من الصوف. تركت خصلاتِ شعرها النّاعم منسدلةً على كتفيها، واعتمرت قبّعة بيريه بنّية اللون. وعندما كانت تضع أحمر شفاه أمام المرآة، حدّقت في نفسها طويلاً، كأنّها تحدّق في شخصٍ آخر، شخصٍ لم يسبق لها أن رأته من قبل.

لم تعتدْ إيمان على فعلِ شيءٍ جيّدٍ لنفسِها مباشرةً، دون المرور عبرَ شخصٍ آخر، ولا على التصرّف بيومِها كما تشاء. كانت أيامها كلّها تتشابه إلى حدٍّ كبير: تستيقظُ في الصباح، تعدّ الفطور لزوجِها، تغسِل الصّحون، تقرأ في كتابٍ بالعربية، تمسحُ الغبار، تنظّف أرضية البيت، تعدّ الغداء، تقرأ روايةً بالإنجليزية، تكتب خواطرَ في مفكّرةٍ صغيرة، تعدّ العشاء، تتناول الطعام مع زوجِها، تغسل الصحون، ثمّ تنام. وأحياناً، يتكسّر هذا الروتين حينما يستقبلان بعضَ أصدقاء خالد في شقّتهما، أو يذهبان لتناول العشاء في الخارج.

إن المرأةَ التي رأتْها إيمان في المرآة تختلف تماماً عن المرأة التي كانتها دائماً. فهذه المرأةُ الجديدة لا تشعر بأيّ رغبةٍ بالبقاء في البيت لغسل الصحون وإعداد الطعام، بل تريد الخروج لاكتشاف العالم. لقد

عاشت دائماً حياتَها كبيضة هشّة، لكنْ يبدو أنّ البيضة تفقّست الآن، وخرجَ منها كتكوتٌ صغير. كتكوتٌ لا يريد أن يصبح دجاجةً مثل جميعِ الكتاكيت حين تكبر، بل طائراً حرّاً.

اندفعت خارج البيتِ هاربةً من ذلك الوجهِ الجديد الذي رأتْه في المرآة. التغيير شيءٌ مُرعِب. سارت على الرّصيف مستمتعةً بنُدف الثلج وهي تتساقط على معطفها الأسود وتغمرُ وجهها. تخيّلت نفسَها بطلةً في فيلمٍ أميركي وهي تستمِع إلى أغنية Someone Like You وتمشي ببطء، مستقيمةَ الظهر، رافعةً رأسَها نحو السّماء. تعوّدت في بلدِها على السّير بسرعة كبيرة، كأنّها هاربةٌ من شيءٍ ما. والحقّ أنّ أشياءً كثيرة كانت تطاردها في شوارع الدار البيضاء، مثلَ نظراتِ الرجال وتعليقاتهم، وصخبِ السّيارات والدرّاجات النارية ودخانِها الكثيف، والمشهدِ العامّ في المدينة الذي كان رمادياً ومغبّراً وبئيساً. كانت أيضاً تمشي حانية الرأس كمن تشعر بالنّدم على خطأ أقدمت عليه، وشعورٌ عارم بالذنب يخترق كيانها. الشّعور بالذنب لا ينتج بالضرورة عن اقتراف خطأ ما بالفعل، بل أيضاً عن تطلّعِ الآخرين إلينا كأننا اقترفنا خطأً ما، دون أن نكون قد اقترفناه فعلاً. لذلك، سارتْ إيمان في طريق حياتِها وهي تشعرُ أنّ هناك خطيئةً مكتوبةً على جبينها بخطٍّ عريض، ولذلك أيضاً، لا تستوعب الآن تخفُّفها من عبء الذنب هذا، وقدرتَها على الشعور بالبهجة.

بحماس، فتحتْ هاتفها باحثةً عن موقعِ متحف البراءة على خرائط غوغل. التمعت عيناها وهي تفكّر أن فرصةَ الذهاب إلىٰ مكانٍ قرأت عنه في رواية، ما كانت لتُتاح لها أبداً لو لم تأتِ إلى إسطنبول، فشعرت بامتنان عميقٍ للحياة.

استقلّت سيارة أجرة، وانطلقت نحو المتحف بفرحٍ خالصٍ كفرحِ الأطفال بالألعاب الجديدة. من النافذة المنقّطةِ بندفِ الثّلج، شاهدت

الأشجارَ المرصوصة على طول الطريق مزيّنةً بمصابيح صغيرة، استعداداً لرأس السّنة، وفكّرت في حياتِها بخشوع.

لدى إيمان اعتقادٌ عميق أنّ جميع نساء العالم يخشين الوحدة، ولذلك تجدهنّ مستعدّاتٍ للارتباط بأيّ شخصٍ، مهما كان سيّئاً، حتى لا يكنّ وحيدات. نبعَ هذا الاعتقاد من تجربتها الشخصية مع الوحدة، ومن الألمِ الذي يتلوّى في بطنِها عندما تكون وحيدة، ومن الخوفِ الذي يصعَدُ من أعماقِها السحيقة عندما لا تكون محاطةً بالبشر. لذلك، كانت خائفةً من الابتعاد عن عائلتِها وأقربائها، قبل أن تأتي إلى إسطنبول، لكنّ التوجّس من الغربةِ والفراغ والوحدة سرعان ما تبخّر، بمجرّد ما وضعتْ قدَمها في هذه المدينة.

لكنّ مشكلةَ إيمان لا تكمن في الخوفِ من الوحدة، وإنّما في الخوفِ نفسه، لأنّها كانت تهابُ، في الحقيقة، كلّ شيء وأيّ شيء. وقد تعلّمت هذا الخوف منذ صِغرها، وتشرّبه عقلُها، وصارَ جزءاً من كيانِها.

عاشت إيمان طفولةً غريبة، مختلفةً عن طفولةِ باقي الأطفال. ففي الوقتِ الذي كان فيه أقرانُها يخرجون ويلعبون ويحتكّون بالآخرين ويكتشفون الحياة، كانت هي مخبّأةً في البيت مثلَ عِقدٍ ثمين مخبّأ في دُرجٍ مُغلَق. ومثلما لا يرى العِقد الثمين النور إلّا عندما يُلبَس في المناسبات، لم تكنْ إيمان تخرج من البيت إلّا للذهاب إلى المدرسة.

كانت وحيدةَ أبويها. تقبعُ في عشّ أمّها مثل طائرٍ وُلِد للتوّ. تحضِنها أمّها طوال الوقت كما تحضن الدجاجة بيضَها، تخافُ عليها من كلّ شيءٍ حتى من نسماتِ الهواء الخفيفة، تقفُ سدّاً منيعاً بينها وبين العالم الخارجيّ، تلقّنها، صباح مساء، أنّ النّساء في حاجةٍ دائمةٍ إلى الحماية. الحمايةُ من ماذا؟ سقطَ هذا السّؤال على رأسِ إيمان ذات مرّة عندما كانت في سنّ العاشرة، كما يسقطُ فجأةً مبنى آيلٌ إلى

الانهيار، وظلَّ ينبش في دِماغها أياماً طويلة، حتى توصّلَ خيالُها الجامح، أخيراً، إلى الجواب: العالمُ مليء بالكلابِ المتوحِّشة والذئاب الجائعة والمغتصبين ومختطفي الأطفال الذين سينهشون جسمَها إلى آخر رمق. أراحَها هذا الجواب وكفى عنها عناء التلهّف للخروج مع قريناتِها من بناتِ الجيران لنطّ الحبل.

وحتى سنّ الثامنة عشرة، عاشت إيمان حياةً صامتة، وقضتْ طفولتَها في المدرسة، حيث كانت مطالبةً بالتهذيب والصّمت والخوفِ من المدرّسين، وفي البيتِ جالسةً على الكنبة مركّزةً نظرَها في التلفاز الذي يظلّ مشغّلاً طوال الوقت، تشاهد الرّسوم المتحرّكة، والمسلسلات المدبلجة، والبرامجَ السياسية، ونشراتِ الأخبار. ولم يكن يكسّر الصّمت المفروض عليها سوى صوتُ التلفاز، وأصواتُ الأطفال في الخارج وهم يطلقون حناجرهم للصراخ، والأصواتُ التي لا تتوقّف أبداً من داخلِ البيت، فالأثاث يُجرّ من مكانِه باستمرار، والماءُ يُسكَب، بلا توقُّف، في السّطول أو على الأرض. والأواني تُدعَك بعنف طوال الوقت.

كانت مغامراتُ إيمان تتلخّصُ في النّهوض من الكنبة، والسّير نحوَ المطبخ بخطواتٍ بطيئة، من أجلِ التلصّص على أمّها. تراقبُها بصمتٍ وهي تدعكُ الأواني حتى يُسلخ جلدُها وتختلط دِماؤها بالرغوة. لطالما أحبّت إيمان منظرَ الحمرةِ وهي تخترقُ البياض، منظرَ الدّم المتسرّب من يدي أمّها وهو يتغلغل في الرغوة. وإذا كانت الكثيرُ من ربّات البيوت يجدن لذّتهنّ في التنظيف، فإن أمّ إيمان كانت تجدُ لذّتها في إعادة التنظيف، مرّةً ثانيةً ورابعةً وعاشرة... كانت حركاتُ جسدِها السريعة والعنيفة وهي تدعك الأواني أو تغسلُ أرضية البيت، تبعثُ في داخل إيمان شعوراً غريباً بالراحة والنشوة، مثلما تبعثه في أمّها نفسِها.

كان التنظيفُ دائماً شيئاً ضرورياً بالنسبة إلى نعيمة، لكنّ إعادة

التنظيف شيءٌ جليلٌ ومقدّس. لا ينبغي فقط أن يكون كلّ شيءٍ نظيفاً ومرتّباً ولامعاً، بل أن يبقى كلّ شيءٍ نظيفاً ومرتّباً ولامعاً طوال الوقت. ومن بين الأشياءِ التي كانت تحرصُ نعيمة على بقائها نظيفةً، ابنتُها، فهي أيضاً من ضمن الأشياء الموجودةِ في البيت، بل أهمّ الأشياء الموجودةِ في البيت. لذلك، كانت تحرصُ على أن تحمّمها بنفسِها، مرّتَين في اليوم، وتقصّ أظافرَها كلّ يوم، وتُعطّرها، ثلاثَ مرّاتٍ في اليوم، وتمشطَ شعرَها أربع مرّاتٍ في اليوم.

عندما تُجلسها على الكنبة، وقبل أن تعودَ إلى التنظيف من جديد، تقِف نعيمة لبرهة محدّقةً في ابنتِها المتسمّرة في مكانها بانبهار. إنّها لؤلؤة. لؤلؤة حقيقية. وكما لا يصحّ ارتداء خاتم من اللؤلؤ عند القيامِ بأعمال التنظيف حتى لا يفسد ويذهب لمعانه، لا ينبغي لإيمان كذلك أن تخرجَ إلى العالم المليء بالغبار والشرور حتى لا تفقد بريقها ونقاءها.

لكنّ إيمان بدلَ أن تتحوّل إلى لؤلؤة، أصبحت بيضة. بيضة هشّة يسهل كسرها وتجريحها والعبث بمشاعرِها، فهي لم تكن تملك وسائلَ للدفاع عن نفسِها أمام زملائها في المدرسة، الذين لا يكفّون عن الاستهزاء بها والتنمّر عليها. شيءٌ واحد كانت تلجأ إليه في مثلِ هذه اللحظات هو البكاء. أمّا عندما صارت مراهقة، فقد أصبح البكاء طقساً يومياً لا يمكن الاستغناء عنه أمام التجريح المستمرّ، خاصّةً من طرفِ زميلاتِها اللواتي ينعتنها بالمعقّدة وغريبة الأطوار، لأنها، عكسهنّ، لم تستطع الدخول في أيّ علاقة عاطفية.

كانت الأمّ تعرِف في قرارةِ نفسِها أنّ ابنتَها ليست سعيدةً بحياتها. وعندما كانت تراها تبكي، تحزّ في نفسِها. لكنّها واجهت الأمرَ بإيمانٍ عميق، وأخبرت ابنتَها بعينَين مليئتَين بالأمل أنّ هذه مجرّد مرحلةٍ حاسمةٍ من الاختبار الصّعب، وأنّها متيقّنةٌ أنّ ثمّةَ يوماً سيأتي،

وستشكرها، لأنّها جعلت منها امرأةً مختلفةً عن باقي النساء، اختلافَ الفضّة واللؤلؤ. سيأتي ذلك اليوم، وستخرجُ لؤلؤتُها إلى العالم لتُعمي العيون وتُبهرَ الأنظار.

عندما بلغت إيمان الخامسة عشرة، سمحت لها أمّها بالتحرّك من مكانِها على الكنبة، ودخول المطبخ، لأنّ الوقت قد حان لتتعلّم الطبخ وإعداد الحلويات وتزيين الأطباق وطريقةَ حملِها إلى الطاولة، حتى تصبح تلك المرأةَ التي يحلم بها أيّ رجل. ومع بلوغِها الثامنة عشرة، كانت إيمان قد أصبحت أكثرَ فتاةٍ في حيّ «الإنعاش» الشعبيّ بياضاً ونعومةً وتهذيباً وإتقاناً للطبخ، بل أصبحَ يُضرَب بها المثلُ في الأنوثةِ والحشمة والأناقة، وفي كلّ مناسبةٍ تجتمع فيها نسوة الحيّ، يكون موضوع النّميمة هو إيمان. إيمان الجميلة والممتلئة والبيضاء التي لم تستطع فتاةٌ أخرى مجاراتَها في هذه الصّفات.

إنّ الوصف الذي يطلقه المغاربةُ على امرأةٍ جميلةٍ وأنيقة وطافحةٍ بالأنوثة هو دمية. وعندما قالت إحدى النساء اللواتي يملكن بطناً بستّ طبقات، في مناسبةِ زواج إحدى فتيات الحيّ، إنّ إيمان تشبه دمية، ابتسمت نعيمة في سرّها، وشعرت، أخيراً، أنها حقّقت حلمها في الحياة، وأنّ الخطّاب سينسكبون على ابنتِها، كما ينسكبُ مطرٌ قويّ ومفاجئ من السّماء.

لكنّ السّعادةَ لا تستمرّ إلى الأبد، لأنّ الرجال يظهرون فجأةً لإفساد سعادةِ النساء. قالت نعيمة هذا لأمّها وهي تمسحُ دموعَها وأنفَها الأحمر. كانت منهارةً لأن زوجها، الذي اختفى من حياتِهما لسنةٍ كاملة بحجّة البحث عن العمل، قد ظهرَ فجأةً عندما حصلت إيمان على الباكالوريا، ليُفسِد كلّ ما خطّطت له لسنواتٍ طويلة، ويضربَ عُرضَ الحائط كلّ ما صبرت من أجله، وكلّ اختبارات الحياة الشاقّة التي اجتازتْها بنجاح.

عادَ رشيد ذات صيفٍ من عام 2007، مقرّراً العملَ في تدريس الرياضيات للتلاميذ الذين يرغبون في أخذ ساعاتٍ إضافية في هذه المادّة، مع حلول العام الجديد. كانت نعيمة تُعيد غسلَ الأواني للمرّة العاشرة، حين دخلت ابنتُها متأبّطةً نجاحها بتفوّق. لم تكن عيناها توحيان بأيّ شيء، ولم يكن من الممكن تحديد ما إن كانت، في تلك اللَّحظة، سعيدةً أم حزينة. كانت واقفةً في البهو أمام والدِها الذي انتظرها بلا صبر. قفزَ من مكانِه بفضولٍ كبير. تأمّلت الفتاةُ بحنان عيني أبيها المتعطشتَين لمعرفةِ النتائج، ثمّ شاربَه الكثّ، ثمّ هيئته الرثّة. هزّت الشفقةُ كيانها. انسلخت من الحيادِ تجاه نجاحِها، انفلتَ منها شيءٌ يشبِه الفخر والفرح. ارتمت في حضن والدِها وبكتْ وهي تردّد: «لقد نجحت».

في تلكَ اللحظة، كانت الأمّ واقفةً في مدخلِ البهو، واضعةً يديها الممتلئتَين بالرغوة في وسَطِها، مقطّبةً حاجبيها، بينما ينبضُ قلبُها بعنف. قالت:

- نجحتِ؟ الحمدُ لله. ستَرتاحين الآن من هذه الدراسة التي لا طائل من ورائها.

لم تقل إيمان شيئاً. استرجعت حيادَها تجاه نجاحها بمجرّد ما رأت وجه أمّها، لكنّ رشيداً، اليساريّ في تفكيره والمؤمنَ بضرورة استكمال الفتيات لتعليمهنّ الجامعي، انتفضَ فجأةً، ولأول مرّة، على زوجتِه. كانَ قد تعب من تصرّفاتِها إزاء ابنتِها، لكنّه لم يكن يفعلُ شيئاً لتغيير ذلك.

أفلتَ إيمان من حضنه. اقترب من زوجتِه. دقّق النّظر في جسدِها النحيل. رفَع كفّه عالياً، ثمّ هوى بها على وجهها في صفعةٍ مدوّخة، ثمّ قال:

- الفتاةُ ستذهب إلى الجامعة، شئتِ أم أبيتِ.

في الشهور التي تلت الحادثة، شعرت نعيمة أنّ كلّ ما بنته طوال هذه السنوات قد انهار فجأة، وراحت تتخيّل لؤلؤتَها تتلطّخ بأوحال الحياةِ وأوساخِها، وتفقد بريقها وقيمتَها المستمدّة من هذا البريق. كانت تهرع كلّ فجرٍ إلى الصلاة، تتضرّع إلى الله باكيةً أن يغدِق عليها بمعجزةٍ تغيّر شيئاً من مصير ابنتِها، لكنْ لم يكن يأتيها من السّماء سوى الصّمت. صمتٌ ثقيل ومرعب يزيدُها مرضاً وضعفاً. ومع نهاية الصيف وشروعِ ابنتِها في الاستعداد للحياة الجامعية، ذوى إيمانُ نعيمة كما تذوي وردةٌ مشرقة، وذبُلَ معه جسدها، وانطفأت روحها، وفقدت كلّ رغبتِها في تطهير العالمِ حولها من الأدران والأوساخ.

ومع ذبولِ الأمّ، كانت عينا ابنتِها تشرقان كلّ يومٍ أكثر. وعلى الرّغم من الخوفِ الذي كان يجتاحها حين تفكّر في حياتِها القادمة، إلّا أنّ رؤيةَ نورٍ متوهّج في الأفق كانَ أفضلَ لها من تلك الظلمة الصامتة التي كانت تقفُ حجاباً أمام عينَيها كلّما فكّرت في الحياة.

ثمّ جاء ذلك اليوم الذي جرّت فيه إيمان حقيبتها مغادرةً طنجة نحو الدار البيضاء لاستكمال دراستها الجامعية، وسطَ تشجيع أبيها. لكنّ الأمّ لم تنظر إلى الأمر بنفس الطريقة، بل رأتْ، بعينَين ممتلئتَين بالدموع، بيضةً هشّة تتدحرج خارج العشّ إلى وسطِ الشارع المليء بالمخاطر. وكان احتمالُ خروج الكتكوت من قشرتِه قبلَ أن تدهسَ قدمٌ أو عجلةٌ البيضةَ قائماً على شيءٍ لا تؤمن به نعيمة أبداً: الحظّ.

وعندما وصلت إيمان إلى الدار البيضاء، لم تكن تعرف كيف تغسل صحناً أو تفتحُ محادثةً مع شخص. كانت تحضر دروسَها في الجامعة، ثمّ تندفع داخل غرفتِها هاربةً من العالم المتوحّش حولها، معتمدةً في ذلك على ميكانيزمات أمّها الدّفاعية ضدّ العالم. وظلّت منكمشةً على نفسِها لسنتَين كاملتَين في غرفتِها الموحِشة، محاولةً حمايةَ نفسِها من الصّخب والغبار والبشرِ الذين تكتظّ بهم المدينةُ الضخمة

والقاسية. تصدّ كلّ دعوةٍ صداقة، وتردعُ كلّ يدٍ ممدودة لها، وتُدير ظهرها لكلّ حياةٍ اجتماعية ممكنة. وحين كان الناس يعيشون حياتَهم، ويستمتعون بشعاع الشمس، ويستمعون إلى صخب الحياة، كانت إيمان غارقةً في الكُتب والروايات، صامتةً ومنزويةً في عالمِها الوحيد والغريب والمرتاب، داخل فقاعةٍ هاربة يصعب الإمساك بها.

يقولون إنّ الحبّ هو الشعورُ الأكثر قوةً في العالم، والأكثرُ قدرةً على تغيير مساراتِ الأشخاص. لذلك، لم تتغيّر حياةُ إيمان فعلاً إلّا حينما تعرّفت إلى خالد.

وإذا كان الإنسانُ قادراً على حمايةِ نفسه من أيّ شيء، فإنّه، أمام الحبّ، يفقد كلّ وسائله الدفاعية التي طوّرها طوال حياته، ويقِف عاجزاً أمام شمعةِ قلبه التي تذوب أمام ناظريه، لكنْ مستمتعاً أيضاً، لأنّ نظره مركّزٌ على الشعلةِ الباهرة وليس على الذوبان. ولذلك أيضاً، لم تستطع إيمان، في الواقع، أن تحمي نفسَها من كلّ شيء كما كانت تظنّ. لأنّ هذا الـ«كلّ شيء» يحوي الحبّ كذلك، والحبّ هو الذي حمى البيضة وجعلها تتفقّس، قبلَ أن تدهسَها الحياة.

حين وصلت إيمان إلى متحف البراءة الواقع في حيّ بيه أوغلو، وهو أول متحفٍ للرواية في العالم، وقفت لوقتٍ طويلٍ منبهرةً أمام عددِ أعقابِ السّجائر المعلّقة على الحائط، والتي يُفترض أنّ فسون، معشوقةُ كمال، الشخصية الرئيسة في رواية **متحف البراءة** لأورهان باموق، قد دخّنتها خلال ثماني سنوات. تختلفُ أشكال الأعقاب، حسب الطريقة التي أطفأت بها فسون كلّ سيجارة، والحالة النفسية التي كانت فيها وهي تدعسُ العقب في المنفضة. كما أنّ هناك بعضَ الأعقاب الملطّخة بأحمرِ شفاه. فكّرت لبرهة: إذا كانت فسون شخصيةً صُنِعت من خيالِ باموق، فمَن، يا ترى، دخّن كلّ هذه السّجائر؟ وإذا

فرضنا أن باموق هو الذي دخّنها وهو يكتب روايته، فهل كان يضعُ أحمرَ شفاه قبل أن يدخّن كلّ سيجارة؟

بعدَ أن قامت بجولةٍ سريعة في كلّ طوابق المتحف ورأتْ فستان فسون المزركش وقِرطيها، توقّفت عند الخِزانةِ المُعنوَنة بـ«حيواتٌ مكسّرة»، التي تحتوي على طبقِ أرزّ أبيض، صحن به نصفُ حبّة طماطم، ونسخة قديمة من رواية **حيواتٌ مكسّرة** للرّوائي التركي خالد ضياء، وهو نفسُ الروائي الذي كتَب رواية **العشق الممنوع** التي تحوّلت في ما بعد إلى مسلسل دراميّ شاهدته إيمان قبلَ سنوات.

تحوّل العالمُ كلّه في رأسِها إلى خيطٍ مترابطٍ من الأشياء والأحداث والتفاصيل. نبضَ قلبُها بعنف، ثمّ اندفعتْ إلى الخارج وهي تتنفّس الصّعداء. انفتَح درجٌ فجأةً في ذاكرتها. درجٌ ظلّ مغلقاً لسنوات، وتذكّرت أنّها كانت تقرأ **متحف البراءة** حين تعرّفت أول مرّةٍ إلى خالد.

أشجارٌ اقتُلِعت من جذورها

عندما دخل خالد إلى مقرّ مؤسّسة «العرب اليوم» في إسطنبول أوّل مرّة، انقبَض قلبه، واعتراه مزيجٌ من المشاعر المتناقضة. وبقدر ما غشيَه شعورٌ عارمٌ بالغربة وسطَ كلّ أولئك الأشخاص المنتمين إلى جنسياتٍ عربية مختلفة، بقدرِ ما خفقَ قلبُه وهو يرى المستقبلَ مُشرِقَ الوجه، فاتحاً ذراعَيه له على آخرِهما. أبهرَه المكتبُ الشاسع، وغمرته الوجوه المبتسمةُ بالسكينة، وأطربَه احتواء مكانٍ واحد لذلك التنوّع الثقافي الكبير. كانت الدهشةُ الممزوجةُ بشعلةِ الطموح واضحةً في عينيه وهو يوزّع الحلويات المغربية على زملائه الجُدد، ويأخذُ مقابِلها كلماتِ شكرٍ واستحسانٍ وترحيب بمختلف اللهجات المشرقية والمغاربية.

في الأيام الأولى من العمل، كانت الوجوه واللهجات والثقافات المختلفة تملأ قلبَه غربةً، خاصّةً أنّه لم يكن يستطيع التواصُل بالدارجة المغربية مع زملائه من المشارقة، فبدأ يستعمل لغةً وُسطى هي مزيجٌ بين العربية الفُصحى واللهجاتِ المصرية والسورية واللبنانية التي تعلّمها من الأفلام والمسلسلات. ومع مرور الأيام، خلقَ لغةً خاصّةً به، وأصبح قادراً، بفعلِ قوةِ الطموح وجذوةِ الحلم المشتعلة داخلَه، أن يجدَ له مكاناً دافئاً بين كلّ تلك الوجوه المغتربة. فهذا نبيل، المصريّ القادمُ من القاهرة هرباً من الاعتقال، وهذه إيناس، السورية القادمةُ من

بانياس، هرباً من الحرب، وهذا سعيد، القادمُ من بيروت، لإغناء تجربته المهنية بالعمل في مؤسسة دولية، وهذه ميساء، الفلسطينية القادمة من غزة هرباً من الحِصار، وهذه نجوى، القادمةُ من تونس، بحثاً عن هامش حرّيةٍ أكبر. خلقَ هؤلاء مجتمعاً عربياً صغيراً ومتنوّعاً داخل مقرّ العمل، يحميهم صقيعَ الغربة، والبُعدَ عن الأصدقاء والعائلة والوطن. ولأنهم جميعاً يشبهون أشجاراً اقتُلِعت من جذورها ثمّ زُرِعت في مكانٍ جديد، أشجاراً لم تستطع أن تنمو أكثر، بسبب تغيّر التربة والطقس والهواء، فقد صارَ مقرّ العمل هو تلك التربة المفتقدة، وأصبحَ كلّ واحدٍ منهم صديقاً مقرّباً من الآخر، يشكو له همومه ومشاكلَه، ويحكي له أبسط تفاصيل حياتِه، ويعبّر له عن أتفه مشاعره وكلّ ما يجول في خاطره.

بعدَ شهرٍ فقط، استطاع خالد أن يتشرّب هذه التربة، ويتحوّل إلى جزءٍ منها. وكان هذا يمنحه إحساساً قوياً بالانتعاش، ورغبةً عظيمةً في الاستمرار في المسير على هذا النّهج، حتى يكسب ثقةَ زملائه، ثمّ رؤسائه، ليحقّق بعدَ ذلك، حلمَه المقدّس في أن يصير رئيسَ تحرير.

عند السادسة مساءً من كلّ يوم، يدخل خالد إلى البيت متحمّساً للحديثِ عن زملائه وقصصهم الغريبة والمذهلة. يرتمي على الكنبةِ محدّقاً بارتباك إلى زوجته وهي تصبّ له الشاي بصمت. يفكّر عميقاً بأيّ موضوع سيبدأ. يُشعِل سيجارة. ومثلَ طفلٍ ثرثار عاد للتوّ من المدرسة، يشرعُ في الحكيِ عن كلّ شيء وأيّ شيء. يضحكُ على لهجةِ زميله اللبناني، ويصِفها بكونِها لهجةً خُلِقت للإناث فقط، لما فيها من ميوعةٍ ودلع. تندّد إيمان، ردّاً عليه، بما تسمّيه ذكوريته المفرطة، وتقولُ بنبرةٍ حادّة إنّ النساء لسنَ كلّهن مائعاتٍ ودلّوعات. يحكي، بحزن، قصّةَ زميلته السورية، التي مرّت من تجربة الاعتقال، وفقدت أخاها في السّجن بسبب التعذيب. تذبل عينا إيمان في تأثّرٍ واضح، ثم

تلعنُ بحقد السّجون والجلّادين. يُقلّد خالد بسخرية لكنةَ زميله التركيّ الوحيد وهو يتحدّث باللغة العربية. ينفتِح فمُ إيمان في ضحكةٍ مجلجلة وهي تصبّ الشاي من جديد في كأسِ خالد، وتنتظرُ بأمل أن يحكيَ لها قصّةً جديدة تكسّر صخرةَ المللِ الصلبةِ القابعة داخل رأسِها.

ذات صباح سبت، كان خالد يحكي لإيمان قصّةَ زميلته الفلسطينية الواقعة في حبّ رجلٍ متزوّج، وهي القصّةُ التي حكَتها الشابّة الفلسطينية، بلا خجل، لجميع زملائها في العمل. كانت عيناه تلمعانِ تأثراً وهو ينقلُ عن لِسان الفتاة أنّ الحبّ لا يعرِف العوائق، حتى لو كان المعشوقُ متزوجاً.

قالت إيمان وهي واقفةٌ في باب الشرفة تنفضُ ملاءةً بيضاء بعصبية:

- كلّهم متشابهون.

قفزَ خالد من السّرير:

- من تقصدين؟

ردّت ببساطة:

- الرّجال.

سألها وهو لا يزال محافظاً على رباطةِ جأشه:

- لماذا ترمين الملاءة قربي بهذه الطريقة؟

كانت تنفض ملاءةً أخرى. استلقى من جديدٍ على السّرير وأضاف بهدوء:

- أتفق معك في أنّ ثمة الكثير من الرجال الذين يخونون زوجاتهم، لكنّ التعميم غير جيّد يا عزيزتي. لا يمكنكِ أن تحكمي دون أن تعرِفي القصّة كلّها.

لم تردّ. سادَ صمتٌ قصيرٌ، بينما كانت تدخُل إلى الغرفة وتُغلِق بابَ الشرفة. بهدوء، جلَست بقربِ زوجِها على حافّة السرير، مرّرت

كفّها على الملاءةِ برفق، كأنّها تمسّد رأسَ قطة مدلّلة، ثمّ قالت دون أن تنظر إليه:

- هل تظنّ أنّ النساء يستطعن الوقوع في الحبّ دون وعودٍ من الرّجال؟

وكمَن يبحثُ عن إبرةٍ وسطَ كومةِ قشّ، بحثت في عقلِها عن مثالٍ للكلام الذي قالته للتوّ. وحين لم تجد شيئاً، رفعَت عينَيها، ونظرت إلى عينَيه المشتعلتَين فضولاً، ثمّ أضافت:

- أعرفُ رجلاً متزوّجاً في طنجة، لم يكن يكتفي فقط بالنظر إلى نساءٍ أخريات، بل كان يلمسُ الفتيات الصّغيرات، ويُجلسهنّ على ركبتيه حتى يصلَ إلى اللذّة الجنسية. والمسكينات لم يكنّ يعين ما يحصل معهنّ.

سكتت قليلاً وهي تنظرُ إلى عينَيه بفضول لترى تأثير كلامِها عليه، لكنّ الحزن غمرَها وهي تروي هذه القصّة، كما غمرَها حين سمِعتها أول مرّة. ذبُلت عيناها وسقَطَ نظرُها، من جديد، على الملاءةِ النّاصعةِ البياض.

حكَت له قصّة هذا الرجل كاملةً دون أن ترفعَ عينَيها عن البياض النقيّ الذي كان يذكّرها بأمّها. كان الرّجل فقيهاً في جامعِ الحيّ الذي عاشت فيه طفولتَها في طنجة. كان في العقد الخامس من عمره، وقوراً ومحترماً، بل كان ثمّةَ أشخاصٌ يقدّسونَ كلامَه ويستشيرونه في أمور حياتِهم ويستمعون إلى نصائحه. كانت للفقيه زوجةٌ جميلة تصغره بعشرين عاماً، ومع ذلك، لم يكنْ راضياً بحياتِه معها، ولم يكنْ يشبعُ من التحديق في النساء الأخريات، والتحرّشِ بالفتيات الصغيرات. إحدى هؤلاء الفتيات كانت زميلةَ إيمان في المدرسة الابتدائية، روَت لها أنّ الفقيه ناداها بينما كان جالساً قربَ دكّان الحيّ، وأعطاها قطعةَ شوكولاتة، قبلَ أن يُجلِسها على ركبتيه، ويشرَع في ملاعبَتِها. في تلك

اللحظة، أحسّت الفتاة بشيءٍ صلبٍ تحتَها، وبعدَ ثوانٍ، سمِعت صوتاً أشبَه بالفحيح يصدرُ من حلقِ الرجل.

شعَر خالد بالاشمئزاز وهو يستمع إلى القصّة. اعتدَل في جلسته، وسألَ في ريبة:

- متى روَت لكِ الفتاةُ هذه القصّة؟

اتّسعت عينا إيمان، وقالت:

- عندما كنّا في الابتدائي.

قالَ بثقة:

- الذاكرةُ توهمنا أحياناً بأنّ هناك أشياء حصلت، ثمّ نحملُها معنا طوال أيام العمر ونتذكّرها ونحن نعتقدُ أنّها حصلت فعلاً. لا أظنّ أنكِ تستطيعين فهمَ كلامٍ كهذا وأنتِ طفلة، على أساس أنه تحرّش جنسي.

اتّسعت عينا إيمان وقالت في استنكار:

- هل تُكذّب ضحايا التحرّش الجنسي؟

قالَ وهو يهزّ كتفيه:

- على أيّ حال، هذا ليسَ موضوعنا. تحاولين دائماً تغيير مسارِ النقاش حتى تثبتي عكس ما أقوله!

ألقَت نظرَها على الملاءة من جديد، وقالت بهدوء مستفزّ:

- القصّة التي رويتُ لك تُثبِت شيئاً واحداً فقط هو أنّ الرجال كلهم متشابهون.

نهَض خالد من السّرير، وقال بعصبية:

- هذه بيدوفيليا يا إيمان، وليس خيانةً زوجية!

حدّقت في عينيه مباشرةً، وقالت:

- لو قلتُ لكَ إنّني إحدى هؤلاء الفتيات، ماذا ستفعل؟

كانت واعيةً أنّها تُحرّف النّقاشَ عن مساره، لكنّها لم تكنْ قادرةً على التوقّف. ثّمة شيء ما بداخلِها يدفعُها إلى استفزازِ زوجِها، كما

يدفعُ اليأسُ شخصاً إلى حافّةِ الانتحار. يُشبه ذلك الشيءُ الذي بداخلِها قيئاً على وشكِ الاندفاعِ خارجَ المعِدة، وبقدرِ ما كان يستفزّ خالد، بقدرِ ما كان ينغّص عليها هي أيضاً.

ومع ذلك، ظلّت ترمقه بنظراتٍ اتهامية منتظرةً جوابَه. اقتربَ منها، وقالَ بصوتٍ خافتٍ وهادئ:

- سأنزعجُ منكِ لأنّك لم تخبريني بذلك من قبل.

رسَم ابتسامةً على شفتيه، وأضاف كأنّما يريح نفسَه:

- أعرِف أنك لا تخبّئين عني شيئاً يا حبيبتي.

أنهى أكثرَ معركةٍ هدوءاً على الإطلاق في حياتِهما الزوجية، حين أمسكَ كفّها بين يديه بحنان. كانت باردة، لكنّه يعرفُ الآن أنّ ذلك ليس بسببِ الحبّ كما كان يظنّ وهو في الثالثة والعشرين. تطلّع إلى سحنتها بفضول كأنّما يحاول اكتشافها من جديد. كانت جميلةً فعلاً. لطالما أحبّ عينَيها العسليتَين الناعستَين، وأنفَها الصغير، وشفتَيها الرفيعتَين، وتلك الشامةَ الصغيرة فوقَ شفتِها العليا. لطالما أحبّ بشرتَها وعُنقها الطويل، وشعرَها البنّي الناعم وهو منسدلٌ على كتفيها. أبعدَ خصلاتٍ منفلتةً منه عن عينِها اليُمنى. ثمّ تطلّع إليها هذه المرّة بشبق. شعرتْ به يضغطُ على كفّها بقوة. تراجعَ رأسُها إلى الوراء هاربةً من شفتيه اللتين انفتحتا استعداداً لقبلة. أفلتتْ كفّها من بين يديه. رمقَها بيأس، ولم ينبس بكلمة.

قامت بسرعة، وتوجّهت نحو بابِ الشرفة، ثمّ راحت تنظر إلى الشمس الخجولة التي أطلّت وتسلّلت خيوطُها إلى الداخل. فتحت الباب برقّة، جلست إلى الطاولة الخشبية، وأشعلت سيجارة وهي تراقبُ المارّةَ في الزقاق من دون اهتمام.

وبينما كانت تنفث الدخان، رأتْه من الباب الزجاجيّ يرتدي قميصه، ثمّ يشغّل أغنية «مستنياك» على هاتفه. كان يحبّ عزيزة جلال

وأم كلثوم وفايزة أحمد ومحمد عبد الوهّاب، ولطالما استمعا معاً إلى أغانيهم في لحظاتِ الحبّ والنشوة. تذكّرت ذلك بوجَع، ولم تنتبه إلى أنّها كانت تدعسُ عقِب السيجارة في المنفضةِ بعنف، كأنّها تقتلُ عصفوراً يحتضر لتخلّصه من الألم بسرعة.

وحينَ فكّرت في الوجَع، وبدأت تفكّكه في ذاكرتها، شعرتْ بوجعٍ أكبر. إنّ غفرانَ الأخطاء التي يقترفُها في حقّنا الآخرون لا يعني بالضرورةِ نِسيانها. أخذت نفساً عميقاً محاولة ملء رئتيها المخنوقتَين بالهواء. كانت متأكدةً أن زوجَها لم يخنْها، ولم يكذب عليها يوماً، وأنّه أحبّها بصدق، لكنّ دائرةَ الأذى أوسعُ بكثيرٍ من أن تحتوي الخيانةَ والكذبَ فقط. خرجَ خالد من الغرفة، تاركاً عزيزة جلال تصدح: «للدرجة ديّ، هاتغيب عليّ، وتهون عليك دمعة عينيّ». لم تدرِ إيمان لماذا شعرتْ أنّه ذرفَ دمعةَ ألمٍ في تلك اللحظة.

أسندت رأسَها الثقيل إلى الشبّاك الحديديّ للشرفة، وقد ألمّت بها الحيرة. لو سألَها أحدٌ «كيف صارت علاقتُكِ مع زوجكِ هكذا؟» لن تعرِف بماذا تُجيب، وغالباً سترّد، مثلما يقول الجميع ردّاً على مثل هذا السؤال: «أحببنا بعضنا في البداية، لكنّنا اكتشفنا أننا لا نتفاهم بخصوص أمور الحياة المشتركة»، أو «ظننتُ أنني أحببته، لكنني اكتشفتُ في ما بعد أنّ ما كان بيننا مجرّد شغفٍ انطفأ مع الوقت، وليسَ حبّاً».

ما هو الحبّ إذاً؟ تطلّعت إلى السّماء وقد قرّرت أن تفتح كلّ أدراج ذاكرتِها المغلَقة. ورغمَ أنّها كانت تعرِف أن الذاكرة انتقائية، إلّا أنّها حاولت ترتيب القصّة كاملةً في رأسِها، لا لشيءٍ إلّا لإنصافِ القصّة ذاتِها، والبحثِ عن تعريفٍ للعشق.

* * *

كانت الساعةُ تشير إلى العاشرة والنصف حين خرجت إيمان من

قاعةِ الدرس. بارتباك وسرعة، نزلت الدرج المؤدّي إلى الساحةِ الكبيرة، قبل أن تخرج من باب الكلّية الكبير وهي تتنفّس الصعداء. كان الخروجُ من الكلّية بمثابة معركةٍ يومية. تمشي بخطواتٍ حثيثة وهي تدعو الله في نفسِها ألّا يُمسكها أحدُ زملائها لتجاذبِ أطرافِ الحديث. وحين تُصبح خارجَ الكلية، يكون جسدُها قد تعرّق، ونبضاتُ قلبِها على وشكِ التوقّف، مثلَ شخصٍ مصاب بفوبيا الأماكن العامّة.

حاضنةً كتاباً، مثلما تحضنُ أمٌّ طفلَها، جلست في المحطة تنتظر الباص المهترئ الذي سينقلُها إلى الحيّ الجامعي. كلّ ما كان يشغلُ بالها لحظتَها هو الدخول إلى غرفتِها. لحسنِ الحظّ أن الفتاة التي كان من المفروض أن تكون شريكتَها في الغرفة، لا تأتي إلّا وقتَ الامتحانات، ولا تقضي ليلتَها في الغرفة أبداً. كلّ الناس أشرار إلى أن يُثبَت العكس، هذا ما علّمته لها تجربتُها الداخلية والأفكارُ التي تتناطح داخل عقلِها كلّ يوم. فتحتِ الكتاب وراحت تقرأ في انتظار الباص. كان جسدها منكمشاً على نفسِه، وعيناها نصف مغلقتَين، بسبب الشمس القوية التي كانت ساطعةً في السّماء. «مضتْ خمسٌ وأربعون دقيقة، ولم تأتِ فسون، وأنا متمدّد كالميّت على السّرير، وأستشعر الألم المنتشر من بطني إلى جسمي كلّه كما يستمع حيوانٌ لموته بانتباه ويأس. وصلَ الألم إلى عمقٍ وحِدّة لم أشعر بهما من قبل، وسيطر على جسمي كلّه. أشعر بأنني يجب أن أنهضَ من هذا السرير وألهي نفسي بأمورٍ أخرى، وأن أهرب من هذا الوضع، وعلى الأقلّ من هذه الغرفة ومن هذه الملاءات المفعمة برائحة فسون، ولكنْ، لا حيلة لي». كانت قراءةُ هذه الرواية تسبّب لها الإزعاج، لكنّها، مع ذلك، لم تستطِع التوقّف عن القراءة. مضتْ تكمل «أنا الآن نادمٌ جدّاً لأنني لستُ وسط زحام النزهة»، وبمجرّد ما قرأتْ هذه الجملة حتى سمِعت صوتاً قريباً جداً من أذنها. ومثلَ قطّ سُكِب عليه سطلُ ماء، قفزَت من

مكانِها واقشعرّ جسمها وابتعدَت بطريقةٍ لا إرادية عن مصدرِ الصوت. وقبلَ أن تنظر إلى الشخص الذي يجلسُ بجوارها، صرَخت بفزع:

- ماذا تريد؟

ثم رأت وجهاً جميلاً، ذا ملامحَ وديعة. توقّفَ قلبُها عن الخفَقان بسرعة، ونزلت عليها سكينةٌ غريبة. كانت خيوط الشمس تتلألأ في عينَيّ الشابّ الوسيم الجالسِ بجانبها، ثمّ سمِعته يقول:

- لا تخافي! سألتُكِ فقط عن عنوان الكتاب الذي تقرئين.

لم يسبِق أن سألها أحدٌ عن عنوان كتابٍ تقرأه، ولم يسبِق أن كلّمها رجلٌ في الشارع ليسألها عن عنوان كتابٍ تحمله في يدِها. كلّ الكلامِ الذي وُجِّه لها في الشارع من طرف ذكور كان عبارةً عن تعليقاتٍ على جسدِها، أو تغزّلاً بمناطقِه الحسّاسة.

قالت بارتباك:

- مُتحف البراءة.

لم تستطع أن تتطلّع إلى وجهه أكثر من دقيقتَين. شعرت بالحرارةِ تصعدُ إلى أذنيها بينما كان يتكلّم عن نفسِه. من شدّة الارتباك، لم تكنْ قادرةً على التركيز في كلامه. كلّ ما استطاعت أذناها الساختنان التقاطَه هو أنّ الشابّ اللطيف الذي يتحدّث معها الآن يُدعى خالد، عمره 23 عاماً، يعمل صحافياً في موقعٍ إلكتروني، وقد جاء إلى نفسِ الكلّية التي تدرسُ بها لإجراء حوار مع أستاذ متخصِّص في علم الاجتماع، حول الأسباب الاجتماعية التي تدفع الشباب المغاربة إلى الهجرة إلى الخارج.

ولأنّنا لا نتعلّم تهذيب مشاعرِنا، مثلما نتعلّم التحكّم بغرائزنا، فإنّ قلبَ إيمان راحَ يخفق بقوة بمجرّد ما التقت عيناها بعينَيّ خالد. تدفّق مزيجٌ من الإعجاب والارتباك والخوف من رأسِها، ونزلَ ليغمر جسدَها حرارةً وارتعاشاً. لم يسبِق أن نظرَ إليها أحدٌ من قبل تلك النظرة التي

رَمقها بها خالد، بينما كانت تبحثُ عن كلماتٍ تتحدّث بها عن نفسِها. مدّت يدَها وتمتمت:

- إيمان، طالبة في السنة الثانية، شعبة التواصل.

هل كانَ حبّاً من النظرة الأولى؟ وهل يوجدُ فعلاً حبّ من النظرة الأولى؟ أخذت الأسئلة تنهمر على رأسِها، وتجرف دماغها إلى حافّةِ جوابٍ واحد وهو أنّها ستقعُ في الحبّ، لأول مرّةٍ في حياتِها.

لم تتوقّف عن التفكير فيه طوال الطريقِ إلى الحيّ الجامعي. أسندت رأسَها إلى نافذة الباص الزجاجية، بينما كانت مشاعرُ غضّةٌ وبدائية تنطّ داخلَها وتركلُ قلبَها ومعِدتَها وبطنَها، كما يركلُ جنين رحِم أمّه. وعندما اندفعت داخل غرفتِها، فكّرت في عينيه، وفكّرت في الحبّ. فكّرت في الحبّ كثيراً، بصمتٍ وانتباه. يستطيعُ الإنسان أن يقضي فترةً طويلةً من عمره وحيداً دون أن يشعر بالوحدة، لكنّه، بمجرّد ما يحبّ شخصاً، يبدأ الإحساسُ بالوحدةِ في التسرّب إلى أعماقه، لأنّه يرغبُ أن يكون إلى جوارِ هذا الشخصِ دائماً. شعرت إيمان ليلتَها، لأول مرّةٍ في حياتها، بالوحشة، وتسمّرت لساعاتٍ أمام هاتِفها منتظرةً اتصالاً منه.

بعد يومَين، تلقّت الاتصال الهاتفي المنتظَر، وخرجت، لأول مرّة، في موعدٍ رومانسي. كان الخجل واضحاً على ملامِحها وهي تحدّق في كأسِ عصير البرتقال أمامَها، بينما كانت تشعر بنظراتِه تخترقها. تحمِل الكأسَ نحو فمِها بيدٍ مرتعدة. لا تتكلّم عن أيّ شيءٍ آخر سوى الكتب التي قرأت. لم يكن لديها ما تقوله عن حياتِها، لأنّها لم تكن تملك حياةً. لكلّ إنسانٍ قصّة، لكنّ النّاس ثلاثة أنواع: من يعرف كيف يروي قصّته بحيثُ تبدو مهمّةً ومؤثرة وملهمة، ومن لا يعرف كيف يفعل ذلك، ومن لا يؤمن أصلاً أن قصّته تستحق أن تُروى. إيمان كانت تنتمي إلى النّوع الثالث. لذلك حكَت لخالد قصّة

كمال وفسون في **متحف البراءة**، وقصّةَ نَفيسة في **بداية ونهاية**، وقصّةَ **آنا كارنينا**، وقصّة **مدام بوفاري**، و**الأبله**، وأعطته ملخّصاً لرواية **كافكا على الشاطئ**.

أمّا خالد، فقد كان ينتمي إلى النوع الذي يعرِف كيف يحكي قصّته. فبدل أن يكتفي بالقول، مثلاً، إنّه أنجز تقريراً مهمّاً عن هجرة الشباب المغاربة إلى الخارج، يضيف أنّ هذا التقرير أثبتَ له أنّ جميع الشباب المغاربة يحلمون بالهجرة. وبدل أن يقول إنّه صحافي، يقول إنّ هذه المهنة تجري في عروقه، وإنه حلمَ بنفسه رئيسَ تحرير صحيفة عندما كان طفلاً. كانت إيمان تستمع إليه باهتمام، بينما يتحدّث عن نفسِه، متخيّلةً إياه شخصيةً هاربةً من رواية.

توالت اللقاءات. جلسا معاً في المقاهي، تناولا العشاء معاً، تمشيا معاً على الكورنيش تحت الشمس الحارقة، نزلا إلى الشاطئ، ورسمت على الرمال المبلولة قلباً كبيراً، كما تفعل المراهقات اللواتي تعرّفن للتوّ إلى الحبّ. اشترى لها المثلّجات وحلوى غزل البنات من عند الباعة المتجولين، ضحكت من تقليده لزملائه في العمل، ضحِك عندما حدّثته عن شخصية أكاكي أكاكيفيتش في **مِعطف** غوغول. وفي الشتاء، اشتدّ بهما المطر بينما يتمشيان في شوارع الدار البيضاء، فتبلّلا، لكنْ ضحِكا بقوة، كما في الأفلام الرومانسية المُبالَغ فيها. وضعَ معطَفه على كتفيها البردانَيْن خلال سهراتهما في الليالي الباردة. قبّلَ شفتيها برقّة. نظرت إلى عينَيه العسليتَين وغرِقت فيهما من الإعجاب. ذابت فيه ولم تعد ترى غيره، لأنّه، في الواقع، لم يكنْ هناك غيرُه. أحسّت بنفسِها تتفتّح كوردة. وعندما جاء الرّبيع، انتقلت للعيشِ معه في شقّته. كأنّ الخوفَ الذي كان يتلوّى بداخلِها كحيوانٍ مجروح، قد مات. اخضرّت الدنيا من حولِها، وازدانت بالسعادة والشغف. لم تكن إيمان من الأشخاص الذين يملكون طموحاً في

الحياة، فقد طوّرت قدرةً عجيبة على السّكون والجمودِ في مكانِها، وعلى الرّضى بهذا الجمود، لكنْ في اللحظة التي غرِقت في عينيه من شدّة الإعجاب وهو يحدّثها عن تفانيه في العمل وطموحه في أن يصبح رئيسَ تحرير، أدركت أنها غارقةٌ في الحبّ حتى أذنيها.

ومثلَ أيّ عاشقين آمنا بحبّهما، تشاركا كلّ شيء: الأحلام والهموم والمرض والفرَح والملل، ثمّ أخبرَ كلّ واحدٍ منهما الآخرَ أنه مستعدّ للبقاء معه إلى نهاية العمر، بكلّ ما تحمله هذه العبارةُ من شغفٍ ومجازفة. وفي يومٍ من الأيام، بينما يتمشيان على الشاطئ، سقطَ على ركبتيه، وأمسكَ يديها، وقبّلهما بعمق وحبّ، مغمضاً عينَيه، كأنّه يصلّي بخشوع، وعرضَ عليها الزّواج.

وبقدرِ ما لم تصدّق إيمان أنّ أحداً يمكنه أن يقعَ في حبّها بهذه الطريقة المجنونة، بقدرِ ما شعرت، لأول مرّةٍ في حياتِها، أنّها تريد شيئاً ما بقوة. تدفّق الحنانُ من قلبِها، وذرفَت دمعتَين حارّتَين ومالحتَين، ثمّ قبِلت أن تمنحه نفسَها وحياتَها ليحقّق طموحه وسعادَته.

وعلى الرّغم من أنّ أمها هدّدتها بمقاطعتِها طوال حياتِها إذا ما تمّ هذا الزواج، إلّا أنّ إيمان ذهبت في قرارِها حتى النهاية، قاذفةً هذه الكلمات في وجه نعيمة، التي كانت تزداد تعاستها كلّ يوم بسبب بُعد ابنتها عنها:

- أحبّه يا أمّي، وسأتزوّجه. الحبّ هو كلّ ما يهمّني!

صاحت نعيمة وقد انهارت أعصابُها:

- لا تجنّنيني، وتوقّفي عن الحديث كأنك ممثلةٌ في مسلسلٍ تركي! الواقع مختلفٌ تماماً.. والحبّ يموت.. استمعي إليّ.. الحبّ يموت! ماذا سيتبقى لديكِ عندما يختفي الحبّ من حياتِكما؟

أغلقت إيمان الخطّ في وجهِ والدتِها، وتزوّجت خالداً.

كانت إيمان قد أنهت للتوّ دراستَها الجامعية، وقرّرت، فجأةً، أن

تُصبح ربّة بيت، وأن يكون هدفُها في الحياة هو إسعادُ زوجِها. كانت تشعرُ بامتنانٍ كبير لأنه أحبّها، فعزمت على منحه، مقابلَ ذلك، الكثير من الحبّ، بالإضافة إلى غسلِ ملابسه وجواربه، وطيّ قمصانه، وطبخ الطعام له، واستقباله في باب البيت كلّ يوم لتعلّق معطفه عنه. ومع الوقت، أصبحت طموحاتُه طموحاتِها هي أيضاً، وأحلامُه أحلامَها هي أيضاً. صارت تكتئبُ عندما تراه حزيناً، وتبتهج عندما تراه متهلّل الوجه، وتجزعُ عندما يكون خائفاً، وتشتدّ بها الحيرةُ عندما يشعرُ بالضياع، ويستكين قلبُها لرؤيتِه مطمئنّاً ومرتاحاً.

كان خالد ينظر إلى كلّ هذا نظرةً مليئةً بالعاطفة والغِبطة، مثنياً على تضحياتِ زوجته وحنانِها وتسامحها وصبرها، بينما كان كيانُها يذوب أمام هذه النظرة.

لو كانَ هذا فيلماً رومانسياً، لوقفَ الأمرُ عند هذا الحدّ، واكتملَ المشهدُ بقبلةٍ طويلة ومحمومة، قبلَ أن يُسدل الستار معلناً النهاية، لكنّ إيمان، الحالمة والرومانسية أكثر من اللازم، اكتشفت أنّ الزواجَ، في الواقع، ليس نهايةَ الوجع والمعاناة، كما تعلّمْنا ذلك أفلامُ الحبّ، وإنّما البداية الفعلية للحياة الحقيقية، بورودها وأشواكها، بشمسِها وليلِها أيضاً.

في الخامس من أبريل 2015، انجلَت غمامةُ الرومانسية والمثالية عن عينيّ إيمان تماماً. كانت عائدةً من السّوق حاملةً مقتنياتٍ ثقيلة، وهي تفكّر في كلّ ما ينتظرها من عملٍ في المطبخ، قبل مجيء أصدقاء زوجِها وزملائه في العمل لتناول العشاء معهما، كعادتِهم كلّ سبت. وفي اللحظة التي صعدت فيها الدرج بظهرٍ معوَجّ من الألم وأنفاسٍ مقطوعة، شعرتْ بوخزٍ في قلبِها وسمعت ضجيجاً غريباً داخلَ رأسِها. توقّفت لتستردّ أنفاسَها وسألت نفسَها، للمرّة الأولى، إن كانت لا تزال تشعرُ بالامتنان للحياة على نِعمة الحبّ. انزلقَت قطراتُ عرقٍ من

جبينها، واندلقت أسئلةٌ متتابعةٌ خارجَ رأسِها: هل تحبّ نفسَها؟ وهل يمكن لشخصٍ لا يحبّ نفسَه كفايةً أن يحبّ الآخرين زيادةً عن اللزوم؟

لكنّ الشعورَ بالاحتراق الذي انتابَ إيمان في الخامس من أبريل 2015، لم يأتِ من فراغ. فقد ابتلعت جمراتٍ كثيرة قبل ذلك اليوم، وتحمّلتها بقلبٍ رحب وابتسامةٍ منهَكة. ما لم تستطع أن تغفره لزوجها هو نظرتُه التي تحوّلت، في غمضةِ عين، من الرقّة إلى الفظاظة، حين وضعتْ أكياس المقتنيات في المطبخ، وهي تخبره أنّها متعبة ولن تستطيع الاهتمام بضيوفه اليوم.

ثمّ اختفت الضحكاتُ عن البيت، ودخلت إيمان في صمتٍ رهيب، وتحوّلت نظراتُ خالد المليئة بالعواطف الرقيقة إلى نظراتٍ مفعمةٍ بالغلظةِ والقسوة. أمّا نارُ اللهفة والشغف التي كانت مشتعلةً بينهما، فقد تحوّلت، مع مرور الأيام، إلى نارِ سُخطٍ ونِقمة.

* * *

كانت إيمان لا تزالُ مُسندةً رأسَها إلى شبّاكِ الشرفة الحديديّ، حين عادَ خالد إلى الغرفة ليأخذَ هاتفَه، رآها تنفث الدخان محدّقةً في الفراغ، ولم يدرِ لماذا شعرَ أنّها ذرفَت دمعةَ ألمٍ في تلك اللحظة. انفتحَ درجٌ مغبّر في ذاكرتِه، فتراءى له شاطئ فسيح، يجلسان فوقَ رماله جنباً إلى جنب. في السّماء غيومٌ بيضاء، وفي الأُفُق ضبابٌ كثيف. وضعت رأسَها على كتِفه برقّة، فانتابه شعورٌ أنّ علاقتَهما تمتدّ إلى الأزلِ البعيد، لدرجةٍ نسيَ كلّ حياتِه التي كانت قبلَها.

وحين هبّت نسمةُ ريحٍ حرّكت خصلاتِ شعرِها، استقامت من جديدٍ في جلستِها. تطلّعت إلى وجهه، وابتسمت بحنان. نادراً ما كانا يتكلّمان في مثلِ هذه اللحظات، لأن الصمتَ كان كافياً ليعبّر عمّا يختلجُ في صدريهما. لكنّها، هذه المرّة، تكلّمت.

- يبدو أنّك مرتاحٌ في عملِك الجديد.

تطلّع إلى وجهها، وابتسم، ثمّ قال:

- كلّ ما يهمّني أن تكوني أنتِ سعيدةً معي.

لم تردّ. ارتمت في حضنه كأنّها تريد البقاء هناك إلى الأبد. حوّطها بذراعَيه وضمّها إليه أكثر، ثمّ قبّل شفتيها بنهَم. ثمّة أشياء لا تُقال بالكلمات. تنشّق عنقها كأنّه يشمّ وردةً طريةً مفعمةً بالندى. أفلتت نفسَها من بين ذراعَيه بدلال، ثمّ ركّزت نظرَها على الرّمال وهي تبتسم. نَظرَ إلى الأفقِ المضبّب وهو يتنفّس بعمق. كانت تلكَ اللحظةَ السعدى في حياتِه، وأرادَ أن تتشرّبها مسامّه كلّها.

- أحبّكِ.

كان سعيداً لأنها معه، ولأنه بدأ، قبلَ يومين، عملاً جديداً، براتبٍ أعلى بكثير ممّا كان يحصل عليه في عمله القديم. قبّلها مرّةً أخرى، كأنه يقتسم معها نشوةَ نجاحه. لكنّها تطلّعت إليه هذه المرّة، بعينَين متّسعتَين قلِقتَين.

قالت:

- ماذا سنفعلُ الآن؟

قالَ بمرح:

- سنذهبُ إلى البيت.

ازدادت عيناها اتساعاً، وقالت بنبرةٍ مضطربة:

- أقصد ماذا علينا أن نفعلَ الآن في حياتِنا؟ لقد تزوّجنا منذ سنتَين، وها أنت قد حصلتَ على عملٍ أفضل، ويمكننا أن نستأجرَ شقّةً أكبر...

شعَر بالضيق. كان يعرِف أنّها تحوم حولَ فكرةِ الإنجاب. قاطعَها:

- إيمان، نحنُ لم نعِش حياتنا بعد بما يكفي لنفكّر في أمرٍ كهذا.

ترقرقت عيناها:

- ماذا تقصد؟ ألسنا نعيش حياتنا الآن؟

قالَ بأمل:

- بلى، لكننا في حاجةٍ إلى مالٍ أكثر. أعطِني القليل من الوقتِ يا إيمان لأحقق طموحي، وأعدكِ أنك ستكونين أسعد أمّ في الدنيا.

انطفأت عيناها. سألت باستنكار:

- وماذا بعدَ تحقيق طموحِك؟

اشتعلت عيناه. قالَ بتحدٍّ:

- سنكون أسعد، وستكون الحياةُ أسهل.

قالت:

- لكنني سعيدةٌ الآن، وهذا كلّ ما ينقصني!

نهض، وقال وهو ينفضُ الرّمل عن ملابسه:

- سنفعلُ ذلك عندما يكون الوقتُ مناسباً.

نهضت أيضاً. عانقَها بصدق. كان يحبّها، لكنّه كان يؤمن أنّ الحبّ تجربةٌ شاقّة يستدعي خوضها الكثيرَ من التضحيات والجروح والخيبات، وكان طموحه أقوى من أن يكسّره أيّ شيءٍ في الدنيا، حتى لو كان الحبّ نفسه.

* * *

دفعت إيمان بابَ الشرفة، وصاحت:

- خالد، لنذهب الليلة إلى تقسيم ونثمل!

التفتَ بسرعة، كأنّما كان يتوقّع أن تقترح عليه ذلك، ثمّ قال في دعابة:

- الآن فكّرتِ بعقلٍ سليم!

* * *

مع حلولِ منتصف الليل، كانت أزقّة تقسيم ممتلئةً على آخرها بالعشّاق والسّكارى، وكانت الحاناتُ والمطاعم تصدح بالأغاني التركية، شجيةً تارةً، وبهيجةً تارةً أخرى. سارت إيمان إلى جانبِ خالد وهي تتمايلُ من السّكر. كانا قد شربا ما يكفي من العرَق كي يريا الحياةَ بمنظارٍ آخر، ويسخرا من كلّ شيء، حتى من نفسيهما. وحين حاولَ خالد إلقاء مِعطفه على كتفيّ إيمان الباردَين، أبعدته في حركةٍ لا إرادية وهي تصيح به: «لم أعد أحبّ هذه الحركَات». في تلك اللحظة، اصطدمت بامرأةٍ ضخمة، ذات كتفين قويَّين ورقبةٍ غليظة، ترتدي فستاناً يظهر منه ثديان نافران، وتضعُ باروكةً شقراء على رأسها. لم يسبق لإيمان أن رأت مثل هذا المنظر في حياتِها، وفي الوقت الذي كانت تحاول فيه أن تستوعبَ ما رأته، كانت المرأةُ قد صرخت في وجهها بصوتٍ ذكريّ خشن أن تنتبه، وأكملت طريقها متمايلةً مزهوةً بنفسِها.

ظلّت إيمان متسمّرةً في مكانِها باندهاش، وقد اختفت من وجهها وحركاتِها آثار السّكر، قبلَ أن يجرّها خالد من يدِها، ويقول:

- لنذهب للرّقص قليلاً قبلَ أن نعودَ إلى البيت.

شرِبا معاً نخباً في صحّة إسطنبول والحياةِ الجديدة، ثمّ رقصا على إيقاعاتِ Since Istanbul Has Been المترعةِ بالشجن، بينما يتذكران كلّ تلك السّنوات التي قضياها معاً، بشغَفها وحلاوتِها وحرقتها وخيبتها. تبدّت لهما حياتُهما لوحةً مصبوغةً بالدّم والعرَق والدّموع، لوحةً لها صوتٌ تصدحُ به، هو صوتُ صراخِهما حين الغضب ونشيجهما حين الألم وأنينهما حين اللذّة. عائدين إلى البيت، عبرا شارع الاستقلال الطويل وسطَ كمّ هائلٍ من البشر المنتمين إلى مختلفِ جنسيات العالم. التقت عيناهما في لحظةٍ صادقة، وفكّرت إيمان أنّ لوحةَ حياتِهما ينقصها شيءٌ ما لتكتمل.

كانت دائماً أنيقةً في بدايةِ علاقتِهما

بعينَين حائرتَين، حدّقت إيمان في صحنِ الأرزّ بالدجاج أمَامها، وظلّت متسمّرةً لدقائق كأنّها رأتْ شيئاً غريباً في طبقِها. وضعت ملعقتَها على الطاولة، وبلعَت ريقَها، ورمشتْ عيناها مرّتين. لم تكن تتوقّع أنّ رأسَها سيطرحُ عليها سؤالاً كهذا يوماً: لو مُنحتِ الخيار، ماذا ستفضّلين، أن تكوني عشيقةً أم زوجة؟

تحظى الزوجةُ بمكانةٍ أرفع اجتماعياً من العشيقة، فالمرأةُ التي يختارها الرّجل زوجةً له هي التي يرغبُ في إظهارها للعالم، أمّا العشيقة فتظلّ مخبّأةً بين طيّاتِ علاقةٍ سرّية. ومع ذلك، هناك أشياء كثيرة يتشاركها الرّجال مع العشيقات، ولا يجرؤون على مشاركتِها مع زوجاتهم، خاصّةً ربّات البيوتِ منهنّ، مثلَ الأسرار والنكات وتجربة أوضاع جنسية جديدة، وهناك أشياءُ تفعلُها الزوجات لأزواجهنّ ولا تفعلُها العشيقات لعشّاقهنّ مثل غسلِ سراويلهم وجواربهم وملابسهم الداخلية وإعداد الطعام لهم. ثمّ إنّ العشيقات ليسَ لهنّ حموات، وغير مضطرّاتٍ أبداً للتعرّف إلى أمّهات عشّاقهنّ. أمّا الزوجات، فمُكرَهاتٌ على تحمّل حمواتهنّ، مهما كنّ مزعجات وسمِجات، ومجبراتٌ على التجلّد أمام تعليقاتهنّ الثقيلة وارتباطهنّ المرضيّ بأبنائهنّ.

كرِهت إيمان الزواج منذ مدّةٍ طويلة لا تستطيع تحديد بدايتها، وكرهت كلّ ما له علاقةٌ بالزواج أيضاً. كانت لا تزالُ تحدّق في الطبقِ

أمامها من دون حَراك، حين طرحَ عليها رأسُها سؤالاً آخر، أكثر أهميةً من السؤال الأول: كم جورباً لخالد شممتِ رائحته الكريهة قبل أن تضعيه في الغسّالة، خلالَ ثماني سنوات؟

رفعت نظرها عن الطبق، وتطلّعت بقرفٍ إلى خالد الذي كان يتناولُ طبقَ الأرزّ بالدجاج بنهمٍ كبير، مصدراً صوتاً أثناء المضغ. لم يكن يُصدِر مثلَ هذا الصوتِ في بِداية علاقتِهما، لكنّ الإنسانَ لا يظهرُ على حقيقته إلّا عندما يتوقّف عن الخوف. وعندما ضمِنَ خالد أن إيمان ستظلّ بجانبِه إلى الأبد، ولم يعد يخشى فقدانَها، ظهرَ على حقيقته.

أرجعت الكرسيّ إلى الوراء، كأنها تريد أن تنهض. تطلّع إليها أيضاً، بنظرةٍ مُنهَكة ويائسة، ورنا إلى شعرِها المربوطِ في ذيلِ حصان وبيجامتِها الوردية المبقّعةِ بالكركم. كانت دائماً أنيقةً وطافحةً بالأنوثة في بدايةِ علاقتِهما، لكنّنا لا نعرِف شخصاً على حقيقته إلّا بعدَ أن نقضي وقتاً طويلاً معه. وعندما قضى خالد ثماني سنواتٍ مع إيمان، اكتشفَ أنها غير قادرةٍ على الحفاظِ على مظهرٍ أنيقٍ طوال الوقت، وهذه هي حقيقتُها. لم تنهض إيمان في النهاية، بل إن خالداً هو الذي دفع كرسيه إلى الوراء ونهَض.

قالَ وهو لا يزال يمضغ:

- اتّصلت أمّي اليوم، وبلّغتكِ سلامَها، ستزورنا في إسطنبول يوماً ما.

تذكّرت كم كانت تُسعدها عبارة «أمّي تبلّغكِ سلامَها»، قبل أن تتزوّج به، وحماسها وخشوعها وهي تبلّغ بدورِها السّلامَ لحماتِها المستقبلية. لكنّ الأمورَ لا تسير بنفس الطريقة بعدَ إزالة كلمة «المستقبلية» عن الجملة. هزّت كتفيها، وقالت على مضض:

- بلّغها سلامي.

هزّ رأسه وابتسم، ثمّ توجّه نحو الباب وهو يقول:

- سأذهبُ لاقتناء بعضِ الأغراض للبيت، ابعثي لي رسالةً لو تذكّرتِ أيّ شيءٍ يلزَم شراؤه.

كانت متأكدةً أنه ذاهبٌ للاتصال بأمّه على انفراد، ومع ذلك، هزّت رأسَها وابتسمت أيضاً. وإذا كان فرويد يعتقد أنّه توصّلَ إلى اكتشافِ أخطرِ ارتباطٍ مرضيّ بين الأمّ وابنها، فإنّ إيمان تشعرُ أنّ علاقةَ زوجِها بأمّه أخطر من ذلك بكثير، علاقةٌ لا يمكن لأوديب نفسه أن يستوعبَها.

مكتبة
t.me/t_pdf

9

القوة رديفة الألم والمعاناة

في حالةٍ تقَع ما بين النّوم واليقظة، ترى إيمان تلك المرأةَ الغريبة. امرأةٌ مشوّهة الوجه والجسم كأنّها تعاني من آثار حريقٍ قديم. تأتيها كلّ ليلةٍ تقريباً منذ سنوات، عاريةً، منفوشةَ الشعر، بثديين صغيرَين جافَّين كحبّتي تين قديمتَين، ومن دون عضوٍ تناسلي. تمدّ لها يداً متشقّقة وتسألُها النّجدة وهي تبكي بحرقةٍ وألم.

النّجدة من ماذا؟ لا تدري. كلّ ما تعرفه أنّ هذه المرأة ترعبُها لدرجةِ الأرق. كانت تستيقظُ في منتصف الليل بجسدٍ متعرّق وأنفاسٍ مكتومة، مذعورةً منها، مفجوعةً لأجلِها في الوقت نفسِه. تُشفق عليها بقدر ما تخاف منها. تحاوِل في كلّ مرّة أن تقاوم فزَعها وتمدّ لها يدها علّها تساعدها على التخلّص من ألمِها، لكنّها تعجز عن ذلك. تتردّد كثيراً، ثم أخيراً، تنسحب.

لم تأتِها المرأةُ منذ أن قدِمت إلى إسطنبول، حتى الليلة. رأتْ نفسَها تسيرُ عاريةً، حافية القدمَين في غابةٍ موحِشة كأنّها متاهة. لم تكن مهتمّة لعُريِها بقدر ما كانت مهتمّةً بالبحث عن مخرج، مارّةً عبر طريقٍ ضيّقةٍ تحيط بها نباتاتٌ بشعةُ الشكل كأنّ لها أفواهاً مفتوحة تتسرّب منها رائحةٌ تشبه رائحةَ القيء. شعرَتْ وهي تمشي في هذه الطريق وكأنّها ستلفظ معدتها من شدة الخوف والقرف.

أرادت أن تتراجع. كانت مواجهةُ تلك الطريق بالنسبة إليها مثلَ

اقتلاعِ صخرةٍ من الأرض وحملِها. هي التي تعلّمت أن تسلك الطرق السّهلة في الحياة فقط، حتى لا تخرج بندوبٍ غائرةٍ في القلب والذاكرة. لقّنتها أمّها أنّ الجمال هو ألّا تحملَ ندوباً في الجسد والرّوح على حدّ سواء، فنمَتْ برُكبتَين فارغتَين من القوة. وها هي بدأت تفهمُ الآن أنّ القوة رديفةُ الألم والمعاناة، أن تسقط، أن يتملّكها الخوف، أن تشعر بالضعف، أن يخرج قلبُها من فمها، أن تلسعها الأشواك، ثمّ تنهض في كلّ مرّة أكثر قوةً وشموخاً، وتستمرّ في المشي حتى تبلغَ نهاية الطريق، لكنّ هذا يستدعي أن تقتلع الأشواك بلسانها والأحجار بأسنانِها.

بقدمَين مجروحتَين، مشت في الحلم كالمجنونة غير آبهةٍ بألمِها. كانت المرأةُ المشوّهة مختبئةً بين الأحراش، منكمشةً على نفسِها مثل طفلٍ خائف. توقّفت إيمان وانحنت وهي ترمُقها بنظرةِ حنان، فقد تقبّلت وجودَها في حياتِها وألِفتْه. رفعتِ المرأةُ ذات الوجه المشوّه عينيها نحوَ إيمان وأخذت ترتعد بقوة.

- من أنتِ؟

تطلّعت المرأة إلى إيمان بنظرةٍ تشبِه نظرةَ طفلٍ حزين:

- أنا خوفكِ.

- خوفي؟

نهضت المرأة من مكانِها، وانسلّت بخفّةٍ من بين الأحراش. كانت بنفس طول إيمان، ونفسِ حجمِها. عاريةً وحافيةً مثلها. أما جلدُها فقد كان ممسوخاً بالكامل.

قالت بنبرةِ أمّ تنصح ابنتَها:

- لا تصدّقيهم حين يقولون لكِ إنّ وجودي ليس مهمّاً.. إنهم كذابون، أنتِ في حاجةٍ إلى العيشِ معي طوال حياتك، إلى السّير

بجانبي طوال الوقت، وحينما تتقبّليني فقط، ستستطيعين أن تكوني سعيدة.

تراجعت إيمان إلى الوراء بضع خطوات وقد لفحتْها نسمةُ بردٍ خفيفة.

قالت المرأة وهي تمدّ يدَها كما تفعلُ كلّ مرة:

- أنتِ في حاجةٍ إلى الإمساكِ بيدي حتى تتخلّصي منّي.

قالت إيمان باستهجان:

- أمسك بيدك لأتخلّص منك؟ ما هذا الهراء؟

هزّت المرأةُ رأسَها:

- عليكِ أن تلمسي يدَيّ المخدوشتَين، أن تعانقي جسدي المحروق، أن تنظري إلى وجهي المشوّه، أن تشعري بألمي، أن تحسّي بالقرف منّي أيضاً، أن تتقيئي وأنت تلامسين بشرتي. وفقط عندما تفعلين ما أقوله لكِ، سوف تنتصرين عليّ، ولو رفضتِ، سأجرّك معي دائماً إلى الوراء ولن تخرجي من هذه الغابة أبداً.

اتسعَت عينا إيمان من الاستغراب، وشعرت بالدوخة والغثيان. نسيت الغابة والنباتات المتوحّشة، ونسيت أنها كانت تبحثُ عن مخرَج. تراجعت إلى الوراء أكثر وهي تنظر بذهول إلى يدِ المرأة الممدودةِ نحوَها، ثمّ أطلقت رجليها للريح.

السّير في شوارع إسطنبول

في اليوم الذي تلا الحلم الغريب، خرجت إيمان مع زوجِها، وسارا في شوارع بشكتاش شابكَين أصابعهما مثل عاشقَين. طوال ثلاثةِ أشهر من الإقامة في إسطنبول، حرصا على الحفاظ على عادةِ الذهاب كلّ صباح سبت إلى ميدان أورتاكوي وتناول فطورهما هناك.

كانا يحبّان السّير في شوارع بشكتاش والاستمتاع بمظاهر الحياة المتنوّعة التي تقدّمها لهما هذه المدينة الساحرة. ففي إسطنبول وحدها، يمكنُهما أن يريا هذه اللوحةَ الفنّية البهية: أتراك وعرب وأوروبيون، نساء محجّبات وغير محجّبات يتمشّين في الشارع وهنّ يتناولن ساندويتشات أو يدخّن السجائر، دون أن يتعرّضن للتحرّش أو المعاكسة بسبب ذلك. شبابٌ اختاروا تسريحاتِ شعر غريبة ومختلفة. شابّاتٌ بشعورٍ زرقاء أو خضراء أو بنفسجية. أشخاصٌ يحملون وشوماً على أذرعهم أو أعناقهم أو صدورهم. باعةٌ متجوّلون. روائح أطعمة متنوّعة تنبعثُ من المطاعم. مقاهٍ وحانات. مبانٍ جديدة وأخرى بطرازٍ قديم تعود إلى قرونٍ خلت. مآذن بديعةُ المعمار. كنائس أيضاً ومعابد. كلابٌ ضخمة تسير في الشارع دون أن تتعرّض للرّكل. قططٌ تمشي بخيلاء بعد أن يمسّد أحدهم رأسها. عشّاق يسيرون ممسكين بأيدي بعضهم البعض كما في الأفلام...

وكما هو شأنُ كلّ مدنِ العالم التي زخرَ تاريخُها بثقافاتٍ متعدّدة

ومتنوّعة، فأصبحت، مع الوقت، نماذجَ للتعايش، كانت إسطنبول كذلك تحملُ هيبةَ تاريخٍ عريق مزهوّ بتعدّده وتنوّعه، وكان خالد وإيمان لا يزالان يحدّقان بذهولٍ وإعجاب إلى هذه المدينة، كلّما خرجا إلى شوارعها، مثلَ طفلَين ذهبا إلى مكانٍ جديد لأول مرّة.

قبل الوصول إلى أورتاكوي، يعبران شارع شيراغان الطويل، حيثُ ألصِقت على طول سور الشارع صورٌ متنوِّعة لمصطفى كمال أتاتورك. يكنّ الأتراك لهذا الرجلِ العلماني احتراماً كبيراً لتأسيسه الجمهورية التركية، ويفخرون به وبإنجازاته أيّما فخر، حتى الذين صوتوا منهم لأردوغان وحزبه الإسلامي. وكان هذا مَثار دهشةٍ لإيمان وخالد أيضاً.

حين يصِلان إلى ميدان أورتاكوي، يجلسان في مطعمٍ مطلٍّ على البوسفور، حيث يستمتعان برحابةِ زرقةِ السماء المزدانةِ بالنوارس، وزرقةِ البحر المزيّنةِ بالعبّارات الذاهبة والقادمة من الجانبِ الآسيوي للمدينة، بينما تتناهى إليهما رائحةُ البحر ممزوجةً بروائح الكباب والبطاطا المشوية والقهوة التركية.

ترمي إيمان بصرها إلى الأفقِ البعيد، وهي تفكّر في الحبّ والكتابة، وفي حياتِها المُجهَضةِ ومشاعرِها المتلاطمةِ تلاطمَ الأمواجِ في بحرٍ هائج. وحين تلتمعُ عيناها بحزن، تقرّر، في كلّ مرّةٍ، أن تكون ممتنّةً للحياة على الفرصةِ التي منحتها لها في أن تكونَ في مدينةٍ رائعةٍ ومفعمةٍ بالأسرار كإسطنبول. تبتسم برقّة لمداراةِ ذلك الحزن العميق القابع بداخلها، ومقاومةِ الملل المرّ الذي يستحوذ عليها وهي تستمعُ إلى حديثِ زوجِها المستمرّ عن عمله وزملائه ومخططاته وطموحِه في الحصولِ على ترقية.

وإذا كان طموح خالد في البداية مجرّدَ وسيلةٍ لتحسين ظروف حياته، فقد أصبح، مع الوقتِ، غايةً في حدّ ذاته. يشبه ذلك شخصاً

تائهاً في مكانٍ مجهول، اختار سلوكَ طريقٍ ما بحثاً عن مخرج، لكنّه عندما بدأ في السير، انبهرَ بالطريق، ونسيَ أنه كان يبحثُ عن مخرج.

في محاولتِها لفهم جوهرِ الاختلافِ بينها وبين زوجها، توصّلت إيمان أخيراً، إلى أنّ الناس نوعان: نوعٌ يهتمّ بالوسيلة ويعشقُها بطريقةٍ تصلُ حدّ التقديس في بعضِ الأحيان، ونوعٌ يتطلّع دائماً إلى الغاية بصِفتِها محرّكَ الحياة. وفي غمرةِ انشغالِ خالد بالطريق وانبهاره بها، كانت إيمان تتوقُ للوصول إلى مخرج.

وكلّ صباحِ سبت، عندما يجلسان في هذا المطعم المطلّ على البوسفور، كانت إيمان تحاول مفاتحةَ زوجِها في هذا الموضوع، لكنّها لم تكن تجدُ الكلمات المعبّرة عن فكرتها ولا زاوية التناول، فكانت تنكمشُ على نفسِها وتكتفي بالصمت، متسائلةً بينها وبين نفسِها: هل يمكن لاختلافاتٍ جوهرية بين شخصَين أن تتعايشَ داخل علاقةٍ واحدة، تماماً مثلما تتعايشُ هذه الاختلافات الثقافية كلّها داخل مدينةٍ واحدة؟

وكلّ صباح سبت، تعجز عن مفاتحته في الموضوع. يرتديان لباساً رياضياً. يمرّان من الطريق نفسِها، مشبكَين أصابعهما. ينظران إلى المناظر نفسِها بإعجاب ودهشة البدايات نفسِها. كلّ صباح سبت، يضغطُ على يدِها، وتُحاول الانفلات منه في غنجٍ ممزوجٍ بالمرارة. ينظران إلى الصور نفسِها المعلّقة على طول جدار شيراغان. يتوقّفان عند الصورة نفسِها، صورةُ أتاتورك مرتدياً بذلة عسكرية ممتطياً حصاناً أبيض أنيقاً. يجلسان في المطعم نفسِه، يتناولان فطوراً تركياً، ويشربان قهوةً سوداء. يدخّنان السّجائر ويفتحان المواضيعَ نفسَها، يتناقشان في السّياسة والعلمانية والديمقراطية والرأسمالية والاشتراكية، في الحرّية والفلسفة والنسوية، في الأوضاع في بلدِهما، في الانقلابات والاحتجاجات الاجتماعية، في الكبتِ الجنسيّ ومعدّلات السعادة في

البلدان العربية. يجدان الكلماتِ للتعبير عن كلّ القضايا الكبرى، ويعجزان عن التعبير عن تفصيلٍ صغير ومهمّ في علاقتِهما.

وكلّ مساء سبت، يعرجان على حانةٍ في بشكتاش أو تقسيم. يشربان العَرق ويتحدّثان في كلّ القضايا التي تشغل العالم، متناسيَين عالمهُما الداخلي الذي يغلي كبركانٍ لم ينفجر بعد.

الحبّ هو التضحية

في صيف سنة 2016، كانت إيمان تستعدّ للسفر إلى باريس، بعدَ أن تمّ اختيار اسمِها للمشاركة في دورةٍ تكوينية في تقنياتِ كِتابة الرواية، مدّتها ثلاثةُ أيّام. كانت سعادتُها شاسعة، وأرحَب حتى من سعادتِها حين تُسعِد زوجها. سعادةٌ خالصة وحقيقية، لأنّها هذه المرّة، ناتجةٌ عن فعلِ شيءٍ جيّدٍ لنفسِها مباشرةً، دون الحاجةِ إلى المرورِ عبرَ شخصٍ آخر.

لم يتفوّه خالد بأيّ كلمةٍ حين تلقّت دعوةَ المشاركة، ثمّ تذاكرَ الطائرة بعدَ ذلك. ولم ترَ أيّ فرحٍ في عينَيه لأجلِها. برّرت لنفسِها ذلك بكونِ زوجِها المسكين متعوّداً على أن تفرحَ هي لأجلِه، وليسَ العكس، وأنّه سيتعوّد، مع الوقت، على الشعور بالسعادة من أجلِها.

ذات مساء، أعدّت عشاءً فاخراً للاحتفال بهذه المناسبة، واختارت ثوبَ نومٍ أبيضَ، شفّافاً، من الدولابِ المليء بالفساتين التي لم تعد ترتديها، ثمّ عادت إلى المطبخ بخطواتٍ راقصة، وأخذت الأطباق التي أعدّتها، طبقاً تلوَ الآخر، نحوَ طاولةِ الطعام في البهو. كانت الساعةُ تشير إلى العاشرة ليلاً، وكانت نسمات هواءٍ خفيفة تدخلُ من النافذة المفتوحةِ على سماءٍ طافحةٍ بالنجوم المتلألئة. وبينما كانت تضعُ اللمساتِ الأخيرة على طاولة الطعام، وتُشعِل الشموع، دخلَ خالد الذي كان في زيارةٍ لوالدَيه، ليخبرَها أنّ أمّه مريضة.

أشعلت الأضواءَ من جديد، وتوجّهت نحوه بقلق، ثمّ قالت:

- ماذا حصل؟

ارتمى خالد على الكنبة بيأس، مُسنداً رأسَه إلى كفّه، غيرَ منتبهٍ إلى الطاولة الممتلئة بالأطباق الشهية. قال:

- تمّ تشخيصها بالسكّري اليوم.

كانت تحدّق فيه بعينين مفتوحتين على آخرهما، ولم يكن يهمّها مرضُ أمّه في تلك اللحظة. كلّ ما كانَ يدور برأسِها هو: لماذا يصرّ دائماً على إفسادِ سعادتها؟

ثمّ رفعَ رأسه نحوَها وقال:

- إنها في حاجةٍ إلى الرعاية التامّة.. أقصِد إلى شخصٍ يكون بجانِبها طوال الوقت، على الأقلّ خلال هذه الفترة.. تعرفين أنّ والدي لن يكون قادراً على الاعتناء بها، إنه نفسُه في حاجةٍ إلى من يعتني به.

اقشعرّ بدنُها، ورأت شيئاً ما ينهار أمامها في تلك اللَّحظة، فقد فهمت جيّداً ماذا يقصد. كابرت حتى تسيطر على أعصابِها وهي تسمعه يتكلّم من دون توقّف. وكان السّؤال: «لماذا يصرّ دائماً على إفسادِ سعادتكِ» يتردّد داخل رأسها بلا هوادة، ممزوجاً بشعورٍ عارمٍ بالذنب والضعف وقلّة الحيلة.

- لماذا أنتِ شاحبةٌ هكذا؟ لماذا لا تقولين شيئاً؟

أرادت أن تقول له: اهتمّ بها أنت!

لكنّها قالت:

- وددتُ لو أستطيع الوقوفَ بجانِبها في هذه المحنة، لكنّ سفري، كما تعلم، بعدَ يومين.. هل فكّرتَ في ممرّضة؟

كان مقطّباً وقلقاً، وحين سمِع كلِماتها الأخيرة، قفزَ من مكانه، ووقفَ أمامَها مباشرةً، ثمّ صرخَ باهتياج حتى تطايرَ اللعاب من فمه:

- لو كنتِ تريدين المساعدةَ فعلاً، لتركتِ كلّ شيء ووقفتِ بجانبها! ألم تقولي يوماً إنّكِ مستعدّةٌ للتضحية بأيّ شيءٍ من أجل حبّكِ لي؟

ارتعشَ جسدُها، وغمرَ الشعورُ بالذنب كلّ المشاعرِ الأخرى التي كانت تغلي بداخلها. إنّ الأشخاصَ السعداء هم الذين يتعاملون مع كلّ شيءٍ من دون اكتراث، استدركَ رأسُها، لكنّها كانت لا تزال عاجزةً عن الحديث بصيغةٍ أخرى غير صيغةِ التبرير. قالت بأسنانٍ تصطكّ من الخوف:

- لو لم تكن متزوّجاً، ماذا كنتَ ستفعلُ في هذه الحالة؟

صرخَ باهتياجٍ أكبر:

- أنتِ أنانية.. لم أرَ في حياتي شخصاً أنانياً مثلكِ أبداً!

شعرت أنّ العالم كلّه يتضافر في تلك اللحظة لتظلّ وحيدةً وتعيسة. وداهمها الاستسلام ممزوجاً بالحِقد والنقمة. ظلّت صامتةً لبرهة وهي تحاول أن تذرفَ الدموع للتخلّص من هذه المرارة التي تسري في كيانِها كالسمّ. لكنّها لم تستطع. لقد رأت الكثيرَ من النساء حولها يبكين كلّما حصلت مصيبةٌ في حياتهنّ، لكنّ البكاء لم يغيّر يوماً شيئاً في أوضاعهنّ، كما لم يغيّر أيّ شيءٍ آخر في العالم. إنّ البكاءَ أقوى تعبيرٍ عن العجز. ولذلك، حرّكت رأسَها يمنةً ويسرةً، باحثةً عن شيءٍ تحطّم به رأسَ زوجِها، لتثبِت لنفسِها أنّها ليست عاجزة. وحين لم تجد شيئاً، توجّهت بثبات نحو طاولةِ الطعام، وقلَبتها أمام خالد، الذي ظلّ متسمّراً في مكانِه من الصّدمة، ثمّ انهارت.

لم تذهب إيمان إلى باريس، ولم تذهب للاعتناء بحماتِها أيضاً، لأنها عندما كانت تستعدّ للذهاب إلى بيت والدَي خالد، اتصلت زْهور بابنِها لتخبره أنّه ليسَ هناك داعٍ لذلك.

* * *

كان «الانهيار العصبي» عبارةً تسمعها إيمان في المسلسلات الدرامية فقط، ولم تتصوّر أنّه شيءٌ حقيقيّ يمكن أن يحصل في الواقع، أو يحدُث معها هي بالضبط.

لكنْ، بما أنّ الحياةَ هي عبارةٌ عن سلسلةٍ من الأحداث التي لم نتصوّرها مسبقاً، فإنّ إيمان أصيبت بانهيارٍ عصبيّ قويّ بعدَ أن فوّتت فرصةَ ذهابِها إلى باريس.

حدثَ ذلك خلال الصّيفِ نفسِه، حين ذهبت هي وزوجُها في زيارةٍ إلى منزلِ والديه. ارتدت فستاناً حتى الركبة، مزداناً بورودٍ مختلفة الألوان، وانتعلت صندلاً صيفياً تظهرُ منه أظافر مصبوغةٌ باللون الأحمر، ووضعت أحمر شفاه قانياً، بينما تركت شعرَها البنيّ مسدلاً على كتفَيها.

إنّ خيبةَ الأمل في النفس أقسى من خيبة الأمل في الآخرين. فالناسُ يملكون خيارَ الابتعاد عمّن يسمِّمون حياتهم، لكنّ من يسمِّم حياتَه بنفسه، لا يملك أمامَه سوى خيارٍ واحد لا غير: أن يمقتَ نفسه ويحتقرَها. كانت إيمان تعرف أنّ الغلطةَ غلطتُها لأنّها استسلمت بسرعة أمام زوجِها، ولم تخُض أيّ معركةٍ للدفاع عن قرارِها. لذلك، أصبح الشعور الوحيد الذي ينتابُها إزاء نفسِها هو البغض والحقد. لكنّها عندما وقفت أمام المرآة قبل أن يخرجا من البيت، ورأت أنّها بدَت جميلة، استطاعت التخفيف من ذلك الشعور المقيت الذي يأكلُها من الداخل.

حين دلفا إلى بيتِ والدَي خالد، كان الأب نائماً على الكنبة، يشخرُ بين الفينةِ والأخرى، بينما كانت الأمّ متسمّرةً أمام التلفاز، كأنّها مخدَّرة، وهي تشاهد مسلسلاً تركياً مدبلجاً بالدارجة المغربية.

قبّل خالد رأسَ أمّه، وجلس الاثنان بجانبها بصمت في انتظار انتهاء الحلقة المئة وتسعة وثمانين من المسلسل. ليسَ هناك شخصٌ في

العالم يمكنه أن يُقاطِع زْهوراً عندما تكون بصددِ إنجاز شيءٍ ما، أمّا التشويش عليها أثناء مشاهدتِها مسلسلاً تركياً، فهو شيءٌ ممنوع منعاً باتاً. لأنّ الأحداثَ كثيرةٌ ومتسارعة، وكلّ عبارةٍ تُقال في المسلسل، مهما كانت تافهة، سيكون لها أثرُها على سيرِ الأحداثِ في ما بعد.

كانت على الشاشةِ امرأتان. الأولى هي منار بطلةُ المسلسل، والثانية أختُها. قالت منار بعينَين مليئتَين بالدموع:

- أنا متأثرةٌ جداً لأنني سأرحل.. أرجوكِ لا تجعليني أبكي، إنني أحاول أن أتماسك!

قالت الأخت:

- لا تبكي أرجوكِ.. لأنكِ ذاهبةٌ لتعيشي السّعادة مع حبيبك. ستعيشين حياةً رائعة مع كمال!

ثمّ اقتربت من أختِها التي دمعَت عيناها، ثبّتت خصلاتِ شعرِها وراء أذنيها، وقالت بتأثرٍ واضح:

- وأخيراً، ستكونين سعيدةً فعلاً!

بكتْ منار، وارتمت في حِضن أختِها، بينما كانت زْهور ترنو إليهما بملامح متأثِّرة، كأنّها ستبكي بدورِها، لكنّ المشهدَ انتهى، وبدأت وصلةٌ إشهارية.

التفتت زهور إلى ابنِها، وقالت:

- هل رأيتَ بنات آخر الزّمان؟ إنّها تريد تركَ أمّها والهربَ مع حبيبِها! لا تعرِفُ الغبيةُ أنّ حبيبها الآن مع امرأةٍ أخرى.. أمّا فريدة المسكينة، فقد تزوّج عليها وليد، بعدَ أن اعتقدَ أنّها ماتت في حريق، بينما، في الحقيقة، لا تزالُ على قيدِ الحياة!

تتابع زْهور مسلسل «سامحيني» التركي كلّ يومٍ منذ أربعِ سنوات، لكنّها لا تكتفي بالمشاهدة فقط، بل تحاسِب الشخصيات على أفعالِها وتصرّفاتها، وتعلّق على كلّ موقفٍ سيّئ يحصلُ في المسلسل، أو

مصيبةٍ تقعُ فيها شخصيةٌ من الشخصيات، كأنّها تحاول تلقينها الطُّرُق الصحيحة في التعامُل مع الحياة. بالنسبة إليها، مثلاً، لو أنّ كمال استمع إلى نصيحة والده ولم يتزوّج منار كان سيعيشُ حياةً أكثر سعادةً، وكان سيتجنّب كلّ المصائب التي وقعَ فيها بسبب حبّه لفتاةٍ لا تناسبه اجتماعياً.

بعد نهاية المسلسل، قالت بثقة:

- لو استمع كمال، منذ البداية، إلى كلامِ والده، ما كان ليتعذّب هكذا. هناك دائماً ما هو أهمّ من الحبّ، رضى الوالدَين!

قالَ خالد وهو يضحك:

- لو كانت كلّ الأمور تسير على ما يُرام، لن يكون هناك قصّةٌ أصلاً يا أمّي.

استفاق الأبُ من نومه العميق، ودون أن ينتبه إلى أنّ هناك ضيوفاً في البيت، توجّه نحو الحمّام. قالت زهور وهي ترمق بجانب عينِها مشيةَ زوجها التي تشبه مشيةَ سلحفاة:

- نحنُ في حاجةٍ إلى قصصٍ تُعلّم أبناءنا الأخلاق، أمّا قصص الحبّ الكاذبة هذه فلا طائلَ من ورائها أبداً.

ظلّت إيمان صامتة. قالَ خالد في دعابة:

- ومع ذلك، شاهدتِ مئة وتسعة وثمانين حلقةً من هذا المسلسل!

كان الأبُ قد وصلَ لتوّه إلى الحمّام. وعندما أغلقَ الباب وراءه، قالت زهور في ما يشبه الهمس:

- أبوكَ يتتبّع هذا المسلسل أيضاً. لا تظنّ أنه يكون نائماً فعلاً عندما يبدو كذلك، إنه يسمع كلّ شيء يدور حوله!

انفجرت إيمان ضاحكةً. رمقتها زهور شزراً، ثمّ عمّ صمتٌ ثقيلٌ المكان. سكتت إيمان مثلَ طفلةٍ عرفَت أنها اقترفت مصيبةً ما، ثمّ

راحت تفكّر في سكوتِها الذي يشوبه الخوف، وكرِهت نفسَها أكثر.
خرج الأبُ من الحمّام، أخذَ سبحتَه من على منضدةِ التلفاز، وجلَس على الكنبة دون أن ينبس بكلمة.

قالَ خالد مازحاً:

- ما رأيكَ في ما تقوله أمّي يا أبي؟

تنهّد الأب بحسرة وقال:

- هذه المسلسلات ستُفقد الناس عقولها... مكان أن يشاهدوا برامجَ مفيدة تنوّر عقولهم، يضيّعون وقتَهم في تتبّع كلامٍ فارغ.

تنحنحت زهور وهي ترمق زوجَها شزراً مرّةً أخرى، ثمّ حملَت جسدَها بصعوبةٍ لتنهض، وتوجّهت إلى المطبخ لإعداد الشاي، بينما كان جسدُها الضخم والمترهّل يتمايل كأنّه سيسقط في أيّ لحظة.

قال خالد:

- إنّها مجرّد قصصٍ يشاهدها الناس في أوقات الفراغ، ثم إنّ مشاهدةَ مسلسل تافه لمدّة ساعةٍ في اليوم، أمرٌ لن يضرّ أحداً يا أبي.

أرادت إيمان أن تشارِك في الحديث. لكنّ الخروجَ من الصّمت كان أشبه باقتلاع صخرةٍ ثقيلة من الأرض. حرّكت رأسَها دلالةً على موافقةِ خالد في كلامه، ثمّ قالت أخيراً:

- صحيح، أوافقُكَ الرأي.

التفتَ الرّجل العجوز إلى إيمان، ورنا إليها بنظرةٍ اتّهامية، ثمّ قال:

- النّساء بطبعهنّ يعشقن التفاهة!

قهقه خالد بطريقةٍ تشبه طريقةَ الأولاد المعروفين بالشغب والتنمّر في المدرسة. ومثلما يدخل حلزونٌ إلى قوقعته، دخلت إيمان في الصّمت من جديد وقد كرِهت نفسَها أكثر. ثمّ راحت تفكّر في صحّة كلام حميها. صحيحٌ أنّ النساء هنّ الفئة الأكثر استهلاكاً لهذه

المسلسلات، لكنّ السبب هو كونهنّ فضولياتٍ أكثرَ من الرّجال، ويعشقن الاستماع إلى القصص، وليس كونهنّ تافهات. أرادت أن تقول هذا، لكنّها فضّلت أن تبلع لسانَها، وأن تكتفي بالقول:

- أنا أصلاً لا أشاهدُ هذه المسلسلات التافهة.

متمايلةً كأنّها تحملُ الدنيا كلّها على كاهلها، عادت زهور إلى البهو حاملةً صينية الشاي. قالت وهي توزِّع الكؤوس على الطاولة:

- أنتِ لست بحاجةٍ إلى مشاهدةِ هذه المسلسلات التافهة، لأنّك تعيشين حياتكِ كلّها بطريقتهم.

رشقتها إيمان بنظرةٍ تنمّ عن ضيق واستنكار، أمّا خالد فقد اكتفى بالصّمت. قالت إيمان:

- ماذا تقصدين؟

لكزَها خالد بمرفقه، وهمس:

- اسكتي واتركيها تقول ما تشاء!

التفتت إلى زوجها وقد جحظت عيناها، وسألته باستنكار:

- لماذا؟

كانت زْهور تسكب الشاي ببرود، متظاهرةً بعدم سماع أيّ شيء. كان هناك خيطٌ من الأفكار في دِماغها لا تريده أن ينقطع. وضعت البرّاد على الطاولة بهدوء، وتطلّعت إلى إيمان، ثمّ تابعت في ما يشبه الهمس:

- هذا الفستان لا يليق بامرأةٍ متزوِّجة ومحترَمة.

حوّلت إيمان نظرَاتِها المذهولة إلى ركبتَيها العاريتَين، بينما تطلّع خالد إلى صدرِها في ضيق، أمّا والده فتابعَ التسبيح بخشوع، ولم ينبس بكلمة.

لكنّ خالداً تصرّف بسرعة:

- ستُعطيكِ أمّي شيئاً آخر تلبسينه!

كان هناك نوعٌ من التواطؤ الخبيث بين الجميع بخصوصها. ظلّت صامتة، شاعرةً بالذلّ والاحتقار. أشارت لها حماتُها بيدِها أن تتبعَها إلى الغرفة. ولم تدرِ إيمان كيف تحرّك جسدُها في تلك اللحظة، ولا كيف نهضَ من مكانِه. خيّم صمتٌ ثقيلٌ على المكان. صمتٌ مزعج. ثمّ سمِعت، وهي تمشي باتجاه الغرفةِ بجسدٍ مخدّر، صوتَ خالد وهو يشرب الشاي بلذّة، وصوتَ شخير حميها. أرادت أن تتراجع وأن تهرب، لكنّها لم تستطع. ومثل شخصٍ اقتيد إلى المقصلة، وقفت تنتظرُ تنفيذ حماتِها لحكمها القاسي ضدّها.

وفي اللحظةِ التي أدخلت فيها رأسَها في جلبابٍ أخضرَ طويلٍ وفضفاض يتّسع لثلاثةِ أجسادٍ من حجم جسدِها، شعرت بنوعٍ من الانفصال التامّ عن العالم، بينما كانت زهور تتطلّع إليها بإعجاب، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامةُ رضى وارتياح. وعندما خرجتا من الغرفة، ربّتت على ظهر كنّتها المطيعة، وقالت بسرور:

- إنّكِ لا تعرفين كم تبدين جميلةً في هذا اللباس! يجبُ أن تنظري إلى نفسِك في المرآة لتتأكدي من أنّ جمال المرأة يكمن في عفّتها.

رمقَ خالد زوجته في ضيق ممزوجٍ بالإحراج. جلسَت زهور إلى جانبه بسعادة المنتصِرة. لم تكنْ في حاجةٍ إلى بذل مجهودٍ كبير كي تقنع كنّتها الضّعيفة الشخصية. لم يُعجَب خالد بمنظرِ زوجته، لكنّ تنفيذ ما تطلبه أمّه أريَحُ له من رؤية زوجته في المنظر الذي يحبّ. الأمّ أهمّ من الزوجة، لأنّها تكون لدينا مرّةً واحدة في الحياة، أمّا الزوجة، فيمكن تغييرها في أيّ وقت بزوجةٍ أخرى. أراح نفسَه أخيراً وتابعَ شرب الشاي.

في طريقِهما إلى البيت، تعاركا كعدوَّين لدودَين. اتّهمت إيمان زوجها أنه بلا شخصية، بل زعمت أنه ليسَ رجلاً أصلاً، بينما صرخَ

في وجهها أنّها ليست نموذج المرأة التي يريد العيشَ معها، وأنّ المرأةَ الذكية تساير المجتمع الذي تعيش فيه.

كانا يقتربان من المبنى الذي تقعُ فيها شقّتهما حين قذفت في وجهه هذه الكلمات بعنف، حتى كادت تُجرح حنجرتها:

- تزوّج بأمّك إذاً.. أنا لستُ أمّك ولن أكون مثلَ أمّك أبداً!

ثمّ انهارت في قارِعة الطريق.

12

من لم يرَ الموت لا يمكنه أن يشعرَ بقيمة الحياة

تطلّعت إيمان بقلق إلى مظهرِها في المرآة الملتصقة إلى بابِ خزانةِ الملابس، قبلَ أن تخرجَ لاستقبال ضيوفِ زوجِها. كان التوتّر واضحاً على ملامِحها وهي ترحّب بهم واحداً واحداً في البهو، خاصّة أنّ عليها أن تتكلّم بلهجةٍ مشرقية كي يفهمها جميع الحاضرين المنتمين إلى جنسياتٍ عربية مختلفة. ولولا الأفلام المصرية والمسلسلات التركية المدبلجة باللهجة السورية التي شاهدتها في وقتٍ مضى من حياتِها، ما كانت لتستطيع التواصل مع هؤلاء الأشخاص.

كان خالد أسعدَ شخصٍ في الوجود في تلك اللحظة. رأتْ ذلك في أساريره المنفرجة، وثرثرته التي لا تتوقّف، وضحكاتِه المجلجلة. لقد كلّف نفسَه عناء إقامة وليمة عشاء في بيته ودعوةَ زملائه في العمل، لهدفٍ واحد لا غير: كسبُ ولائهم، ما قد يساهم في ترقيته بشكلٍ أسرَع.

عند الثامنةِ مساءً، كان العشاءُ جاهزاً. قدّمت إيمان السلَطات للضيوف، ثمّ طبقَ الدجاج المحمّر على الطريقة المغربية، وهي توزّع الابتسامات هنا وهناك، بنفسِ الطريقة التي توزّع بها الصّحون والشوكاتِ والسكاكين. كانت مدّةُ تناولِ العشاء وقتاً عصيباً في حياةِ إيمان، لكنّ غمامةَ التوتّر بدأت تنجلي شيئاً فشيئاً، بعد مرورِ ساعتين فقط من الدردشاتِ الخفيفة بهدفِ التعارف.

في تمام العاشرة، كان الجميع يشربون الشاي، ويتكلّمون عن مختلفِ المواضيع، ويسردون النكات، ويقهقهون، كأنهم ينتمون إلى عائلةٍ واحدة. واستطاعت إيمان، أخيراً، أن تدخلَ في محادثاتٍ مع الجميع. تحدّثت مع نجوى، الشابّة التونسية الفاتنة الجمال، عن وضعية النساء في تونس والمغرب، وضحِكت على نُكت نبيل، الشابّ المصري خفيف الدّم، وسألت سعيداً اللبناني عن مدى صحّة المعلومةِ التي تقول إنّ اللبنانيات كلّهن أجرين عملياتٍ تجميلية لأنوفهنّ، واستمعت أيضاً إلى إيناس، الشابّة السورية المحجّبة، وهي تحكي عن معاناتِها عندما كانت معتقلةً في سجون سوريا قبل سنوات.

وإذا كانت النساء عادةً يمِلنَ إلى الغيرةِ من بعضهنّ البعض لأسباب تتعلّق بالجمال والمظهر، فإنّ إيمان لم تنظر نظرةَ حسدٍ إلى نجوى الحسناء، ذاتِ الجسد الجذاب والأنوثةِ الطافحة، بقدرِ ما غارَت من إيناس، التي لا تملكُ ملامحَ جميلة أو استثنائية. غارَت منها لأنّها تملكُ قصّةً تحكيها، قصّةً خاصّةً بحياتِها، بينما لم يكن لإيمان ما تقوله عن نفسِها أبداً.

فبالإضافة إلى كونِها لا تعرِف كيف تتحدّث عن نفسِها، لم تكن لدى إيمان قصّةٌ استثنائية ترويها، قصّةٌ تجعل الحاضرين فاغري الأفواه وهم يستمعون إليها، عكسَ إيناس التي كانت حياتُها حافلةً بالأحداث المهولة.

بفخرٍ كبير، تتحدّث إيناس عن حياتِها قبلَ اللجوء إلى تركيا، والمآسي التي عاشتها عائلتها في سوريا بسبب الحرب. رنَت إلى إيمان بنظرةٍ ماكرة كأنّها قرأت الحسدَ في عينيها، قبلَ أن تشرَع في حكايةِ قصّتها.

بعدَ مشاركتِها في المظاهرات، إلى جانبِ أخيها، ضدّ النظام في سوريا عام 2012، اعتُقِل الاثنان في سِجن بانياس. كانت إيناس حينها

شابّةً في العشرين من عمرها، وطالبةً جامعيةً تشقّ طريقَها لتحقيق حلمها في أن تصبحَ إعلاميةً كبيرةً ومؤثِّرة. لكنّ السّجنَ، تقول، سرقَ منها زهرةَ شبابِها، على الرّغم من قِصَر المدّة التي قضتها هناك، إذ عاشت ما لا يُمكِن لعقلٍ بشريٍّ أن يصدّقه، وجرّبت النّومَ على الأرضِ الباردة، وتشاركت الزنزانةَ مع الجرذان المقرفة، ورأت نساءً حوامِل يُجهضن بسبب التوتّر والقلق والتعذيب النفسي، وشاهدت جثثاً مرميةً على الأرض عندما كانت تُقتاد إلى زنزانتها. ترنو مرّةً أخرى إلى إيمان التي تقضمُ ظفرها بتوتّر، وتتابع الحكيَ بعينَين متّسعتَين ومترقرقتَين بالدموع.

بعدَ أن خرجت من السجن، تقول إيناس إنّها لم تستطع الخلودَ إلى النوم دقيقةً واحدة، بسبب الكوابيس التي كانت تنقضّ عليها، فتستيقظُ في منتصفِ الليل متعبة، بجسدٍ عرقان، وعينَين جاحظتَين، وتظلّ مستيقظةً حتى الصّبح. لم تتوقف معاناتها عند هذا الحدّ، فقد صعِدت روح أخيها إلى السّماء ذات فجر داخل السّجن، مثلما يطيرُ عصفورٌ أخيراً بعد أن قضى حياتَه داخل قفص.

عندما يتأجّج الألمُ داخل القلب، يحترقُ الخوف ويصير رماداً، تقولُ إيناس، لذلك قرّرت عائلتها التي احترَق قلبُها على ابنِها، أن تهربَ من البلد حتى لا يلقى أبناؤها الآخرون نفسَ المصير، وليحدث ما يحدث بعد ذلك. أليسَ موتُ فلذةِ الكبد أقسى ما يمكن أن يحدُث مع أمٍّ؟ جمعت العائلةُ حقائبها إذاً، ودفعت مبلغاً كبيراً من المال رشوةً للنظام، حتى تستطيع العبور إلى تركيا. تفتحُ إيمان عينَيها في اندهاشٍ مزيّف، وتصيح باستهجان:

- هذا هربٌ على الطريقةِ الهوليوودية!

تردّ إيناس بنبرةٍ تنمّ عن خيبة:

- من لم يعرِف الحرب واللجوء لن يستطيع فهمَ معنى الألم، ومن لم يرَ الموتَ أمامه لا يمكنه الإحساس بقيمة الحياة.

كان الجميع يحدّقون فيها بإعجاب، ليسَ لأنها امرأةٌ فاتنة، بل لأنّها متحدّثةٌ جيّدة. ملامحُها الحادّة ونبرتُها الواثقة وهي تتحدّث، عبرَ قصّتها، عن معاناةِ الملايين من السّوريين الهاربين من الحرب، جعلت الجميع يستمعون إليها باهتمام. عيناها الخضراوان لا ترمشان وهي تتكلّم، كأنّ ما تقوله حقيقةٌ ليست بعده حقيقة. وحين تشعرُ أنها أصبحت مركزَ الاهتمام، تتابع الحديثَ بزهوٍ أكبر. والآن، بعد أن استهجنَت إيمان قصّتها، لم يعد هناك بدٌّ من رشّ بعض البهارات العاطفية والأسلوبية على كلامِها.

عدّلت طرحةَ رأسِها المزركشة بورودٍ مختلفة الألوان، وتابعت بتأثّر محدّقةً في الفراغ:

- إنّ مجرّد الإفلاتِ من الموتِ بطريقةٍ بشعة هو بطولةٌ في حدّ ذاته.

نظرت إلى الجميع، وأكملت وهي تلمسُ ساعديها وتوزّع نظراتِها على الجميع:

- انظروا.. إنني ما زلتُ حيّة بعد كلّ الذي حصل! هل تصدّقون؟ لا يمكن أن تصدّقوا، لأنكم لا ترون بأعينكم! إنني أحمدُ الله كلّ يوم لأنني ما زلت على قيد الحياة. إن الحياةَ نعمةٌ أتذوّق حلاوتَها كلّ لحظةٍ وكلّ ثانية!

لكزت إيمان خالد بمِرفقها وهمست في أذنه:

- لم أحبّ هذه الفتاة، إنها تبالغ كثيراً، لا أظنّ أنّ هدفها هو فضح جرائم النظام، بل الظهور بمظهر البطلة من أجل الوصول إلى غاياتٍ معيّنة!

كان خالد يتطلّع إلى إيناس بانبهار. وحين سمِع كلامَ زوجتِه، التفتَ إليها، وتحوّل وجهه الذي كان مفعماً بالإعجاب، إلى ملامِح مقطّبة.

- هل يمكنكِ أن تسكتي قليلاً؟

قالَ جملته هذه، وعادَ للاستماع إلى إيناس بنفسِ الملامحِ المنبهرة. في تلك اللحظة، لم تستطِع إيمان أن تتحمّلَ أكثر. ظلّت صامتةً لوهلة كأنّ صخرةً دُفِعت داخلَ فمها، ثمّ نهضت، وتوجّهت نحو الحمّام بخطواتٍ سريعة كمن ترغبُ في التقيّؤ. أغلقت الباب خلفَها بهدوء، واستندت إليه وهي تتنفّس بعمق. عذّبها الحسَد، لكنّ ملامحَ زوجِها التي تحوّلت فجأةً من الانبهار إلى التكشير، قتلتْها. أغلقتْ أذنيها كي لا تسمعَ الضّحكاتِ التي تتناهى إليها من الخارج، لكنّ ضحِكات إيناس المفعمةِ بالنشوة، كانت تقرعُ صدرَها بعنفٍ، فيتردّد صداها قوياً في كلّ جسدِها.

وفي الوقتِ الذي كانَت تتمنى فيه البقاء في الحمّام إلى الأبد، كانت غريزتُها تدفعُها دفعاً للخروج والانقضاض على شفتَيّ زوجِها أمام الجميع، في قبلةٍ طويلة وعميقة. ليسَ حبّاً فيه، وإنّما لإخبارِ العالم أنّ هذا البيتَ بيتُها، وأنّ هذا الرّجل مِلكها وحدَها.

بعدَ أن تفقّدت مظهرها في المرآة، اندفعت خارجَ الحمّام. تربط إيمان علاقة وطيدة بالمرايا. علّمتها لحظاتُ الوحدةِ أن تلوذَ إليها كلّما اشتدّ بها الألمُ النفسي وانتشرَ في جسدِها، مثلما ينتشرُ الدّود في جثّةٍ متعفّنة. تلجأُ إلى المرآةِ مرتديةً أكثرَ فساتينها بهجةً وإثارة. تسدلُ شعرَها البنّي الناعم على كتفَيها، وتضعُ الكثيرَ من الألوان على وجهها، أحمر على الشفتَين، أخضر أو أزرق فوق العينَين، ورديّ على الوجنتَين. تمرّر الفرشاةَ المحمّلةَ بغبرةٍ لامعة تحت عينَيها، وتحدّثُ نفسَها في الوقت ذاته. تحدّثُ نفسَها عن كلّ شيءٍ وأيّ شيء. تروي لها قصصاً، وتحكي لها نُكتاً، ثمّ تبكي معها، وبعدَ ذلك، تضحكان معاً، هي وصورتُها في المرآة، مثلَ طفلتَين. تصلان إلى مستوى عالٍ من التماهي والانسجام والتفاهم، لدرجةٍ تفتحانِ فميهما في نفسِ

الوقت، وتبدآن الحديثَ في نفسِ اللحظة، فيصعب على إيمان معرفةُ من تمسحُ دموعَ الثانية، ومن تحكي القصص للأخرى، ومَن منهما تشكو همّها للأخرى من زوجِها الأنانيّ الذي لم يعد يهتمّ بها.

والحقّ أنّ المرآةَ الكبيرة الملتصقة إلى الجدار في غرفة إيمان، أنقذت حياتَها أيضاً، فلولاها لكانت الآن في عِداد المجانين. تجعلُ منها صديقتَها في أوقاتِ الفراغ، وأمّها حين تستبدّ بها الوحشة، وأباها حين تتعطّل بوصلةُ حياتِها، وحبيبها عندما يؤلمها الشوقُ إلى الحبّ، وزوجَها حين تتوقُ نفسُها إلى الثباتِ والاستقرار والحنان. ودّت لو تستطيعُ حملَها معها إلى كلّ مكانٍ تذهبُ إليه، وودّت أيضاً لو تكسّرها فوقَ رأسِ خالد، لكنّ ما منعها لم يكن الخوف على زوجِها، بل عِشق تلك المرآة التي عوّضتها عن كلّ الحنان الذي كان ينبغي أن تتلقّاه من العالم.

تجعلُ الوحدةُ الروحَ شبيهةً بغرفةٍ ضيّقة داخل قبوٍ مظلم، غرفةً ملآنةً بالرطوبة، وتنضَحُ منها رائحةُ الأشياءِ القديمة التي لم تعد تصلح لأيّ شيء. ولولا المرايا، لتيبّست روحُ إيمان واختنقت ثمّ تعفّنت.

ورغمَ أنّها لم تعد تهتمّ بمظهرها كما كانت تفعلُ من قبل، لكنّ إيمان لم تتخلَّ عن عادةِ الجلوسِ إلى مرآتِها، والحديثِ إليها، خاصّةً حين يسكنُ النّاس إلى مضاجعهم، ويعمّ الصّمتُ العالمَ حولَها. تتركُ زوجَها راقداً على السرير، تحمل الأباجورةَ الصغيرة ذات النّور الخفيف، وتتوجّه على أصابع قدميها نحوَ انعكاسِها. وفي هزيع الليل، يطيب الحديث مع النّفس، وتعذبُ الشكوى، وتحلو الدّموع الصّامتة التي تنزلُ سوداء على خدّيها بفعل الكحل، مذيبةً صخرةَ القلقِ الراكدةِ فوقَ صدرِها.

حينَ خرجت من الحمّام، ظلّت واقفةً لبرهةٍ قصيرة تتأمّل الحاضرين. كانت نجوى تتحدّث بفخر عن بورقيبة باعتباره محرِّر

النساء التونسيات، بينما يستمعُ إليها خالد وسعيد، لكنْ، ليسَ بنفسِ الاهتمام الذي كانا يستمعان به إلى قصّةِ إيناس. أمّا نبيل، الذي كان يدخّن سيجارةَ حشيش، فقد كانت عيناه غارقتين في الفراغ، كأنّ عقلَه سابحٌ في عالمِ آخر. وحين خطَتْ خطوتَها الأولى عائدةً إلى البهو، انتبهت إلى أنّ إيناساً ليست جالسةً في مكانِها، والتقتْ عيناها بعينيّ نبيل في حركةٍ سريعة. ارتسمَت على شفتيها ابتسامةٌ قصيرة، ثمّ ابتعدت بنظرِها بسرعةٍ باحثةً عن إيناس.

لم تكن إيناس قد ذهبت، بل كانت واقفةً قربَ مدخلِ البيت، حيث توجدُ منضدةٌ كبيرة، رُصّت فوقها صوَر عائلية، وراحت تنظرُ إلى الصّوَر واحدةً تلوَ الأخرى، بملامح يبدو عليها الاستياء والكدَر. وبدَل أن تعودَ إلى الجلوس على الكنبةِ في البهو، توجّهت إيمان نحوَ هذه الفتاة الفضولية أكثر من اللازم، ووقفت بجانبِها متظاهرةً بالابتسام.

قالت إيناس وقد أصبَح وجهها شاحباً:

– يُشعِرني النظرُ إلى صورٍ قديمة بالخوفِ، ويذكّرني أنّ كلّ شيءٍ في الحياة ينتهي.

تجاهلت إيمان جملتَها، وأخذت تعرّفها بالأشخاصِ الظاهرين في الصّوَر. كانت الصّورة الأولى بالأبيضِ والأسود لشابّةٍ جميلة وحادّةِ الملامح، لها ضفيرتان طويلتان جدّاً، ووشمٌ على الذّقن.

قالت إيمان ببرود:

– هذه أمّي، التُقِطت لها هذه الصّورة عام 1978، عندما كانت في السّادسة عشرة. كانت جميلة، أليسَ كذلك؟

قالت إيناس بتأثر وقد أمسَكت صورةً أخرى:

– الأمّهات يظللن دائماً جميلات، حتى ولو ذهبَ شبابهنّ.

أخذت منها إيمان الصّورة التي تظهرُ فيها امرأةٌ ضخمةُ الجسم، جالسةٌ على الكنبةِ مرتديةً قفطاناً مغربياً أخضرَ، ولا تنظرُ إلى الكاميرا،

إذ يبدو أنّها تتحدّث إلى رجلٍ جالسٍ بقربِها، لكنّ الكاميرا لم تلتقِط سوى نصفِه، وبالتالي لم يظهر وجهه كاملاً. كانت الصّورة لوالدة خالد خِلال حفلِ عقيقةِ حفيدِها الأول عام 2013.

ثمّ هناك صورةٌ أخرى باهتةُ الألوان لطِفلةٍ صغيرة، نحيلةِ الجسم، وذات عينَين جاحظتَين من شدّة نحافةِ وجهها، ترتدي فستاناً أحمرَ مزيّناً بالورود. التُقِطت الصّورةُ لإيمان داخلَ استوديو تصوير عندما كانت في الرّابعة من عمرها. كانَ جميعُ المغاربة البسطاء والمنتمين إلى الطبقة المتوسّطة، خلال التسعينيات، يلتقطون صوراً في استوديوهات التصوير، لأنّها توفّر لهم مناظرَ طبيعية جميلة ومختلفة في خلفياتِ صورِهم، دون الحاجةِ إلى التنقّل إلى هذه الأماكنِ فعلاً. حكَت إيمان لإيناس أنّ والدتها تعذّبَت كثيراً قبلَ أن تُلتَقط هذه الصورة، لأنّ إيمان الصغيرة المنبهرة بمنظرِ الحديقةِ التي تظهرُ وراءها في الخلفية، كانت تلتفتُ في كلّ مرّة لتشاهد الزهور الحمراء والبنفسجية التي لم ترَ مثلَها في الواقعِ أبداً.

تناولت إيناس صورةً يظهرُ فيها خالد محتضناً إيمان من الخلف، ناظراً إليها بإعجاب، بينما تبتسمُ فتاتُه بشفتَين حمراوين مغمِضةً عينيها في غِبطة.

- من يكونان؟

قالت إيمان باقتضاب:

- خالد وأنا. . صورةٌ قديمة جداً.

ثمّ أضافت بسرعة وقد ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ ماكرة:

- ألا أشبِه نفسي؟

ردّت إيناس دون أن تُبعد عينَيها عن الصورة:

- شعرُكِ مختلفٌ هنا. . كأنّه مجعّدٌ قليلاً. . حُرّ أكثر.

أطلقت إيمان ضحكةً تنمّ عن انزعاجٍ واضح:

- لطالما أحببتُ الشعر المجعّد، لكنّ شعري ناعم. . اضطررتُ لوضع كريم للتجعيد وضفرِ شعري لمدة يومين حتى أحصل على هذه النتيجة.

قالت إيناس بنبرةٍ يطفرُ منها حزن وهي تشير إلى خالد في الصورة:

- يبدو أنّه يحبّكِ كثيراً.

نبضَ قلبُ إيمان بقوة حين بلغت مسمَعها كلمةُ «يحبّك». نظرتْ إلى الشابّ ذي الخمسة وعشرين عاماً، الذي يحضِنها بحنان، ثمّ حوّلت نظرَها إلى ذلك الرّجل البعيد عنها ببضعةِ أمتار، والذي يضحكُ بصوتٍ مرتفع على أشياء غير مضحكةٍ بتاتاً. ألهذه الدرجة تُغيّرنا الحياة؟ تساءلت بمرارة، ثمّ سألت الفتاة الواقفةَ إلى جانبِها ببلاهة:

- أهذا ما يبدو فعلاً؟

قالت إيناس:

- هذا ما يبدو في الصورة!

ثمّ أضافت وهي تغمزها:

- نظرتُه وطريقة احتضانه لكِ تقولان كلّ شيء.

أرجعت إيناس الصّورةَ إلى مكانِها، وعادت الاثنتان للجلوسِ في البهو، حيث ظلّ الجميع، حتى منتصف الليل يتحدّثون ويشربون الشاي. في لحظةٍ ما من السّهرة، انسحبَ عقلُ إيمان من المكانِ الذي توجدُ فيه، وراحَ يفكّر في الحبّ والغيرة. هل الغيرةُ فعلاً دليلٌ على الحبّ، أم مجرّد رغبةٍ في الامتلاك؟ وبين فكرة وفكرة، كانت تنظر شزراً إلى فمِ إيناس المصبوغ بأحمرِ شفاه خرجَ عن إطار الشفتَين الرفيعتَين، وهو ينفتِح ويُغلَق بسرعة، متحدّثةً بزهوٍ كبير عن عملِها وأحلامِها وماضيها الأليم الذي دفع بها إلى الأمام، ثمّ تحوِّلُ نظرَها إلى زوجِها المبهورِ بتلكَ الفتاةِ كأنّها بطلةٌ في فيلم أكشن. لأولِ مرّةٍ

تشعرُ بالخطرِ في بيتِها، خطر لم تشعر به حتى وهي تشاهد انطفاءَ حبّهما أمامَ عينيها. ولكنْ، أيّ خطرٍ هذا الذي يهدّدها؟ تساءلت بدهشة وهي تشعل سيجارة، لكنّها سُرعانَ ما وجدت الجوابَ وهي تسحبُ نفساً عميقاً. كانت هناك أنثى متوحّشة بداخلها مستعدّة للانقضاض على أيّ شخصٍ يحاول الاقترابَ من مجالِها الخاصّ. قالت الأنثى الموجودةُ برأسِها بنبرةٍ غاضبة:

- أنتِ تغارين لأنك لا تريدين مشاركةَ هذا الرجل مع أحد. لقد كان لكِ وحدكِ طوال عشر سنوات، ويجبُ أن يظلّ لكِ وحدكِ إلى الأبد، حتى لو توقّفتِ عن حبّه.

سألتها إيمان في ذعر:

- هل توقّفتُ فعلاً عن حبّه؟

صمتَت الأنثى المتوحّشة الموجودةُ في عقلها، وانسحبت في غنج دون أن تعطيها جواباً.

عند منتصف الليل، وعندما كان الجميع يغادرون، همَست إيناس في أذن إيمان وهي تبتسم:

- على فكرة، يناسبك الشعر المجعّد أكثرَ من الشعرِ الناعم.

ردّت بابتسامةٍ بليدة مثل ابتسامةِ منهزمٍ تحدّى خصمه كثيراً قبل الدخولِ في المعركة. وفي اللحظة التي كانَ خالد يغلقُ فيها الباب، التقت عينا إيمان مرّةً أخرى بعينَيّ نبيل الغارقتَين في الانتشاء وهو يبتسمُ بلطف مبالغٍ فيه. لفظتْ هذه الكلمات كأنّها تلفظُ علكةً ذهبَ مذاقُها:

- فتاةٌ زائفة وسطحية وتافهة.

توجّهت نحو الخزانة بسرعة وفتحت قنّينة نبيذ أحمر. سألَها خالد بينما كانت تسكب النبيذ في كأس:

- من الزائفة والسطحية والغبية؟

شرِبت من الكأس وقالت بمرارةِ من شرِب علقماً:

- انسَ الموضوع.

استلقى خالد على الكنبةِ في تعب، وتوجّهت إيمان إلى غرفةِ النوم حاملةً كأسها، وقبلَ أن تخرجَ إلى الشرفة، نظرت إلى نفسِها مطوّلاً في المرآة، وقالت بغيظ:

- لكنّ شعركِ الحقيقيّ ناعم.. ناعمٌ يا إيمان!

13

قومية...

الخروجُ من البيت والمشي في أزقّة بشكتاش مُتعةٌ كبيرة بالنسبة إلى إيمان. تضعُ السمّاعات في أذنيها وتستمع إلى أغاني مغربية ولبنانية ومصرية وفرنسية وأميركية. . . وتشعرُ أنّ رأسَها ليس إلّا مزيجاً من كلّ هذه الألحان والثقافات، وأنّها، في نهاية المطاف، إنسانٌ ينتمي إلى هذا العالم بكلّ ما فيه من اختلافات ومشتركات.

حين تتعبُ من المشي، تمرّ على البقّال قربَ المبنى الذي تسكن فيه، وتشتري بعضَ المكسّرات والعصائر، قبل أن تعودَ إلى البيت. لا يعرف البقّال لغةً أخرى غير التركية، ويضطرّان إلى التواصل بالإشارات أو بالاعتماد على ترجمة غوغل. أمّا حين يكون عليها أن تدفع، فيكتب لها المبلغَ على ورقة.

هذا الصباح، كان هناك رجلٌ آخر في المحلّ. وحين سألت البقال كالعادة: «How much?»، أجابَها الرّجلُ الآخر: «Thirty-five liras». اتّسعت عيناها دهشةً مثل طفلة، وابتسمت وهي تقول:

- هذه أول مرّة يتحدث فيها معي تركيٌّ بالإنجليزية.

ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ عريضة. سألت بفضول:

- لماذا لا يعرف الأتراك لغاتٍ أخرى؟

ردّ بسرعة كأنه كان يتوقّع منها هذا السؤال:

- لأنهم يقدِّسون لغتهم الأمّ.

قالت وهي تجمعُ أغراضَها ببطء في كيس بلاستيكي:

- ألا تتعلّمون الإنجليزية في المدرسة؟

قال:

- بلى، لكنّ أغلبية الأتراك لا يعطون هذه اللغة أهميةً كبيرة. بالنسبة إليهم، عليكِ أنتِ أن تتكلمي معهم بلغتهم في بلدِهم وليس العكس.

قالت باستغراب:

- لكنّ الإنجليزية ليست لغتي الأمّ أيضاً!

سكتت لبرهة، ثمّ أضافت:

- ألّا تعتبر هذا انغلاقاً على الذات؟ أرى أنّه من الغريب ألّا يتكلّم سكّانُ مدينةٍ كبيرة وسياحية كإسطنبول لغةً غيرَ لغتِهم الأمّ!

قال باسماً:

- عليكِ أن تتعلّمي التركية يا صديقتي كي تكون حياتُكِ هنا سهلةً وسلِسة.

كانت صامتة تتأمّله بدهشة. أضاف بسرعة:

- أنتِ من أيّ بلد؟

أجابت باقتضاب:

- المغرب.

قال:

- آه أعرفه. نسمّيه هنا فاس.

ضحكت وهي تردّد بنفس لكنته:

- فاس! عظيم!

تدخّل البقّال الذي كان صامتاً:

- أحبّ بدر خاري.

ضحِكتْ، فكلمة «خاري» بالدارجة المغربية هي صفةٌ جاءت من كلمة «خراء».

- تقصد بدر هاري!

كرّر بالتركية:

- نعم، نعم... بدر خاري.

أخذت مقتنياتِها وهمّت بالخروج. ثمّ سمعت الرّجلَ الآخر يقول:

- يقولون إنّ أجمل نساء العالم الإيرانيات، وتأتي المغربيات في المرتبة الثانية بعدهنّ مباشرةً.

لم تعرِف هل تعتبر هذا الكلام تغزّلاً يروم التحرّش أم مجرّد مجاملة. وما دامت لا تعرف، وما دام هناك خيار، اختارت اعتباره مجاملة. قالت بتركية متعثّرة وهي تبتسم:

- شكراً، يوماً سعيداً!

حين دخلت إلى البيت، راودَها شعورٌ عميق بالوحدة. رتّبت المقتنيات في المطبخ، وعادت إلى البهو. ارتمت على الأريكة وهي تنظرُ إلى الطاولة أمامها. كانت هناك عُلبة سجائر من نوع كينت فارغة. أمسكت العلبة في يدها وفكّرت في خالد وفي حبّهما القديم، وفي كلّ تلك الأيام الرائعة التي عاشاها معاً قبل سنوات. صارت حياتُهما مثل هذه العلبة تماماً، جديدةٌ وبرّاقة، كما لو أنّها ما زالت ممتلئة، لكنْ، بمجرّد الضغطِ عليها قليلاً، تنكمشُ وتفقدُ شكلَها.

14

قِرطٌ ضائعٌ في شوارع إسطنبول

ما الذي يجعلُ شخصَين يصرّان على البقاءِ معاً على الرغمِ من أنّهما فكّرا في الانفصال مرّاتٍ عديدة، أو يفكّرانِ في الانفصالَ كلّ يوم، مثلما حصلَ مع إيمان وخالد؟ لا إيمان ولا خالد استطاعَ الإجابةَ عن هذا السّؤال، ومع ذلك، ظلّت إيمان تجمّع بهوس أخطاء خالد طوال سنوات، كما يُجمّع مهتمّ بالتطوّرات التاريخية الطوابعَ البريدية. تخفيها في صندوقٍ سرّي في ذاكرتها، من أجلِ أن تعرِضها أمام زوجِها، بمجرّد أن يرتكبَ غلطةً جديدة.

ذات صباح سبت من أكتوبر عام 2016، كانت الصّحف والتلفزيونات والإذاعات الوطنية والدولية ومواقع التواصل الاجتماعي تعجّ بالأخبار حول مقتلِ بائع سمك مطحوناً داخل شاحنة نفايات في مدينة الحسيمة شمال المغرب. مذعوراً، استيقظَ خالد على اتصال هاتفي من رئيسه في العمل يطلبُ منه أن يكتب مقالاً عن الموضوع، وينشره في الموقع.

كان لا يزال يحاول إيقاظ دماغه حين وقعَت عيناه على قنّينتَي نبيذ فارغتَين على الطاولة أمامه، وحمّالاتِ صدرٍ حمراء مرميةٍ على الأرض، قبل أن يُدركَ أنه في شقّته حين سمِع صوتَ زوجته قادماً من المطبخ:

- صباح الخير!

أعدّت له على عجل قهوةً سوداء، ووضعت الفنجانَ أمَامه على الطاولة، ثمّ جلست إلى جانِبه وفتحت هاتِفها لتطّلع على مستجدّاتِ الخبرِ الذي قلبَ الدّنيا. كانت هادئة، بينما كان هو غاضباً كفاية كي يكسّر وجه أحدِهم. ارتدى ملابسه بسرعة وأشعل الحاسوب.

- هل رأيتَ ما حصل؟

لم يردّ. رمقته شزراً، ثمّ أضافت بنبرةٍ مُفعَمةٍ بالأسف:

- آه ما زلتُ لا أصدّق أن هذا يمكن أن يحصل!

كان يرقن على حاسوبه بسرعةٍ وعنف. رنَت إليه باستغراب، وقالت:

- هذا إنسانٌ يموت مطحوناً في شاحنة نفايات في بلدِك، وأنت لا تهتمّ! غريبٌ أمرُك.

لم يأتِها سوى صوت لوحةِ المفاتيح. أشعلَت سيجارة، وتابعت باستهجان:

- تتصرّف كأنّك الوحيد في العالم الذي يعمل!

دخلت إلى يوتيوب وشغّلت أغنية I Will Survive، نكايةً فيه.

كانت تحاول استفزازه كي يتفوّه بكلمةٍ سيّئة، حتى تجدَ الفرصةَ لسحبِ صندوق الأخطاء. رمقَها شزراً. كان مزاجُها الرائق يجعله يجنّ، لكنّه ظلّ صامتاً.

في حقيقة الأمر، لم تكن إيمان مهتمّة بالطريقة البشعة التي ماتَ بها بائع السّمك، بقدرِ ما كانت مهتمّة بهذا الرّجل الجالس إلى جانبِها، طامحةً إلى استفزازه وتشتيتِ تركيزه انتقاماً لنفسِها. إنّها غير قادرةٍ على نسيانِ إفلاتِها لفرصةِ الذهاب إلى باريس قبلَ سنة بسببه، وغير قادرةٍ على نسيانِ منظرها وهي ترتدي جلباباً يتّسع لثلاثةِ أشخاص، وغير قادرةٍ على نسيانِ خروجِه من البيتِ في منتصف الليل بعدَ شجارٍ عقيمٍ معها، وغير قادرةٍ أيضاً على نسيانِ تلك القهقهاتِ الساخرة التي يقذِفها في وجهها

حين تعلّق على شيءٍ يخصّ عملَه أو مِهَن أصدقائه. كلّ شيءٍ مخبّأ في صندوقها السرّي، لا يمسّه غبارٌ، ولا يموتُ مع الوقت، ذلك لأنّها تسحبُ هذا الصّندوق كلّ يوم، وتتفرّجُ على تلك الأخطاء بألم، تمسحه وتلمّعه بالدّموع، ثمّ تُرجِعه إلى مخبئه السرّي في ذاكرتها.

نما لدى إيمان شعورٌ عميقٌ أنّها ضيّعت حياتَها مع خالد، خاصّةً بعدما اكتشفت، بمحضِ الصّدفة، كاتبةً تركيةً تُدعى «زهرة التوليب»، تكتبُ بالإنجليزية ولها مدوّنةٌ أنيقة على الإنترنت. كانت تبحثُ عن نصوصٍ أدبية كتبتها نساءٌ باللغة الإنجليزية، وأوصلها بحثُها المعمَّق إلى قصّةٍ من قصص هذه الكاتبة. انبهرت حين دخلت إلى مدوّنتِها التي رُسِمت في خلفيتِها زهور التوليب من مختلفِ ألوانِها. بعينَين متّسعتَين، حدّقت في تلكَ الزّهور، ثمّ ضغطَت عشوائياً على قصّةٍ بعنوان: قِرطٌ ضائعٌ في إسطنبول.

تروي «قرطٌ ضائعٌ في إسطنبول» حكايةَ فتاةٍ فقيرة حلمَتْ دائماً بشراء قِرطين فيروزيي اللَّون، رأتهما معروضين في واجهةِ محلٍّ في حيّ نيشان طاش الراقي.

كانت الفتاة تعملُ خادمةً في البيوت لعَولِ عائلتِها المكوّنةِ من تسعةِ أفراد. تمسحُ الغُبارَ وتحمِلُ السّطولَ الثقيلة وتغسِلُ الأوساخَ وآثارَ السّهراتِ الطويلة وتُراقِبُ، من زاويتِها البعيدة الطافحةِ بروائحِ مساحيق التنظيف، النّساءَ الأخريات متمدّداتٍ على الأرائكِ مثلَ قططٍ مدلّلات وهنّ يتحدّثنَ في هواتفهنّ بغنج ويصبغن أظافرهنّ في نفسِ الوقت، أو متمرّغاتٍ في بانيو الحمّام الممتلئ بالرغوة، مغمضاتٍ أعينهنّ غارقاتٍ في عوالمهنّ الوردية، أو وهنّ يستعدِدْنَ للخروج مرتدياتٍ فساتينَ جميلة، ومجوهراتٍ تُبهِر العيون. كانت تراقبهنّ وهي تحلم أن تصبح يوماً مثلهنّ. عمِلت الفتاة طوال سنواتٍ كالمجنونة، لكنّها لم تستطع توفيرَ ثمنِ القرطَين، وكانت تمرّ كلّ يومٍ من الشارع الذي يوجدُ فيه

المحلّ، تتوقّف عند الواجهة، وتظلّ تحدّق فيهما بعينَين مترقرقتَين بدموعِ التوق والاشتهاء.

وحين بلغتِ الرابعة والعشرين، تقدّمَ رجلٌ لخطبتِها. لم تكن ترغبُ في الزواج، بقدرِ ما كانت تريدُ الحصولَ على القرطَين بأيّ ثمن، وكانت مستعدّةً لتقديم حياتِها كلّها لهذا الرّجل مقابلهما. اشترطت عليه إذاً أن يكون مهرُها هو القِرطان الفيروزيا اللون. قدّمَ لها الرّجلُ القِرطين في علبةٍ خضراءَ أنيقة، ترقرقت عيناها تأثراً وهي تفتحُها وتضعُ القرطَين في أذنَيها، ثمّ تتفرّجُ على نفسِها في المرآةِ مسحورةً بمنظرهما. كانت نظرتُها إلى نفسِها في تلك اللحظةِ تشبه نظرةَ رجلٍ يتطلّع بإعجابٍ إلى امرأة، وليس نظرةَ امرأةٍ إلى نفسِها.

بعد الزواج، تحوّلتِ الفتاةُ من خادمةٍ في البيوت إلى خادمةٍ في بيتِ زوجِها. أنجبت خمسةَ أطفال، وأضيفت إلى حياتِها المفعمة بروائحِ موادِّ التنظيف، روائح جديدة: روائح الحفاظاتِ والتبابين والجوارِبِ المتّسخة.

بعدَ عشرين عاماً، حضرتِ الفتاةُ، التي ذهبَ جمالها وترهّل جسدُها وتحوّلت إلى امرأةٍ سمينةٍ وعصبية ومتقلّبةِ المزاج، حفلَ زفافِ بنتِ إحدى جاراتِها، وارتدتِ القرطَين بفخر وهي تسترجع أيّامَ شبابِها وذلك التوقَ الذي كان يشتعل داخلَها قبلَ أن تمتلكهما. وفي طريقِ عودتِها إلى البيت عند منتصفِ الليل، فقدَتْ أحدَ القرطَين.

انهارَ العالمُ كلّه أمامَها دفعةً واحدة حين شاهدت ثقب أذنها اليُسرى فارغاً، وحينَ أشرقت شمسُ الصّباح، اندفعت خارج البيت، وبحثت عن القرط على طول الطريق الذي مرّتْ منه، لكنّها لم تعثر على أيّ شيء. ركضت في كلّ شوارعِ إسطنبول كالمجنونةِ باحثةً عن هذا القِرط الذي كلّفها حياتَها كلّها، لكنّ عينَيها لم ترَيا سوى حياتها البائسة وأحلامها المُجهضة مسكوبةً على الطرقات والأرصفة مثلَ دمِ الأضاحي في العيد.

وحين لم تجد خياراً، ركضت إلى المحلّ نفسِه في نيشان طاش، وقد قرّرت أن تعوّض القرط الضائع بأيّ ثمن. وحين دلفت إلى المحلّ، وكشفت عن القِرط أمام البائعة، وهي تخبرها بعينَين دامعتَين أنّها اشترتهما من هذا المكان قبلَ عشرين عاماً، أمسكت البائعةُ القِرطَ في يدِها وتأمّلته طويلاً، ثمّ رمقتها بنظرةٍ تنمّ عن الأسف، وقالت:

- نحن نبيع أقراطَ الماس، وهذا القِرطُ مجرّدُ نسخةٍ مزيّفةٍ عنه!

بعد تبخّر الشغف والعشق في علاقتِها مع خالد، انقسمت حياةُ إيمان إلى مرحلتَين مهمّتَين: مرحلةُ ما قبلَ قراءةِ قصّة «قرطٌ ضائعٌ في إسطنبول»، ومرحلةُ ما بعدَ قراءة القصّة. والفرقُ بين المرحلتَين يشبه الفرقَ بين حالةِ مريضٍ قبلَ وبعدَ تشخيص مرضِه. في المرحلةِ الأولى، كانت دواخلُ إيمان تتآكلُ من الألم، لكنّها لم تكن قادرةً على تحديد الأسباب الكامنة وراء هذا الألم، فكانت تكتفي، في لحظات الوحدة، بالدخول في نوباتِ بكاءٍ طويلة، لاطمةً خدَّيها، نادبةً حظّها العاثر. أمّا حين تجلسُ مع أصدقاء خالد، فكانت تسرحُ في أفكارِها متخيّلةً شعورَ هؤلاء وهم يذهبون صباحاً إلى مكاتبهم، ويعودون إلى بيوتهم في المساء، ويقبضون رواتبَهم في آخر الشهر، في الوقتِ الذي لم تكنْ هي تملكُ أيّ شيءٍ تفعله أو تتحدّثُ فيه مع الآخرين. إنّ أطولَ مسافةٍ قطعتها إيمان وحدَها هي المسافةُ بين المطبخِ حيثُ تُعدّ الطعام، وغرفةِ النوم حيثُ تجلسُ إلى المرآة، محدّقةً في وجهها المُتعَب. تضعُ مساحيق التجميل، ثمّ تزيلُها بعدَ دقائق، ثمّ تضعُها مرّةً أخرى، ثمّ تغسِلها بالدموع. وما بين المطبخ وغرفة النوم، تستريحُ في البهو من مللِ حياتِها، غارقةً في عالمِ القصصِ والروايات.

أمّا المرحلةُ الثانية من حياةِ إيمان، فقد اتّسمت بالكثيرِ من السّخطِ تجاه نفسِها والرجال والعلاقات والعالم ككلّ. كأنّها اكتشفت فجأةً أنّ

ما بنَت عليه حياتَها كان مجرّدَ زيفٍ وسراب، لكنّها لم تعرِف ذلك إلّا بعد فواتِ الأوان. كلّ ما كان يدور في بالِها هو أنّ الحبَّ هو الذي صنعَ منها كائناً لا فائدة تُرجى منه، وجعلَ منها إنسانةً بلا قصّةٍ تستحقّ أن تُروى، بل مجرّد شيءٍ يتحرّك ويستهلك الأكسجين.

قضمت ظفر إبهامها، ثمّ أمسكت الهاتف، وراحت تنبش في ألبوم صورِها، باحثةً عن أكثرِ صورِها جاذبيةً وإغراءً. سحبَت نفَسين من سيجارتِها مرّةً احدة، ولم تنفث أيّ دخان. كانَ نظرُها قد وقعَ على تلك الصّورةِ التي تحاولُ فيها تقليدَ ضحكةِ مارلين مونرو، رافعةً رأسَها إلى أعلى قليلاً كأنّ أحداً ما يدغدغها، فاتحةً فمَها على آخره، بينما تظهرُ أسنانُها البيضاء المرتّبة، وعنُقها الأبيض الطويل، وجزءٌ من صدرِها وفستانِها.

إنّ الرغبةَ في الانتقام هي أسوأ شعورٍ في الحياة على الإطلاق. كانت يداها ترتجفان، وكانَ شيءٌ ما يتآكلُ داخل معدتِها وهي تنشر الصّورةَ عبر حسابِها على فيسبوك مرفقةً بتعليق: عندما تُعطي القيمةَ لمن لا يستحقّها، فأنتَ مهدّدٌ بفقدانِ نفسِك وقيمتك. دعست عقب السيجارة في المنفضةِ بعنف كأنّها تدوسُ حشرةً ضارّة، ثمّ راحت تقرأ التعليقات التي بدأت تتهاطلُ على الصّورةِ منذ الدقيقة الأولى لنشرها.

أغلقتِ الهاتف وقد ارتسمت على وجهها ابتسامةُ رضى من الاهتمام الذي حظيت به، بالإضافة إلى المُجاملة والغزَل الذي تهاطل عليها. أرجعت رأسَها إلى الوراء متكئةً على مسندِ الأريكة، وثبّتت نظرَها في السقف لبرهة، ثمّ أغمضت عينَيها في استمتاع.

ثمّة شيءٌ واحدٌ تستطيع إيمان الاستمتاعَ بالتفكيرِ فيه لمدةٍ طويلة، وهو الاهتمام. عندما يجتمعُ أصدقاء خالد أو زملاؤه عندَهما في البيت، كانت تدخل في صمتٍ عميق مفعم بالخجل والإحراج والتوتر، ذلكَ أنّه لم يكن لديها ما يُقال أبداً أمام قصصهم وطرائفهم ونكتِهم

وحيواتهم التي تعجّ بالأحداثِ الجديدة. ولذلك، لم يكنْ أحدٌ ينتبه لوجودها، وعندما يوجِّه لها أحدهم الكلام، فإنّما ليطلب منها بلطف أن تحضِر له كأسَ ماء من المطبخ، أو ليقول لها إنّ رائحةَ الطبخ زكية، أو ليسألها عن نوعِ قاتلِ الحشراتِ الذي تستعمله للقضاءِ على الذباب في البيت. كانت تجيبُ عن الأسئلةِ بتمتماتٍ غريبة مطرقةً رأسَها محاولةً مداراة ضيقِها، ثمّ تدخل في الصّمتِ من جديد.

لكنْ، لأنّ الإنسانَ في نهاية المطاف يجدُ طريقاً لكلّ شيء، ولأنّ الحاجةَ التي تغلي بداخلِه تستطيع دفعَه للعثورِ على ما يحتاجه بأيّ شكل، فقد عثرت إيمان على أشخاصٍ آخرين يمنحونها الانتباه والإنصاتَ الكافي لتشعُر أنّها مهمّة. استهدفت إيمان في بحثِها عن الاهتمام، أشخاصاً أقلّ منها مرتبةً اجتماعية، أشخاصاً يطمحون، من خلالِ حديثهم إليها، إلى الحظوةِ برضاها، وبالتالي الحصول على بعض النقود التي ستجودُ بها عليهم. صارت تقضي وقتاً طويلاً قربَ باب المبنى الذي تقعُ فيه شقّتها، واقفةً مع البوّاب، متحدّثةً عن كلّ شيءٍ وأيّ شيء. مرّةً تتناقشُ معه في أحوالِ البلد وما آل إليه بعدَ حراك 20 فبراير، ومرّةً تثرثر معبّرةً عن استيائها من روائح القمامةِ في أزقّة الحيّ، ومرّةً تحكي له عن جزّار الحيّ الذي سمِعت أنّه يبيع لحومَ الحمير بدلَ البقر، ومرّةً تشتكي له من البائعين في السّوق الذين يعرِضون منتجاتٍ سيّئة الجودة بأثمانٍ خيالية. ربطت علاقةً وطيدةً أيضاً مع زوجةِ البوّاب، وأصبحت تذهبُ لرؤيتِها كلّ صباح بعدَ أن يذهب زوجها إلى العمل، وتقضي معها السّاعاتِ الطويلة، وهي تتحدّثُ عن مكرِ الرّجال وأنانيتهم وتصرّفهم مع زوجاتهم بطرقٍ عاهرة في الكثير من الأحيان. حتى البقّالُ القريبُ من البيت، ربطت معه علاقةً أشبه بالصداقة، تظلّ واقفةً لمدّة نِصف ساعة بعد أن تقتني ما تحتاجه من موادّ غذائية، وهي تروي له قصصَ شخصياتٍ روائية على أساس أنّها قصصُ أشخاصٍ حقيقيين،

فيتطلّع إليها بدهشةٍ كبيرة. مرّة حكت له عن شخصٍ فقدَ الإحساسَ بالأشياء من حوله في الحياة، لدرجةٍ لم يكترث لموتِ أمّه، ومرّة حكت له عن امرأةٍ متزوّجة برجلٍ ثريّ، لكنّه لا يعامِلها بحبّ وحنان، فخانته مع رجلٍ آخر، وانتهى بها الأمرُ بأن رمَت نفسَها على سكّةِ القطار لتموتَ منتحرة، ومرّة حكت له عن طالبٍ جامعيّ انتقلَ من القرية إلى المدينة للدراسة، لكنّه توقّف بسبب فقرِ والدَيه، فأصيبَ بالكآبةِ والانطواء، ونما لديه شعورٌ بعدمِ الانتماء إلى الوسط الذي يعيشُ فيه، لذلك قرّر أن يقتل امرأةً عجوزاً لَا تربطه بها أي علاقة، من أجل استرجاع كرامتِه المفقودة. تروي إيمان هذه القصص، وهي تتطلّع بفضول إلى ملامحِ البقّال المفعمةِ بالدهشة وعدم التصديق تارةً، وبالأسفِ والتحسّر تارةً أخرى، وتشعرُ بسعادةٍ قصوى تتولّد داخلها، ومثل مخدّرٍ قويّ المفعول، تغمرُ هذه السّعادةُ كلّ الألمِ المغروز في روحِها كإبَر.

- ألم تخجلي من نفسك؟

فتحت عينَيها، ورفعت رأسَها عن مسندِ الأريكة، ثم سألته وهي تلعب بخصلاتِ شعرِها ببرود:

- لماذا؟

بعصبية، أغلقَ حاسوبَه، ورمَقها بنظرةٍ مفعمةٍ بالخوف، ثمّ قال:

- ماذا لو رأت عائلتي الصورة؟

لم تنظر إليه ولم تردّ. كانت فقط تستمتع كمَن يستمِع إلى مسرحيةٍ في الراديو. وبعدَ برهةِ صمت، ذهبَ مفعولُ مخدّر السعادة، فوخزَها الألم من جديد، بدءاً من صدرِها.

- لماذا تنهضين؟

كانت تحاول منعَ الألمِ من الانتشار في داخلِها، قالت متظاهرةً بعدم الاكتراث لذلك:

- لأنّك تخافُ من أمّك.

أدارت له ظهرها، وتوجّهت إلى المطبخ بخطواتٍ سريعة. الهربُ

أسهل طريقةٍ للتخلّص من الألم، فكّرَت، قبلَ أن تسمعه يصرخُ بحنجرة مبحوحة:

- امسحي تلك الصورة!

كانت ركبتاها قد ذابتا من الخوف حين كرّرَ جملته مرّة ثانية. نطّ الخوفُ داخل بطنِها بسرعةٍ أكبر، واستندت إلى باب المطبخ، ثمّ تمتمت:

- إنّك تفكّر بعقلِ أمّك، وليس بدماغك أنت.. هذا مثيرٌ للشفقة!

وحين اندفعت إلى الداخل، اهتاج، وتبعها. كانت مستندةً إلى الحائط تحاول استجماع أنفاسِها. أمسَكها من شعرِها، وجرّها نحوه بعنف. شعرت بأنفاسه ساخنةً في عنُقِها وهو يقول:

- إذا لم تمسحي الصورة ستندمين!

وبين كلّ كلمةٍ وأخرى نطَقها، كانت تسمعُ كلمةَ «فِرَاق» تتردّد في دماغِها، كما يتردّد الألمُ في جرحٍ طريّ. تلوّى الألمُ في بطنِها، وصعدَ إلى صدرِها بسرعة، ثمّ عادَ وعلِقَ بمعدتِها. كانت خائفةً من أن يترُكَها. أرادت أن تقاومَ هذا الخوف، أن تتقيأه، أن تهرب بعيداً عنه، لكنّها بدلاً عن ذلك، لهثت ككلبٍ جريح، بينما كانت حبّاتُ العَرق تطفرُ من جلدِ جسمِها كلّه. وفي نفس الوقتِ الذي أرادت فيه أن تتوسّله ألّا يتركَها، أرادت أيضاً أن تبعِده عنها. كأنّ في قلبِها خنجراً مسموماً، يؤلمها، لكنّها غيرُ قادرةٍ على أخذِ قرارِ نزعه، لأنّ الألمَ سيبقى مغروزاً بداخلها في جميع الأحوال. أمّا ذلكَ الخوفُ في أن يتم التخلّي عنها، فقد كانَ أكثرَ قوةً وشموخاً من كلّ المشاعرِ الأخرى التي انتابتها. شمّت التهابَ أنفاسه في وجهها، وأحسّت أنّ شعرَها سيُقتلَع من جذورِه. رَفعت بصَرها نحوَه، وقالت بهدوء:

- انتهى الأمرُ بيننا!

عمّ صمتٌ مخيفٌ المكانَ، في الوقت الذي كانَ فيه صوتُ غلوريا غاينور لا يزال يصدح بلا توقّف، قادماً من البهو: «I will survive».

عالقةٌ في مركبٍ وسط البحر

مسّدت نجوى ظهرَ قطّةٍ رماديةٍ سمينة جالسةٍ على الكرسيّ الذي بجانبِها، دونَ أن تشيح ببصرِها عن الأشجار الممتلئةِ والمخضرّةِ التي تملأ المكان. فكّرت لوهلة بأمل أنّ ما مِن مشكلةٍ إلّا ولها حلّ، ثمّ سُرعان ما جثمَ اليأسُ مرّةً أخرى على صدرِها، كأنّ صخرةً سقطت عليه بكامل ثقلِها.

تنفّست عميقاً، وتناهت إليها رائحةُ القهوة قويةً ممتزجةً برائحةِ الرّبيع المنعشة. كانت، مثلَ القطط، قادرةً على شمّ روائحَ صعبةِ التمييز والاستمتاعِ بها. الرّبيعُ مثلاً، الذي تمتزجُ فيه رائحةُ ترابٍ مبلولٍ برائحةِ خُضرٍ وفواكه طرية غُسِلت لتوّها، قِططُ الشوارع التي تمتزجُ فيها رائحةُ رضيعٍ وُلِد لتوّه برائحةِ الرّوث. . لكنْ، ما فائدةُ هذه القدرةِ التافهة ما دامت الطبيعة لم تمنحْها ما منحته لغالبية البشر والكائنات؟

حرّكتْ نسمةٌ خفيفةٌ خصلاتِ شعرِها الناعم الذي يصِلُ إلى منتصفِ عنُقِها، ومسّدت ظهرَ القطّة السّمينة مرّةً أخرى، ثمّ راحت تتفرّجُ على الناس وهم يروحون ويجيئون، شاعرةً بالاغترابِ في أقسى صوره، ليسَ اغتراباً داخلَ المكانِ فحسب، بل داخلَ الجسد أيضاً. توقّفَ أنفُها عن التقاطِ الروائح، والتقطَ قلبُها بسرعةٍ رائحةَ الحزن.

لم تكن نجوى تنتظرُ أحداً، ولم يكن أحدٌ في انتظارِها أيضاً.

تجلسُ دائماً في هذا المقهى الصّغير الواقعِ في حيّ جيهانغير، بعينَين واسعتَين، ملتمعتَين، متحرّكتَين باستمرار كأنّهما ترصّدان شيئاً، لكنّها لا تتزحزحُ من مكانِها، ولا يأتي أحدٌ لرؤيتِها. تجلسُ كلّ يومٍ عندَ السادسةِ مساءً بعد الانتهاءِ من العمل، تشربُ قهوةً تركية، تدخّنُ سيجارتَين أو ثلاثة، وبعد أن تمرّ ساعتان بالضبط، تحملُ جسَدها بصعوبةٍ وتنهض، ثمّ تسيرُ قاطعةً أزقّة بيه أوغلو الضيّقة ذاتِ الأبنيةِ القديمة التي يرجعُ عمرُها إلى القرنِ التاسع عشر. تشعرُ بامتدادٍ غريبٍ في التاريخ وانتماءٍ مريحٍ إلى العالم. ترتاحُ قليلاً من وجعِ الاغتراب، ثمّ سُرعان ما يعاوِدها التمزّق من جديد، خاصّةً عندما تمرّ بجانبِ واجهات المحلّات، وتشاهد انعكاسَ جسدِها فيها.

تتوقّفُ نجوى ناظرةً إلى وجهها المدوّر، وبشرتِها البيضاء الصافية، وعُنُقِها الطويل، وصدرِها البارز، وحوضِها الممتلئ الذي تبدو استدارتُه واضحةً حتى من بنطال الجينز الواسع الذي ترتديه، فينغرزُ الشعورُ بالاغتراب داخلَ معدتها، ثمّ يشقّ بطنَها، ويفرغُ أمعاءَها. يتمايلُ جسدُها من الخواء الممزوجِ بالقرف، وتلفحُ الدوخةُ رأسَها. في تلك اللحظات التي تحاول فيها التّماسك لألّا تسقط، ترنو إلى ساعدَيها وكفَّيها، تتأمّلُ النّدبات العميقة فيها، ندباتٌ لجروحٍ قديمة وأخرى طرية، فتشعرُ بقليلٍ من السّلوان. تثبّتُ ساقيها المترنّحتين في الأرضِ من جديد، وتسرعُ الخطى نحوَ البيت وبداخلِها رغبةٌ عميقة في تمزيقِ جِلدها مرّة أخرى.

إنّ التمزّقَ الداخلي أكثر سوءاً من تمزّقِ الجلد، لأنّ الجروحَ الخارجيةَ تجفّ بفعلِ الهواء، وتكفيها لمسةُ دواءٍ لتبرُدَ حرارةُ ألمِها، أمّا الجروح الداخلية فيصعبُ الوصولُ إليها لمعالجتِها، لأنّها تقبعُ غالباً في أماكِن يصعبُ الإمساكُ بها، أماكِن مظلمةٍ من القلبِ أو الذاكرة، مليئة بالرّطوبةِ كأقبية، لا تصلُها الشمسُ ولا الهواء ولا حتى الكلماتُ

الجميلة أحياناً. ومع الوقت، تتعفّنُ هذه الجروحُ وتزدادُ عمقاً وينتشرُ وجعها في مواضِع أخرى.

عندما يصِل التمزّق الداخلي بنجوى إلى أقصى درجاتِه، تهرعُ إلى الحمّام كمدمِنة أقراصٍ مهلوسة. تُمسِك شفرة الحلاقة وتضغطُ عليها بقوة مغمضةً عينَيها، ثمّ تبدأُ في شقّ جِلد ساعدِها على شكلِ أخاديدَ طويلة. يحمرّ أنفُها وتدمَع عيناها وهي ترى الدّمَ يطفَرُ من الجلدِ. نشوةٌ عارمةٌ تهزّها وهي ترى الدّمَ يتقطّرُ على الأرضيةِ البيضاء. تتنفّسُ بعمقٍ ناسيةً الجرحَ الداخليّ، ثمّ تتناهى إلى أنفِها رائحةُ الدّم التي تشبه رائحة الصّدأ، قوية ولذيذة. يتساقطُ جسدُها غيرَ مكترثٍ لقطراتِ الدّم التي تملأ الأرض. تُخرِج لسانَها وترفعُه في حركةٍ بطيئة لاعقةً شفتَها العليا الورديةَ المكتنزة، وهي تتخيّل أنّها تلعقُ دمَها.

بدأت نجوى بجرحِ جلدِها منذ أن جاءت إلى إسطنبول قبلَ ثلاث سنوات. كانت الحياةُ في هذه المدينة مثيرةً بالنسبة إليها في البداية، فهامش الحرّية الذي يتمتّع به هنا كلّ إنسانٍ يحمِل جسَد امرأة أوسَع بكثير من نظيره في تونس. ارتمَت في حضنِ هذه المدينةِ الكبيرة، وزارت بانبهار كلّ متاحِفها وجوامِعها وأماكنِها الأثرية والتاريخية، وجلسَتْ في مقاهيها ومطاعِمها، وتعرّفت إلى سكّانِها، وتعلّمت القليلَ من لُغَتِها. ظنّت في البدايةِ أنّ عملية التأقلُم والاندماج قد تمّت بنجاح، لكنْ، بعدَ مرورِ سنةٍ واحدة فقط، بدأت الأيامُ تتشابه وتتحوّل إلى لحظاتٍ ثقيلة تجثم على صدرِها فتخنقه، وبدأت هذه المدينةُ البهية تتحوّل إلى مكانٍ مبهم، يزدادُ غموضاً يوماً بعد آخر. ومع ازديادِ غموضِ المدينةِ في عينَيها، وارتفاعِ شعورِها الحادّ بالغربة، كانت تزدادُ مقتاً لجسدِها، أكثَر ممّا كانت تمقته في تونس قبل سنوات. ومع ازديادِ كرهها لجسدِها، كان شعورُها بالألم الداخلي يشتدّ ويتعاظَم، فتتضاعفُ أهمّيةُ جَرحِ الجِلد لتخدير المعاناة الداخلية.

حينَ اقتربت من الوصولِ إلى البيت، توقّفت عندَ واجهةِ محلٍّ لبيعِ الخردوات والقِطع القديمة. شمّت رائحةَ النّحاس والمعدِن والخشب، وتذكّرت كم حَسدتْها أختُها حين حصلت على فرصةِ المجيء إلى إسطنبول. كان والدُها قد اشترى للتوّ طاولةً خشبيةً جديدة. خشبُ تلك الطاولةِ له نفسُ رائحةِ محلّ الخردواتِ هذا الذي تقِفُ أمام واجهته. كانَت الأمّ والأختُ تشاهدان بتركيزٍ وانتباه حلقةً من مسلسلِ حريم السّلطان، وتتابعان بانبهارٍ مشيةَ السلطانة هُيام المتبختِرة في ثوبها البنفسجيّ المزركش وانحناءتَها الأنيقة أمام السّلطان ثمّ صوتَها المفعم بالغنج، وهي تقول له:

- سليمان. . يا سلطان روحي!

يرفعُ السّلطان الجالسُ إلى المكتبِ رأسَه، يضع المجوهرات التي بيده، ويحدّقُ في جاريته بعينَين ناعستَين طافحتَين بالشهوة والإعجاب. تتنهّد أختُ نجوى بتلذّذٍ ممزوجٍ بالحسرة. يقولُ السّلطان:

- هيام. . حبيبتي. . ما هذا الجمال كلّه؟ إنّك تأخذين العقل.

تقتربُ الجارية من السلطان وتجلسُ فوق ركبتَيه وهي تلفّ عنقه بذراعيها بحبّ، وتكلّمه بصوتٍ مِغناج. تنظرُ نجوى إلى المشهدِ شزراً، ثمّ تصيحُ في وجه أمّها وأختِها بتقزّز:

- يا للقرف! لا أفهمُ كيف تستطيعُ نساء القرنِ الحادي والعشرين تحمّلَ كلّ هذا القرف والخنوع!

لم يستطِع أحدٌ فهمَ اختلافِ نجوى الشاسع عن أختها والفتيات الأخريات، ففي حين كانت هؤلاء الفتيات يحلُمن أن يكنّ مكانَ السلطانة هُيام، جالساتٍ على ركبتيّ سليمان القانوني، محاوِلات كسبَ حبّه وولائه، أو فقط الحصولَ على نظرة إعجابٍ منه، كانت نجوى تتقزّز من الأنوثةِ والضعفِ والخنوع والتحايلِ على الرجال من أجلِ بسطِ النفوذ داخلَ القصور. ورغمَ أنّ أختَها، الطالبةُ الجامعية،

تعشقُ تركيا وسلاطينها وملابِسها وممثّليها الوسيمين، وحاولت بكلّ ما تملِك من جهد الحصولَ على منحةٍ جامعية للدراسةِ في هذا البلد، إلّا أنّ نجوى، التي لم تهتمّ للأمرِ يوماً، هي التي حصلت على فرصةٍ للعملِ في إسطنبول كصحافية.

لم يكن السّفر إلى إسطنبول بالنسبة إلى نجوى مجرّدَ فرصةٍ للعمل، بل فرصة للتحرّرِ من جسدِها الذي لم تحبّه أبداً، رغم جماله الأخّاذ. هذا الجسدُ الذي أرادت حجبَه عن الأنظار منذ نعومةِ أظفارها، ففي سنّ الثانية عشرة، حاولت ارتداء الحجاب، ليس تقليداً لزميلاتِها وصديقاتِها في الإعدادية، واللواتي كانت أغلبهنّ محجّبات، بل لمسحِ جسدِها عن الأنظار. ولو ما منَعها والدُها اليساريّ حتى النخاع، لارتدته. قالَ لها يومَها، مستشهداً بمقولة الحبيب بورقيبة: «انظري إلى الدنيا من غير حِجاب». نفّذت أمرَ والدِها، لكنّها بمجرّد ما بلغت السادسة عشرة، حتى بدأت ترتدي ملابسَ الذكور، سراويل جينز واسعة، أقمِصة غير مثيرة بالمرّة، كنزات فضفاضة... وفي كلّ مرّةٍ كانت تنظرُ فيها إلى جسدِها في المرآة، كانَ جرحٌ جديد يُضاف إلى قلبِها المترعِ بالكدَمات.

أمّا التدخينُ والجلوسُ بساقَين متفرّقتَين فذلك كان يعرّضها لنعوتٍ من قبيل «رجل» أو «ذكر» أو «متشبّهةٌ بالرّجال». كانت تلكَ اللحظاتُ التي تُنعَت فيها بمثلِ هذه الأوصاف أسعد اللحظاتِ في حياتِها.

ثمّ كانَ هناك التحرّش. إنّ أكثرَ ما تعاني منه المرأةُ في منطقة شمال أفريقيا والشرق الأوسَط هو احتمالُ أن يصفع رجالٌ غرباء مؤخرتَها بينما تسير في الشارع. حصلَ ذلك لنجوى مرّةً عندما ذهبت إلى حيّ شعبي بالعاصمة تونس لإنجاز ريبورتاج عن انتشار الإرهاب والجريمة، ومرّةً أخرى بينما كانت واقفةً في إحدى الحاناتِ في شارعِ قرطاج وهي تدفعُ حسابَها، ومرّةً ثالثةً حين كانت تسيرُ في الشارع

حاملةً أكياس المقتنيات عائدةً إلى البيت. جحيمٌ يوميّ جعلَها تؤمِن أنّها ربّما عاشت حياةً أخرى قبلَ هذا، وأذنبت فيها كثيراً، وأنّها الآن دخلَتْ إلى جهنّم لتُعاقَب على أخطائِها. «إنّكِ تدفعين ثمن جمالِك ورِقّتكِ الزائدة»، هذا ما كان الجميعُ يكتفون بقوله تعليقاً على شكواها الدائمةِ من التحرّش.

عندما وصلت إلى إسطنبول، تراءت لها الحياةُ سهلةً وبسيطة. ابتهجت لأنّها قادرةٌ على الجلوسِ بالطريقةِ التي شاءت دون أن تشعرَ بالعيون المستنكرة تخترقُها، واغتبطت لأنها قادرةٌ على السّيرِ في الشارع دون أن تسمعَ كلمةَ غزل من رجلٍ غريب، واندهشت عندما تعرّفت إلى هازال، ورافقتْها إلى بيتِ والدَيها. كانت الشابّة التركية تدخّن أمام أبيها داخلَ البيتِ بكلّ أريحية. اندهشت لأنّ المرأةَ المدخِّنة في تونس قد تُنعَت بالعاهرة بكلّ بساطة.

لطردِ الذكرياتِ الناجمةِ عن رائحةِ الخشب، قرّرت أن تواصل طريقَها نحوَ البيت. إنّ الآفاقَ الموجودةَ في عقلِ الإنسان غير محدودة ولا نهائية، وتتجاوزُ كلّ إمكانات الواقع. لذلك، فإنّ إسطنبول التي كانت المهربَ بالنسبة إلى نجوى، ثمّ نقطةَ العبورِ نحو أوروبا، صارت الآن عبارةً عن كابوس. كابوسٌ لا بدَّ من الاستيقاظ منه في بلدٍ آخر، ولكنْ ليسَ تونس!

رمقت كدماتِها مرّةً أخرى. كانت كالعالِقةِ في مركبٍ وسط البحر، غير قادرةٍ على الوصولِ إلى وجهتِها، لكنّها غيرُ قادرةٍ على الرّجوعِ أيضاً، وهذا يجعلُها تمزّق جِلدَها في كلّ مرّةٍ أكثر فأكثر. هل ستستطيعُ تحقيق حلمها في العبورِ إلى أوروبا؟ كيف؟ تخيّلت نفسَها تعيشُ في أمستردام أو برلين أو حتى باريس، بجسدٍ جديد، جسدٍ ليست به جروح ولا ندَبات ولا آلام.

وقبلَ أن تدلِف إلى المبنى الذي تقعُ فيه شقّتها، لعنت في نفسِها

المجتمع والتحرّش وتونس وإسطنبول والغربةَ وجسدَها. كان التوتّر قد بلغَ منها مبلغَه، خاصّةً حين رأت مجموعةَ كِلاب شوارع ضخمة تمرّ قربَها، ورجلاً يلاعِب أحدَها، وامرأةً تمسّد رأسَ كلبٍ ذا لونٍ أسود. يقدّسُ الأتراكُ القططَ ويعاملونَ الكِلابَ معاملةً طيّبة، بل كانَ ثمّة مهنٌ في العهد العثماني خاصّةٌ بالرّعاية بالحيوانات، قططاً وكِلاباً وطيوراً.

بعدما دخلت إلى البيت، راقبت من النافذةَ طيوراً تحلّق فوقَ أشجارِ الصفصاف المخضرّة، ثمّ ارتمت على الأريكةِ وهي تفكّر بحزن أنّ الأتراكَ يعاملونَ كلابَ الشوارع أفضل ممّا يعامل العربُ نساءهم في الشوارع.

6

حلمٌ تركيّ

انسلّت من المطبخ رائحةُ ورق العِنب وهو يُسلَق. كان صوتُ أورهان كنجباي يصدَح بأغنيته «عندما يكون الفصلُ ربيعاً». منذ أن جاءت إلى إسطنبول، أصبحت إيمان تستمعُ كثيراً إلى رواد موسيقى الأرابيسك التركية المتأثرة بالموسيقى العربية، والطافِحة بالحزن والشجن، محاولةً التقاطَ بعضِ الكلماتِ لتعلُّم اللغة التركية. كان خالد جالساً في البهو وقد أنهى للتوّ اتصالاً هاتفياً مع زميلتِه التونسية نجوى التي لم تتوقّف عن الشكوى من الضغطِ الذي تعانيه في مدينة إسطنبول. دندنت إيمان في المطبخ ببعضِ العبارات من أغنية كنجباي، في الوقتِ الذي رنَّ فيه هاتفُ خالد من جديد.

كان متعباً ومتوتراً. منذ أن بدأ العملَ في مؤسّسة «العرب اليوم» ورأسُه يدورُ مثلَ طاحونةٍ هوائية، لكنّها بدل أن تُنتِج الطاقة، كانت تستهلِكها، فترديه منهكاً عليلاً. في الواقع، لم يصل خالد إلى هذه الدرجةِ من التوتّر من قبل. وفي غمرةِ أحلامِه الكبيرة والمتعاظمة، كانَ يُطبطِب على نفسِه ببيتٍ شعريّ حفِظَه منذ سنوات:

وإذا كانت النّفوسُ كباراً تعِبت في مرادِها الأجسامُ

والحقّ أنّه لم يكن يحبّ الشعر، ولم يكن مهتمّاً بالأدبِ مثلَ زوجتِه، ولا كان يعرِف حتى صاحِبَ هذا البيت. إنّه يكتفي بتجميع أيّ شيءٍ يمكن أن يشجّعه على الاستمرار في الطريقِ التي رسَمها لنفسِه،

سواء كانت أبياتاً شعرية، أو أمثالاً شعبية، أو كُتُباً للتنمية الذاتية، أو مقولاتٍ لكتّابٍ عالميين، أو حتى كلِمات أغانٍ بهيجة ومتفائلة. أمّا تلكَ الموسيقى الحزينة التي تستمِع إليها زوجتُه الآن والتي يمكن أن تسبِّب للإنسان الانهيار العصبيّ، فتثير اشمئزازه.

تنهّدَ وهو يرمُق شاشة الحاسوب بحزنٍ عميق حين وردتْه رسالةٌ إلكترونية من مديره في العمل، ولم تكنْ حولَ الترقية، ولا حتى لاستحسانِ عملِه. بعصبية، كادَ يضغطُ على زرّ رفضِ الاتصال، لولا أنّ المتصّلةَ كانت أمّه هذه المرّة.

انقبَض قلبُه وهو يردّ على الهاتف. كانَ الإرسالُ ضعيفاً، وكانَ صوتُ زهور بعيداً كأنّها تتكلّم من داخلِ بئر. فهِم الآن، بعد ستة أشهر من الإقامة في إسطنبول، لماذا اختارَ الكثيرُ من النّاس الذين عاشوا في الغربةِ زمناً طويلاً العودةَ إلى أوطانِهم. إنّ قلوبَ المغتربين تنقبضُ بمجرّدِ رنين هواتفهم، ورؤيتِهم على شاشاتِها أرقاماً تحمِل رموز البلدان التي أتوا منها. مزيجٌ من الألمِ والخوفِ والحسرة يجمّد الدمَ في شرايينِهم، لا يذهبُ إلّا بعد أن يسمعوا أصوات أحبابِهم ويطمئنّوا أنّ كلّ شيءٍ يسيرُ على ما يرام.

بعدَ أن اطمأنّت زهور على أحوالِ ابنِها، وسألته بعضَ الأسئلةِ عن زوجتِه من قبيل: «ماذا تفعلُ الآن؟ هل تخرجُ كثيراً؟ هل تعدّ لكَ طعامَك؟ هل البيتُ نظيف؟».

أخذت تروي له أخبارَ العائلةِ والجيران. كادَ رأسُه ينفجرُ في تلكَ اللحظة. دندَنت إيمان مرّةً أخرى مع لحنٍ تركيّ حزين. سرى الصّداعَ في رأسِ خالد مثلَ سمّ. فكّرَ في منصبِ رئيس التحرير. سمِع أمّه تقول له إنّ عمّته ستذهبُ إلى باريس لزيارةِ ابنِها هذا الصيف. فهِم أنّها تريدُ المجيء إلى إسطنبول. دندنت إيمان مرّةً أخرى بصوتٍ أعلى. أسنَد رأسَه إلى الأريكة. أخبرته أمّه بحسرة أنّ بنت خالته التي كانت تريده

أن يتزوّجها، ستُزَفّ قريباً لشرطيّ. الزواج من شرطيّ حلمُ الكثيرِ من الفتياتِ المغربيات، لأنّه رمزُ الرّجولةِ والفحولةِ والبطولة الذي ينقذ المجتمعَ من الأشرارِ والمجرمين. كان ذلك قبلَ ظهورِ المسلسلاتِ التركية طبعاً، لأنّ الممثلين الأتراك الوسيمين الفارعي الأجسام والحنونين في الوقتِ نفسِه، أخذوا مكانَ رجالِ الشرطة في قلوبِ المغربيات. قالت زهور أيضاً إنّ سميرة بنت الجيران التي كان يحبّها حين كانَ في السابعةِ من عمره، ستنجِب طفلَها الأوّل بعد شهرَين. فكّرَ في منصبِ رئيسِ التحرير مرّةً أخرى. انتشرَ الألمُ في كلّ جسدِه. قالت إيمان إنّ العشاءَ سيجهزُ بعدَ دقائق. تنفّس خالد عميقاً وهو يفكّر في وسيلةٍ للتملّص من أمّه. في تلكَ اللحظة، ألصقت إيمان أذنَها إلى الحائط لتتنصّت على زوجِها. فكّرت أنّ كُرهَ حماتِها لها يُعادل كلّ المقتِ الذي تكنّه كلّ الحمواتِ في العالم لكنّاتهنّ. وفكّر خالد بإصرار وتحدٍّ أنّ عليه أن يُصبح رئيس تحرير بأيّ ثمن.

حين انتهت نشرةُ زهور الإخبارية، سألتْ ابنَها بمرَح:

- قُل لي، كيف حالُ أردوغان؟

ضحِك خالد بمرارة، وقال:

- وكيف سأعرف أحواله يا أمّي؟

ضحكت زهور بانتشاء ثمّ قالت:

- ذلك الرجل عظيم، لو أسدى كلّ الحكّام لبلدانهم نصفَ الخدمة التي أسداها هو للإسلام في تركيا لاستردّ كلّ المسلمين في العالم قيمتهم وحقوقهم.

اعتدل خالد في جلسته، وغرغرت معِدته:

- هل أنتِ جادّة يا أمّي؟

قالت زهور بحماسّ:

- ألا تتتبّع الأخبار أيها الصحافي؟ هذا الرّجل هو الذي أنقذ

تركيا من الديون والمشاكل الاقتصادية، ولم يرضخ للضغوط الأميركية، وندّدَ بالظلم الذي يتعرّضُ له الفلسطينيون في أراضيهم، وطالب بتحرير الأقصى ورحّب باللاجئين السوريين في بلده، وحوّل إسطنبول إلى جوهرةٍ برّاقة بعد أن كانت عبارةً عن مكبِّ نفايات. . .

كانت إيمان قد بدأت تضعُ العشاء على الطاولة. وشيئاً فشيئاً، بدأ خالد يفقِد تركيزه. رائحةُ ورق العنب المحشوّ بالكفتة والرزّ تنبعثُ قويةً من المطبخ. صوتُ الكعبِ العالي يندفِع من تحتِ قدميّ إيمان وهي تسيرُ من المطبخِ إلى البهو ذهاباً وإياباً، ثمّ منظرُها وهي منحنيةٌ على الطاولةِ المزيّنةِ بالشموع، تضعُ عليها صحونَ السّلَطات. كانت ترتدي فستانَ سهرةٍ أحمرَ قصيراً وضيّقاً، وتركت شعرَها منسدلاً على كتفيها ذوَي العظام البارزة. لا يتذكّرُ متى رآها بمثلِ هذا المظهرِ آخر مرّة. ربّما قبلَ ثلاث سنواتٍ أو أربع. إنّها ترتدي فساتين مثيرة بين الفينة والأخرى، ولكنْ، فقط عندما تخرج، وليسَ خصّيصاً من أجلِه هو كما كانت تفعلُ في الماضي. بخفّة، وضعت كؤوس النبيذ على الطاولة، ورمقته بجانبِ عينِها. صعِدت الحرارةُ إلى خدَّيه وأذنَيه. أبعدَ نظرَه عنها في حركةٍ سريعة، هارباً من نظرتِها الماكرةِ تلك. نظرةٌ تشبِه نظرةَ لبؤةٍ تتأهّبُ للانقضاضِ على فريستِها. هو فريستُها. لكنْ، ما الذي تريده منه الآن؟

أتاه صوتُ أمّه قوياً ومتحدّياً:

- إنّه يستحقّ لقبَ خليفة المسلمين عن جدارة.

كانت إيمان لا تزالُ منحنيةً تضعُ اللمساتِ الأخيرة على طاولة العشاء. وقعَت عيناه على مؤخرتِها. الحبّ هو شخصان لا يستسلمان لصروفِ الحياة وتقلّباتِها، ويحاولان دائماً إصلاحَ الأمور. استدارت نحوَه ورمَقته بعينَين مشتعلتَين رغبةً. أرادَ أن يُقفِل الخطّ في وجهِ أمّه، لكنّ من يُقفِل الخطّ في وجهِ أمّه وحشٌ وليس بشراً. تشوّشَ دِماغه.

تمتَم بلا تركيز أنّ المسلمينَ ليسوا في حاجةٍ إلى خليفة. قاطَعته والدتُه بنبرةٍ تشتعلُ حماساً أنّ الرئيس التركي أبانَ عن قدرتِه على حِمايةِ المسلمين في جميعِ البلدان الإسلامية. كانت إيمان لا تزال ترنو إلى عينَيّ وشفتَيّ زوجِها بشبق. بادلَها نفسَ النظرةِ ممزوجةً بالدهشة.

واصلت زهور:

- هل هناك بلدٌ في العالم استقبل السوريين برحابة صدر كما فعل أردوغان؟

أجابَ خالد وهو يتأمّل جسدَ زوجتِه التي كانت تقتربُ رويداً رويداً:

- معكِ حقّ.

- هل هناك من يدعمُ الشّعوب العربية كما يفعلُ أردوغان؟

قال خالد وهو ينظر في عينَيّ زوجته لأول مرّةٍ بذلك الشبق منذ سنوات:

- معكِ حقّ.. معكِ حقّ يا أمّي.

كان يريدها أن تسكت فقط، لينقضّ على هذا الجسدِ الطافحِ بالإغراء والشبَق أمامه. كان جائعاً إلى الجنس، إلى ممارسةِ الحبّ، ليس مع إيمان كما هي الآن، بل مع إيمان التي في ذاكرتِه. إيمان القديمة. إيمان الخانعة والخاضعة. إيمان المبتسمة دائماً، السّعيدة والراضية. إيمان التي كانت عيناها تلمعان نشوةً وغبطة وهي ترى طموحَه يكبرُ شيئاً فشيئاً. إيمان التي كانت ترتدي الفساتين وتتزيّن لأجله. إيمان التي كانت تفوحُ أنوثةً. إيمان التي كانت السَّكِينةَ والبهجةَ والنّظام. إنّه يشتهيها الآن، لكنّه يخافُ منها في نفسِ الوقت. يريدُها، لكنّه لا يُريدها في نفسِ الوقت. يتوقُ إلى عِناقِها، لكنّه يرغبُ في صفعِها في نفسِ الوقت. يتشوّقُ إلى أن يقولَ لها كلِماتِ الحبّ، لكنّه يريد أن يلومَها في نفسِ الوقت. يرغبُ في أن يقبّلها، لكنّه في حاجةٍ،

في نفس الوقت، إلى الارتماء بين ذراعَيها وشمّ رائحةِ العرقِ الخفيفةِ في إبطيها ثمّ البكاء مثلَ طفل. حتى رائحةُ عرَقِها تغيّرت، ورائحةُ شعرِها، ومذاقُ لُعابِها، وملمَسُ بشرتِها. هل النّاسُ يتغيّرون فعلاً، أم أنّ نظرتنا لهم هي التي تتغيّر؟ تساءلَ بحُرقة، وقد غمرته رائحةُ الذكريات.

قالت زهور:

- هل هناك من أعطى الحقوق للمحجّبات في بلده كما فعل أردوغان؟

خرَج خالد من دوّامةِ أفكاره، ورأى إيمان تملأ أوّل كأسٍ نبيذ.

- فعلاً.. هذا صحيح.

كانت زهور مولَعةً، بالإضافةِ إلى النّميمة، بتتبُّع أنشطةِ الرئيس التركي، ومشاهدةِ خطاباتِه المترجمةِ إلى العربية، والتسكّعِ في الصّفحاتِ التي تحمِل اسمه على مواقعِ التواصل. اكتشفته أوّل مرّةٍ عام 2014 عندما فتحت حساباً على فيسبوك، إذ لمحَت صورةً له نشرتْها صفحةٌ تحت اسم «محبّو رجب طيّب أردوغان»، مع تعليق «أسد الإسلام». راحت تتأمّل الصّورةَ باندهاش، ثمّ ضغطت على الصّفحةِ بيدَين ترتجفان بلهفةِ من عثر أخيراً على ما يريده. وبعينَينِ تطفران غِبطةً وإعجاباً، راحت تتفرّج على صورِ الرئيس التركي، وتقرأ أخباره. كانت ترمقه بطريقةِ من وقَع في الحبّ من أوّلِ نظرة. لم تنظر زهور إلى زوجِها يوماً بهذه الطريقة، حتى عندما كانا شابّين في بدايةِ علاقتِهما. بل إنّ علاقتَها بزوجِها لم تتعدّ كونَها مشروعاً لإنجابِ الأطفال وبناء عائلة وشراء شقّة. يقولُ صاحبُ صفحة محبّي أردوغان إنّ الرئيسَ التركي هو الوحيد الذي يحمِلِ همّ المسلمين في العالم، وإنّه يُفحِم الرّئيسَ الأميركي في خطاباتِه، وإنّ الجميع يتآمرون ضدّه لأنّه يدافِع عن

المسلمين. يقول أيضاً إنّه زارَ قصراً في إسطنبول حيثُ توجدُ بردة النبيّ محمّد، وعمامته، وجزءٌ من عصاه، وحجرُ التيمّم الخاصّ به. ترفعُ زهور حاجبيها في استغراب، غير مصدّقةٍ لهذا الكلام. يُخبِرها جزءٌ من دِماغِها أنّ هذا شيءٌ غير ممكن. تمسَحُ شفتيها بطرَف طرحةِ رأسِها، ثمّ تتساءلُ كيف عرَفوا أنّ هذه الأشياء تعودُ إلى النبيّ؟ لكنّها سرعان ما تبتسِمُ بسعادة وهي تمرّر صورَ هذه الأغراض على هاتِفها، لأنّ جزءاً آخر من دماغِها أخبَرها أنّ زمَن المعجزات لم ينقضِ بعد، وأنّ الله حفِظَ أغراضَ النبيّ من الزّوال في أقوى دولةٍ مسلمةٍ في العالم.

مع الأيّام، تعاظَم إعجابُ زهور بالرّئيس التركي، وأصبحتْ تقضي معظَم وقتِها في النّبشِ عن المواضيع المتعلّقة بتركيا وإسطنبول والعثمانيين وتاريخهم وقصورهم. ثمّ تحوّل الإعجابُ مع الوقتِ إلى افتتان، خاصّةً عندما شاهدت مسلسل «حريم السّلطان». كانت مسحورةً بقصّة السلطان سليمان القانوني ومغامراته الحربية والعاطفية وبطولاتِه وغزواتِه، وكانت تنظرُ إلى قصرِه الفسيح والفخم بألم، لأنّها لا تستطيع حتى أن تحلمَ بالنوم في غرفةٍ من غرفه ليلةً واحدة. وكانت تحدّق في جواري السلطان وحريمه بإعجابٍ ممزوجٍ بالحسَد، لأنّها لم تمتلك يوماً جمالاً مثلَ جمالهنّ ولا فساتين مثلَ فساتينهنّ ولا مجوهراتَ كمجوهراتهنّ، ولم تستمتع بجسدِها وشبابِها كما يستمتعنَ به، بل إنّها لم تنتبه حتى لأولِ تجعيدةٍ ظهرت على وجهها، وأولِ شيبةٍ اشتعلت في رأسِها. أمّا طيبةُ السّلطان وعطفُه على الفقراء والمساكين فقد كانا يذوّبانِ قلبَها، فتترقرقُ عيناها بالدّموع تأثراً. صارَ الأتراكُ بالنسبة إليها، أعظمَ شعبٍ في العالم، والرئيسُ التركي أهمّ رئيسٍ في العالم، والنساء التركيات أجمل النّساء في العالم، والرّجال الأتراك أوسَم الرجال في العالم، والمسلسلاتُ التركية أفضلُ المسلسلاتِ في العالم، والتاريخ التركيّ أرفع تاريخٍ في العالم، والإسلامُ التركيّ أصحّ

إسلامٍ في العالم. تخلّت عن الجلباب المغربي الذي ارتدته خلال ثلاثينَ عاماً، واستبدلته بالعباءات المستوردةِ من تركيا، وكانت تتحدّثُ عن هذا البلدِ وكلّ ما يتعلّق بها طوال النّهار، بتأثّرٍ ممزوجٍ بالغيرةِ والغبن والحسرة. تستمتعُ بالحديثِ عن الرئيس التركيّ كأنّها تتحدّث عن نبيّ من الأنبياء، بل إنّها أصبحت تراه الخليفةَ المنقذ الذي جاء بالخلاصِ للمسلمين.

ولأنّ الأحلامَ مجّانية، فإنّ الأمرَ لم يتوقّف عندَ هذا الحدّ. ذهبَ دماغُ زهور بعيداً، بعيداً جدّاً. وراحت تتخيّل نفسَها تعيشُ في قصرٍ من هذه القصور، مع رجلٍ وسيم يشبِه الممثّل الذي لعِب دورَ سليمان القانوني، غير مكترثةٍ إذا كان السلطان فعلاً وسيماً ورومانسياً في الواقعِ أم لا. في البِداية، حاولت منعَ نفسِها كثيراً، مستغفرةً ربّها في سرّها، لكنّها، مع الوقت، استلذّت هذه الخيالاتِ، وصارت تهرعُ إلى الكنبةِ، بعد أن تنتهي من أعمالِ التنظيف، وتستلقي مغمضةً عينيها، متظاهرةً بالنّوم، بينما تتخيّلُ نفسَها في حضنِ الممثّل ذي العينَين الزرقاوين، داخِل غرفةٍ فخمة مفعمةٍ بالرّوائحِ الطيبة.

حمَلها النّومُ ذات يومٍ إلى جنّاتِ السلاطين العثمانيين، فوجدت نفسَها داخل قصر طوب قابي، مرتديةً فستاناً مرصّعاً بالجواهرِ النّفيسة. كانت مستلقيةً على أريكةٍ فخمة بطريقةِ جواري العثمانيين في الرّسومِ المتخيّلةِ التي تقدّم هذه الفترةَ من التاريخ. تُمسِك في يدِها كأساً فضّيةً، وبجوارِها ابنُها خالد وهو لا يزالُ رضيعاً. لاعبَته بحنان، قبلَ أن يأتيَ زوجُها رجَب طيّب أردوغان، ويجلسَ إلى جانبِها، ويقبّلها في فمِها بشغف، ثمّ يأخُذَ منها الكأسَ، ويضعَها على الطاولة، وينظُرَ إليها بحبّ، ثمّ ينحني فوقَها. مرعوبةً، حمِدت ربّها أنّها استيقظت قبلَ أن يحصلَ ما لن يسامحَها الله عليه. كانت كلّ المشاعرِ المُفجِعة تمتزِج في قلبِها، الخوفُ والحزن والحسرةُ على ضياعِ العمر والإحساسُ

بالذنب والافتتان واللذة، فتهرعُ إلى الحمّام وتحدّق إلى وجهها الطافح بالتجاعيد في المرآةِ بفزع، ثمّ تنحني بصعوبة وتلمسُ قدميها الخشنتَين المتشققتَين، مصادفةً في طريقِها إليهما، نهديها المترهّلين وطبقاتِ بطنِها الكثيفة.

قالت لابنِها بنبرة الممتنّة:

- عليكَ أن تشاهِد مسلسل «قيامة أرطغرل» لتعرِف كيف تأسّست تلك الدولةُ القوية، ولتتأكّد أنّ كلّ ما أقوله لكَ صحيح.

لم يردّ.

- هل أنتَ معي على الخطّ؟

كان خالد واقفاً أمامَ زوجتِه التي كانت تتخلّص من فستانِها بطريقةٍ سينمائية. قال بعُجالة:

- يجب أن أقفل الآن يا أمّي. . هناك عملٌ طارئ عليّ أن أقوم به.

هل الحبّ يموت فعلاً؟

في غيهَبِ الظّلمة، فتحت إيمان عينَيها، بعدما تعِبت من إغماضهما دونَ نوم. تجمّعت كلّ المشاعرِ السيّئة وتكوّرت داخلَ دماغِها متّخذةً شكلَ ندَم. تمنّت لو أنّها لم تحاول مرّةً أخرى، وتأكّدت الآن أنّ ما انكسَر لا يمكن إصلاحه أبداً، وأنّ مسوّدةَ علاقتِهما المليئةِ بالأخطاء والفلَتات لا يمكن تعديلُها وإخراجُ نسخةٍ أجمل منها.

إنّ العلاقاتِ المنكسرة لم تُصلَح يوماً بفستانٍ أحمر مثير وكأسَي نبيذ وشموعٍ ذات رائحة طيّبة، قالت لنفسِها وهي تتقلّبُ في الفراشِ محدّقةً في الظلام، لماذا تنتهي مشاعرُ الحبّ؟ هل لأنّ الإنسان يتغيّر، فتتغيّرُ نظرتُه إلى الحياة وإلى العلاقات، أم لأنّ الحبّ محكومٌ بالنّهاية مثلَ كلّ الأشياءِ في الكون؟ لماذا تموتُ لذّةُ الجنسِ بموتِ الحبّ، على الرّغمِ من أنّ الحبّ والجنس غير مرتبطَين ببعضهما البعض بالضرورة؟

تقلّبت مرّةً أخرى، وقد أبعدت جسدَها عن جسدِه العاري. تذكّرت كم كانت تحبّ شعيراتِ صدره ورائحةَ العِطر في عنقه. تذكّرت كيف كانت تدفِن رأسَها هناك، في تلكِ المساحةِ بين صدره وعنُقه، وتتمنّى لو تستطيع البقاءَ في ذلك المكانِ إلى الأبد. كيف يمكن للإنسان أن يعتبرَ صدراً بيتَه، ثمّ يقشعرّ من القربِ منه بعدَ مدّة؟ شخرَ خالد، وابتعدَت إيمان أكثر في ألم. لماذا استطاعَ الوصولَ إلى النشوةِ الجنسية، ولم تستطِع هيَ؟ هل لأنه لا يزالُ يحبّها؟ ثمّةَ جزءٌ من

عاطِفتها يخبرُها أنّه لم يعد يحبّها كما كان في البداية، تلكَ العاطفة الأنثوية التي تجعَل النساء يشممن الحبّ والإعجابَ والرّغبةَ والخيانة. لقد حاولت، لكنّها خرجت خاسرةً من معركتِها ضدّ قوةِ الزّمن التي تغيِّر كلّ شيء. ازدردت ريقَها بمرارة.

أشعلت الأباجورةَ التي بجانِبها، ونظرت إلى هاتِفها. السّاعةُ الواحدة وخمسون دقيقة. لماذا حاولت؟ هل لأنّها تؤمن أنّ جزءاً من ذلك الحبّ كان لا يزال قابعاً في قلبها ناحيته، أم لأنّه لا خيار لديها؟ ولماذا لا يكون لديها خيار؟

نهضتْ، وقبلَ أن تخرجَ من الغرفةِ، نظرت إلى جسدِها العاري في المرآة بحياد. انشغالُ الدّماغ بالأسئلة الكبرى يجعلُ المرء غير مكترثٍ لجسده ومظهره. ودون أن تفكّر في ارتداء ملابِسها، سارت في الدهليز المؤدي إلى البهو بقدمين حافيتين، وحين صارت جالسةً على الكنبة، فكّرت في النساء والرّجال وفي ذلك الصراع الأزليّ بينهما. تُلقي النّساء بكاملِ المسؤولية على الرّجال حين انتهاء زواجهنّ أو علاقاتهنّ العاطفية، مقدّمات إياهم كشياطين وخونة وأنانيين. ويجنَحُ الرّجال إلى تبرير الانفصال بكونِ النّساء اللواتي كانوا معهنّ غير جيّداتٍ كفاية، أو غير صالحاتٍ للزواج منَ الأساس، بل إنهم قد يفضّلون أن يكونوا شياطين في نظرِ الجميع على أن يعترفوا بأنّ النساء اللواتي كانوا معهنّ في علاقاتٍ عاطفية قد تركْنَهم ولم يعُدنَ في حاجةٍ إليهم. إنّ النساء حكّاءاتٌ وشكّاءات بطبعهنّ، وميّالاتٌ، بحُكمِ التربية التي تلقّينها، إلى التبرير ولعب دور الضحية، أمّا الرّجال فميّالون إلى الصّمتِ في غالبِ الأحيان، والتبريرُ ليسَ في قائمةِ سلوكياتهم. ومن هنا نشأ سوء الفهمِ الكبير بين الجنسين في تاريخ العلاقات العاطفية.

ألقت إيمانَ وشاحاً من الصّوفِ على كتفَيها، وألقت رأسَها المُتعب على مسندِ الأريكة. إنّ هذا الصّراعَ المستمرّ بين النساء

والرّجال منذ بدء الخليقة، في حقيقة الأمر، مردّه إلى عدم قدرتهم على استيعابِ وتقبّلِ أنّ الحبّ يصيرُ إلى الزوال في نهاية المطاف، شأنه شأنُ كلّ الكائناتِ الحيّة الأخرى في الكون. الحبّ كائنٌ حيّ، والكائناتُ الحيّة كلّها مصيرُها عدمٌ في الأخير.

أشعلت سيجارة. لماذا استطاعَ زوجُها أن ينام، ولم يجد جفنُها إلى النوم سبيلاً؟ هل لأنّ الرّجال غير مكترثين لأيّ شيء، أم لأنّ النساءَ حسّاساتٌ زيادةً عن اللزوم؟

نفثت نفساً من الدخان. الحياةُ غير عادلة. كيف انتهى كلّ ما كان بينهما؟ كيف تبدأ كلّ تلكَ المشاعرِ العظيمة بسرعة، ثم تنتهي بسهولة كأنّ شيئاً لم يكن؟

سحبَت نفساً من السّيجارة. الحبّ مثلَ الزّمن تماماً، مخادِع. لا نعرِفُ متى يبدأ ولا كيف يمرّ ولا أين ينتهي بالضبط.

تأمّلت جسدَها بحنانٍ موجِع. لقد كانت طفلةً ذات يوم، ثمّ صارت اليوم امرأةً كبيرة. أمّا اللحظاتُ التي كانَ نهداها يكبران فيها، وحوضُها يستدير، فلم تعرِفها أبداً، كأنّها ما عاشتْها. إننا نكون أطفالاً، ثمّ نصيرُ كباراً، وبين الطفولةِ والكبر، بينَ كلّ تغيُّر وآخر في أجسادِنا وأرواحنا، زمنٌ باهت، غير واضح، مخاتِل. كذلكَ الأمرُ بالنسبةِ إلى العلاقات العاطفية. بينَ الحبّ واللاحبّ، زمنٌ غامض، مخادِع، مراوغ ومتلاعب.

ذات يوم، كانت ثمّة شمعةٌ بديعةُ المنظر متوهّجةٌ في داخلِ إيمان، تُنير كلّ حياتِها. وفجأةً، أظلمتِ الدنيا في وجهها، وحينَ أطلّت على الشمعةِ، شاهدت بحزن، بقايا شمعٍ ذائب. أمّا اللحظةُ التي بدأت فيها الشمعةُ في الذّوبان بالضبط، فستظلّ مجهولةً بالنسبة إليها إلى الأبد. صحيحٌ أنّ الحبّ شمعةٌ بهيّة ومنيرة، لكنّ الشمعةَ حين تذوب، لا يعودُ هناك سبيلٌ لإصلاحِها من جديد.

سحبتْ نفساً آخر من السيجارة. ومع ذلك، هناك من يقول إنّ الحبّ مثل ممارسةِ الرياضةِ تماماً، يستطيعُ الإنسانُ أن يحصُلَ على جسدٍ رشيقٍ ومنحوت إذا مارسَها باستمرار، حتى ولو لعشرِ دقائقَ فقط يومياً. لكنّه لن يحصلَ على أيّ نتيجة إذا مارسَها عشوائياً ومناسباتياً، ولو قضى عشر ساعاتٍ من اليوم في صالةِ الرياضة.

كلّ باقاتِ الوردِ التي أهداها لها خالد، والهدايا التي جلَبها لها في المناسبات، ودعواتِ العشاء، والسّهراتِ التي خرجا فيها للاحتفالِ بأعيادِ الزواج أو بنجاحٍ في العمل، لم تُفضِ إلى أيّ نتيجة. لكنّ خيوطَ الألمِ الرّفيعةِ التي كانت تتلوّى داخلَها كلّ يوم، تراكمت مع الوقت وتكوّرت، مثلَ كرةِ صوف، واستطاعتْ في الأخير أن تتحوّل إلى جبلٍ من الوجعِ يستحيلُ هدمه.

دعستْ عقِبَ السيجارةِ بقوةٍ في المنفضة. الحبّ هو أكثرُ قضيةٍ اختلَف العالم بشأنِها. هناك من يقول أيضاً إنّ الحبّ لا يشيخ وليسَ محكوماً بالزّوال، لكنّه قد يموت في حالةٍ واحدة، وهي المرض. ومثلَ جسدِ الإنسان، يستطيعُ الحبّ أن يُصابَ بأمراضٍ مختلفة ومتفاوتةِ الخطورة، مثلَ الشكّ والخيانة والشعورِ بعدمِ الاهتمام والإحساسِ بالدونية أمامَ الشريك... يمرضُ الحبّ لأنّه بكلّ بساطة نابعٌ من قلوبٍ مليئةٍ بالنواقصِ والعيوب والذكريات والقصصِ والجراح القديمة. تبدأ أعراض المرضِ في الظهورِ على هيئتِه، خِصاماً وصراخاً وحزناً. يفقِد صحّته ووهجه شيئاً فشيئاً. وحين لا يُشخّص المرضُ في حينه، يشتدّ ويتفاقم، ويُضعِف جسدَ الحبّ، ويؤلِمه، حتى يذويَ شيئاً فشيئاً، ويموت.

عادتْ إلى الغرفة متمايلةً من سكرةِ التفكير، واستلقت على السّرير من جديد. لو تزوّج قيس وليلى وعاشا معاً تحت سقفٍ واحد، وذاقا مرارةَ الحياةِ اليومية، هل كانَ وهج الحبّ سيظلّ مشتعلاً في

أحشائهما؟ لقد اختارَ قيس أن ينظِم غزلاً في ليلى ويقرأه أمام الملأ، وهو يعرِف أنّه شيءُ مرفوضٌ مجتمعياً، وقد يؤدي إلى أن يُمنَع من الزواج بها، ومع ذلك، لم يتوقّف. كأنّما كان يعلَم أن تلك الصّبابةَ لن تستقيم إلّا بالبُعد والوَجد والشوق واللهفة.

لو لم يطلُب والدُ عبلةَ من عنترة ألفَ ناقةٍ مهراً لابنته شرطاً للزواج، ولو ما عانى عنترة في رحلته الطويلة في الفيافي لجلبِ مهرِ حبيبته، هل كان ليهيم بها حبّاً بذلك الشكل؟

ولو أنّ كمالاً تزوّج بفسون في **متحف البراءة** منذ الوهلةِ الأولى، ولم توجَد كلّ تلك العراقيل التي منعته من رؤيتِها، هل كان سيظلّ يعشقُها بذلك الشكل الجنونيّ طوال ثماني سنينٍ كاملة حتى ماتت؟

لو قُدّر لروميو وجولييت أن يعيشا معاً، ولو لم ترفض عائلتاهما ذلك، هل كان روميو سيعشق جولييت إلى آخر يومٍ في حياتِه؟

سالت دمعةٌ من عينِها. مثلما لا يمكن أن يعيشَ الإنسان بلا ماءٍ ولا هواء ولا طعام، لا يمكن للحبّ كذلك أن يعيشَ بلا شوقٍ ولا تحدٍّ ولا إصرار، ولا يمكنه أن يظلّ متأجّجاً دون تلكَ الرغبةِ الدائمة في الوصال. تقلّبتْ في الفراش مرّةً أخرى. جعلتِ الطبيعةُ أنّ الإنسانَ يفقِد توقَه إلى الشيء بمجرّد بلوغِه، وجعلتِ الفطرةُ الرّجلَ عاشقاً للمغامرةِ والمطاردة، بمجرّدِ بلوغِه ما يصبو إليه، وفقدانِه ما يرافقُ المغامرةَ من أدرينالين، يفقِد اهتمامَه بالشيء الذي طاردَه طويلاً.

لكنْ، كان هناك شيءٌ آخر لم تفطن له إيمان إلّا الآن. ففي اللحظةِ التي بدأت فيها نارُ عقلِها تذوي، وعيناها تسدلانِ ببطء، رنّ جرسٌ صاخبٌ في داخلِها، فاهتزّ جسدُها وانفتحت عيناها باتّساع عينَيّ بومة. كانت حياتُها أكثرَ تعقيداً من أن يختصرَها عقلُها في تلك التفسيرات التي سبقَت.

مكتبة
t.me/t_pdf

جروح الطفولة التي لا تُشفى أبداً

الطريقةُ التي كانت إيمان ترتمي بها في حِضن خالد تُشبِه طريقةَ ارتماء طفلةٍ صغيرة في حضنِ أبيها. لاحظَ خالد ذلك مرّاتٍ عديدة، وكان يُناديها، خلال لحظاتِ العشقِ العميقة التي عاشاها في السنتَين الأوليين من علاقتِهما، بطفلته المدلّلة. لم يكن للأمرِ علاقةٌ بعُقدةِ إلكترا، بل بشعورِ إيمان الدائم باليُتم. شعورٌ لم يغادرها رغمَ التقدّمِ في العمر، ورغمَ قضائها سنواتٍ طويلة في حضن زوجِها.

إنّ جروحَ الطفولةِ وتعقيداتِها يمكن أن تحكمَ حياة الإنسانِ كلّها في ما بعد، ولذلكَ وجدتْ إيمان نفسَها متعلّقةً بخالد تعلُّقاً شديداً بمجرّد ما أفصحَ عن حبّه لها. كأنّما وجدت فيه كلّ ما كان غائباً عن حياتِها. وبقدرِ ما تعلّقت به، وربطتِ الحنان والحبّ بوجوده، وعلّقت عليه آمالاً كبيرة، بقدرِ ما كانت خيبتُها فيه عميقةً. فعلى الرّغم من أنّه كانَ يناديها «طفلتي الصغيرة» ويدلّلها في كثيرٍ من الأحيان، لكنّ ذلك كان في إطارِ الشغفِ بمحبوبته فقط. أمّا حين تبخّرَ الشغف، توقّفَ خالد عن ملء تلك الفجوةِ العميقة في روحِ إيمان، والتي تُدعى اليُتم.

في يوم الجمعةِ ما قبل الأخير من شهر يوليو عام 1999، عادت إيمان في حوالي الساعة الرابعة بعد الزوال إلى البيت، بعد أن سمحَت لها أمّها، على غيرِ العادة، بالخروجِ للعب مع بناتِ الجيران. كانت لا تزال تلهثُ من نطّ الحبل حين صعِدت الدرجَ المظلم والرّطب للمبنى

المهترئ الذي يقعُ فيه بيتُها. وقبلَ أن تدلف إلى الشقّة، تناهى إلى سمعِها صراخٌ وبكاء. دفعتِ الباب بسرعة، وشاهدت أمّها وأباها وجدّتها متحلّقين حولَ طاولةِ الطعام، لكنْ، لم يكن هناك طعامٌ على الطاولة ولا حتى شاي. مرّرت الجدّة طرحةَ رأسِها على شفتيها في حركةٍ سريعة، كأنّها تمسحُ شيئاً، ودفنَت الأمّ المُنهَكةُ من البكاء رأسَها بين راحتَي يدَيها، كأنّما لتخفي دموعَها على ابنتِها. أمّا الأب، فقد كان مقطّباً، غاضباً كما لم يسبق لإيمان أن رأتْه أبداً.

ذاهلةً، ظلّت إيمان واقفةً في مدخلِ البيت. وبعدَ ثوانٍ، رفعتِ الأمّ رأسَها بصعوبة كأنّها تقتلع صخرةً من الأرض. كانت عيناها منتفختان، ووجهها أحمر، وتخيّلت إيمان أنه سينفجر.

كانت يومَها في التاسعة من عمرها. قالت الجدّة بنبرةٍ صارمة:

- عودي للّعبِ مع البنات، سأناديكِ عندما يجهزُ الشاي!

فهِمت أنهم يتكلّمون في موضوعٍ خاصّ بالكِبار، ولا يجوز للأطفال أن يستمعوا إلى الكِبار وهم يتحدّثون في المواضيع الكبيرة، لأنّ ذلك يجعلهم، حسب ما تقول أمّها، يرون الكوابيس حينما يخلدون إلى النّوم. تراجعت إلى الوراء خطوتَين، ثمّ خرجت من البيت دون أن تنبِس بكلمة.

ورغم الخوفِ الذي طغى عليها بتذكّر كلامِ أمّها، لكنّ الفضولَ كانَ أقوى من أن يردعه الخوف. أغلقتِ الباب، ووقفت قربه مستمعةً بانتباه إلى الحديث الدائر بينهم.

استأنفت الجدّة الكلام:

- ماذا ستفعلان بالبيت؟

شهقت الأمّ كأنّ أحداً استلّ خنجراً من أحشائها.

قال الأب بحزم:

- سنبيعه، ونقتسم قيمته.

سألت الجدّة:

- والبنت؟ ستقتسمانها أيضاً؟

شهقت الأمّ مرّةً أخرى.

سادَ صمتٌ طويل، قبلَ أن يتكلّم الأب، لكنّ إيمان لم تستطع سماعَ أيّ شيءٍ سوى مجرّدِ وشوشاتٍ متقطّعة. اقتربت من الباب أكثر، وألصقت أذنها إليه. ثمّ سمِعت صراخ جدّتِها وقد انتفضت:

- هكذا إذاً؟ ألم تقُل إنّك ستعتبر البنتَ ابنتَك ومن لحمِك ودمِك؟ لقد وثقنا فيكَ يا رشيد، وخُنتَ ثقتَنا. كان عليكَ أن تخبرنا منذُ اليومِ الأول أنّكَ لن تكونَ بحجم هذه المسؤولية!

تراجعت إيمان إلى الوراء. ما معنى أنّه سيعتبِرها ابنتَه؟ أليست ابنتَه أصلاً؟ وماذا يعني أنّ الأمّ ستأخذ ابنتَها؟ أليست ابنته هو أيضاً؟ ثمّ لماذا يتحدّثون عن اقتسامِ البيت وعن اقتسامِها هي أيضاً، مثلَ البيتِ تماماً؟

كانَ كلّ شيءٍ فوق مستوى فهمِها العقليّ، لكنْ، ثمّةَ أشياءُ في الحياة تُفهَم بالعاطفة فقط. اجتاحَ إيمان شعورٌ عارمٌ باليتم والحزن والوحدة. كلّ ما خطرَ ببالِها أنّ هذين الشخصَين اللذين ظنّتهما لوقتٍ طويل والدَيها، ليسا والدَيها فعلاً. ركضت نازلةً الدرجَ وقد انهمرت على خدّيها دموعٌ غزيرة، ولم تعرِف كم مرّ من الوقتِ على وجودِها في الشارع، فاقدةً بوصلتَها، مثلَ قطّةٍ صغيرةٍ شريدة، قبلَ أن تعودَ إلى البيت من جديد وقد تغيّرت الحياةُ كلّها في عينَيها.

لكنّ والدَي إيمان أو اللذين كان من المفترضِ أن يكونا والدَيها، لم ينفصلا. ففي نفسِ اليوم، اهتزّ البلدُ على وقعِ خبرٍ صاعق ومهيب. كان الجميع لا يزالون متحلّقين حولَ الطاولة في وجوم. أمّا إيمان فقد تسمّرت على الكنبةِ تنظرُ إلى التلفاز الذي كان يعرضُ رسوماً متحرّكة،

قبلَ أن ينقطِع البثّ فجأةً، ويعلِنَ مذيعٌ، مصارعاً دموعَه، أنّ الملكَ قد مات.

كانَ وقعُ موتِ الملكِ على النّفوس يشبِه أن يسمَع أحدهم أنّ الله، بقوتِه وجلالِه، قد مات. أغميَ على جدّةِ إيمان بمجرّد ما سمِعت الخبر، ولم تتوقّف نعيمة عن الشهيق طوال الليل. لم تعرِف إيمان إن كانت أمّها تبكي حزناً على الملك أم بسببِ الكلام الذي قيلَ لها في ذلك اليوم، لكنّ نشيجَها كان يكسّر الجدران ويشقّ قلبَ ابنتِها الهشّ والواهن. حدّقت إيمان في الظلامِ طويلاً، وبكت أيضاً ليلتَها، ليسَ حزناً على الملك، بل خوفاً من أن يأتي الصّبح ويرميَها والداها إلى الشارع.

أشرقت على العالم صباحاتٌ كثيرة، ولم يتغيّر أيّ شيءٍ في حياةِ العائلة. وتحوّل الكلامُ عن الانفصال إلى نقاشاتٍ كبيرة لم تكن إيمان قادرةً على فهمِها. كلّ ما استطاعت استيعابَه هو أنّ البلدَ سيتحوّل إلى غابةٍ كبيرة بعد موتِ الملك، لأنّ المغاربةَ متوحّشون، تقولُ أمّها، وبرحيلِ الملكِ الذي كان يضبطهم، سينهشُ هؤلاء بعضهم بعضاً.

تحوّل رأسُها إلى بركانٍ يغلي بالأسئلة: هل الملوك يموتون فعلاً؟ ولماذا هم ملوكٌ إذا كانوا يموتون شأنهم شأنُ جميعِ الناس؟ ولماذا أبي ليسَ أبي؟ ومن يكون أبي الحقيقي؟ وهل أمّي هي أمّي فعلاً؟ هل سيرمونني إلى الشارع في يومٍ من الأيام؟ وإذا رموني إلى الشارع، هل سيجدُني الملك الجديد ويربّيني ويعتني بي ويجعلني أميرةً كما في القصص؟

لم تطرح سؤالاً واحداً من هذه الأسئلةِ على أمّها، وظلّت منزويةً في عالمِها الذي يعجّ بالأفكارِ السيّئة، جالسةً على الكنبةِ طوال الصيف تشاهد التلفاز، بينما كانَ والداها مستمرّين في عيشِ حياتهما كالمعتاد، يتشاجرانِ أحياناً، ويضحكانِ في بعضِ الأحايين.

ذاتَ يوم، تجرّأت وانسلخت من الكنبة، وتوجّهت إلى المطبخِ، حيثُ تفرقِع أمّها الأواني بلا توقّف. وقفَت عند الباب، بينما استدارت أمّها تحدّق فيها باستغرابٍ مقطّبةً حاجبيها. فتحت إيمان فمَها لتسألَ أمّها من تكون. نبضَ قلبُها بعنف. أغمضت عينَيها بقوة، ثمّ سألتها في الأخير:

- هل الملك فعلاً أكله الدود الآن وتحوّل إلى مجرّد عظام مثلَ جدّي؟

تلفّتت الأمّ يمنةً ويسرةً بتوجّس، ثمّ قالت في ما يشبه الهمس:

- اسكتي، الحيطان لها آذان.

دمعَت عينا إيمان، وقالت ببراءة:

- لكنّه لن يستطيعَ النّهوض من القبرِ ليعاقبك.

تقدّمت الأمّ إلى الأمام مقتربةً من ابنتها، ثمّ همسَتْ في أذنِها:

- لقد ماتَ فعلاً، وأصبح لدينا ملكٌ جديد!

وهكذا، بعدَ أن عرفتْ إيمان في سنّ السابعة أنّ الملوك يتبرّزون مثل جميع الناس، تأكّدت في ذلك اليوم أنّهم يموتون أيضاً، لكنّ كلّ هذا لم يكن يهمّها. كلّ ما كانت تريد معرفتَه هو من أينَ وكيفَ أتت إلى هذا العالم.

* * *

مع مرورِ الأيّام، تلبّدَ ماضي إيمان بضبابِ النسيان، وأصبحت تنظرُ إلى ذلك اليوم بالضبط عبرَ منظارٍ غائم. نسيت موتَ الملك ووجهه وصوتَه وخطاباتِه، لكنّها لم تستطع نسيان ذلك الشعور بعدم الانتماء إلى أيّ شيء. نما جسمُها وكبُرت الأسئلةُ في رأسِها مكوّنةً سؤالاً متوحّشاً ومخيفاً: من أكون؟ ثمّ تعلّمت مع الوقت، أن تردعَ هذا السؤال وتروّضه كي تستطيع الاستمرارَ في الحياة.

بعد سنوات، عرفت إيمان أنّ أباها قضى في السّجن حوالي عشر سنوات امتدّت منذ العام 1981 وحتى العام 1990، بعدَ مشاركته في احتجاجات «الكوميرا» بالدار البيضاء ضدّ زيادة أسعار المواد الغذائية الأساسية، والتي قُتِل فيها مئاتُ الأشخاص بسبب استخدام السلطات للعنف لإسكات الأصوات المحتجّة وإيقاف المظاهرات.

بعد خروجه من السّجن، كان مدمَّراً وغير قادرٍ على التأقلم مع الحياةِ في الخارج. فقرّر مغادرةَ الدار البيضاء نحو طنجة لبدء حياةٍ جديدة. وفي طنجة، التقى والدتها أوّل مرّة، وكانت تحمِل في بطنِها جنيناً تخلّى عنها أبوه وأنكره.

ولأنّ رشيداً أحبّ نعيمة من كلّ قلبِه، فقد قرّر أن يعتبرَ الجنين من صلبه، وعندما وُلِدت إيمان، أحبّها كما لو كانت ابنته. ورغمَ أنّ رشيداً أخبرَ إيمان في عام 2009 أنه مستعدّ للبقاء والدها إلى الأبد، لأنّ الأبوةَ علاقةٌ مبنيةٌ على تجربةِ حياة، وليس على حيوانٍ منويّ، إلّا أن إيمان ظلّت تشعرُ بالهَجرِ واليُتمِ، وظلّ إحساسٌ عميق يُرافقها بأنّها شقيقة نُعمان، عندما قُطِفت من الأرض، طارت كلّ ورقةٍ منها إلى مكانٍ بعيد.

الحياةُ جميلةٌ يا صاحبي!

بقدر ما كانت حرارةُ الإيمان بطموحه متأجّجةً في قلبِ خالد، بقدرِ ما كان القلقُ من إمكانيةِ عدمِ حصولِه على المنصبِ الجديد ينهشُ دواخِله ويُرديه متعباً، شاردَ الذهن، مفصولاً عن العالمِ المحيطِ به. فبعدَ أن أتمّ سنةً من العمل كمحرّر في مؤسسة «العرب اليوم»، ستبدأ المقابلاتُ أخيراً مع رؤسائه بعد خمسة عشر يوماً، وعليه أن يُثبِت للجميعِ أنه جديرٌ بمنصبِ رئيس تحرير.

باتَ قريباً من هدفِه. شبرٌ واحدٌ فقط يفصله عن ملامسةِ هذا الحلمِ الذي ظلّ هارباً لسنواتٍ طويلة. رمى بصرَه إلى البحر، وتخيّلَ نفسَه جالساً في مكتبٍ جديد، حيثُ يُصدِر الأوامرَ ويوافقُ على المقترحات ويُصادِق على المقالات قبل النّشر. خفقَ قلبُه بقوة، وابتسمَ في الوقتِ نفسه، ثمّ التفتَ إلى صديقه وزميله نبيل ورشَقه بنظرةٍ تنمّ على الخوفِ الممزوجِ بالأمل.

كانا جالسَين في مطعمِ «يني كوي» المطلّ على البوسفور، وقد اعتادا تناول العشاء هنا كلّ مساء جمعة بعد نهاية الدوام، ثمّ شربَ ما تيسّر من كؤوس البيرة، والتمتّعَ بالهواءِ النقيّ الذي تمنحه لهما الإطلالةُ المنعشةُ على البحر. كانَ في قلبِ كلٍّ منهما غربةٌ شاسعةٌ كالبحر، غائرةٌ ومظلمةٌ كأعماقه، لذيذةٌ في الوقتِ نفسِه كالهرب، محمومةٌ كالطّموح. افترّ ثغرُ نبيل عن ابتسامةٍ هادئة، ربّتتْ على أعماقِ خالد

المُنهكة والمتوجّسة. علاقتُهما تُشبِه علاقةَ شخصَين يعيشانِ وحدَهما على سفينةٍ يعرفانِ أنّها لن ترسوَ في أي ميناء. خالد كانَ الشخصَ الذي يخافُ الموتَ غرقاً، ونبيل كانَ الشخصَ الذي يقول بهدوءٍ مخدِّر إنّ الموتَ واحد.

ورغم أنّ عاماً فقط هو عمرُ علاقتِهما، لكنّ خالداً كان يثقُ في نبيل كأنّه صديقٌ مقرّبٌ منذ أيام الطفولة. يحكي له كلّ ما يدورُ في خُلدِه بلا استثناء، ويُفصِح له عن عواطِفه ومخاوفه.

والحقّ أن نبيلاً كان محطّ ثِقة جميعِ زملائه، يرَون فيه رمزَ الهدوء والثقةِ والأمانة والحكمة والرزانة ورهافةِ الإحساس، على الرّغمِ من أن عمرَه لم يتجاوَز السابعة والعشرين.

«You are a survivor»، يقول له خالد دائماً بصدقٍ كبير وتأثّرٍ واضح. إذ قدِم نبيل إلى إسطنبول سنة 2013، هارباً من حكمٍ بالإعدام صدَر في حقّه في مصر، بعدَ مشاركته في مظاهراتٍ واعتصامات معارِضة للنظام، وحُرِمَ منذ خمسِ سنوات من العودةِ إلى بلدِه وزيارةِ عائلتِه. كان ذلك أشبَه بكابوس أو قصّةِ فيلم آكشن بالنسبةِ إلى خالد الذي لم يسبِق له أن التقى شخصاً محكوماً بالإعدام.

كانا يتناولان شوربة الدجاج بصمت مشوب بالحزن. تحرّكَ العلمُ التركيّ المثبّت على عمودٍ طويل وسط المطعم، وتحرّكتِ الغربةُ في قلبِ خالد مثلَما يتحرّك الجنينُ في بطنِ أمّه. كسّرَ نبيل الصّمت وهو يقول رامقاً صديقَه بنظرةِ حنان:

- لم يسبق أن رأيتُكَ غير متحفّز هكذا.

قال خالد:

- نكون متحمّسين عندما نعرِف أنّ شيئاً جميلاً في انتظارنا.. لكنّني في هذه اللحظةِ أشعُر بالضّياع.

قال نبيل مطَمئِناً:

- لا تدع التوتّر يُفسِد عليكَ كلّ شيء، أنتَ مُقبِل على مرحلةٍ مهمّةٍ جدّاً من حياتِك. ينبغي أن تهدّئ أعصابَك كي تهدأ الحياةُ في عينَيك.

تناول خالد ملعقة شوربة، ورفع عينيه نحو صديقه، ثمّ قال بسخرية:

- هل أنتَ جادّ؟

ردّ نبيل:

- الحياةُ لا تحصل وفق رغباتنا. إنها تسيرُ بالموازاة معنا فقط، كلّ ما نستطيع فعلَه هو الاستمرارُ في السّير، أمّا الوقوفُ والتفكير فيها فلن يجديا نفعاً.

قال خالد بفتور وهو ينظر إلى لمعان البوسفور بعينَين حزينتَين:

- هناك أشياء غريبةٌ تحصل.

التمعَ الفضولُ في عينَيّ نبيل:

- مثل ماذا؟

تراجعَ خالد إلى الوراء قليلاً، وأسندَ ظهره إلى الكرسيّ متنهّداً بعمق، ثمّ قال:

- صباح السبت الماضي، كنّا، إيمان وأنا، واقفَين في المطبخ نتحدّث. في لحظةٍ ما، طلبتُ منها أن تمُدّ لي كأسَ الماء...

كان نبيل يتابعه بعينَين مستغربتَين.

- كانَ أقربَ إلى يدِها، لذلكَ طلبتُ منها أن تفعل.. لستُ من ذلكَ النوع من الرّجالِ الذين يطلبون من زوجاتِهم أن يفعلن كلّ شيءٍ مكانَهم...

- وماذا بعد؟

سكتَ خالد، ثمّ رمقَ صديقه بأسى، وتابعَ:

- قالت لي إنّني حيوان.

ضحِكَ نبيل كأنّه استمعَ للتوّ إلى نُكتة. ازداد الأسى اشتعالاً في عينَيّ خالد، فاتّسعتا أكثر.

- ما هذا الجنون؟

تابع خالد:

- طلبتُ منها بأدب أن تحترمَ نفسَها وتلزمَ حدودَها، لكنّها لم تتوقّف عند هذا الحدّ، بل أمسَكت الكأس، ورمته أرضاً بعصبية.. وانكسرَ. في تلك اللحظة، لم أستطِع أن أتمالكَ أعصابي، فصفعتُها.

وضعَ نبيل الملعقةَ على الطاولة، وتراجعَ للوراء أيضاً مسنداً ظهره إلى الكرسيّ باستمتاع، كأنّه يستعدّ لمشاهدةِ مسرحيةٍ سخيفة.

- ركضتْ بسرعة، وخرجَت من البيت وهي تبكي.

سكتَ قليلاً وهو يتنفّس بعمق، قبلَ أن يُكمِل:

- وحين كانت تُحاولُ عبورَ الطريق إلى الجِهة المقابِلة للمبنى، صدَمتها سيّارةُ إسعاف.

صاحَ نبيل في استياء:

- يا إلهي!

- الحمدُ لله أنّ الأمورَ سارت على خير، وخرجنا من هذه المحنة بخدوشٍ بسيطة على الكتِف والفخذ.

- لماذا لم تخبرني؟ كان من الممكن أن أساعد!

بنفسِ إيقاعِ أرجلِ الجنود وهم يتقدّمون إلى الأمام للهجومِ على العدوّ، دقّ خالد الطاولةَ بقدّاحتِه حمراء اللون لبرهة، ثمّ قال بحزنٍ ممزوجٍ بغضبٍ دفين:

- كلّ شيءٍ تغيّرَ يا نبيل.

- لا شيءَ يبقى على حالِه يا خالد.

- إيمان لا تعرِف كيف تتعايش معَ تغيّراتِ الحياةِ يا نبيل!

- هل تحدّثتما معاً؟ هل حاولتما إصلاحَ الأمور؟

- مراراً.

- كيف حالُها الآن؟

رمى خالد القدّاحةَ على الطاولة.

- إنها ترفض الكلامَ منذ يوم الحادثة.

قال نبيل بتأثُّر:

- هل تريدني أن أتحدّثَ إليها؟

- لا أريد الدخول في معركةٍ في هذه الفترة. كلّ ما يهمّني الآن هو العمل والمنصب الجديد، كلّ المشاكل الأخرى ستُحَلّ لوحدِها مع الوقت.

بعد أن احتسيا بعضَ البيرة، اقترح نبيل على خالد مرافقته إلى البيت لتدخين سيجارةِ حشيش. وفي الطريقِ المضاءِ بمصابيح متباعِدة، سارا جنباً إلى جنب مثل شبحَين مُنهكَين. مشى نبيل بهدوئه المعتاد رافعاً وجهه المبتسمَ إلى السّماء في امتنانٍ للوجود لأنّه منحه فرصةَ حياةٍ أخرى، وقلَبَ خالد عينَيه المضطربتَين، كأنّما يُحاوِل الفصلَ بين قلقِه على علاقتِه مع زوجتِه وقلقِه على منصبِ أحلامِه. وحين مرّا من دربٍ مظلم، ابتلّ جفناه، وتوارت دموعُه في غيهبِ الليل. لطالما بكى، لكنّه لم يسمح يوماً لدموعِه أن تلمعَ أمام شُعاعٍ ما.

كانت شقّةُ نبيل صغيرةً ودافئة. حدَّقَ خالد باندهاش في جدرانِ البهو التي ثُبّتت عليها صورٌ مختلفة لشخصياتٍ مهمّة من التاريخ. تعرّفَ إلى صوَر أم كلثوم وتشي جيفارا وجون بول سارتر وسيمون دي بوفوار. أشارَ بإصبعه إلى صورةٍ بالأبيضِ والأسود لرجلٍ بشاربٍ صغير:

- من يكون هذا؟

ارتمى نبيل على الأريكة، وسكبَ كأسَ نبيذ:

- ناظم حكمت، شاعرٌ تركيّ شيوعيّ شهير.

حوّلَ خالد إصبعه إلى صورةٍ أخرى بجانبِها لشابّةٍ شقراء بابتسامةٍ ساحرة تُمسِك وردةً حمراء في يدِها.

- وهذه؟

- سيلفيا بلاث، شاعرةٌ أميركية. هل تصدّقُ أنّ امرأةً بمثلِ هذه الابتسامة قد ماتت منتحرة؟

ابتسمَ خالد وقال:

- ومن يستطيع أن يصدّق أنّك كنتَ تنتمي إلى الإخوان المسلمين؟

قالَ نبيل وهو ينهض بنشاط:

- الحياةُ خدّاعة يا صاحبي!

قالَ خالد:

- الحياةُ غريبةٌ يا صاحبي!

ضحِك نبيل وهو يسحبُ سيجارةَ حشيش من درج منضدةٍ في البهو، بينما ارتمى خالد على الكنبة وهو يتنهّد بعمق:

- لكنّك نجوتَ بجلدك في نهايةِ المطاف، وهذا هو الأهمّ.

كان نبيل واقفاً قبالته مباشرةً. أشعل سيجارةَ الحشيش. سحبَ الدخان عميقاً إلى رئتيه، ثمّ قال:

- لا بدَّ أن نكون مستعدّين لخسارةِ الكثير قبلَ أن نربح القليل.

سحبَ نَفَساً آخر، ثمّ تابعَ وهو يقتربُ من صديقِه ويمدّ له السّيجارة:

- هل أحببتَها حقاً؟

سحبَ خالد نَفَساً عميقاً. نظرَ مباشرةً إلى عينَيّ صديقه محرِّكاً رأسه دلالةً على الإيجاب، ثمّ قال بمكر وهو ينفُث الدخان:

- يبدو أنّك أنتَ الواقع في الحبِّ هنا!

ارتمى نبيل بجوار صديقِه على الأريكة.

- نجوى.

تخلّص خالد من معطفه، وقال باهتمام:

- التونسية؟ امرأةٌ جميلةٌ فعلاً.

قال نبيل مركّزاً عينَيه في الفراغ:

- لم أرَ في حياتي امرأةً بمثلِ جمالِها.. جسدُها منحوت كأنّها إلهةٌ إغريقية!

قال خالد وهو ينظرُ ناحيةَ صديقه بوجهٍ ملآنٍ بالأمل والترقّب:

- ما العمل الآن؟

أخذَ نبيل السّيجارةَ التي كانت قد وصلت إلى منتصفِها من يدِ خالد الممدودةِ نحوه، وقال:

- إنّها أشياءُ مرتبطةٌ بالوقتِ والصّبر والحِكمة. فلننتظِر!

بدا أنّ خالداً قد أصغى إلى جملةِ صديقه الأخيرةِ باهتمام، لكنّه استخفّ بها في داخلِه. كانَ متعباً وخائفاً وهو يراقبُ الأملَ يتسرّبُ خارجَ روحه. الخوفُ من فقدانِ شيءٍ ما هو بدايةُ فقدانِه. تخلّصَ من حذائه، وخالَجه شعورٌ جارفٌ باليأس.

- ماذا لو لم يتحقّق ما نصبو إليه؟

تطلّعَ إليه نبيل بابتسامة ومدّ له سيجارة الحشيش:

- وماذا لو تحقّق؟

ارتسمت على وجهِ خالد ابتسامةٌ لا معنى لها وهو ينفث الدخان.

تابعَ نبيل:

- المشكِلةُ ليست في الصعوبات التي نواجهها أثناءَ معركةٍ ما، وليست أيضاً في خسارةِ المعركة، بل في الهزيمة الداخلية التي نستسلمُ لها عقِبَ الخسارة.

أطفأ خالد السيجارةَ في المنفضة، وقال:

- مشكلتي يا عزيزي، أنني أريدُ أن أربحَ كلّ شيء، ولا أقبل بأنصافِ الأشياء!

أصدرَ نبيل ضحكةً زاخرةً بتفاؤلٍ لا يُهزَم.

- مُشكِلتُكَ يا صديقي، أنّك انتشيتَ.

مرَّ شبحُ إيمان في ذاكرةِ خالد بسرعة، لدرجةٍ لم يتبيّن ملامِحها جيّداً، لكنّه استطاعَ سماعَ ضحكتِها القديمة وهي تحاول أن تبثّ في قلبِه التفاؤل في لحظاتِ الخوف والاضطراب. ضحكتُها التي توارت الآنَ وراءَ ظلامِ الحزن والهمّ. لا شيءَ يبقى على حالِه. تذكّرَ بألم، ثم أطلَق ضحكةً مغلّفةً بقلقٍ غريبٍ وغموض.

اتكأ الرجُلان على مسندِ الكنبة مغمِضين أعينهما. أصغى خالد إلى أصوات الموسيقى والضحكات القادمةِ من الحانات القريبة من البيت، وفكّرَ في مقولةٍ لجان بول سارتر كان قد قرأها في مكانٍ ما، ثمّ بدأ في ترديدها داخله كأنّما يردّد دعاءً: من الطبيعيّ ألّا ينجحَ أحدٌ في كلّ شيء، لكنْ، ينبغي عليه أن يريدَ كلّ شيء. في لحظةٍ ما، فتح عينَيه على وقعِ ضربةٍ قويةٍ على كتفِه. كان نبيل يتفحّصه باندهاش. اختفت أصواتُ الاحتفال القادمة من الخارج. لم يعرف إن كانت الأصواتُ قد توقّفت فعلاً، أم أنّ دِماغه هو الذي توقّف عن الاشتغال. ثمّ تناهى إليه صوتُ صديقه كأنّه قادمٌ من بئرٍ سحيقة:

- الحياةُ جميلةٌ يا صاحبي!

العِشق الممنوع

في بداية سنة 2017، أصيبت إيمان باكتئابٍ حادّ، لكنّ أحداً لم ينتبه إلى ذلك، لأنّها دأبت على ممارسة أنشطتها اليومية من طبخ وأعمال تنظيف وقراءةِ كتب، مثلما كانت تفعلُ دائماً، ونجحت في إخفاء عصبيتها واضطراباتِها ودموعِها عن الجميع، حتى عن زوجِها.

وعندما أتمّ الزوجانِ سبعَ سنواتٍ من الزواج، كانت إيمان قد فقدَت تماماً الإحساسَ بالأشياءِ حولَها، وفقدَت أيضاً قيمةَ الاستمتاع بأيّ شيءٍ تفعله. فلا الطبخُ عادَ تعبيراً عن الحبّ، ولا تنظيفُ البيت دلالةً على الأنوثة، ولا القراءةُ سفراً ممتعاً في عوالم أخرى. انخفضَ وزنُها خلال شهرين عشرة كيلوغرامات، وبرزَت عِظامُ كتفيها، وفقَد وجهها نضارتَه، حتى صارت تشبِه عارضاتِ الأزياء اللواتي يلقين حتفهنّ من شدّةِ النحافة. أمّا النومُ فقد صارَ مثلَ الفرحِ، لا يُطِلّ إلّا قليلاً. كانت تقضي لياليها جالسةً في البهوِ تحدّقُ في وجهها المُتعبِ في مرآةٍ صغيرة، واضعةً كتاباً مفتوحاً فوقَ ركبتَيها دونَ أن تقرأ فيه كلمةً واحدة، وتُمضي أيّامها واقفةً في المطبخِ وهي تغسِل الصّحون بصمت، وتُعيد غسلَها مرّاتٍ ومرّات. ومثلما هناكَ من يرِثُ المالَ والثروة، ورثَت إيمان عن أمّها الرغبةَ القوية في دعكِ الأواني حدّ سلخِ جِلدها، وسيلانِ قطراتٍ من الدّمِ من كفَّيها.

كانت تتآكل من الدّاخل. غابَ وهج عينَيها، وأحاطت بهما

هالاتٌ سوداء كبيرة. اختفت حُمرةُ خدّيها وبهجةُ وجهها. تحوّلَ جسدُها الذي كانَ طافحاً بالأنوثةِ إلى هيكلٍ عظميّ تغطّيه طبقةٌ من الجِلد. صارَ البيتُ الذي كانَ يضجّ بصراخِ الشّجاراتِ وأنينِ الشهوةِ وصدى الضّحكاتِ العالية وروائحِ الطبخ شبيهاً بقلعةٍ مهجورة. استُبدِل الصّراخُ بصمتٍ مريبٍ كصمتِ القبور، والشجاراتُ بنظراتِ قسوةٍ واستهزاء ولا مبالاة. استُبدِل أنينُ اللذةِ بعدَ خِصام عنيف في آخر الليل بسكونٍ مُرعب تتخلّله أصواتُ بكاءٍ موجع. أمّا روائحُ الطبخِ الطّيبة التي كانت تغمرُ البيتَ في أوقاتِ الغداء والعشاء وتتسلّلُ خارِجه عبر النوافذ وفتحاتِ الأبوابِ، فقد استُبدِلت بروائحِ الأزبال وبقايا السندويتشات التي تظلّ على الطاولةِ أيّاماً حتى تتجمّع عليها جيوشُ النّملِ والذباب والبعوض.

كانَ خالد يشاهد بألم زوجتَه وهي تذبل أمَام عينَيه، وتفقدُ جمالَها ونضارتَها وأناقتَها، لكنّه لم يكن يحدّثها عن ذلك. كانَ مؤمناً بأنّ ترقّيه في العملِ سيحلّ كلّ شيء، مهما كان صعباً أو حتى مستحيلاً. وعندما يتخيّل نفسَه في منصبِ رئيسِ تحرير، يطمئنّ قلبُه، وتزدانُ نفسُه بالأمل، فيصرِف نظرَه عن هذه المرأةِ الذاوية في لا مبالاة.

والحقّ أنّ خالداً ما عادَ يحتملُ وجودَ إيمان إلى جواره، ولا وجودَه إلى جوارِها. كانت الفرصةُ سانحةً طوال الوقت ليهرب. يقضي أيام نهايةِ الأسبوع مع أصدقائه، وأوقاتَ الفراغِ في المقاهي أو الحانات، وعندما كانَ يسمعُ شهيقَها في آخر الليل، كانَ ينهضُ كمن سمِع إنذاراً لبدء حرب، ويهرعُ إلى بيتِ والدَيه لقضاء الليلِ عندهما، خاصّةً أنّ العِناقَ والمواساة لا يجديانِ مع ألمِ زوجتِه وحرقتِها الداخلية غير المفهومة.

قبلَ قدومِهما إلى إسطنبول بستّةِ أشهر، قرّر خالد الحصولَ أخيراً على عطلتِه السنوية، التي أجّلَها طويلاً، إذ عمِل خلال الأعيادِ والعُطلِ

الرسمية، ولم يشتكِ من العملِ ساعاتٍ إضافية والبقاء في المكتبِ حتى التاسعة ليلاً طوال سنةٍ كاملة. وكلّما هدّه التعبُ، ونعست عيناه، واشتهى الاستلقاء، فكّر في الترقية وفي الصعودِ الاجتماعي، فسَكَنَ قلبُه وتحوّل الأملُ في قلبِه إلى طاقةٍ لا مثيلَ لها.

كانت إيمان جالسةً على الأريكة ممسكةً كتاباً في يدِها محدّقةً به بعينَين فارغتَين، حينَ قذفَ خالد على الطاولةِ أمامها مبلغاً من المال، قائلاً لها، بكثيرٍ من التقزُّز، إنّهما سيذهبان إلى باريس وعليها أن تشتري ملابِس جديدة.

رمقته إيمان شزراً وهي تقضمُ ظفراً مكسّراً. وبعدَ برهةٍ قصيرة، بصقَتِ الظفرَ مصدرةً صوتاً، ثمّ قالت بهدوء:

- اذهب لوحدِك، لم أعد أريد الذهابَ إلى هناك.

كانت ترتدي قميصاً قديماً، وبنطالاً عليه بُقَعٌ حمراء، كأنّها آثار طماطم معلّبة، بينما كان شعرُها منفوشاً ومتّسخاً بشكلٍ لا يُصدّق. نظرَ إليها من رأسها حتى أخمص قدمَيها بدهشة ممزوجةٍ بالاحتقار، وتأكّد حينها أنّها جُنّت فعلاً، لأنّ المجنونَ وحدَه من يفوّت فرصةَ الذهابِ إلى مدينةٍ مثلَ باريس.

برأسٍ مشوَّش، توجّه إلى باريس بعدَ يومين، تاركاً زوجتَه قابعةً في جنونِها واكتئابِها ووحدتِها.

لكنّ إيمان، على عكسِ المتوقّع، غمرتها فرحةٌ لا تضاهيها فرحة بعدَ رحيل زوجها. استحمّت ليلتَها، غيّرت ملابِسها، تناولت وجبةَ هامبورغر، وثرثرت مع أمّها في الهاتف لمدّة ساعةٍ ونصف. كانت جائعةً إلى الحنان، وأرادت لفظَ زوجِها من رأسِها، ومع ذلك تحدّثت عنه. لو يعرِف الرّجال ما تقوله النّساء عنهم في مجالسهنّ الخاصّة، لانتحروا. أغبياء وساذجون ويحتاجون إلى التربية مثلَ الأطفال أحياناً،

ووحوشٌ وحيواناتٌ لا تتحكّم في شهواتِها في بعضِ الأحايين، أنانيون بالفِطرة وخائنون إلى أن يُثبَت العكس. يسيئون التصرّف، ولا يقدّرون زوجاتِهم، ونَفعيون لا يريدون إلّا مصلَحتهم. مازوشيون لأنّهم يعشقون النساء اللواتي يعذّبنَهم، ولا يعتبرون النساء اللواتي يحببنهم، أمّا حياتُهم من دون نساء فستتحوّل إلى مزبلة وعفَن وجوع. قالت إيمان لأمّها إنّ زوجَها يعاملُها معاملةً وحشية، وإنه لا يهتمّ بمشاعرِها ولا يكترث لألمِها. وقالتِ الأمّ إنّ الرّجالَ بصفةٍ عامّة خونةٌ وغدّارون ولا يقدّرون شريكاتهم. إنّ حديثَ النساء عن المشاكلِ التي تشوبُ علاقاتهنّ العاطفية، وبوحهنّ لبعضهنّ البعض عن المشاعرِ السلبية التي تراودهنّ مع أزواجهنّ، من الأسبابِ التي تساعدهنّ على الاستمرارِ في هذه العلاقاتِ رغم سوئها، فهنّ يطفئن، بالكلامِ والبوح، حُرقَتهنّ وتوقهنّ إلى الفِراق. لذلك، نزلَ كلامُ الأمّ برداً وسلاماً على قلبِ ابنتِها، التي ألقت رأسَها على مسندِ الكنبةِ في سكينة، بعدما أقفلت الخطّ مع أمّها.

مالَت إيمان مسندةً رأسَها على كفّها، وفكّرت أنّ أحسنَ طريقةٍ لمحاربةِ هذا الملل هي مشاهدةُ مسلسلٍ تافه لا تحتاج معَه إلى تشغيل دِماغها. فتحت حاسوبَها، ودخلت إلى يوتيوب، ثمّ كتبت في شريطِ البحث: مسلسل العشق الممنوع.

وقبلَ أن تبدأ في مشاهدةِ الحلقةِ الأولى، نطّت من على الأريكةِ مثلَ قطّة، وجلَست على السجّاد المفروش على الأرض. كانت الفوضى تُحيط بها في كلّ مكان. كتبٌ على طاولة الأكل وعلى الكنبات، حاسوبُ زوجِها تحت كرسيّ على الأرض، فواتيرُ الماء والكهرباء والإنترنت على المنضدات وعلى الكنبات. بقايا بطاطس مقلية قديمة على الطاولة، غبارٌ في كلّ زاويةٍ من البيت، ذبابتان تحومان في الهواء وتحطّان على طبقِ البطاطس، ثمّ تحومان من جديد

وتحطّان على رأسٍ أو كتفِ إيمان المركّزةِ نظرَها في شاشة الحاسوب مثلَ المُخدَّرة.

اندمجت اندماجاً كاملاً في عالم دراما «العشق الممنوع» التي كانت من ضِمن المسلسلاتِ التركية الأولى التي تُعرَضُ في المغرب، إذ لم تُتَح لها فرصةُ مشاهدتِه في التلفزيون عندما عُرِضَ أوّل مرّة، لانشغالها بقصّةِ حبّ حقيقية، هي تلك التي عاشتْها مع خالد.

يحكي المسلسل، المقتبسُ عن روايةٍ تحملُ نفسَ الاسم للكاتب التركي خالد ضياء، قصّةَ بهتيار التي تتزوّجُ من عدنان الثريّ الذي يكبرها في السنّ، ثمّ تقعُ في حبِّ ابن أخيه بهلول الذي يعيش معَ العائلةِ في القصرِ نفسِه، فتدخُل معه في علاقةٍ عاطفية. لم تستطِع بهتيار أن تختار بينَ الحبّ والمال، فانتهى بها الأمرُ منتحرةً خلالَ زفاف بهلول الذي تزوّجَ بنتَ عمّه نِهال.

عندما صدرت النسخة العربية من المسلسل عام 2010، وتحوّلت بهتيار إلى سمَر، وبهلول إلى مهنّد، كانت جميعُ النساء والفتيات في المغرب يتسمّرنَ بشوق أمام التلفاز منتظرات بدء عرضِ حلقاتِ «العشق الممنوع». فبالإضافةِ إلى القصّة المشوِّقة المُفعَمةِ بالأدرينالين والخيانة والحبّ والعواطف، وجدت هؤلاء النساء ضالتهنّ في القصرِ الفخم الذي تدور فيه الأحداث، وأجوائه البرجوازية، والملابسِ الجميلة التي ترتديها الممثلات، وماكياجهنّ المثير، وشعورهنّ الفاتنة، وأيضاً في وسامةِ مهنّد، بطلِ المسلسل، الشابّ الرّومانسي والفاتن، الطويل القامة، ذي الشعرِ الأشقر والعينَين الزرقاوين. ولم يتوقّف الافتتانُ بالدراما وبطلِها خاصّةً عند هذا الحدّ، بل وصلَ حدّ أنّ نصفَ الأطفالِ الذين تمّ إنجابُهم في المغرب بعدَ عرضِ المسلسل، اتّخذت لهم أمّهاتهم من الأسماءِ مهنّد، أملاً في أن يكونوا بمثلِ وسامةِ البطلِ التركيّ.

كانت إيمان مشدودةً إلى ذلك العالمِ على الشاشة أمامَها. احتقرت سمَراً الخائنة، وتعاطفت مع سمَر العاشقة. اشمأزّت من سذاجةِ نِهال، وذرفَت الدّموعَ تأثراً ببراءتِها في الوقتِ نفسِه. دخّنت سيجارةً وهي تُتابع اختباءَ سمَر في بيتِ الحجَر قبل أن يضبطَها عدنان متلبّسةً بخيانتِه. ارتعدت حينَ أخبرت سمَر عشيقها مهنّداً بأنّها حاملٌ منه. ورمقَتها بحسدٍ وهي ترتمي في حضنِ حبيبها الوسيم، ثمّ تنفلِتُ منه برشاقة. ذابت من الداخل حين رنا مهنّد إلى سمَر بنظرةٍ ملؤُها الشهوةُ والإعجاب، قبلَ أن يُمسِكها بيدِه القوية من رقبتِها ويقرّب بجرأةٍ وجهها من وجهه، ثمّ يقبّلها بشوق. انصهرَ دماغها حينَ شاهدت عينَيّ مهنّد الزرقاوين طافحتَين بالحبّ لأوّلِ مرّةٍ في حياته بعدما كانَ شاباً عابثاً يكتفي بإسقاط الفتياتِ في شِباكه، ثمّ يتخلّى عنهنّ بلا رحمة.

والحقّ أن إيمان لم تهتمّ من قبلُ بالدراما التركية، لكنْ، بمجرّدِ ما ركّزت انتباهها في هذا المسلسل، حتى سارَ شيءٌ كالخدَرِ في شرايينِها. وعندما بدأ الصّباحُ يُلقي نورَه على العالم، والتصقتِ الذبابتان بزجاجِ النافذة باحثتَين عن الضوء، كانت قد جزَمت أنّها لم ترَ في حياتِها رجلاً وسيماً مثلَ مهنّد، ولا حتى تخيّلت أنّه يمكن أن يوجَد.

ومثلما يتّسِع نورُ الشمسِ في السّماء ساعةَ الشروق، اتّسعت مُخيّلةُ إيمان وكبُرت، جاعلةً لمهنّد الوسيم مكاناً داخلها، ثمّ اكتسَحها النّور. نورٌ غريبٌ كأنّه نور الملائكةِ أو الأنبياء كما رأتهم في الأفلام. وسط ذلك النور، كانت تجلسُ هي على أريكةٍ مريحة، وفي مقابِلها يجلسُ مهنّد رامقاً عينَيها بلهفة كأنّما يعرفها منذ زمنٍ بعيد. نظرةٌ تحوي كلّ ما افتقدتْه من حنان. فتَحت عينَيها عندما بدأت صورةُ وجهه تغادرُ رأسَها، وشاهدته على الشاشةِ مرّةً أخرى، ثمّ عادت لتحلُمَ به من جديد. تجرّأت قليلاً أكثر هذه المرّة، وتخيّلته يحتضنها بدلَ حبيبته سمَر. لم

يسبِق لها أن فكّرت في رجلٍ آخرَ غير خالد من قبل، لكنّ الشعورَ الذي ساوَرها في أحضانِ هذا الشابّ الرومانسيّ الوسيم لا يُقاوَم مثلَ انجرافِ صخرةٍ من علوٍّ، لذلك تحمّست أكثر فأكثر، وتخيّلته يقبّلُها، ويخلّصُها من معطفِها الثقيل، ويعانِقها من جديد، ويهمِسُ في أذنِها كلمة «أحبّك»، ويقبّلُها مرّةً أخرى كما يقضِم شخصٌ جائعٌ تفّاحةً طريّة. اقشعرّ بدنُها، وابتسمت بنشوة كمن تتذكّر مشاهِد حبٍّ لذيذ من حياةٍ حقيقيةٍ قديمة.

وخلال عشرين يوماً، لم تنَم إيمان إلّا ساعاتٍ قليلة. شاهدت كلّ حلقاتِ دراما «العشق الممنوع»، وشعرت أخيراً أنّ حياتَها صارَ لها معنى، وأن لديها سبباً يجعلُها تظلّ مستيقِظةً، إذ كانت هناكَ أحداثٌ جديدةٌ تحصُل، وتشويق، ومُتعة. بل إنّ قصّةً جديدةً وُلِدت داخل رأسِها بالموازاة مع حياتِها الحقيقية المملّة، وأصبح لها حبيبٌ جديدٌ يُدعى مهنّد، تعيشُ معه في خيالِها، وتراه في أحلامِها، وتغارُ عليه من كلّ الممثلاتِ اللواتي يقتربن منه في الدراما. إنّها لا تستطيعُ السّيطرَةَ على حياتِها الواقعية مع زوجِها، لكنّها قادرةٌ على التحكّمِ في قصّتها مع مهنّد، لأنّها تحدثُ في تلك المساحةِ الحرّةِ والشاسعة التي تُسمّى الخيال، حيث تستطيعُ أن تجعَله يتصرّفُ معها كما تشتهي أن يتصرّف معها حبيب، وتدفَعه لأن يقولَ لها كلّ ما ترغبُ في سماعِه. يضمّها متى شاءت، ويخبِرها وهو يُداعِب خصلاتِ شعرِها أنّها أجمل امرأةٍ رآها على الإطلاق، وأنّه لم يحبّ يوماً كما أحبّها، وأنّ أجملَ نساء الكونِ لا تستطيعُ أن تجعله يتأجّج شهوةً وحبّاً كما تفعلُ هي، وأنّه يهديها الآن حياتَه كلّها لتكون سعيدة.

عندما عادَ خالد من السفر، كان البيتُ نظيفاً، وكانت رائحةُ الطبخ تعمّ أرجاءَه، وتنسلّ من النوافذ وفتحاتِ الأبواب لتملأ الجوّ في الخارج. فتحَتْ له البابَ مبتسمة، سعيدةً بفكرةِ أنّها قادرةٌ على جعل

أحدهم يهتمّ بها ويفعل كل شيءٍ من أجل سعادتها. قبّلته بحرارة وأخذت منه المعطف وعلّقته على المِشجب بنفسها. لمعَت عيناه في اندهاش. حوّطَ خصرَها بذراعَيه، ثمّ خلّصَها من الفستان الأحمرِ الذي ترتديه، وهو يقبّلُ كلّ جزءٍ من جسدِها. لم تكن مكترثةً لما يمكن أن يكون قد فعله خلالَ رحلته في باريس، فلا شيءَ عاد يؤلِمها. كانت قد شُفيَت تماماً بقدرةِ خيالِها الجامح. وعندما بدأ يحكي لها عن رحلتِه وهو يرتمي على الأريكة، حدّقت فيه بعينَين فارغتَين وفكّرت في أنّها ملّت من مهنّد، وأنّ عليها أن تشاهِد دراما أخرى، حيثُ ستستطيعُ الحصولَ على عاشقٍ جديد.

أزهار التوليب

بين الحياةِ والموت عالمٌ ثالث يربط بينهما. عالمٌ شاسِعٌ ونقيّ ومريح مثلَ مرج. عالمٌ لا يضمّ إلّا الأشياء الجميلة، تنشرِح فيه الرّوح المعلّقةُ وترتاحُ من ضياعِها. في هذا العالم، يستلقي كِنان. تحته أعشابٌ خضراء نديّة، حوله أزهارُ عبّاد الشّمس المضيئة، فوقَه سماءٌ بهيجة، في عينَيه ألوان. ألوانٌ مُشرِقة مثلَ ألوانِ فساتين أمّه ولوحاتِ أبيه وابتسامةِ حبيبته النّابعةِ من القلب.

إذا كان الجميعُ يتخيّلونَ أنّ العالمَ بين الحياةِ والموتِ هو عبارةٌ عن شعرةٍ رفيعةٍ تفصل بين الجنّة والجحيم، فإنّ العالمَ الذي يقبَع فيه كِنان الآن لا علاقة له بذلك، بل منيرٌ وبهيجٌ كلَوحاتِ فان جوخ. وبالإضافةِ إلى كونِه شاسعاً ومريحاً، فإنّه أيضاً يتيح له أن يعيشَ طفولتَه من جديد، ويتحوّل إلى ذلك الطفلِ ذي العشر سنوات، ويركضَ باستمرار، يركضَ بلا تعبٍ مُدّةَ سنوات، حتى يتحوّلَ إلى شابٍّ في عمر الثلاثين.

عالمٌ معجونٌ بالحنين والرقّة، مغمورٌ بمشاهدَ من الطفولة. يرى أمّه تدغدغه في بطنِه وتضحك بقوة، وحينَ تضحكُ يحمرُّ وجهها وتضيقُ عيناها حتى تُغلَقا. ثمّ يراها ترقص على أنغامِ مزيّن سينار، مموِّجةً يديها، رافعةً خصرَها، دافعةً إياه إلى الأمام في إيقاعٍ بطيء، بينما تنظرُ عيناها إلى جسدِها الذي يتموّجُ مثلَ سِتارةٍ تحرّكها رياحٌ هادئة.

لكنّ هذه الضحكات والرّقصات توقّفت فجأةً ذات يوم، وحلّ محلّها سكونٌ مخيف. انسحبت الأمّ بهدوء كما تنسحِب راقصةٌ من الخشبةِ وتتوارى خلف السّتارة، تاركةً وراءها ظلاماً غامضاً وعيوناً لم تشبع بعدُ من رؤيتِها.

في هذا العالم الذي يفصِلُ بين الحياة والموت، لا يستطيعُ كِنان سمَاع أيّ صوت ما عدا ضوضاءِ سيّارة الإسعاف التي تنقُله إلى المستشفى، تتخلّله همهماتُ أمّه. لم يكن متأكداً إن كان ذلك صوتها فعلاً، أم فقط صوتاً اخترعَه دِماغُه حتى تكون له معها ذاكرة. حتى وجهها اختفت معالِمُه في ذاكرته، منذ ذلك اليوم الذي رحلَت فيه، لكنّه لم يستطِع أن يخترِع له ملامِح جديدة.

ما هو الرّجل من دون أمّ؟ لقد شعر كِنان دائماً أنّه غصنٌ مبتورٌ من شجرة، مرميّ بينَ الأوراقِ الجافّة المحيطةِ بها، فلا هو قادرٌ على الإيراقِ لوحدِه، ولا هو قادرٌ على الرّجوعِ ليلتصِق بالجِذع من جديد. صارَ بلا حياة ولا معنى. ومنذُ أن رحلت أمّه وهو يبحثُ في كلّ النساء الأخريات عن ملامِحها، وعن جوابٍ للقلقِ الذي سبّبَه رحيلُها المفاجئ.

أين ذهبت زينب حين تركت البيت ذات صباحٍ خريفيّ قبل عشرين عاماً؟ وما السببُ الذي يمكن أن يجعل أمّاً تتخلّى عن ابنِها وزوجِها وتختفي؟

إنّ الأشياءَ التي تحدُث بلا سبب، ثمّ يتكرّرُ حدوثُها مرّاتٍ كثيرة، تتحوّل إلى لعنات. وقد مرّ كِنان بوقتٍ عصيب وهو يحاول فهمَ مصدرِ لعنةِ رحيل أحبائه التي تلاحقه أينما حلّ وارتحلَ في الحياة، إذ لم تنسحب أمّه فقط من حياتِه بلا سبب، بل خطيبته أيضاً. رحلت هازال أيضاً ذات صباحٍ ربيعيّ قبل سنة، تاركةً خطيبها الذي كانت تحلم ببناء أسرةٍ معه، ولم تظهر مرّةً أخرى.

في هذا العالم الذي يربطُ بين الحياة والموت، الموحِش، الملتبس كحلم، تمشي روح كِنان بثبات، باحثةً بشغف عن الطريق المؤدية إلى القبر. عيناه المغمضتان لا تريانِ سوى ألوان فساتين أمّه البهيجة، وبياض بشرةِ هازال الباردة كرخام، واللوحاتِ الغاضبةِ التي رسمَها والده بعدَ رحيل أمّه.

* * *

لا يعرِف كِنان بالضبط متى بدأ القنوطُ يتسرّب إليه، ومتى تحوّل إلى كائنٍ يائس من كلّ شيء، ومتى بدأت الكوابيس تنتابه بشكل مستمرّ، فقد كان خلال طفولته ولداً سعيداً ونشيطاً ومتفائلاً ومحبّاً للحياة، وعاشَ مراهقةً متوازنةً بالمقارنةِ مع الكثير من أقرانِه ممّن كانوا يثيرون المشاكل ويكرهون الحياة ويلعنون حظوظهم العاثرة، بل كانَ شابّاً متّزناً جداً بالنظرِ إلى ما عاشه بسبب الظروفِ الغامضة التي اختفت فيها والدتُه من حياتِه.

لكنْ، بعد بلوغِه التاسعة والعشرين من عمره، وجدَ كِنان نفسَه فجأةً إنساناً مغموماً، محاطاً بالأفكارِ السوداوية، مصاباً بمتلازمةِ الذّعرِ من كلّ شيء، خائفاً من العالم الخارجيّ. ثمّ انفتحَ داخلَ دماغِه بابٌ يؤدّي إلى غرفةٍ مظلمة ملآنةٍ بالهواجس، وبدأت هذه الهواجس تتسرّب إلى عقلِه، فتغمره، وتغرقه في الخوف. كان يستيقظُ في منتصفِ الليل مذعوراً متعرّقاً، بعد أن يكون قد رأى كلاباً سوداء ضخمةً تطارده، أو كائناتٍ متوحّشة غريبةِ الأشكال تلتهمُ جسدَه وهو على قيدِ الحياة. ثمّ طوّرَ عقله آلياتٍ دفاعية لا واعية ضدّ هذه الكوابيس، فأصبحَ غير قادرٍ على النّوم. كانَ خِنجرُ الألمِ المسموم المغروس في قلبِه يجعله متيقّظاً طوال الوقت، قلقاً ومضطرباً. حتى الرّسمُ، هوايتُه المفضّلة، لم يستطِعْ أن يشفيه من مرضِ السؤال الذي نهشَ دواخله. وكم من لوحةٍ رسمَها

محاولاً تجسيدَ ذلك الألم الذي يستبدّ به لإخراجِه من داخله، لكنّه سرعان ما يمزّقها بعصبية وحِقد، ويلقي بها في القمامةِ بلا أي عاطفة.

مع الوقت، تغلغلت فكرةُ الانتحار رويداً رويداً في عقلِ كنان. لا شيءَ يمكنه أن يتصدّى للألمِ مثل الموت. الحياة مكابدةٌ مستمرّة للألم، والموتُ نِهاية المعاناة. راحَ كِنان يفكّر في أسهلِ الطرق المؤدية إلى موتٍ مضمون. لم يكن خائفاً من ذلك، لأنّه كان يعرِف أنّ الأصلَ هو العدم، وأنّ الرجوعَ إلى الأصلِ راحةٌ وسكينة، وأنّ الناس يخافون من الألم الذي قد ينجم عن الموت، وليس من الموت في حدّ ذاته. في المرّةِ الأولى، أخذَ حبوباً مهدّئة، لكنّه لم يأخذ ما يكفي لتُرسله الحياةُ إلى العالم الآخر، بل فقط ما يكفي لتصيبه آلامٌ مريعة في المعِدة، اضطرَّ معها إلى الزّحفِ إلى المطبخ وشربِ كمّياتٍ هائلة من الحليب، قبلَ أن يتقيّأ ما تناوله من حبوب. لكنّ الذئب لا يُخدَعُ إلّا مرّةً واحدة، لذلك قرّر كِنان، في المرّة الثانية، تناول رزمةٍ من الحبوب المنوِّمة حتى تكون نهايتُه مضمونة.

حين فتحَ عينَيه في المستشفى، ندبَ حظّه المشؤوم الذي لم يقِف إلى جانبه حتى لتحقيق رغبته في الموت. كان جسده منهكاً كمن ركضَ مسافاتٍ طويلة. رفعَ وجهه الشاحبَ الذي استقرّت فيه عينانِ منتفختان، فشاهد باقةً من أزهار التوليب مختلفة الألوان. فكّرَ مباشرةً أنّ أمّه هي التي بعثتها، ثمّ بنى قصّةً جديدةً في دماغه: زينب لا تزال على قيد الحياة، تراقب ابنها كلّ يوم، وتتَتبّع أخباره. عندما عرفت أنه في المشفى بعثت له باقة ورد.

تكوّمَ في الفراش مثلَ طفلٍ بردان، مقطّباً حاجبيه. شعَر أنّ الحياة نجحت في خداعِه مرّة أخرى، كأنّ محاولته للانتحار لم تقتل سوى اليأس بداخله، لينبعث الأمل من بين رفاته من جديد، كما يحدث في كلّ مرّةٍ يفكّر فيها بالموت.

تناهت إلى أنفه رائحةٌ تشبه رائحة أمّه. تحرّك وسط الشراشف البيضاء التي تذكّره بالموت، ولمعت فكرةُ البحث عنها في رأسِه كما تلمع قطعة ألماس تحتَ انعكاس الضوء. ولأنّ الأطفالَ لا يحصلون على ما يريدونه إلّا بعد إلحاحٍ طويل، قرّرَ أن يواجه الحياةَ بالإلحاح نفسِه حتى يعثرَ على والدتِه المختفية.

تزداد قيمةُ الحياة بعدَ مجابهة الموت، كما تزداد قيمةُ الشيء بعد مواجهة فقدانِه، لأنّه بعد الفقد فقط، نعرِف كيف يمكن أن تكونَ الحياةُ من دون هذا الشيء. وقد عرفَ كِنان الآن أنّ الحياةَ ملآنةٌ بالأشياءِ التي يستطيعُ فعلَها، وأنّها تتكدّسُ بالأشياء التي ينبغي له أن يرتّبها.

بصعوبة، تحرّكَ وسطَ الشراشف مرّة أخرى. يستدعي الجوابُ عن سؤالٍ ما تفكيكَ هذا السّؤال واستخراجَ أسئلةٍ أخرى منه أولاً، وعند الحصولِ على إجاباتٍ للأسئلة المتفرّعةِ عن السؤال الرئيس نكون قد وجدنا، بطريقةٍ غير مباشرة، جواباً له. لماذا تركته هازال أيضاً في ذلك الصباح الربيعي من السنة الماضية؟ فكّرَ أن تلكَ لعنةُ أبيه التي تلاحقه. إنّه يحمِل جيناته، وبالتالي ثمّة احتمالٌ كبير أن ينظر إلى الحياةِ بنفس نظرةِ أبيه، ويتصرّف مع حبيبته بنفسِ الطريقة التي تصرّف بها أبوه مع أمّه. هذه الطريقة هي التي جعلت المرأتَين ترحلان دون سابقِ إنذار.

كان والد كِنان رجلاً مرِحاً، وسيماً، طويلَ القامة، ذا عينَين عسليّتَين مشوبتَين بثقةٍ منقطعة النظير، لكنّه كان غامضاً ومعقّداً بشكلٍ لم يستطِع كِنان فهمَه إلى حدّ الآن. منغلقاً على نفسه، كان يقضي يومَه في البيت داخل ورشة الرّسم الخاصّةِ به، لا يخالط أحداً ولا يكلّم أحداً إلّا قليلاً، حتى زوجتَه. لم يكن لديه أصدقاء ولا معارف. ورغمَ أنّه كان يحلم أن يصير رسّاماً مشهوراً، إلا أنّه لم يكن يبذل أيّ مجهودٍ اجتماعيّ للوصول إلى ذلك، من قبيل زيارة المعارض واللقاء

بالرسامين والفنانين والمشاركة في الفعاليات المرتبطة بالفنّ التشكيلي. كلّ ما كان يفعله أنه كان يرسم طوال اليوم، ويتطلّعُ إلى لوحاتِه بفخرٍ وإعجاب، معتبراً أنّ عدمَ نجاحِه في هذا المجال يرجعُ إلى عدمِ تقدير المجتمع للإبداع الحقيقيّ. ومع ذلك، كانَ ظاهراً أنّ عجزَه عن الوصولِ إلى الشهرة جعلَه، مع مرورِ الأيام، إنساناً متوتراً ومضطرباً وساخطاً على العالم. وكلّما مرّت السّنوات، كلّما ازداد اضطرابه وضوحاً، خاصّةً في عينَيه اللتين تضيقان وتظلمان كلّ يوم أكثر، وفي صمتِه الذي يزدادُ حلكةً وحزناً، ونظرتِه التي تتعاظَم قساوتُها وغِلظتُها.

تحوّلَ والدُ كِنان مع مرورِ الوقت إلى شخصٍ فظّ، ولم تكن هذه الفظاظةُ لتفرّغَ إلّا على زوجتِه زينب التي كانت تتحمّله بصبرٍ ليس له مثيل. فعلى الرّغم من أنّ الشخص الذي أصبحت تعيشُ معه ليس الشخصَ نفسَه الذي أحبّته وتزوّجته، إلّا أنّها تجلّدت على أملِ أن يحقِّق يوماً حلمه، فيعود إليها مرِحاً، مُحِبّاً وحنوناً. لكنّ التغيّرات التي يحدِثها الزّمنُ في الإنسان يستحيلُ محوُها، مثلما يستحيلُ محو نقشٍ على الحجر. كلّ النساء المتزوّجات اللواتي عرفتهنّ زينب خلال حياتِها، واللواتي تغيّر أزواجهنّ لسببٍ أو لآخر فصاروا قُساةً متحجّرين، لم يعودوا كما كانوا من قبل حين انتفت الظروف التي أدّت بهم إلى هذه القسوة. كانت امرأةً طافحةً بالحنوّ، وكانت التعاسةُ التي تُلقي بظلالِها على البيتِ تزيدُ من حنانِها. وعكس زوجِها، لم يكن الفشل والانكسار يزرعانِ في داخلِها الخشونةَ، بل الرقّة. كانت جميلةً، حتى في أقصى حالاتِ الوَهن والذبول. ممشوقة القِوام، بيضاء البشرة، ذاتُ شعرٍ كستنائي فاتح وعينَين زرقاوين وأنفٍ طويل وشفتَين رفيعتَين. تُشبِه إلى حدّ كبير بورتريهات السلطانات والأميرات العثمانيات. أنيقةُ الهندام وحسنةُ التصرّف. ترتدي فساتين وتنانير فاتحةَ الألوان. تسرّح شعرَها في كعكة. هادئةٌ كقاربٍ صغير يسير فوقَ مياهِ

نهرٍ صافية. غير أنّ هدوءها وحنانَها لم ينجحا في امتصاصِ الغضبِ القابع في قلبِ زوجها.

حينما كانت تلوحُ تلكَ النظرةُ الحاقدة في وجه والدِ كنان، كانت الأمّ تنحني برأسِها مركّزةً نظرَها في أصابع قدمَيها الحافيتَين، أو في زركشةِ السجّاد، أو في طبقِ الطعام أمامَها على الطاولة. لم تكن تجرؤ أبداً على رفعِ عينيها والتحديق به. وعندما ينسحبُ متوارياً داخلَ ورشته، ترفعُ زينب رأسَها بثقةٍ غريبة، وتسحبُ أوراقاً وقلماً من درج منضدةٍ في البهو، ثمّ تشرعُ في الكِتابة. أحياناً، كانت تتناولُ بشراهة قطعاً كثيرةً من البقلاوة، ثمّ تدخّن سيجارةً رفيعة، بينما ترتعِد يداها في توتّرٍ مخيف. كان كِنان يحدّقُ بها بدهشة، خاصّةً حين يحمرّ وجهها ويصيرُ على وشكِ الانفجار، لكنّها تظلّ، مع ذلك، محافظةً على ابتسامتِها.

بسببِ الحياةِ التي عاشتها أمّه، توصّلَ كِنان إلى خلاصةٍ واحدة، وهي أنّ الأشخاصَ الذين يتمتّعون بابتساماتٍ جذّابة هم الأكثر حزناً على الإطلاق، لأنّهم لو سمحوا لآلامهم الكبيرة بالانكشاف، فقد يعرّضونَ ملامحَهم للتشوّه. لذلك، كانت زينب تبتسم على الدوام، على الرغمِ من تعاستِها الكبيرة.

في لحظاتٍ كثيرة، ضبطَها كِنان وهي تبكي وحيدةً في المطبخ. كان يبدو أنّها تحاول البكاءَ بصمت، لكنّ الحشرجاتِ التي تخرج من حلقِها رغماً عنها، وارتجافَ يديها وهي تعدّ الطعام، كانا يفضحانِها، فيهشّمان قلبَ ابنِها الصغير الذي لم يكن قادراً على فهمِ تعاظُم خشونةِ أبيه مقابلَ ازديادِ ضعفِ أمّه وذوبانِها أمامه.

بيد أنّ عقلَ كِنان كانت له طريقةٌ أخرى لمواجهةِ هذا الحزن الذي يملأ البيت. كان خيالُه يسرحُ بعيداً، فيتصوّرُ أنّ المِلح الموجودَ في الطعام ليسَ إلّا دموعَ أمّه، لذلك كان يتناول الأطباق بلذّةٍ أكبر،

متصوِّراً أنّه يلتهم أيضاً دموعَ أمّه وألمَها. وبابتلاعِه لهذه الدموع، ستنقضي يوماً ما، وسيكون لكلّ هذا الحزن نهاية.

كان كِنان في العاشرة من عمره حينَ فقدت زينب تماماً قدرتَها على مواجهة الحياة. كان ذلك في ربيعِ عام 1999. الساعةُ تشير إلى السّادسة والنصف مساءً. الجوّ دافئٌ نوعاً ما. الستائر المزركشةُ تتحرّكُ بهدوء بفعل حركةِ النسيم، وضجيجُ الأطفال في الشارع يتسلّل عبرَ النوافذ نافذاً عبرَها إلى البيت. كان كِنان قد عادَ للتوّ من المدرسة. حدّقَ في أمّه المستلقية على الأريكةِ في البهو مغمضةً عينَيها، ثمّ في الأوراقِ الكثيرةِ أمامها على الطاولة، والقلم، ومنفضةِ السّجائر الممتلئة. يبدو أنّها كانت تكتُب قبل أن يغلبها النعاس. في العادة، تكون في مثلِ هذا الوقت قد فرغَت من الكتابة، ودخلت إلى المطبخ للبدء في إعداد العشاء. تطلّعَ إلى وجهها. كانت غارقةً في نوم عميق لدرجةٍ لم تشعر بالقبلةِ التي طبَعها ابنُها على خدّها. تخيّل أنّها ترى حلماً مزعجاً، ليطفَر من سحنتِها كلّ هذا التقطيب. تمنّى لو يستطيع انتزاعَها من ذلك الحلم، وإخراجها من ذلك العالم الذي في رأسِها الآن. وحين همّ بإيقاظِها، تراجع. قبّل خدّها من جديد، ثمّ سارَ نحو ورشةِ والده.

في الرّدهةِ المؤدية إلى الورشة، تناهت إليه روائح دخان قوية، وغمرَه صوتُ سيزن أكسو الرقيق والهادئ وهي تصدحُ من آلة التسجيل بأغنيتها Gülümse «ابتسامة». فتحَ البابَ بهدوء، ووقفَ يتطلّعُ إلى والدِه بإعجابٍ ممزوجٍ بالحسَد. كان كعادتِه حين يرسم، عاري الصّدر. منعَه الدخان الكثيفُ المنبعثُ من السيجارةِ المستقرّة بين شفتيّ والدِه اللتين يغطّيهما شاربٌ كثّ من رؤيةِ اللوحةِ بوضوح. اقترَب بخطواتٍ بطيئة. كانت فرشاة والدِه ترسُم جامِع أورتاكوي المطلّ على البوسفور. لطالما أحبّ مراقبةَ أبيه بصمتٍ وهو يرسم. يتتبّع ضرباتِ

الفرشاة على اللوحة طوال ساعاتٍ بلا ملل، ويحاول بين الفينة والأخرى، تقليدَه، يمسِك فرشاةً صغيرة، يخلِط الصّباغةَ بعشوائية، ثمّ يروح يرسم أيّ شيءٍ يخطرُ على باله. كانت الصّورةُ التي تسكن عقلَه هي وجهُ أمّه، وكان هدفه هو النّجاحُ في رسمِ هذا الوجه الذي يسحره.

طبعَ قبلةً على خدّ والده الذي لم يحرّك ساكناً، ثمّ خرج من الورشةِ وهو ينطّ كأرنبٍ صغير. كانت الأمّ لا تزال نائمة. تتطلّعَ إلى وجهها مرّةً أخرى. كانَ نصفه مظلماً والنّصفُ الآخر مضاءً بالخيوطِ الأخيرةِ من النور. دخلَ إلى المطبخ، وتناول ساندويتش بارداً. أنجزَ واجباتِه المدرسية، ثمّ غطَّ في نومٍ عميق.

حين استيقظَ في الصّباح، كان مكانُ زينب على الأريكةِ فارغاً. سارَ ببطء نحوَ بابِ البيت حيث تجمّع الجيران ورجالُ الشرطة والإسعاف مُحْدِثين جلبةً تشبِهُ صخبَ السّوق. كان والدُه يقتعدُ كرسياً وسطهم، يتطلّعُ إلى العالم حوله بعينَين طافحتَين بالدهشةِ والمأساة. شاهَد كِنان في عينَيه النظرةَ نفسَها التي كانت له حين ماتت جدّته قبلَ سنتَين.

وعلى الرغم من الأجواء الجنائزية التي شهدها البيت في الأيام التي تلَت اختفاء أمّه، إلّا أنّ والِد كنان أخبرَ ابنه أنّ أمّه لم تمُت، وأنّه سيلتقيها يوماً ما مرّةً أخرى. كانا جالسَين على الأريكة التي نامت عليها زينب آخر مرّة، ينظران إلى النافذة المفتوحة، والسّتائرِ المزركشةِ التي يحرّكُها الهواء الرّبيعي الرّقيق. كانَ الجوّ يحمِل إليهما رائحةَ تلكَ المرأة الهادئة التي لطالما حلمت أن تصبح كاتبة. رائحتُها التي تشبه رائحة التوليب. أمّا ذلك الفراغُ المخيّمُ على البيت، فقد كان يحمِلُ إليهما صورتَها وهي ترفعُ خصرَها، دافعةً إياه إلى الأمام في حركاتٍ رشيقة، وتموّجاتِ يديها المهفهفة كجناحَي فراشة.

بعدَ سنتَين، ظهرت زليخة في حياة كِنان ووالده. كانت أيضاً فنّانةً تشكيلية، وكانت على العكس من أمّه، امرأةً فارعة القدّ قويةَ البنية، ترتدي سراويل جينز وكنزاتٍ واسعة، وتسرّحُ شعرَها في ذيل حِصان. وبعد زياراتٍ متتالية لهما في البيت والكثير من الهدايا لكِنان، جاءت زليخة لتعيشَ مع الأب وابنِه تحت سقفٍ واحد.

ورغمَ أن زليخة كانت امرأة طيّبةً وحنوناً، ولم تقصّر أبداً في معاملةِ كِنان كما لو كان ابنَها، غير أنّه بعدما بلَغ السّادسةَ والعشرين، ترَك البيت، واستأجرَ شُقّةً صغيرة في زقاق بالاسكا في بيه أوغلو، حيثُ كانَ يعيش ويرسُم بعد نهايةِ دوامه في الشركة التي كان يشتغل فيها كمصمِّم جرافيك، ثمّ تعرّف إلى هازال.

استطاعَ كِنان بعد كلّ هذه السّنوات أن يُسامِح والدَه على الكثير من الأشياء. سامَحه على أنانيته وعلى انعدام اهتمامِه بعائلته، لكنْ، ما لم يستطع أبداً أن يسامِحه عليه هو تلك النظرةُ الفظّةُ الخشِنة التي كان يرمقُ بها أمّه، إذ اكتشف بعد مجيء زليخة، أنّ والدَه قادرٌ على أن يرمقَ امرأةً بنظرةٍ رقيقةٍ وحنونة.

حياةٌ خاوية كبيتٍ مهجور

ارتخَت إيمان متكئةً على مسندِ الأريكة وهي تراقبُ الزقاقَ تحت الأمطار الغزيرة التي تنزلُ من السّماء كشلّالات. كانت لا تزالُ تضعُ الضمّادات على كتفها وفخذِها الأيسرَين، لكنّ الألمَ لم يعُد بذلك السّوء بعد عشرةِ أيام من الحادث.

كان هناك مطرٌ غزير في داخِلها أيضاً، تمنّت لو تفتحُ له مزاريبَ عينَيها لينصرفَ كلّه وترتاح. لكنّ امتناعها عن الكلام رافقه امتناعُ عينَيها عن البكاء أيضاً. وبقدرِ ما كانت تُمطر داخلها في جوّ رمادي وكئيب، بقدرِ ما شعرَت بنفسِها جافّةً من الدّموع. كانت تتفرّج على وقعِ الأمطار فوق الأرض وهي تقشّر شفتيها المتشقّقتين بتركيزٍ شديد، حين وصلتْها رسالةٌ من خالد على تطبيق «ماسنجر» يخبرها أنّ زملاءَه في العمل قادمون معه لرؤيتها والاطمئنان عليها. في تلك اللحظة، نزلَتْ قطرةُ دم من شفتها السّفلى وسقطَتْ فوق بنطالها الجينز.

توجّهت بسرعةٍ إلى غرفةِ النّوم، ووقفَتْ أمام المرآة الكبيرة الملتصقة إلى بابِ الدولاب. حدّقت في وجهها بذهول كأنّها ما عرفَت نفسَها. كانت هناك دوائرُ سوداء حولَ عينيها وبثرةٌ صغيرةٌ على جبينِها. وعندما فكّرت أنّ إيناساً السّورية بلا شكٍّ قادمةٌ أيضاً، برقَت عيناها. تطلّعت ملياً إلى استدارةِ مؤخرتِها، قبلَ أن تخفيَ كلّ العيوبِ على

وجهها بكريم الأساس. وضعت في الأخير أحمرَ الخدود لتخفيَ شحوبَها، ثمّ أسدلت شعرَها الطويل على كتفيها.

في تمام السّادسة والنصف، كان خالد قد وصلَ إلى الشقّة بصحبةِ زملائه نبيل ونجوى وإيناس. رمقَت إيمان هذه الأخيرةَ شزراً وهي تسيرُ نحوَ البهوِ بحذائها ذي الكعبِ العالي متبخترةً في مشيتِها كأنّها الأنثى الوحيدةُ في هذا المكان. كانت ترتدي بنطالَ جينز ضيّق، وكنزةً قصيرة مفتوحةً من الصّدر، وطرحةَ رأس تغطّي نصفَ شعرِها فقط، بينما ظلّ النصفُ الأمامي عارياً منفلتاً. وهو ما تسمّيه كثيرٌ من الفتيات العربيات حجاباً حين يقرّرنَ فجأةً أن يتُبن إلى الله ويسترنَ أجسادهنّ.

وعندما كان الجميع يسألُها عن أحوالِها وصحّتِها، كانت إيمان تحدّقُ بانتباه في أحمرِ شِفاه إيناس الخارجِ عن إطارِ شفتيها، وكان خالد في أغلبِ الأحيان، من يجيب بدلاً منها.

قالت إيناس بلطفٍ بالغ في التصنُّع:

- لو احتجتِ أيّ مساعدة، اتصلي بي، وسآتيك في الحال.

ابتسمت إيمان، وقالت بسخريةٍ مريرة:

- هل أبدو مُعاقة؟ إنني أتحرّك وأستطيع أن أطبخ وأنظّف وأقومَ بكلّ ما يتوجّب عليّ كالعادة.

ردّت إيناس ضاحكةً:

- لو كنتِ تعملين لقلتِ العكس تماماً، بل كنتِ ستتظاهرين بالمرضِ حتى تتغيّبي عن العمل وترتاحي في البيت!

كانت إيمان تغلي من الداخل. غمرَها الشعورُ بالإهانة، لكنّها حافظت على ابتسامتِها. لا ينبغي أبداً أن يُظهِر الواحدُ تأثّره بإهاناتِ أعدائه. لكنْ، لماذا تشعر أنّ إيناساً عَدوّتها اللدودة أصلاً؟

ضحِك الجميع مرّةً واحدة موافقين على كلام إيناس، وتوقّفوا عن

الضّحِك في نفسِ اللحظة. ارتسمت على وجهِ إيناس ابتسامةُ المنتشية بنفسِها، ثمّ التفتت إلى خالد الجالس بجانبِها وقالت:

- أليس كذلك يا خالد؟ فعلنا ذلك مراراً، بل أصبحنا نبحث عن أتفه الأسباب حتى نتغيّب!

مرّة أخرى، ضحِك الجميع، وتوقّفوا عن الضّحكِ في نفسِ اللحظة. رمقت إيمان إيناساً شزراً. قالت نجوى:

- صحيح، مرّة نتحجّج بالمرض، ومرّاتٍ بالمعاملاتِ الإدارية المستعجلة، ومرّاتٍ أخرى بالظروف الشخصية الخارجة عن الإرادة.

كادتْ إيمان تفقد أعصابَها، لكنّها كانت مثلَ تمثال، لا تزالُ جالسةً في نفسِ الوضعيةِ محافظةً على نفسِ الابتسامة. التقتْ عيناها بعينَيّ نبيل الذي كان يجلسُ قبالتها في نظرةٍ محايدة.

تدخّلَ نبيل لتلطيف الأجواء:

- وما هي أكبرُ كذبةٍ في التاريخ يا شباب؟

قالت إيمان وهي تنهض:

- سأعدّ الشاي.

مكتبة
t.me/t_pdf

نهضت إيناس وهي تقول:

- لا تعذّبي نفسَك، أنا سأعدّه.. ارتاحي أنتِ.

قالَ خالد مجيباً عن سؤالِ صديقه:

- أكبرُ كِذبةٍ في التاريخ هي المعاملات البنكية... الجميعُ يتحجّج بإنجاز معاملاتٍ بنكية كلّ يوم، والجميعُ ينتهي راتبه في منتصف الشهر أيضاً!

انفجرَتْ نجوى ضحكاً، وقالت:

- يا مليارديرات... ما شاء الله عليكم!

كانت إيناس لا تزال تتفاوض مع إيمان حول من سيعدّ الشاي. وفي الأخير، أصرّت إيمان على إعداده.

انسحبت بهدوء مبتعدةً عن القهقهات التي سبّبت لها ضجيجاً لا يُحتمل في الرأس، كأنّ النّحلَ يطنُّ داخله. وعندما وصلت إلى باب المطبخ، سمعَتْ إيناساً تقول لخالد:

- يا إلهي.. زوجتُك عنيدة جدّاً!

مخنوقةً، اندفعتْ إلى الدّاخل. وضعت الماء يغلي في آنية، ثمّ وضعت فيه أوراق الشاي الأخضر. كانَ هناك شيءٌ ما يغلي داخلَ شرايينِها. كرِهتْ خالداً وكرهت زملاءه. كرهتهم كلّهم بقوةٍ ليس لها مثيل، وانتابتها رغبةٌ قوية في غليهم مع الشاي، ثمّ سكبِهم في حوضِ الغسيل. وضعتْ مربّعاتِ السّكر في آنيةٍ زجاجية مزخرفة، والآنيةَ في الصينية مع الفناجين، وتمنّت لو تضعُ السّم مكانَ السكّر، لكنّ مشكلتَها أنها لم تجرؤ في حياتها أن تقتل حتى حشرة.

سكبتِ الشاي الغليان في الفناجين بيدَين ترتجفان. كادَ يغمى عليها لولا أنّها استندت إلى الحائط تسترجع أنفاسَها بعينَين مغمضتَين.

وحين استعادت رباطة جأشِها، حمَلتِ الصينية، وسارت نحو البهو بخطواتٍ ثقيلة. ودون أن تنظر إلى أحد، قدّمت الفناجين والسكّر للضيوف. كانت تفكّر في حياتِها الخاوية كبيتٍ مهجورٍ تدخل الرّياح عبر نوافذه المكسّرة وتحملُ إليه أوراقَ أشجارٍ ذابلة.

حملتْ إيناس فنجانَها بأناقةٍ مصطنعة، ضاحكةً بفمها الذي خرَج أحمرُ الشفاه عن إطاره. جلستْ نجوى مفرّقةً رجليها كالعادة مثلَ ذكَر، بينما كان نبيل يرمقُ، بين الحين والآخر، الأخاديد الطويلة التي في ساعدَيها الأبيضَين. أمّا خالد، فقد كانَ يستمِع إلى طرائفِ العمل، بينما كانت عيناهُ متسمّرتين في عروقِ عُنق إيمان التي لم تُبعِد نظرَها عن اللون الأحمر في شفتَي إيناس الخارجِ عن إطارِهما.

23

قررت إيمان أن تغيّر حياتَها

في يومِ الخميس الموافق للسّابع من نوفمبر 2018، وفي السّاعةِ الثالثة وعشر دقائق بعدَ الزّوال، قرّرت إيمان أن تُغيّر حياتَها.

كان أوّلُ أيّامِ الشتاء مشمساً، وكان بريقُ الشمسِ القوية الدّافئة يتلألأ في الخارجِ، تاركاً خيوطه الذهبية تتمدّدُ إلى داخل الشقّة عبر النوافذِ المفتوحة. اندفعَت إيمان بجسدِها خارجَ المبنى الذي تسكن فيه، وأخذت تركضُ عابرةً أزقّة بشكتاش، كأنّما تطردُ عن نفسِها كلّ تعب السّنين الماضية. لأوّل مرّةٍ بعد سنوات، ستركضُ طوال ساعةٍ كاملة. ركضتْ من بشكتاش عبرَ قصر دولما بهتشة وحديقة فينديكلي البهيجة ومحطّة توبهانة حتى كاراكوي، ثمّ عادت إلى توبهانة وركَضت عبر أزقّة بيه أوغلو وتشوقور جمعة، حتى وصلتْ إلى ميدان جيهانغير.

لم تشعُر بالحاجةِ إلى استرداد أنفاسِها رغم كلّ تلك المسافاتِ التي قطَعتها. كأنّها كانت تطهّر داخلها من كلّ الأنفاس القديمة التي تراكمت هناك مكوّنةً غرفةً مُهملةً وموحشة.

كانت عبر الركض، تُخلّص نفسَها من كلّ الغُبار الذي يغطّي روحَها، ويتصاعدُ كلّ يومٍ ليُعمي عينَيها، فلا ترى الأشياء بوضوح. أرادت أن تطهّرَ نفسَها من ماضيها مع خالد، من خنوعِها، من صمتِها، من كلّ الأشياء التي كانَ ينبغي أن تقولَها له ولم تفعل، من الشتائم التي كانت تريد إلقاءها في وجهه، من كلّ المرّات التي نامت فيها معه

دون أن تشعر باللذّة، مِن محاولاتِها المتكرّرةِ في أن تُصالِحه، من أخطائه، من اعتذاراته على أخطائه، مِن هداياه، مِن كؤوس النبيذ التي شرِبتها بصحبتِه وهي حزينة، من سكَراتِها العنيفة بسببِ الإفراط في شرب البيرة أو العرَق لطمرِ ألمِها، من قبلاتِها الخفيفة على خدّه وهي لا تطيقه، من فساتينها الحمراء وكعبِها العالي، من كريم الأساس الذي تخفي به تعبَها، من ابتساماتِها المصطنعة، من تناوُلِها وجبة العشاء قُبالتَه كلّ مساء، من غضبِها المحموم الذي كانت تقمَعه بالسّكوت، من دموعِها التي حبسَتْ في قلبِها كلّ مرّة ترغبُ فيها بالبكاء، من غيرتِها التي بلا معنى من نهودِ النسّاء الأخريات واستدارةِ مؤخراتهنّ وأحواضهنّ وأجسادهنّ المبتّلة الهيفاء وأنوثتهنّ الطافحة، من سِروال إيناس اللاصق على مؤخّرتها وفمِها الذي لا يُغلق أبداً وشفتيها الرّفيعتين اللتين خرجَ أحمرُ الشفاه عن إطارِهما وفلجةِ أسنانِها ومشيتها المختالة كأنّها الأنثى الوحيدةُ على هذه الأرض. أرادت أن تُطَهّر نفسَها مِن تعليقاتِ حماتِها، من كلّ الكُتُب التي رغبتْ في قراءتها ولم تفعل، من كلّ الأفكار التي أرادتْ أن تكتبَ ولم تكتب، من وسواسِ أمّها القهريّ، من أبيها الذي لم يعُد في رأسِها أباها منذ سنّ العاشرة، من قصّة تلك المرأةِ التركية التي تركتْ كلّ شيءٍ حتى تحقّق حُلمَها في أن تُصبح روائية، من الحبّ والحقد والسّخط والحسد، من أصدقائها في المغرب، من أوهامِ السّعادة، من غسلِ الصّحون كلّ يوم، من أظافرِها المقضومة، من الأشياء المنظَّمة والجاهزة، من صورتِها وهي في حِضن خالد، من الوشمِ في ذقنِ أمّها، من يسارية أبيها التي لم يستفِد منها أيّ شيء في بلدِه، من الخوفِ الذي يُرجِعُها إلى الوراء كلّما رغبتْ في حملِ رجلِها والخطو إلى الأمام، من وهمِ السّعادةِ التي كانت تستمدّها من سعادةِ الآخرين، من الأنانية المكبوتةِ داخلَها، من الشّعور المحمومِ باليُتم والهَجر، من الخمسِ خطوات التي كانت

تخطوها إلى النافذة كلّ يوم لتطلّ على خالد وهو يعود من عملِه، من عهد الحسن الثاني ومن الثورات العربية، من الصّراخ الذي كانت تريد أن تصرخه في شوارع الدار البيضاء خلال مظاهرات عشرين فبراير ولم تفعل، من الحُلم التركي، من ذكريات طنجة وصخب الدار البيضاء وأوهام إسطنبول. أرادت أن تخلّص نفسَها من كلّ شيء مع كلّ خطوة خطتَها ركضاً بصلابةٍ إلى الأمام.

كانت واقفةً وسطَ ميدانِ جيهانغير تنظرُ يميناً ويساراً كمن أضاعت طريقها، لشدّة ما شعرتْ أنها تخلّصت من كلّ هذه الأشياء التي كانت تشكّل بوصلتَها في الحياة. أحسّت أنها فقدت انتماءاتِها كلّها. وفي زمنٍ قصير قد يكون دامَ ثانيةً واحدة أو ساعةً، لا تعرف، استرجعت صخبَ الشارع والمقاهي حولَها.

كان يوماً عادياً جدّاً وروتينياً. لم يحدث خِصامٌ بينها وبين زوجها. فقد عادت تكلّمه من جديد بعد أن اعتذرَ لها عن الصفعةِ التي وجّهها إلى خدّها ذلك اليوم. أعدّت له الفطور في الصّباح، شربت معه فنجان قهوة، وتمنّت له يوماً سعيداً وهو يغادر البيتَ نحو عملِه الذي استلَم فيه قبلَ أيّام، منصبَ رئيس التحرير.

لكنْ، في الأيّام العادية أيضاً، تحدثُ مثل هذه الأشياء. في الأيام العادية، يستطيع الإنسان أن يشعرَ فجأةً باهتزازٍ عنيفٍ في البطن، كأنّ جنيناً تحرّك هناك، أن يفهمَ، دفعةً واحدة، أشياء كثيرة تحصل حوله، ليسَ عن طريق استيعابِها بعقله، بل إدراكها بعواطفه: أن يُلامسَها ويشعرُ بوخزِها أو حرارتِها أو برودتِها أو ألمِها.

في الأيّام العادية أيضاً، يمكن للإنسان أن يشعرَ بالضياع. يمكن لإيمان أن تشعر بالضياع، بعدم الانتماء إلى أيّ شيء، أن تفقد بوصلاتِها كلّها، أن تقتعِد كرسياً خشبياً في مقهىً صغير على الرّصيف في ميدان جيهانغير، أن تطلُب قهوةً بالحليب، أن تشربَ القهوةَ

بالحليب وهي تتأمّلُ كلابَ الشوارع الضخمة التي تطارد السيّارات بلا هوادة. في الأيّامِ العادية أيضاً تحصلُ مثل هذه الأشياء. تسمعُ صوتَ أحدٍ إلى جانِبها يتحدّث بالإنجليزية عن زهرة التوليب. ليس الزّهرة، بل الكاتبة التي كانت تقرأ لها ذات يوم، والتي كانت أكثر الكاتبات اللواتي عبّرنَ عن ألمِ إيمان وعُمقِه وقسوتِه.

في الأيّام العادية، يمكن أن تستدير إيمان إلى مصدرِ الصّوت وهي تضعُ فنجانَ القهوةِ بالحليب على الطاولة، أن تسمعَ الرّجل الجالسَ إلى الطاولة بجانبِها يقول بإنجليزية مفعمةٍ بلكنةٍ تركية إنّه يشكّ أن تكون زهرةُ التوليب أمّه المختفيةَ منذ سنوات، أن يكون الرّجل تركياً وسيماً يشبه إلى حدٍّ كبير أولئك الممثلين الذين وقعَت في حبّهم ذات يوم، أن يكون طويلاً، ذا شعرٍ أسود ناعم، لحيةٍ فاحمة وشفتَين مكتنزتَين، أن ينظر إليها، أن تلتقي عيناهما، وأن تخبره أنّها قارئةٌ نهِمةٌ لكتابات زهرةِ التوليب.

كان يوماً عادياً جداً، وكانت الشمسُ تلقي ضوءَها الذهبيّ على المقهى. شرِبتْ إيمان من فنجانِها بهدوء، ثمّ التفتت إلى الرّجل الجالسِ وحيداً إلى الطاولة القريبة جدّاً منها، والذي أنهى اتصاله للتوّ.

قالت بابتسامةٍ حقيقية نابِعة من أعماقِ النشوة:

- أعرِف زهرة التوليب، وأحبّها كثيراً.

كانَ الرّجل ينظر إليها باندهاش. نهضت وتوجّهت نحوه، ثمّ أضافتْ بنبرةٍ مطمئِنة وهي تمدّ له يدَها:

- اسمي إيمان، وأنا مغربية.

مدّ الرّجل يدَه وقد ارتسمت على وجهه ابتسامةٌ طافحةٌ بالدهشة:

- اسمي كِنان، وأنا تركيّ.

24

زهرة التوليب

حينَ تستلقي إيمان على السّرير، تفكّر في كِنان. حينَ ترمي جسدَها على الكنبة، تفكّر فيه. حين تغسِل الصّحون، تفكّر فيه. حينَ تقرأ كتاباً، تفكّر فيه. الحبّ نوعٌ من الهوَسِ أيضاً. وعندما تعجزُ عن التركيز، ترى وجهه بين السّطور، ويتراءى لها مشهدُ البارحة بوضوحٍ على الصّفحةِ أمامها. تظلّ ممسكةً الكتاب في يدِها مستمتعةً بالنظرِ إلى ما حدثَ كأنّها تتطلّعُ إلى مشهدٍ من فيلمٍ رومانسي لذيذ ومُفرِطٍ في العواطف، بينما يجلس خالد إلى جانِبها، ممسكاً هاتفه في يده، منشغلاً ببعث الرسائل لأصدقائه والتعليق على منشوراتِهم على فيسبوك.

المكانُ الوحيد الذي يستطيعُ فيه الإنسانُ أن يكون حرّاً فعلاً هو رأسُه. فلا خالد يستطيع منعَها من التفكير في كِنان، ولا الزّواجُ يستطيع ردعَها عن تخيّلِ نفسِها في حِضن رجلٍ آخر، ولا حتى تلك الوعودُ المتبادلة بالوفاء، ولا العِشرةُ، ولا حتى قوانينُ المجتمع. لا أحدَ يستطيع منعَها أو محاسبتها على ما تعيشُه داخل رأسِها في هذه اللحظة.

ظلّت، طوال ساعتَين، تقلبُ صفحاتِ رواية **الكنّة** للكاتب التركي أورهان كمال، كمن تقرأ بلا ملل، بينما كانت تسترجعُ في الحقيقة، مشاهدَ لقائها بكِنان. كان تذكّر اللقاء بالنسبة إليها أجملَ من اللقاء نفسِه. نظرتُه المفعمةُ بالدهشة حين كانت تمدّ له يدَها. الشمسُ وهي

تتلألأ في عينَيه ووجهه في اللحظةِ التي كان يمدّ لها يدَه فيها. شفتاهُ وهما تنفتحان وتُطبقان، وهو ينطق «أنا كِنان، وأنا تركيّ». عِبارةُ «أنا تركيّ» كانت كافيةً لتجعَلها تذوب وتفقد زِمام التحكّم بمشاعرِها. خُصلات شعرِه النّاعم وهي تتحرّك بفعلِ الهواء الخفيف. حتى الصّخب المحيط بهما كان له طعمٌ آخر... كلّ شيءٍ في الدنيا في تلك اللحظةِ التي لمستْ فيها يدُها يدَه، كان له طعمٌ مختلف.

تبتسم بلذة وهي تقلب صفحاتِ الكتاب. كانت متأكّدة أن كمّية المتعة التي تنتابها وهي تتذكّرُ ذلك المشهد ستكفيها لتعيش سعيدةً ما تبقّى من حياتِها. تمرّر نظرَها على صفحةٍ واحدة لمدّة عشر دقائق، متظاهرةً بالقراءة، ثمّ تمرّ إلى الصّفحة التالية، وتدقّق فيها النّظر عشرَ دقائق أخرى، ثمّ تمرّ إلى الصّفحة التي تليها. وطوال مدّة التذكّر، كانت قد قلبَتْ عشر صفحاتٍ من الرواية، دون أن تقرأ حرفاً واحداً.

في الصّفحة الأولى، كانَ يقول لها: «أنا كِنان»... يكفي أن يكونَ الاسم تركياً حتى تفكّر فيه لوحدِه عشر دقائق أو حتى أكثر. إنّه ليس محمّداً ولا يوسف ولا خالداً ولا سعيداً. اسم غير متعوّدة على سماعه في المغرب. اعتقدت إيمان دائماً أنّ الرجال العرب معقّدون، وأنّ شخصاً غير عربيّ لن يشكّل عائقاً في حياةِ المرأة.

في الصفحة الثانية، قالَ لها «أنا تركيّ». إنّها مستعدّةٌ لتقبُّل أيّ شيءٍ غير عربي. أيّ شيء آخر. أن يكون الرجلُ تركياً بالنسبةِ إليها يعني أيضاً أن يكونَ وسيماً ورومانسياً وفحلاً وحنوناً.

في الصفحة الثالثة، قالَ لها: «أينَ تعرّفتِ إلى زهرة التوليب؟».
لأول مرّةٍ في حياتِها، ستشعر أنّ أحداً ينتظر سماع جوابِها، مهتمّاً بالإنصاتِ إلى ما ستقوله. خفقَ قلبُها مثلما يخفقُ قلبُ طفلٍ صبيحةَ العيد، وأحسّت بنفسِها خفيفةً كفراشة، كأنّ كل الثقل الذي كان يجثم على قلبها تبخّر دفعةً واحدة.

في الصّفحةِ الرابعة، قالَ لها: «لم أتوقّع أنني سألتقي يوماً شخصاً قرأ لزهرة التوليب.. إنها كاتبةٌ جيّدة، لكنّها مغمورة، يُسعدني أن ألتقي أحداً يعرفُها». لم يكنْ ما تفعله إيمان في حياتِها مهمّاً بالنسبة إلى الآخرين أبداً، ولم يكترث أحدٌ يوماً بما تقرأه ولا بما تفعله بأيامها. أمّا مع كِنان، فقد شعرت لأول مرّة أنها مهمّة، لأنّها بالتحديد قرأت قصصاً لم يقرأها الجميع، وتعرفُ كاتبةً لا يعرفُها الجميع.

في الصفحة الخامسة، قالَ لها: «فلتجلسي بجانبي إذا لم يكن لديكِ مانِع». لأوّل مرّةٍ سيطلبُ منها رجلٌ أن تجلسَ بجانِبه رغبةً في التعرّف إليها، دون أن تشعر أنّ في الأمرِ تحرّشاً أو معاكَسة. قالَها بابتسامةٍ جميلة ونظرةٍ بريئة. أمّها تقول إنّ عليها أن تحذرَ من هذا النّوع من الرّجال المتظاهرين بالبراءة بالضبط، لأنّ المصائبَ التي تأتي من ورائهم لا يعلمُها إلّا الله. لكنّ الرّجلَ الذي أمامَ إيمان ليس مغربياً، بل هو تركيّ يشبه أولئك الممثلين الوسيمين الذين يظهرون على التلفاز ويتعاملون مع النساء بلطفٍ وحنان، دون أن يكون لهم هدفٌ خبيثٌ من وراءِ ذلك.

في الصّفحة السّادسة، قامت وجلستْ معه إلى نفس الطاولة. كانت متأكّدةً أنّ مشيَتها وهي تسيرُ مسافةَ مِترين نحو طاولةِ كِنان كانت جميلة. مشتْ ببطء وهدوءٍ وخُيلاء، وتمنّت في تلك اللحظة لو لم تكن ترتدي لباساً رياضياً، بل فستاناً مثيراً كتلكَ الفساتين التي كانت تلبسُها من أجلِ زوجِها.

في الصّفحة السّابعة، نظرَ إليها باهتمام وهو يقول: «إذاً، جئتِ من المغرب». أحسّت أنّها كنزٌ ثمين، خاصّةً حينَ لَمَعت عيناه وهو يضيف: «ماذا جئتِ تفعلين في إسطنبول؟».

في الصّفحة الثّامنة، قالتْ له: «أنا كاتبة رأي، أكتبُ لعدّة مواقع إلكترونية بالعربية». كذبتْ، وصدّقتْ كذبتَها. أثارَت هذه الكذبةُ في

نفسِها شعوراً عارماً بالنشوة، كأنّها فعلاً كاتبةُ رأي. لم تشعر بالذنب لأنها كذبت. الجميعُ يكذبون حين يرغبون في إثارة إعجابِ شخصٍ ما، أو على الأقلّ يعدّلون بعضَ الحقائق حتى تتناسبَ مع ما يتمنّون رؤيةَ أنفسِهم عليه وتتماشى مع ما يريده الآخرون منهم.

في الصّفحة التاسعة، سألَها: «منذ متى أنتِ في إسطنبول؟ وهل تعيشين وحدكِ هنا؟». كذبت مرّةً أخرى، «جئتُ قبلَ سنة مع زوجي السّابق». سكتَت قليلاً وهي تتنفّس بعمق، ثمّ أضافت: «الحمدُ لله على نِعمة الحرّية».

لاحَت في عينَيه نظرةُ تعاطف، وقال:

- آسفٌ لأجلك.

ضحِكت بصوتٍ مرتفع، وقالت:

- كان اليوم الذي حصلتُ فيه على طلاقي لحظةً سعيدة في حياتي، أسعدَ حتى من اليوم الذي ارتديتُ فيه فستان العُرس.

في الصّفحة العاشرة، توقّفتْ أكثر قليلاً. كانَ يسألُها عن «زهرة التوليب» باهتمامٍ بالغ. قال: «إذاً، ماذا قرأتِ لزهرة التوليب؟».

أجابت بحماس: ««أحلامٌ ورديةٌ متعفّنة»، «امرأةٌ مصنوعةٌ من صبّار»، «رحلةُ البحث عن الحياة»، «رسائلُ إلى أبي». . . لكنّ أكثر قصّةٍ أثّرت فيّ هي: «موت». أحببتُ كيف اعتبرت أنّ الموتَ أنواع، وأنّ أبشع موتٍ هو الموتُ أثناء الحياة، ثمّ هناكَ «قرط ضائع في إسطنبول» التي ذكّرتني بقصّةِ «القلادة» للكاتبِ الفرنسي غي دو موباسان».

توقّفت قليلاً ثمّ تابعت:

- كانت امرأةً ميّتة، لم يكن لها كيانٌ خاصّ، كانت تحقّق حياتَها عبر زوجِها وأبنائها، وسعادَتها من خلالِهم، أمّا هي فلم تكن لها حياةٌ ولا سعادة.

قالَ كِنان بتأثُّرٍ واضح:

- تحفظينها عن ظهر قلب.

قالت بحماس أكبر:

- طبعاً، إنّها تعبِّر تماماً عن حياتي ومشاعري عندما كنت متزوِّجة.

قلبتِ الصّفحة العاشرة من رواية **الكنّة**. التفتتْ إلى زوجِها الذي كان لا يزال مشغولاً بهاتفه. كان يضحك بقوة وهو ينظر إلى الشاشة. عادتْ للتحديق في الصّفحةِ العاشرة، حيث كان كِنان يتحدّث عن قصّة «امرأة مصنوعة من صبّار» بإعجابٍ كبير.

قال:

- الصبّار دلالةٌ على القوة والصبر والقدرة على الاستمرار في الحياة رغمَ الجفاف وانعدام الاهتمام.

سألتْ إيمان:

- هل هناك أماكِن في تركيا ينتشر فيها الصبّارُ بكثرة؟

قال كِنان:

- لم أسأل نفسي هذا السّؤال من قبل.

سكتَ قليلاً، ثم أضاف كمن عثرَ على شيء بحث عنه طويلاً:

- مرسين، مثلاً!

في تلك اللَّحظة، نهضَ خالد وهو يتثاءب. توقّفت إيمان عن التذكّر. كانت تنتظرُ أن يذهب حتى لا تكون مضطرّة لقلبِ الصّفحات وهي تفكّر في كِنان. قال دون أن ينظر إليها:

- تصبحين على خير!

قالت وقد صرفَت نظرَها عن الرّواية:

- ألن تخرج مع نبيل الليلة؟

قال مبتسماً:

- نبيل في موعدِ حبٍّ الآن.

- آه، فعلاً؟

قال:

- احزري مع من؟

قالت وهي تقلِّبُ الصفحاتِ من جديد بعشوائية:

- مَن؟

- نجوى.

ردّت بلا اكتراث:

- رجلٌ محظوظ.. نجوى امرأةٌ جميلةٌ جدّاً.

كرّرَ وهو يتثاءب:

- تصبحين على خير.

أغلقت الرواية ووضعتها على الطاولة. نظرَتْ إليه وقد صمتت برهةً من الوقت، ثمّ قالت:

- انتظر، سأقول لك شيئاً، ثمّ أتركَكَ تذهبُ للنوم بعد ذلك.

استدار نحوَها في كسلٍ وهمود. تابعت:

- صادفتُ البارحة شاباً تركياً كان يجلس في نفس المقهى الذي شربتُ فيه قهوتي، سمعتُه يتحدّث على الهاتف عن «زهرة التوليب»... هل تذكرُها؟

كرّر كأنّه يبحثُ في ذاكرتِه عن شيءٍ ضائع:

- زهرة التوليب...

قالت بحماس:

- تلك المدوِّنة التركية التي كنتُ أقرأ لها في المغرب، حدّثتُكَ عنها كثيراً، ألا تذكرُها؟

قال:

- لا أستحضرُها الآن..

مكتبة
t.me/t_pdf

ثمّ اقتربَ منها وطبعَ قبلةً على خدّها، وأضاف:

- نتحدّث عن ذلك غداً يا حبيبتي.

عندما دخل خالد إلى غرفة النوم وأغلق الباب خلفه، استلقتْ إيمان على الكنبة وهي تلوكُ مرارةَ الخيبة. في بدايةِ علاقتِهما عكسَ الآن، كان قادراً على تذكّر كلّ شيءٍ تقوله له بالتفصيل. تنفّست الصّعداء، وأغمضت عينَيها مستعيدةً وجه كِنان وشكلَ جسدِه بعد أن نهضَ من الكرسيّ مغادراً المقهى. أدركت أنّها لم تسأله عن أيّ شيء، ولم تتعرّف إلى سنّه ولا عملِه ولا مكانِ سكناه. كلّ ما عرفتْه أنّ اسمَه كِنان وأنّ المدوِّنة «زهرة التوليب» قد تكون والدتَه المختفيةَ منذ عشرين عاماً.

فتحت عينَيها وقد انتفَض قلبُها، كأنّ شيئاً ما انكسرَ داخلَها محدثاً ضوضاء قوية. لماذا لم تطلب منه رقمَه على الأقلّ؟ لماذا لم يطلب هو رقمَها؟ وأين يمكنُها أن تعثر عليه من جديد؟

أجابَها صوتٌ آخر داخلَ رأسِها: مثلما عثرتِ عليه في المرّة الأولى، ستجدينه مرّةً أخرى أيضاً.

25

حلم العبور

اندفعت نجوى داخل الحمّام مغلقةً البابَ خلفَها بعنف. كادتْ مثانتُها تنفجر لولا أنّها أنزلت سروالَها بسُرعة وتبوّلَت طويلاً. يراودها شعورٌ بالاشمئزاز من نفسِها كلّما تبوّلت، والسّببُ ليسَ رائحةَ البولِ ولا نجاستَه، بل الطريقةَ التي تضطرّ للتبوّل بها، أي جالسةً مثلَما تفعلُ جميعُ نساءِ العالم. وفي اللحظةِ التي ارتاحت فيها مثانتُها، استنتجت أنّ الأمورَ خرجت عن السّيطرة، وأنّ عليها أن تخبر الجميع أنّها ليست امرأةً كما يظنّون وكما يبدو عليها، بل رجلاً.

رجلٌ من الداخل وامرأةٌ من الخارج. رجلٌ اختارَتْ له الطبيعةُ جسدَ امرأة، والمجتمعُ اسمَ نجوى بناءً على شكلِ هذا الجسَد، بينما هو في الحقيقةِ رجل اختارَ لنفسِه لاحقاً اسمَ ناجي.

أمّا كلّ تلك الأشياء التي تهتمّ بها الإناث مثلَ الدّمى والفساتين والزواج والأمومة والماكياج، فلم تهمَّه يوماً في شيء. حتى خلال طفولتِه، كان ناجي يحبّ أن يلعبَ كرةَ القدم مع الأولاد في الحيّ وفي المدرسة، ويحلمُ أن يصيرَ لاعباً كبيراً ومشهوراً، على الرّغمِ من الإهانات التي كان يتعرّضُ لها من طرفِ أقرانِه، واستبعادِهم له في كثيرٍ من الأحيان، بحجّةِ أنّ الفتيات لم يُخلقن للعبِ الكرة.

وحين كان يتعرّضُ للسّخريةِ أو الاستبعاد، كانَ يلجأ إلى زاويةٍ بعيدة، ويروحُ يراقبُ الأولادَ وهم يلعبون، مدركاً في قرارةِ نفسه أنّه

فعلاً ليسَ مثلهم، ولا يمتلكُ شيئاً مهمّاً يمتلكونه ألّا وهو العضو التناسلي الذكري. لكنّه ظلّ مع ذلك، محتفظاً بأملٍ ضئيل في أن تكبرَ تلكَ الكتلة اللحمية الصّغيرةُ بين فخذَيه والمسمّاةِ بظراً، وتتحوّل يوماً ما إلى قضيب.

وحين كبُرَ ناجي، انطفأ ذلكَ الأملُ في نفسِه شيئاً فشيئاً كما تنقضي حياةُ شمعةٍ صغيرة، وبدلَ أن يكبر بظرُه ويتحوّلَ إلى قضيب، انتفخَ نهداه، واستدارَ حوضُه، وجاءهُ الحيض. كان ينظر إلى نفسِه في المرآةِ كلّ يوم، بحسرةٍ مُرّة، شاعراً بأنّ ثمّةَ خطأ ما في كلّ ما يحدثُ معه. لماذا تنظرُ كلّ النّساء حولَه إلى نهودهنّ بإعجاب، بينما يرمقُها هو بقرف؟ لماذا تخضعُ أخته لحصص الليزر من أجل الحصول على بشرةٍ ملساء وبلا زغبةٍ واحدة، بينما يتمنّى هو أن يكون له زغبٌ أكثر كثافةً في وجهه وصدره وساقَيه؟ لماذا تحمِلُ النّساءُ الأخريات مرايا صغيرةً في حقائبهنّ على الدّوام، بينما يتقزّز هو من لمح وجهه الأنثويّ الأملَس؟ لأنّه بكلّ بساطة، هوَ وليس هيَ. لأنّه ناجي وليسَ نجوى.

في بداية مراهقتِه، رفضَ ناجي جسدَه بينه وبين نفسِه، محاولاً ما أمكنَ إخفاءَه بارتداءِ ملابسَ فضفاضة. كلّ الفتياتِ من حولِه كنّ ينظرن إليه بحسدٍ مشوّبٍ بالإعجاب، لأنّ الطبيعةَ منحته أجملَ جسدٍ أنثويّ رأينَه على الإطلاق. أمّا أمّه وأخته فقد كانتا تتأمّلانِه بحسرة حين يرتدي ملابسَ الذكورِ مخفياً كلّ مفاتِنه. «أنتِ تُحسدين على ما تملكين، لديكِ جسدُ كيم كارداشيان من دونِ عمليات نفخٍ أو تجميل»، تقول له أخته دائماً، بينما يزدادُ هوَ كراهيةً لذلك الجسد، ويزداد حقداً على كلّ من يناديه أو يتحدّث عنه بصيغةِ المؤنّث.

مع التقدُّم في العمر، استسلم ناجي لشكلِ جسدِه ولقوانين المجتمع التي اقتضت أنّ من يمتلك جسداً أنثوياً هو أنثى بالضرورة، وأنّ الإنسانَ هو ما عليه في الخارج وليس ما يشعرُ به في الداخل.

ارتدى رغماً عنه، الفساتين والتنانير، وكان يضعُ الماكياج لفترةٍ من الزّمن. ألم تقُل سيمون دي بوفوار إنّ النساء لا يولدن نساءً، بل يصِرنَ كذلك مع الوقت؟ جرّب أن يقِف أمامَ المرآة ليصبغ شفتيه بأحمرٍ قانٍ، بينما تنهمرُ الدّموعُ بغزارةٍ على خدّيه المصبوغين بالورديّ، ثمّ تنزِلُ عابرةً عُنقه لتبلّلَ شعرَه النّاعم الطويلَ المنسدلَ على كتفيه.

تمنّى لو كان يملكُ على الأقلّ، جسداً ضامراً كجسدِ أخته، جسداً غير مثير، جسداً لا يجلبُ له المشاكل كلّما خرجَ إلى الشارع أو التقى بالرّجال الذين يملِكون أجسادَ رجال. رغبةٌ عميقةٌ في التقيّؤ تراوِده حين كان يسمعُ صوتاً يلاحِقه في الشارع متغزّلاً في جمالِ مؤخرته أو كِبر نهديه. النّساءُ أنفسهنّ يتقزّزنَ من هذا، فكيف برجلٍ في جسدِ امرأة؟

كلّ الشباب الذين كانوا يقتربون من نجوى الجميلةِ المثيرة، كانوا يُرفَضون بشدّة، وأحياناً بعنف. ذاتَ مرّةٍ ركلَت زميلاً معها في الفصل أخبرَها أنه معجبٌ بها، ومرّةً صفعَت صديقاً أرادَ الارتباطَ بها. لم تعبِّر نجوى يوماً مثلَ جميع البنات، عن إعجابِها برجل. حتى في الجلساتِ النسائية التي يكون فيها الموضوعُ الأساسي هو الرجال والإعجابُ بالرجال وقصصُ الحبّ مع الرجال، لم يكن عقلُها حاضراً، لأنّ العقلَ كان يحمِلُ اسمَ ناجي، والجسدَ فقط يبدو بشكلِ نجوى. جسدُ نجوى يعيشُ مع النّساء، وعقلُ ناجي يحومُ في عالم الرّجال كشبح.

لاحظت أخته ذلك. كانت تعرِف أنّ أختَها مختلفةٌ عن البقيّة، لكنّها لم تستطِع أن تفهمَ مكمَن الاختلاف. اقتربت منه ذات يوم، بينما كانا في الغرفةِ يستعدّان للذهابِ إلى الجامعة. لمعت نظرةٌ مريبةٌ في عينَيها العسليتَين الصغيرتَين، ثمّ سألته بفضول:

- نجوى، هل أنتِ مثلية؟

لاحت الفكرةُ في ذهنِ ناجي كما تلمعُ نجمةٌ في السّماء. ربّما يكون فعلاً امرأةً مثلية، ففي المرّةِ الأولى التي انجذبَ فيها جنسياً نحوَ

شخصٍ ما، كان هذا الشخصُ أنثى، زميلة له في الفصلِ الأول إعدادي، بل رآها في المنام حتى. أتتهُ جميلةً مرتديةً فستاناً وردياً، وجلست إلى جانبِه على الدرج المؤدّي إلى الفصل، ثمّ رمقته بنظرةٍ بريئة، قبلَ أن تلمسَ كفّه بحنان. انتهى الحلمُ هنا، لكنّه استيقظَ مُثاراً.

ولأنّ أختَه كانت دائماً كاتمةَ أسراره، ولم يخْشَ يوماً من الخوضِ معها في أيّ موضوع، قالَ بلا تردُّد:

- تُعجِبني زميلةٌ لي في الجامعة!

قالت الأختُ في دهشة ممزوجةٍ بفضولٍ أكبر:

- وهل هي مثليةٌ أيضاً؟

ردّ بسرعة وقد اهتزّ كيانُه قرفاً:

- هل تقصدين أنّها منجذبةٌ للإناث؟

كانت هذه الفكرةُ فقط كافيةً لتدميره كلّياً. فأن تُعجَب به فتاةٌ باعتباره امرأةً ليسَ ما يريدُه. والحقّ أنّه لم يحاوِل من قبل التقرّبَ من زميلته، ولم يسبِق له حتى أن لمّحَ لها بمشاعره، ولا هي أخبرَته عن ميولِها الجنسيّ، لكنّ النظراتِ التي كانت توجِّهها له كانت تُشعِله من الدّاخل، وتؤجِّجُ رغبتَه وإعجابَه. كانَ يتمنّى لو يستطيعُ فقط ضمّها إلى صدره، ودفنَها هناكَ إلى الأبد.

وعندما فكّر ناجي لأوّل مرّة، أنّ زميلتَه ترشقه بتلك النظرات لأنّها تظنّ أنّه امرأة، اقشعرّ بدنُه، وتوقّف عقلُه عن التفكير.

ومع ذلك، كانت أولى التجارب في حياةِ ناجي الجنسية مع نِساءٍ مثليات، إذ لا خيار كانَ متاحاً أمامه غير ذلك. لكنّه بعدَ فترةٍ من الزّمن، توقّفَ عن مضاجعتهنّ. لقد كنّ ينجذبن إليه لاعتقادهنّ أنه ينتمي إلى جنسهنّ، بينما كانَ هو يريدُ امرأةً تنجذِبُ إليه باعتباره رجلاً.

لم يكن ناجي امرأةً مثلية، بل رجلاً ذا ميولٍ جنسيّ غيريّ.

كانت الخمسُ سنواتِ الأخيرة التي قضاها ناجي في تونس جافّةً،

قاحلة، فارغةً من الحبّ والمشاعرِ والمُتعة. عوّضَ ذلكَ كلّه بقضاء وقتِه في العمل والقراءة، كأنّما كان يهربُ من مواجهةِ تلك الحقيقة الحادّةِ كسَيف، حقيقة كونِه خُلِق ليعيشَ حياةً غير طبيعية. وحين اجتاحت الاحتجاجاتُ والمظاهرات تونس، قرّرَ أن يعودَ لارتداءِ الملابسِ الرّجالية، ويخرج إلى الميدان لتغطيةِ الحَراك بصِفته رجلاً. لم يكن أحدٌ من الجموعِ الغارقين في الاحتجاج، الرّافعينَ أصواتَهم مطالبين بإسقاطِ الفساد، لينتبه أو يهتمّ لجِنس هذا الصحافيّ ذي البنية الضئيلة الذي يتحرّكُ بنشاطِ نحلة، متنقّلاً بين نُقَطِ الاحتجاجات، حاملاً آلةَ التصوير من نوع كانون كبيرة الحجم.

في أوقات الفراغ، كان ناجي يحملُ حاسوبَه ويصعدُ إلى سطحِ المبنى الذي يعيش فيه، ويشرعُ في كتابةِ مقالاتِ رأي لعِدّة مواقعَ إلكترونية عن قضايا كالثورة والشعبِ والكرامة والعدالة الاجتماعية. يكتبُ حتى يتوقّفَ دِماغه عن الاشتغال، ثمّ يُسنِد ظهرهُ إلى الجِدار، ويتطلّعُ إلى السّماء القريبة، سائلاً الغيومَ والنّجوم والشمس ونسماتِ الرّيح وقطراتِ المطر الخفيفة عمّن يكون، ومن أين أتى، ولماذا كُتِبَ عليه أن يعيشَ حياةً مُعلّقة.

ورغمَ أنّ العمل امتصّ كلّ طاقته، فلم يعُد يفكّر في احتياجاتِه الجنسيةِ والعاطفية، إلّا أنّ الأسئلةَ التي بدأ يطرحها على نفسِه مذ كانَ مراهقاً، لم تتوقّف عن التدفُّقِ على رأسِه: لماذا خلَقني الله رجلاً بجسدِ امرأة؟ لماذا أعطتني الطبيعة هذين النهدَين الضخمَين، وحرمَتْ منهما فتياتٍ كثيرات في حاجةٍ إليهما؟ لماذا لم أولَد امرأةً كاملةً أو رجلاً كاملاً مثلما يولَد جميعُ الناس محدّدي الجنس، من دون كلّ هذه التعقيدات؟ هل تولد الحيواناتُ أيضاً حاملةً أعضاء تناسلية لا تمثّل هويتَها، أم أنّ الإنسانَ فقط من يمكنه أن يعاني مشكلَ الهوية؟ هل يُعقَل أن تخلقَ الطبيعة ثوراً في شكلِ بقرة أو لبؤةً في شكلِ أسد؟ هل

أستطيعُ أن أستيقظ يوماً وأجدَ نفسي في الجسدِ الذي أستحقّه؟ هل ما أعاني منه مرضٌ له علاج أم مجرّد حالةٍ إنسانية طبيعية؟ وأين هو العِلاج؟ هل هذا مجرّد كابوس أم أنني سأستفيقُ يوماً لأجدَ نفسي ذكراً كاملَ الذكورة؟ متى سينتهي كلّ هذا العذاب؟ لو أنّ الله خلقني أيّ شيء واضح المعالم، صرصاراً، ذبابةً، بعوضة، أيّ شيء.. أيّ شيء، ما كنتُ لأعيش كلّ هذا العذاب.

ظلّ ناجي على هذه الحال لبضع سنوات، حتى قفزت فجأةً فكرةُ تركِ البلد إلى عقلِه. لم يكن أمامه مهربٌ آخر من العذابات التي يبتلعُها كلّ يوم كأنه يزدردُ حجارةً صلبة. جسدُه المُنهَك من حملِ روحٍ لا تعرِف للحياة سبيلاً. نظراتُ الاستهزاء والاستغراب والشفقة التي ترشقه كلّ لحظة. ذلك الحلم الكبير في أن يمتلِك الجسدَ الذي يستحقّه. كان الثقلُ يزداد يوماً بعد يوم، ويتعاظَم كأنّه بطنُ امرأةٍ حاملٍ بطفلٍ غير شرعيّ، فيزيدُ من هولِ الفزَع في قلبِ ناجي.

في نهاية سنة 2016، قرّر ناجي أن يغادر تونس نحو بلد آخر من أجلِ حرّيةٍ أكثر. كان البعدُ عن ضغط العائلة والمعارف والمجتمع، بالنسبة إليه، أوّل خطوة لتحديدِ هويته الحقيقية، ولم يكنْ هناك أسهلُ من تركيا. إنها البلدُ الوحيد الذي سمِعَ أنّ الناس فيه يتمتعون ببعض الحرية، ويستطيع المواطنون التونسيون عبورَ حدوده من دون تأشيرة. جمع أغراضه، ودّع عائلته وهو يفكّر أنهم الآن يودّعون نجوى إلى الأبد، وأنه، بعد سنوات، سيعود إليهم شخصاً آخر، رجلاً بجسدِ وصوتِ ذكَر، رجلاً جديداً اسمه ناجي.

حين وصلَ إلى إسطنبول، تسمّر أمام المرآة ممسكاً مقصّاً. وبعد ثوانٍ، كان شعرُه الطويلُ قد صارَ في الأرض، وكانَ الرّأسُ الذي أمامَه في المرآةِ مختلفاً، بتسريحةٍ قصيرة. لمعَت عيناه، وانفرجت أساريرُه

في انشراح. لم ينتظر طويلاً حتى يتخلّص من كلّ الملابس النسائية التي كان يملِكها، ويستبدلَها بأخرى رجالية، ثمّ يغيّرَ مِشيتَه وطُرق جلوسِه وحديثه وتصرّفه. . . ومع ذلك، ظلّت أنوثة جسدِه طافحةً وغامرةً لكلّ سلوكياتِه الرّجالية.

بعد شهورٍ من الإقامةِ في إسطنبول، صارَ لناجي هدف واضح يعيش ويعمل لأجله: جمعُ المال والحصول على عمل في ألمانيا، ثمّ الرحيل لبدء حياةٍ فعلية، حياةٍ حقيقيةٍ بشكلٍ واضح ومعالم جلية.

* * *

سمِع ناجي طرقاً قوياً على باب الحمّام. كان قد انتهى من التبوّل، وبدأ يتقيأ كلّ القرف الذي يشعر به إزاء حياته التي بلا شكلٍ واضح. كانت حبّاتُ العرق تطفو فوقَ وجهه، ثمّ تنزلُ باردةً عابرةً عُنقَه لتستقرّ بين نهدَيه. وحين مرّر ساعِده على جبينه ليمسَح العرق، سمعَ طرقاً قوياً على الباب، وتناهى إليه صوتُ نبيل محاولاً الاطمئنان على حاله.

قبلَ دقائق فقط، اعترفَ نبيل لنجوى أنه يحبّها، وحاول تحت تأثير السُّكر، تقبيلها، لولا أنّ ناجي دفَعه بكلّ ما أوتي من قوة، واندفَع داخل الحمّام. شعَر أنّه اغتصبَ رجولته وخانَ ثقته وخذلَه. لقد خرجت الأمورُ عن السّيطرة الآن، وعليه أن يخبر الجميع أنّه ليس امرأةً كما يبدو، بل رجلاً، رجلاً حقيقياً بكلّ ما تحمله الكلمةُ من معنى. عليه أن يُخبرَ الجميع أنّه يشعرُ كما يشعرُ جميع الذكور، بالرّغبة في أن يكون مع أنثى، بالحاجةِ إلى أن تكون هناك امرأةٌ بجانبِه لتضفي لمستَها الأنثوية على حياتِه، بالحاجةِ إلى أن تكون له أنثى يحبّها ويحميها، بالحاجة إلى أن يركضَ وراء امرأةٍ ما، أن يربحَ معاركَ الحياة ويثبتَ رجولته، أن يبادِر بالتقرّب إلى فتاة، أن يكون مع امرأةٍ تشعرُ برجولته

وتُعجبُ به، أن يُشعِر امرأةً باللذة، أن يُحَبَّ كرجل وليس كامرأة. وقد توصّل الآن إلى أنّ الذكورةَ لا علاقةَ لها بالعضو التناسلي، لأنّها موجودةٌ في الرأس وليس في الجسد.

فتَح باب الحمّام منهاراً. كان نبيل واقفاً قبالته ينظر إليه بدهشة. سأله:

- نجوى، هل أنتِ بخير؟

قالَ ناجي:

- انظر إليّ.. لقد قبّلتَ للتوّ رجلاً مثلك. اسمي ناجي وليس نجوى.

كان الرجلان سكرانَين، لكنّ نبيلاً توقّد وأفاق من سكرته عندما سمعَ هذا الكلام.

أبعدَه ناجي عن بابِ الحمّام بقوة، ثمّ توجّه نحو البهو متمايلاً باحثاً عن محفظة نقوده. وضعَ المحفظةَ في جيبه والتفتَ نحو نبيل المتسمّر في مكانِه من الصّدمة، وقال:

- أنا لستُ ما وُلدت عليه، بل ما اخترتُ أن أكونه. وأنا أختارُ الآن أن أكون رجلاً.. رجلاً إلى النهاية.

26

مهلبية بالقرفة

سارَ كِنان في أزقّة بيه أوغلو بصفاء ذهنٍ منقطع النظير، واضعاً يدَيه في جيبَي معطفه. كان الجوّ بارداً، وزخّاتُ المطر الخفيفة تغطّي الأرصفةَ وطاولاتِ المقاهي وواجهاتِ المحلّات، فتعطيها لمعاناً مذهلاً.

تناولَ عشاءه في مطعم فيروز، وعرجَ على البقّال واقتنى مهلّبية بالقرفة، ثمّ أكمَل طريقه إلى البيت وهو يدخّن سيجارة من نوع كينت خفيفة.

انتبَه عند دخوله إلى شقّته الواقعةِ في الطابق الثاني في زقاق بالاسكا، إلى أنّ علبةَ سجائر من نوع مارلبورو لايت فارغة لا تزال موضوعةً على طاولةِ الطعام أمام مدخلِ البيت. العُلبة موجودةٌ هنا منذ حوالي ستة أشهر حين جاءت هازال إلى هنا آخر مرّة.

جلسَ إلى الطاولة وهو يفتح علبة المهلّبية. تناهت إليه رائحةُ القرفة قويةً حاملةً إليه ذكرياتٍ موجعة. بكثيرٍ من الحنين، تناول ملعقةً من المهلبية مغمضاً عينَيه، مستمِعاً إلى نبض ذلك التوق الحزين في قلبِه. فتحَ عينَيه، وألقى نظرةً على الشقّة. كلّ شيءٍ في مكانِه كما تركته هازال تماماً: الغطاءُ المزركشُ الذي كانت تتغطى به وهي جالسةٌ على الأريكة تشاهد التلفاز. فنجان القهوة الذي يحملُ رسماً لمتحف آيا صوفيا فوقَ بار المطبخ الأميركي، وفيه أثرُ أحمر شفاهها القرمزي.

ولّاعةٌ صغيرة من نوع بيك فيروزية اللون على طاولة البهو، مِشبك شعرٍ أسود. . . لم يغيّر مكانَ أيّ من هذه الأشياء، كأنّما بذلك يريدُ الحفاظ على وجودِها هنا، كأنّ تلك الأشياء الصغيرة هي أجزاء منها تركتْها هنا عمداً ليتذكرها إلى الأبد.

تناولَ ملعقةً أخرى من المهلّبية مغمضاً عينَيه، مستمتعاً بمذاق القِرفة. فتحَ عينيه من جديد، فرآها تتحرّك أمامَه بجسدِها النحيل، وقامتِها القصيرة، وشعرِها البنّي، وبشرتِها البيضاء الشفّافة، مرتديةً فستاناً مزداناً بالورود المختلفةِ الألوان، وشبشباً وردياً فاتحاً. تتنقّل بين لوحاتِه الموزّعةِ في أرجاء البيت كفراشةٍ تحطّ على زهرة، ثمّ تطيرُ لتحطّ على زهرةٍ أخرى. تقاسيمُ وجهها البادية عليها آثار دهشةِ طفل وهي تتأمّل لوحاتِه. عُنقها الذي يحمل شاماتٍ بنّية مائلة إلى البرتقالي كلون القرفة. ساقاها البيضاوان وهما تتحرّكان بخفّة ريشة. أصابعُها النحيفة وهي تلامِسُ لوحةً رسمَها لأمّه. نهداها الصغيران النافران من فستانِها. صوتُها الذي يشبه أغنية حزينةً دافئة. . . كلّ شيءٍ لا يزال حاضراً هنا، بتفاصيله الحلوة التي تخلّف مرارةً في حلقه الآن.

كانت تلكَ أسعدَ اللحظات في حياتِه. فكّر أنّه بقدرِ ما تكون السّعادةُ كبيرةً ومتوهّجة، بقدرِ ما يكون فقدانُها مؤلماً ومرّاً. أمّا النافذة المنقّطة بالمطر أمامه، ورائحةُ القرفة التي تملأ أنفه، فتضغطانِ على معدته، وتسبّبانِ له ألماً لا يُطاق، هو ألمُ الحنين، تضغطان على صدره وتزيدانِ سرعةَ نبضات قلبه، هي وتيرةُ العشق الذي يكبر يوماً بعد يوم. العِشقُ عبارةٌ عن كومةٍ من مشاعر الشوق والحنين والشغف والإعجاب والولع، كلّما طال الغياب، كلّما كبُرت الكومة وتعاظمت وصعُبَ التخلّص منها. إنّه يشبه كوةً من الثلج، تكبر بتدحرجِها نحو ذلك القرار السّحيق في أعماقِ الإنسان، الذي يُدعى القلب.

تناولَ ملعقةً أخرى، وغمره شعورٌ عارمٌ بالوحدة. رائحةُ القرفة

هي صخبُ التّجمعات العائلية في حضورِ أمّه، هي رائحةُ البقلاوة التي تعدّها أمّه وهي تنضجُ في الفرن، هي طبقُ المهلّبية التي تحضّرها هازال من أجله في ليالي الرّسم الطويلة، هي الدفء في الشتاءات التي لا تنتهي، هي شاماتُ هازال فوق بشرتها البيضاء كالثلج، هي الوجعُ في أعماقِه المحمومة بالوحدة. رحلتْ هازال في نهايةِ الرّبيع الماضي، ولم تعد. أخذتْ معها السّعادة وبهجةَ الحبّ وأُفُقَ الحياة، وتركَت له رائحةَ القرفة وبردَ الشتاء ليتعذّب.

تخلّصَ من معطفه، رمى علبة المهلبية في القمامة، وشغّل التدفئة في كلّ أرجاء الشقّة، وأشعل نارَ المدفأة، لكنّ شتاء الأعماق كان أبرَد من أن يُحارَب بجهاز تدفئة. رحلَت هازال في نهاية الربيع الماضي حفظاً لكرامتِها، ولم يحاول العثور عليها لمصالحتِها إرضاءً لغرور أناه.

هو يقول إنّ من أحبّ أولاً هو الذي يجب أن يعود. أمّا هي فقد رحلَت لتقول له إنّ من ظلَم في بداية العلاقة هو الذي يجب أن يبذل مجهوداً أكبر لتعودَ الأمور إلى نصابها.

هازال هي التي وقعت في حبّ كِنان أولاً، وحين ارتبطا ببعضِهما في علاقةٍ عاطفية، بدأ كِنان يقعُ في حبّها شيئاً فشيئاً. أحبّته قبلَ أن تعرفه حقّ المعرفة، وأحبّها عندما عرفَها حقّ المعرفة. غامرَت معه، وانتقلت للعيش في شقّته، حتى وهي تعرِف أنّه لم يحبّها بعد. انفصل عنها بعد ثلاثةِ أشهر من العلاقة قاذفاً في وجهها عبارة «لم أستطِع أن أحبّك». محطّمَةً، اضطرّت للبحث عن شقة أخرى، بعدما ظنّت أنّها ستبدأ حياةً جديدة مليئةً بالحبّ والسّعادة والاستقرار.

بعد شهر، عادَ كِنان ليحاول الرّجوعَ إلى هازال مرّةً أخرى. جاءها قرب بيتِ إحدى صديقاتها حيث عرفَ أنها كانت تقيم في انتظار إيجاد شقّة أخرى، حاملاً باقةً من أزهار التوليب، طالباً منها إعطاءه

فرصةً أخرى. كانت هناك مشاعرُ تتطوّر في داخله ناحيتَها، وتكبُر كلّ يوم. رقّتُها وطيبة قلبِها وحضورها الأنثوي الطاغي وحنانُها، زادته تعلُّقاً بها. وبمجرّد ما سألَ نفسه: «لمَ لا أحاول؟»، أحبّها. أحبّها من أعماقِ روحِه المسحوقةِ باليُتم. تعلّق بها كما يتعلّق طفلٌ خائفٌ بطرفِ فستان أمّه. أحبّها بكلّ ما يحملُ من عاهات في قلبِه، بكلّ الشكّ الذي يملأ عقله، بانعدام الأمان الذي يسكن في روحه، بالخوف من الفقدان الذي يعشِّش في مخيّلته. منحَها نفسه، وعَشِقها. عَشِقها لأنّها هيَ، هازال التي تحضنه بأمومة حين تخرجُ وحوشُ مخاوفه وقتَ الثمالة. هازال الصّحافية الجريئة التي تنجز تحقيقاتٍ شجاعة عن وجه إسطنبول الآخر، الوجه المسحوق والمهمّش والفقير الذي يقبعُ خلفَ أضواءِ القصور والمتاحف والجوامع ومراكز التسوّق والشوارع السياحية. هازال الطافحةُ بالحنوّ في أوقاتِ اليأس والملل الوجودي. هازال التي صبغت جدران بيته بفيروزيّ فاتح. هازال التي تعدّ له المهلّبية بالقرفة في ليالي الرّسم الطويلة. هازال التي تغنّي له Gülümse، أغنية أبيه المفضّلة، وهما يسيران في شوارع إسطنبول تحتَ المطر. هازال التي أحبّته قبل أن تعرِفه. هازال التي حطّت أصابعُها النحيلة ذات ليلةٍ فوق لوحةِ أمّه، مثلَ عصفور يحطّ على جذع شجرة. في تلك اللحظة بالضّبط، عرف أنه ينتمي إليها، وأنه يريد أن يُكمل بقية حياته معها.

لكنّ شجاراً صغيراً حول تفاصيل الزفاف حملَ هازال، مثلما تحمل الرياح أوراق الأشجار المتساقطة، إلى مكانٍ آخر. هكذا تسير الأمور في علاقاتِ الحبّ. أشياءُ صغيرة وتافهة تكفي لتدمّر أشياء كبيرة بُنيَت خلال سنوات. رأى كِنان أنه ليس من العيب أن يدعوَ حبيبته السابقة إلى حفل زفافِهما، لأنّهما افترقا بسلام وظلّت علاقتُهما طيبة. أمّا هازال فرأَت أنه ما من انفصالٍ يحدث بسلام ويخلّف وراءه علاقةً طيبة. ألقَت على وجهه سؤال «لماذا؟» بنبرةٍ اتّهاميةٍ منقطعة النظير.

لأول مرّة ستفقد عيناها صفاء الحنوّ وهي ترمي الأسئلةَ أمامه واحداً تلوَ الآخر: «هل تشتاق إليها؟ هل تريد أن تراها؟ لماذا تصرّ على دعوتِها؟ كي تغيظها؟ هل تريد أن تتزوجني كي تغيظَها؟ هل تركتني في المرّة الأولى من أجلِها؟ كنتَ لا تزال تحبّها؟».

كانت مجروحةً وخائفةً لدرجةٍ عنيفة. أمّا كِنان، فقد قرّر أن يذهبَ في الأمر إلى أبعدِ حدّ، أن يختبر ثقتها فيه. صحيحٌ أنّه يريد أن يتزوّج هازال لأنه يعشقها، لكنّه رأى أنه ما من مانع لضرب عصفورَين بحجر واحد: أن يتزوج حبيبته، ويغيظ حبيبته السابقة في الوقتِ نفسه. لكنّه كان يعرف أيضاً أن السّبب الرئيس الذي جعله يريد الارتباط بهازال بشكلٍ رسميّ هو الحبّ وليس النّكاية.

ألقى في وجهها هذه الكلمات: «إذا كنتِ لا تصدّقين أنني أريد الزواج منك لأنني أحبّك، يمكنك الرّحيل».

كأنها خيّرته بينها وبين دعوة حبيبته السّابقة إلى زفافهما، واختار. اختار بأنانية، وكان يعرف ذلك. يعترف بذلك بينه وبين نفسه، لكنْ أن يبحث عنها ويعتذر لها، ويستسلم لأهوائها، فهذا أمرٌ مستحيل. اختارَ أن يكون الآن وحيداً في شقته، يتناول المهلّبية المعلّبة بالقرفة وهو يتذكرها، على أن يضعف أمامها، ويرى نشوة الانتصار في عينَيها.

رحلتْ هازال في نهاية الرّبيع الماضي، تاركةً كِنان وحيداً في الشقّة، ينظرُ إلى صورةِ أمّه في اللَّوحة، جالسةً بأناقة كأنّها الموناليزا، مبتسمة، ترتدي فستاناً فيروزياً وتجمعُ شعرها في كعكة. فوق اللوحةِ أصابعُ هازال النحيلة تلامِسها بحنان، فوق المنضدة باقة أزهار التوليب الذابلة، وفي الجوّ رائحةُ القرفة، معتّقةً وأصيلةً مثل الذكريات.

7

في انتظار أن يتحوّل الشوك إلى ورد

بمرورِ الوقت على لقائها بكِنان، بدأتْ إيمان تشعر بفقدان الأمل من تلقّي اتصالٍ منه. كانت تفكّر فيه ليل نهار، لدرجةٍ ظنّت أنه سيبحث عن وسيلةٍ للتواصل معها. يرتبطُ الحبّ ارتباطاً وثيقاً بالوهم. لذلك، كانت نظراتُه بالنسبة إليها، تعبّر عن شيءٍ ما أشبه بالإعجاب، واهتمامه بكلامِها يقول الكثيرَ من الأشياء الشبيهةِ بالحبّ. تمنّت لو كان هناك شخصٌ تستطيع أن تتحدّث معه في موضوعٍ كهذا، لكنْ بمجرّد ما كانت تفكّر أنها متزوجةٌ من رجلٍ آخر، ينتفض قلبُها، فتبتلعُ غصّة إعجابها في فزع.

وكلّ صباح سبت، كانت تذهبُ مع خالد لتناول الفطور في ميدان أورتاكوي وهي سارحةُ الذهن. وفي المساء، يذهبان إلى تقسيم أو كاديكوي لشربِ العرق والرقص. كانت ترقص مع خالد وهي تفكّر في كِنان، تتجنّب النظرَ إلى وجه زوجِها، ليسَ خجلاً من المشاعرِ التي تكنّها لرجلٍ آخر، بل من أجلِ أن تحتفظ بالمساحة لتخيُّل أن هذا الرّجل الآخر هو الذي يراقصُها.

سَكنها كِنان حتى لم تعد ترى غيره. ذهبتْ مرّاتٍ ومرّات إلى مقهى Lumière، مرتديةً أجملَ فساتينها، باحثةً عنه. وجلست هناك ساعاتٍ وساعات أملاً في رؤيته، لكنّه لم يأتِ. كانت تتزيّن وتذهب إلى ميدان جيهانغير، وتقفُ قربَ مطعمِ «فيروز» كمن تنتظر أحداً.

تسحب هاتفها من الحقيبة في كلّ مرة، وتنظرُ إلى السّاعة، وحين تجدُ أنّ نصف ساعةٍ مرّت دون أن يأتي أحد، تتحرّك من مكانِها، ثمّ تشرعُ في المشي في شوارع وأزقة بيه أوغلو كلّها، علّها تلتقيه صُدفةً كما حصل أول مرّة، لكنّ كِنان لم يظهر في أيّ من هذه المرّات.

أملاً في لقاء كِنان، دخلتْ إيمان كلّ الأماكن الممكنة في بيه أوغلو، وطوال شهرَين كاملَين، جلستْ في كلّ المقاهي الموجودةِ في المنطقة، وكلّ المطاعم والحانات. دخلت إلى كلّ المتاحف والمحلّات التجارية، ومحلّات الملابس والأحذية، ومحلّات التحف الأثرية، وصالوناتِ الحلاقة، وصالونات الوشم، ومحلّات الفضّة، والصيدليات. لم يبقَ لها شارعٌ إلّا ومشتْ فيه، أو زقاق إلّا ودلفت إليه. كانت تمشي حتى لا تعودُ تشعرُ بقدميها. وحين يهدّها التعب، كان يأتيها صوتٌ من داخلِ دماغها يخبرها أنّ الله يحبّ العبد الملحاح، وأن الاستمرار في المشي لا بدّ أن يفضي إلى نتيجةٍ ما.

لم تفقد الأمل أبداً. كانت مؤمنةً أشدّ الإيمان أنّ ما من عذابٍ إلّا وله أجر، وأنّ ما من بحثٍ مضنٍ إلّا وله جزاء، وأنّ هذه المعاناة التي تتكبّدها الآن ليست إلّا اختباراً عليها أن تجتازه لتصل إلى مبتغاها. لم تكنْ هناك قوةٌ في هذه الدنيا لتثنيها عن السّير وراء هدفها، لأنّ إيمانَها كان أقوى من كلّ شيء. لقد وضعت هدفاً واضحاً نُصب عينَيها الآن: إيجاد كِنان مهما كان الثمن.

كانت تمشي في الشوارع واهنةً من التعب. تمشي وهي تتخيّل حياتَها مع كِنان. لا شكّ أنّها ستكون سعيدة. كانت تلك التخيّلات هي ما يعينها على الاستمرار رغمَ العرق الذي يتصبّب من جسدِها، ورغم البرد والأمطار والثلج والمسافاتِ الطويلة. تخيّلت يومَ طلاقِها من خالد. تخيّلت نفسَها لابسةً فستان العرس وهي تمشي جنبَ كِنان يداً في يد. تخيّلت الشقّة الجديدة التي ستعيشُ فيها مع كِنان. تخيّلت ردّة

فعلِ أصدقائها ومعارِفها في المغرب حين سيعرفون أنّها تزوّجت من رجلٍ تركي. تخيّلت أنها تغيّر اسمها على فيسبوك من إيمان الخطابي إلى إيمان أوغلو أو إيمان إردوغان أو إيمان كايا... كان ذلك يُثير في نفسِها سعادةً لا تضاهى. تخيّلت ردّة فعل النّساء من معارفها حين سيعرفنَ أنّ رجلاً تركياً وقع في حبّها. يشبه ذلك كلّ المسلسلات الرومانسية اللواتي كنّ جميعاً يتسمّرن أمامها حالماتٍ برجالٍ أتراك رومانسيين ووسيمين. تخيّلت نفسَها في حضنِ كِنان وهما يتناقشان في الأدب والروايات. تخيّلته يشجِّعها على العمل والكِتابة. تخيّلت نفسَها تراقصه. تخيّلت أنّهما يخرجان معاً كلّ سبت لتناول الفطور في ميدان أورتاكوي وهما يتفرّجان على البحر والعبّارات والنوارس. تخيّلته يقبّلها. كانت تمشي وتمشي حتى تشعر بألمٍ رهيبٍ في قدميها المسلوختَين، وحين تشعرُ بالألم، تشرعُ في التخيّل، وحين تتخيّل، تنسى الألم والتعب والمُعاناة.

ذات يوم، دخلتْ إلى البيت في السّاعة التاسعة مساءً. كان شهرُ فبراير على وشك الانتهاء، وكان الثلجُ قد بدأ يذوب من على الأرصفة والطرقات. تخلّصت من معطفها في مدخل الشقة وهي تفكّر في إيجاد طريقةٍ جديدة للعثور على هذا الرّجل الذي سكنَ عقلَها. كان خالد جالساً على الكنبة مقطّباً. رنَت إليه بلا اكتراث وهي ترتعدُ من البرد. تخلّصت من الحذاء أيضاً، ثمّ قالت بنبرةٍ باردة:

- لماذا تنظر إليّ هكذا؟

أجابَ بهدوء:

- أين كنتِ؟

قالت بعصبية:

- لا تجب عن سؤالي بسؤالٍ آخر!

قال وهو ينهض:

- ماذا يحصل معكِ؟

رمت الحذاء بعنفٍ في مدخل البيت. صرخت:

- دعني وشأني!

بعصبية، توجّهَت نحو الغرفة بمشية جنديةٍ في ميدان حرب. تبِعها بسرعة وأمسكَها من شعرِها. كانت لعبة إمساكِها من شعرها قد بدأت تروقه. أمّا هي، فكانت تغلي من الداخل، ولم تكن مكترثةً لما سيفعله. كلّ ما كانت تريده هو الطلاق، ولم تكنْ مهتمّةً للعواقب.

قالت بألم:

- طلّقني إذا لم تكنْ تثق بي!

صفعَها. نظرتْ إلى عينَيه، ورأتْ فيهما خوفاً شنيعاً وغضباً مريعاً.

انفلتت من قبضته، ودخلت إلى الغرفة. أغلقت الباب خلفَها دون أن تذرفَ دمعةً واحدة. استندت إلى البابِ تستردّ أنفاسها. كانَ وجهها محموماً، وشعرتْ أنّ رأسَها سينفجر مثل قنبلة. كان هناك ألمٌ رهيبٌ يستعرُ في قلبِها، لكنّها ابتسمت. ابتسمت منتظرةً في قرارةِ نفسِها أن يتحوّل كلّ هذا الشوك الذي يخزُها إلى وردٍ يتفتّح داخلَ قلبِها. ثمّ سمِعت ضرباً قوياً على الباب وصوتاً يتوعّدها:

- لن أطلّقك يا إيمان حتى لو طرتِ مع الطيور، وإذا فكّرتِ في خيانتي، فسأدخلك السجن، وعندما ستخرجين، ستعودين إلى بيتِ والديكِ في طنجة.

28

بدايةُ ربيع البوسفور

صباح الأحد، مشَتْ هازال على طولِ البوسفور في كوروشيشما. كان الطقس بارداً جدّاً، ومع ذلك، كانت هناك نوارسُ تصيحُ منذرةً ببدايةِ الربيع. كانت رائحةُ شهر مارس تذكّرها بالنّهايات. وقد أدركت الآن أنّ الحزن الذي خلّفه انفصالها عن كِنان لا يمكن أن يشفيه الزّمن. لقد مرّت عشرة أشهرٍ كاملة على ذلك الفراق الذي يشبه بترَ جزءٍ من جسدِ إنسانٍ وهو حيّ، ولم تستطع أن تمنع مشاعرَ الحبّ والنّدم والشوق من التسرُّب إلى أعماقِها.

وإذا كان مرورُ الزّمن في العادة، يقتل الأملَ في القلوب، ويدسّ اليأس في داخلِها برفق، فإنّ هازال، على العكس من ذلك، كانت تزداد أملاً كلّ يوم في أن تتلقّى اتصالاً هاتفياً من حبيبِها، يعتذر لها فيه عمّا بدرَ منه، ويطلب منها أن يعودا كما كانا من قبل.

منعت نفسَها مراراً من التوجُّه إلى زقاق بالاسكا، والصعودِ إلى الطابق الثاني من المبنى الذي يسكنُ فيه كِنان، وطرقِ بابه، ثمّ الارتماء في حضنه والبكاء. افتقدَت كلّ الأشياء التافهة التي كانا يتشاركانِها. افتقدَت النهارات المملّة التي كانا يقضيانِها أمام التلفاز دون أن يقولا كلمةً واحدة، وافتقدت خاصّةً أن تطبخ له. لم تعدّ البقلاوة منذ نهاية الرّبيع الماضي، فهي تتجنّب أيّ شيءٍ يمكنُ أن يذكّرها به: الروائح

والألوان والأطباق... تجنّبت كلّ شيء، ومع ذلك، كانت تفكّر فيه كلّ يوم.

قالت لصديقها ناجي الذي كان يمشي بجانبها وهي ترمي نظرَها في زرقة البحر:

- ما هو الحبّ؟

ضحِك ناجي، وقال:

- هو أن تمشي مع صديقكِ على البوسفور لمدّة نصف ساعة دونَ أن تتفوّهي بكلمةٍ واحدة.

توقّفت هازال في منتصف الطريق، وقالت مثل طفلةٍ تتدلّل على أمّها:

- ناجي، دعني أدعوه إلى حفلة عيد ميلادي. لديّ فضولٌ لمعرفةِ ما إذا كان يشعر بشيءٍ ناحيتي أم انتهى الأمر.

قال ناجي:

- فضول؟

تحرّك شعرُ هازال بفعلِ الرّياح. قالت بحزن:

- اشتقتُ لرؤيته.

قال ناجي:

- أنتنّ النساء دائماً هكذا! افترضي أنّك رأيتِه.. ماذا ستستفيدين؟ افرضي أنه ما زال يحبّك، هل ستعودين إليه، بعد كلّ هذا الوقت؟

صاحت جموعُ النوارس في السّماء. رفعت هازال نظرها ورمقتها، ثمّ قالتْ بحزنٍ أكبر:

- لا أعرفُ ماذا أريد... لا أعرف ماذا أفعل!

قال ناجي لتلطيف الأجواء:

- هذا هو الحبّ!

استأنفت هازال السير، ثم قالت بإصرار وحماس:

- سأدعوه إلى عيد ميلادي! وسيراني في أبهى حلّة، وسيندم لأنه لم يعُد ولم يعتذر.

قال ناجي وهو يواصل المسير:

- افعلي ما يحلو لكِ. ستتمّين التاسعة والعشرين بعد شهر، وأظنّ أنك تعرفين مصلحتكِ جيّداً.

سكتَ قليلاً كأنّه يفكّر، ثمّ نظرَ إلى صديقته الحزينة بحنان موجع. كانت تبدو متردّدةً وحزينةً بشكلٍ لا يصدّق. أضاف:

- ولمَ لا؟ البسي أحلى فساتينك، وتزيّني، وارقصي أمامه، يجبُ أن يعرف أنّ حياتكِ لم تتوقّف يوماً عليه، وأنّ سعادتكِ لن تتوقّف عنده... وأنّك نسيتيه.

عندما سمِعتْ جملته الأخيرة، شعرَتْ هازال كأنّ أحداً دهسَ قلبَها. كانت تعرِف أنّها ستكون جميلةً يوم عيد ميلادِها، وأنّها سترقص، وأنها ستثمل، وأنها سترى أصدقاءها، وأنّها ستحتفلُ بالحياة، لكّنها كانت تعلم أيضاً أنّها لم تنسَ كِنان، وأنّ ستاراً أسودَ أسدِل على أُفُقِ حياتِها يومَ تركته، وأنّها ستدعوه إلى حفلةِ ميلادِها، وأنها لا تستطيع أن تمنعَ نفسَها من ذلك الآن. كأنّها ركضت نحو حافّةٍ ما بسرعةٍ فائقة، وعندما وصلَتْ قدماها إلى الحافّة، لم يعدْ هناكَ مجالٌ للرجوع إلى الوراء. لقد رغِبتْ في رؤيته، ولم يعدْ هناك ما يمكن أن يكبح هذه الرّغبة... سوى السّقوط.

هكذا كانت هازال دائماً. متسرّعةً إلى أبعدِ حدّ، وعندما ترغبُ في شيء ما، عليها أن تناله، حتى لو تضافر العالم كلّه ضدّ ذلك، حتى لو كانت تعرفُ أنّها ستموت مباشرةً بعد أن تناله.

29

حين تتحوّل الحياةُ إلى ساحة حرب

أدركَت إيمان أنّها لن تستطيع المضيّ قدماً في تحقيق هدفِها، دون أن يكون لها على الأقلّ دخلٌ ماديّ توفِّر به ضروريات العيش. نظراتُ خالد مؤخراً لم تعد تحمل سوى الحقد والغضب والتهديد. حركاتُه كلّها أصبحتْ عنيفة. لا يُمكن أن يضع شيئاً على الطاولة دون أن يحدِث دوياً مزعجاً. خطواتُه تحدِث ضجّةً في البيت. كلماتُه صاخبة. إغلاقه للأبواب يُحدِث ارتجاجاً في دِماغها. يرقنُ على الحاسوب كأنّه يريد كسرَه. لا يتحدّث في الهاتف أمامَها أبداً، كأنّه يخفي أسراراً تهدّدُ أمنَ دولة. لا يأكل الطعام الذي تعدّه. عندما تجلسُ في البهو، يدخل هو إلى غرفة النوم، وعندما تكونُ في غرفة النوم، يهرب إلى الشرفة. ينامان منفصلَين، لكنْ متربّصَين ببعضهما البعض، مثل جنديَّي حرب. كانت متأكّدةً أنه يطبخُ لها شيئاً على نارٍ هادئة. فهذا الصّمت، الذي تتخلّله ضوضاء من حين إلى آخر، يأكلها من الداخل، ويجعل جسدَها ينطّ من الخوف كلّ مرّة. كانت تريده أن يتكلّم فقط، أن يقول لها أيّ شيء، أن يشتمها، أن ينعتها بالعاهرة، أن يخبرها أنه يريد أن يطلّقها، أن يقول أيّ شيء.. أيّ شيء، ولا يظلّ صامتاً هكذا.

لأول مرّةٍ ستشعر بكيانِها يتآكلُ من الضّعف. يقولون إنّ عملَ المرأة في هذا الزّمان هو قوتُها. فكيف ستكون قوية، هي التي لم تعمل يوماً واحداً في حياتِها؟ كيف يمكنها أن تحصل على عمل الآن وهي التي

تشارف على الثلاثين من العمر؟ كيف ستنقذ نفسَها من هذا المأزق؟ أمّا زوجُها، الذي كانت تظنّ أنّها قادرةٌ على البقاء معه إلى الأبد، فأصبحت تحلم بتركه في أقربِ وقت. وكانت هذه الفكرةُ كافيةً لإرهابِها، حتى أنّها كلّما فكّرت في الانفصالِ عنه، انتفض قلبُها وكلّ جسدِها.

فكّرَت كثيراً. فكّرَت حتى كادت تُجنّ ولم تعثر على طريقةٍ لإخراج نفسِها من هذا الفخّ. لقد مشت مئات الكيلومترات بحثاً عن كِنان الذي لم ترَه إلّا مرّةً واحدةً في حياتِها، ولم تفقد الأمل في العثور عليه. انتظرته السّاعات والسّاعات بتجلُّدٍ منقطع النظير، ولم تفقد الأمل. ذهبت إلى مقهى Lumière عشراتِ المرّات، وانتظرَتْ أن يدخل ويتخذ له مكاناً هناك، ولم يأتِ، ولم تفقد الأمل. دخلت إلى كل الملفّات الشخصية الموجودة على فيسبوك والحاملة لاسمِ «كِنان» بحثاً عنه، ولم تجده، ولم تفقد الأمل. لكنّها حين كانت تفكّر في الانفلات من حياةِ خالد، كانت تشعرُ أنها ذبابةٌ تغرق في كأسِ ماء، وكانت تفقد الأمل.

قادَها جنونُها إلى البحث عن عملٍ كسكرتيرة، كعاملةِ نظافة، كخادمةٍ في البيوت، كمنظّفة في شركاتٍ ومؤسساتٍ مختلفة، لكنّها لم تجد شيئاً. كانت كلّ العروضِ تشترط إتقان اللغة التركية من أجل التقدُّم. فكّرت أن تعلّم اللغة سيتطلّب منها الكثير من الوقت، في حين أنها لا تملك الوقتَ لأيّ شيء. كانت تشعرُ أنها جالسةٌ فوق قنبلة موقوتة قد يفجّرها خالد تحتَها في أيّ لحظة. كيف وصلا إلى هنا؟ لا تدري. كيف تحوّل كلّ حنانِه إلى قسوةٍ وعنف؟ لا تدري. كيف تحوّلَ حبّها له إلى كراهيةٍ وحقد؟ لا تدري أيضاً.

كلّ ما تعرفه أنها الآن في سباقٍ محموم مع الزّمن، وأن الشقّة التي تعيشُ فيها مفروشةٌ بالألغام، والسّريرَ الذي تنامُ عليه مُحاطٌ بالقنابل، والكنبةَ التي تجلسُ عليها مطوّقةٌ بالمسدّسات المصوَّبة نحوَها، والهواءَ الذي تتنفّسُه غازاتٌ سامّة، وزوجَها جنديّ حربٍ لن يجد مانعاً من هدمِ كلّ شيءٍ فوقَها في أي لحظة بلا أيّ رحمة.

كيف تتحوّل العلاقاتُ العاطفية هكذا من الحبّ المفرط إلى حربٍ شعواء في رمشةِ عين؟ فكّرت كثيراً، وحين تعِبت من التفكير، امتلأت عيناها بالدّموع، استندتْ إلى جدارٍ في البيت، ثم انزلق جسمُها الهزيل متساقِطاً على الأرض. لم تشعرْ حتى وجدت نفسَها تتصل بزميلة خالد، نجوى. كانت تلك الفتاةُ الوحيدةَ التي تمنحُها إحساساً بالراحة والحنان، ولم تكنْ تعرِف أحداً في إسطنبول، ولم تكن تملك ليرةً واحدة في جيبِها.

رُفِعت السمّاعة، وسمِعت صوتاً أنثويا دافئاً يقول:

- إيمان؟ انتظري، أنا في المكتب...

قالت إيمان كمن وجدتْ قشّةً وسطَ أمواجٍ متقلّبة:

- نجوى.. سجّلتِ رقمي!

قالَ الصوتُ الأنثوي الدافئ بنبرةٍ هامسة:

- نعم.. لماذا تبكين؟

قالت إيمان بيأس:

- أبحث عن عمل، ولم أجد شيئاً.

ثمّ شرعت في البكاء من جديد.

قالَ الصّوتُ الدافئ:

- لا تقلقي، لا تقلقي.. العمل هو الذي يبحث عنك.

قالت إيمان وهي تصارع دموعَها:

- لا أتقن فعل أيّ شيءٍ يا نجوى.. لا شيء على الإطلاق!

قال الصّوتُ الدافئ بهدوءٍ مطَمئِن:

- تكتبين.. صح؟

مسحت إيمان وجهها بسرعة. قالت:

- نعم أكتب.. أكتب.

قالَ الصّوت الدافئ مطمئناً:

- هناك موقعٌ إلكتروني تونسي تديره صديقةٌ مقرّبة جداً لي، ويريدون كتّاب رأي من مختلف البلدان المغاربية، للكتابة في قضايا تخصّ النّساء والأقلّيات والأديان.. هل أنتِ مهتمّة؟

كانت الدّموع لا تزال تنهمر على وجه إيمان. قالت بأمل:

- أنا مهتمّة.. أنا مهتمّة...

قال الصّوت الدافئ:

- لم أقرأ لكِ يوماً، لكنّني أثق بثقافتك الواسعة، وأنا متأكدةٌ أنّكِ أيضاً تمتلكين قلماً جميلاً بلا شكّ، لذلك سأقترحُ اسمك.

قالت إيمان وقد توقّفت عن البكاء:

- لن أخيّب أملكِ.

من أين ستبدأ في قضمِ هذا الأمل الذي مُنح لها للتو؟ كيفَ لها أن تعبّر عن كلّ هذا الامتنان الذي تشعر به الآن؟ وحين ابتسمت، تسلّلتِ الدموعُ بين شفتَيها المنفرجتَين واستشعرَت ملوحةَ الدموع في لِسانِها. نهضت وهي تشكر ذلك الصّوت الدافئ من كلّ قلبِها. في تلك اللحظة بالذات، وقعَ بصرُها على صورتِهما معاً، هي وزوجُها، تلك الصورةُ التي يحضنها فيها من الخلف كمَن لن يتركها أبداً، كمن سيحميها إلى الأبد، بينما تبتسم هي بنشوة، مغمضةً عينَيها، كمن ستبقى في ذلك الحضن دائماً، كمن لا تملك مكاناً آخر غير ذلك الحضن. ذلك الحضنُ الذي وسِعها في وقتٍ ما، وأدفأها، وحضِنها، ثمّ طوّقها، ثمّ حاصرَها، ثمّ حبسَ أنفاسها. هكذا تبدأ غالباً، وتنتهي قصصُ الحبّ.

لكنْ، أتراه حاصرَها فعلاً، أم أنّ نفَسَها كان أقصرَ من أن يتحمّل حِضنه؟ سألَت نفسَها بصدقٍ هذه المرّة. وحين لم تجد جواباً، قلبتِ الصورةَ على المنضدةِ بعنف معلنةً بدء الحرب.

الكبرياء يدمِّر كلّ شيء

لم يكن هناك أسوأ بالنسبة إلى إيمان، في هذه المرحلة بالضبط، من مجيء حماتِها إلى إسطنبول. لقد اشترَت زْهور تذكرة الطائرة، وستأتي بعد شهر، لتمكُثَ مع ابنِها وزوجتِه فترةً من الزّمن، ولتجلسَ على قلبِ إيمان التي لم تعُد تحتمل وجودَها ولا رائحتها.

صحيحٌ أنّ زهوراً حلمَت دائماً بالمجيء إلى إسطنبول، لاستكشافِها وتقبيلِ يدَي أردوغان، لكنّ إيمان فهِمَت أنّ زوجها فعلاً يطبخُ لها خطّةً على نارٍ هادئة، وستأتي الحمَاة لإنجاح الخطّة وإيقاعِ كنّتِها في الفخّ. كانت تعرِف أنّ زوجَها يحكي لأمّه كلّ ما يحدث في هذا البيت بالتفصيل، بل حتى ما يحدث داخل غرفةِ النّوم. وبعد شهرٍ فقط، ستحقّق زهور حلمها في السير في شوارع إسطنبول، وفي إبعادِ إيمان عن حياة خالد بأقلّ الخسائر الممكنة.

نظرت إلى نفسِها في المرآة، وتنفّست بعمق وهي تفكّر في حلّ لهذه المصيبة، خاصّةً أنّ خالداً سافرَ إلى أنطاليا منذ يومَين دون أن يقول شيئاً، ولم يكن ذلك من عادتِه. توجّهت نحو البهوِ بخطى ثابتة، ووقفت أمام النافذة تتطلّعُ إلى الغيومِ المتلبِّدةِ في السّماء المُظلمة. كان البيتُ قد تحوّل في نظرِها إلى سجن، وزوجُها هو السجّان. وفي اللحظة التي فكّرت فيها أنّ التمرّد مسؤوليةٌ مُلقاةٌ على عاتِقها هيَ، تلقّت اتصالاً من نبيل الذي أصرّ على لقائها في مطعم «يني كوي»

لتناول العشاء معاً. قبِلت الدّعوةَ على مضض. ارتدت سروال جينز ومعطفاً طويلاً وحذاءً رياضياً. ربَطت شعرَها في ذيلِ حصان. تطلّعت إلى نفسِها في المرآةِ مرّةً أخرى، ثمّ انطلقت نحو المطعم.

طوال الرّبع ساعة الأولى، لم تنظر إيمان إلى نبيل الجالس قبالتها. كانَ ذِهنُها مشتّتاً بين الذكرياتِ الجميلة والذكرياتِ السيّئة، وكانت نسماتُ الريح الباردة تحمِلُ إليها مشاهد من الطفولةِ البعيدة. لم تكن قادرةً في تلكَ اللحظةِ على تحديد موقفِها من الحياة، ولا من نفسِها. ظلّت صامتةً ردحاً من الزّمن، ثمّ قرّرت أن تتكلّم أخيراً:

- إذاً؟ قلتَ إن هناك موضوعاً مهمّاً تريد أن تتحدّث فيه معي.

دخلَ مباشرةً في الموضوع:

- خالد يريد أن تعودا كما كنتما من قبل!

شحُبَ وجهها عندما ذُكِر اسمُ خالد، وازدادَ ذهنُها تشتُّتاً. ماذا يعني أن يعودا كما كانا من قبل؟ وهل ثمّةَ أشياء تعودُ كما كانت من قبل؟ تطلّعت إلى البحر هاربةً من نظرةِ نبيل اللطيفة أكثر من اللازم. وحين سألَها «ما رأيُك؟»، أدركت أنّها أصبحت فعلاً تخاف من زوجِها، ليسَ من الانفصال عنه، بل من البقاء معه.

ثمّ لماذا يتدخّل الناس في العلاقاتِ العاطفية؟ ومنذ متى كان ذلك يصلح الأمور؟ ظلّت صامتة. تابعَ نبيل بأمل:

- لا توجد علاقةٌ عاطفية بلا مشاكل، ولا زواجٌ بلا سوء تفاهم. أنتما تحبّان بعضكما، وعشتما سنواتٍ طويلة معاً. عليكما أن تفكّرا في كلّ الأشياء الجميلة التي عِشتما وبنيتما معاً، ولا تنقادا للغضب والكبرياء، لأنهما يدمّران كلّ شيء.

كانت تُنصِت إليه باهتمام، قبل أن تقاطعه بتوتّر:

- خالد طلب منكَ أن تقول لي هذا الكلام؟

قال نبيل:

- خالد يفكّر في مستقبلكما.

ارتعدت في خوف ثمّ قالت:

- أيّ مستقبل؟

كان النادل واقفاً بجانبِهما. طلبا كأسَي نبيذ أحمر. هبّت نسمةُ ريحٍ باردة. انكمشَ جسدُ إيمان داخل المعطف، وانتابَها شعورٌ قويّ أنّها وحيدةٌ في هذه الدنيا. أسوأ أنواع الوحدة أن يشعر الإنسان أنّ لا أحدَ في العالم يستطيع فهمَه.

قال نبيل وقد لمعَت عيناه أملاً:

- أحياناً، إنجابُ طفلٍ فقط يمكنه أن يحلّ كلّ المشاكل.

قهقهت إيمان بمرارة. وعندما تطلّع إليها نبيل باندهاش، سكتَت، ثمّ رمقته شزراً لبرهة، وقالت:

- هل تتكلّم خارج وعيك؟ من قال لك إنني أريد إصلاحَ الأمور؟

جاءَ النادل بالكأسَين. شربتْ إيمان من كأسِها، وتابعت بعصبية:

- لا أريد البقاء معه.

لكنّها ندمَت فورَ تفوُّهها بهذه العبارة.

قالَ نبيل وقد انطفأت نظرتُه في يأس:

- في هذه الحالة، تكونين قد قرّرتِ.

شعرتْ إيمان بالخطأ الذي ارتكبته، وبتسرُّعها في التفوّه بهذا الكلام. ندِمَت حتى صعدت الحرارة إلى وجهها، لكنّها لم تستطع أن تتراجع عن كلامِها. كأنّ صخرةً استقرّت في حلقِها ومنعت صوتَها من الخروج. ظلّت متسمّرةً في مكانِها، مقطّبة الحاجبَين، بينما أذناها يغليان من الخجل والإحراج والندم.

قالت بسرعة وهي تنظر إلى عينَي نبيل اليائستَين، كأنّها تحاول عبثاً إصلاح ما اقترفته:

- على كلِّ حال، لو كان يريد فعلاً إصلاح الأمور لما بعثك أنت لتفعلَ ذلك مكانه، ولما سافر دون أن يقول إلى أين هو ذاهب. . .

قال نبيل:

- إنه في حاجةٍ إلى أن يكون وحيداً حتى يفكّر في الموضوع بحكمةٍ أكبر.

ركّزت إيمان نظرَها على الطاولة كأنّها لمحَت شيئاً هناك. اتّسعت عيناها في حزن يشبه الفجيعة، كمَن عرفت للتوّ أنّ عزيزاً قد مات، ثمّ رفعَت عينَيها المترقرقتَين بالدموع نحو نبيل وقالت:

- لم يعد يحبّني.

قال نبيل:

- هل تشعرين بهذا فعلاً؟ لو لم يكن يحبّك لما اختار البقاء معك، رغم كلّ شيء.

فكّرت إيمان في العمل، وفي المال الذي لا تملكه، وفي الوقتِ الذي تحتاجه كي تصبح مستقلّةً بذاتها. قالت:

- سأحاول.

قالَ نبيل وقد اشتعلَت عيناه أملاً:

- حقاً؟

مسحت دموعَها وقالت بنبرةٍ باردة:

- أريد أن نعود كما كنّا.

شعرَت بالقرف وهي تنطق بهذه العِبارة، وفكّرت في نظرةِ كِنان المثيرة.

عندما خرجت من المطعم، رفضت بأدب عرضَ نبيل بإيصالها إلى البيت بسيّارته. تعاملت معه بحذر شديد، مخافةَ أن يكون هذا فخّاً من الفخاخ التي يريد زوجها وحماتُها إيقاعها فيها. يمكن توقُّع كلّ شيء وأيّ شيء من الحمَوات، خاصّةً الفاشلات منهنّ والحقودات. كانت

السّاعة في هاتفها تشيرُ إلى الحادية عشرة ليلاً حين وصلت إلى ميدان بشكتاش. نزلت من سيّارة الأجرة، وسارت في الأزقّة المظلمة بجسدٍ متخشّب. كانت الشوارع صاخبةً بالموسيقى. احتفالاتُ نهاية الأسبوع بإسطنبول لا تبدأ إلّا عند منتصف الليل. كان العشّاق الشباب يمرّون على مقربةٍ منها، وهم يتبادلون القُبَل والأحضان ويطلقون ضحكات النشوة والسعادة. أحسّت بنفسها مثلَ كلبةٍ متشرّدة وهي تمشي وحيدةً في طريقِ الحياةِ الشاقّة. لم تكنْ هناك يدٌ تضغطُ على يدِها، ولا نظرةٌ تغمرُ وجهها، ولا حنانٌ يهزّ كيانها ويجعلها تشعرُ بالأمان. لم يكن يملأ رأسَها شيءٌ سوى الغربة، ونظرةُ كِنان الطافحةُ باللطف والاهتمام. وحدها هذه النظرةُ كانت تمنحُها القوة للاستمرارِ في السّير. لكنّ كِنان ظهَر فجأةً واختفى من حياتِها مثلَ شبح، كأنّما جاءَ ليعذّبها فقط. رنَت إلى رجلٍ يحضن محبوبته برفق، وغمرَها البرد واقشعرّ بدنُها من الحسَد. أرادت فقط أن تدخل إلى البيت وتستلقي، وتمنّت من أعماقِها لو تستطيعُ كسرَ رأسِ خالد الذي خنَقها داخل حضنِه، لكنّ مشكلتها مرّة أخرى، أنها لم تستطع في حياتِها أن تقتل حتى حشرة.

في تمامِ منتصف الليل، كانت مستلقيةً على الأريكة غير قادرةٍ على النوم. أطفأت كلّ الأضواء، وأشعلت التلفاز حيث كان يُعرَض فيلمٌ تركي على قناة تي آر تي. كانت تتطلّع إلى المشاهد دون أن تفهمَ كلمةً واحدة، وكان الألم قد انتشر في جسدِها كلّه. وقبلَ أن تستسلم للنوم، نظرَت إلى هاتفِها ووجدت رسالتَين، إحداهما من نجوى تخبرها أنّ صديقتها في تونس وافقت على استكتابِها في موقِعها الإلكتروني بعد أن قرأت مقالها الأول وأعجِبت بأسلوبها في الكتابة، والرسالةُ الثانية من خالد يخبرُها أنه يحبّها، ويعِدُها أنّه سيبذل كلّ جهده لتعودَ علاقتُهما كما كانت من قبل، وأفضل.

3

لا بدَّ من الاستغناء عن دفء الأوطان من أجل التحليق

تعرّفت إيمان إلى نوعٍ آخر من الشغف، وهو الشغفُ بالعمل. وأدركت أنّ الحبّ لا يقتصر على الأشخاص فقط، وإنّما على الأشياء أيضاً. فبعد شهرٍ ونصف من بدئها العمل مع الموقع الإلكتروني «تونس بريس»، لقيت مقالاتُها الثلاثةُ المنشورة تفاعلاً كبيراً على مواقع التواصل الاجتماعي. كانت تتطلّعُ إلى التعليقاتِ في صفحةِ الموقع بزهوٍ كبير ما كانت لتذوقَ حلاوتَه لولا أنّ الحياةَ ما منحتها هذه الفرصة. شعورٌ يمزج بين الفخر والسعادة لم تعرف مثله من قبل. تقرأ التعليقات، ثم تُسنِد رأسَها إلى الأريكة مغمضةً عينَيها في بهجةٍ ورضى. بهجةُ أن تُسعِد نفسَها مباشرةً دون الحاجةِ إلى المرورِ عبر شخصٍ آخر.

كتبت المقالَ الأول عن ثنائية الشرق والغرب في إسطنبول، والمقال الثاني عن دورِ النّساء في الثوراتِ العربية، والمقال الثالث عن نظرةِ الأتراك إلى العرب المقيمين في تركيا. ورغم أنّ مقالاتِها كانت مجرّدَ عرضٍ لانطباعاتٍ شخصية، لكنّ قرّاءها كانوا كُثراً.

فتحت الحاسوب، وشرعت تسجّل بعضَ الأفكار والانطباعات عن المتحوّلين جنسياً في إسطنبول، خاصّةً العرب منهم، لأنّ المقال القادِم سيكون عنهم. كانت ترقن على الحاسوب حينَ سمِعت صريرَ

المفتاح في بابِ البيت، وبعدَ بُرهة، شعرت بشفتين دافئتين تطبعان قبلةً على رقبتِها. التفتت إلى زوجِها، فغمرتْها رائحةُ الزّهور وهو يقدّم لها باقة توليب بهيجة. ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ مصطنعة، وتمتمت بكلماتِ شكرٍ غير صادقة، ثمّ عادت للتركيزِ في الكتابة.

لا تدري إيمان كيف حصلَ ذلك، ولا حتى خالد نفسُه. لكنْ، مع بداية الربيع، عادَ كلّ شيءٍ في علاقتِهما كما كان من قبل، مصطنعاً ومزيّفاً وميكانيكياً وغير صادق. الهدايا والقُبَل والابتسامات وحتى العلاقةُ الحميمية. وحينَ كانت إيمان تدخل في نوبةٍ من نوباتِ التذكّر والتوق إلى عينَي كِنان، فتسرحُ في التفكيرِ، حزينةَ المحيّا، كان خالد يجثو على ركبتيه أمامَها ويمسك بيديها، كأنه بطلٌ في مسلسلٍ هندي، ويعِدها أنّه مستعدّ لفِعل أيّ شيء لتكونَ سعيدة.

لكنّ إيمان كانت قد رسمَت حدوداً لا يُمكِن لزوجِها الاقترابُ منها وتجاوزها، وفي الأوقاتِ التي كانت تعملُ فيها لم يكن يستطيع إلّا أن يطبعَ قبلةً على خدّها أو عُنقها أو كفّها، أمّا عندما تتأخّر خارجَ البيت، فلم يكن يحاسبها على ذلك. كان خائفاً من خسارتِها بشكلٍ لا يُصدّق، على الرغم من أنّه لم يكن سعيداً معها. ومنذ اليوم الذي عادَ فيه من أنطاليا، صارَ يعامِلها كما لو كانت شبكة عنكبوت هشّة، يخافُ من تدميرها بمجرّد نفَسٍ خفيف.

وبسبب هذا الخوف الذي يقبع بداخل خالد، أصبحت إيمان تخرج كثيراً، تقضي أيامها في مقهى Lumière، تكتُب بشراهة، وتنتظرُ بأمل أن يظهر كِنان في لحظةٍ ما. وبقدرِ ما كان عقلُها مهووساً بالعمل، بقدر ما كان قلبُها مهووساً بذكرى ذلك الرّجل الذي لم ترَه إلّا بضعَ دقائق في حياتِها كلّها. وحين يشتدّ بها الحزن وهي جالسةٌ أمام الحاسوب، كانت ترمي بصرَها بحنينٍ كبير إلى تلك الأشياء القديمة التي تشكّل ديكور المقهى: تلفازٌ صغير قديم الطّراز يذكّرها بفترة

التسعينيات وبطفولتِها، آلةٌ كاتبة تذكّرها في كلّ مرّة كم هي شغوفةٌ بالكتابة، درّاجةٌ هوائية معلّقةٌ في السّقف تذكّرها بحلمِها القديم في ركوب درّاجة والانطلاقِ في أزقّة طنجة وأحيائها، خزانةُ كتبٍ أنيقة في مدخلِ المقهى تذكّرها برغبتها الدائمة في امتلاكِ مكتبةٍ ضخمة في بيتِها. ومثلما كانت تتوق إلى كلّ هذه الأشياء، كانت تتوق إلى رؤية كِنان. أحياناً، كان الأملُ في العثورِ عليه يخنقها، وفي بعضِ الأحايين كانت الدموع تصعدُ من قلبِها المخنوق دفعةً واحدة إلى حلقِها، فتشتهي الارتماء في حضن أمّها والبكاء حتى منتصف الليل، ثمّ إلقاء رأسِها المتعَب على ركبتيها والخلود إلى نومٍ عميق.

في أحايين أخرى، كانت تُحاول منعَ رأسِها من الالتفات يمنةً ويسرة بحثاً عنه، لكنّها لم تكن تستطيع. وكلّما سمِعت صوتَ أحدِهم يقترب، أو رأت ظلَّ شخصٍ يدلف إلى المقهى، كانت ترفع رأسَها عن الحاسوب وقلبُها ينبض بسرعةٍ وقوة. أحياناً كانت تخاف من رؤيته يدخل إلى المقهى برفقةِ امرأةٍ أخرى. أحياناً كانت تقول لنفسِها إنّ غيابَه في الحقيقة، مصدرُ اطمئنانٍ وسكينة، لأنّه جعلَها تحتفظ بصورةٍ واحدة عنه في رأسها وهي جلوسُه قبالتها وهو يتطلّع إليها باهتمام وحنان. أحياناً كانت تشعرُ بنفسِها مثيرةً للشفقة لأنّها تفكّر بهذه الطريقة، وأحياناً أخرى تربّت على قلبِها بفكرةِ كونِها في حاجةٍ إلى كلّ هذا الوهم لتستمرّ في الحياة.

بعد أن تنتهي من الكتابة، كانت تحمل حاسوبها، وتنطلق في أزقّة بيه أوغلو، راضيةً عن نفسِها كما لم تكن من قبل أبداً. إلّا أنّ ذلك الحزن العتيق الذي سكنَ قلبَها كان يجعلها تشعرُ بنفسها مثل قطة شريدة. تتطلّع إلى السّماء الغائمة الساهمة وهي تستمتع إلى أغاني فيروز أو إديث بياف أو عزيزة جلال. تنفذ الأغاني عبر أذنيها نحو أعماقِها الهشّة، فيرتعشُ حزنها. تضعُ أصابعها البردانة في جيبَيّ

معطفها، غير آبهةٍ بدفء الربيع الذي بدأ ينتشر في الأجواء. تشعرُ بالبرد لأنها تشتاق أمّها وأباها وكِنان وخالد القديم. لقد جاءت مع زوجِها إلى إسطنبول بحثاً عن الحرّية، لكنّ ثمنَ الحرّية غالٍ جدّاً. كان لا بدَّ من الاستغناء عن حنانِ أمّها ورحمةِ ذلك الذي كانت تظنّه أباها ودفئ وطنِها من أجل أن تستطيع التحليق.

وها هي الآن طائرٌ عالقٌ في مصيدَة الوهم. ماذا تبقّى لها إذاً؟ أن تمشي في شارع الاستقلال الطويل، وتفكّر في أمّها وأبيها وبيتِهما، ذلك الذي كان بيتَها ذات يومٍ أيضاً. البيتُ الوحيد الذي لم تكنْ لتُطرَد منه يوماً، رغم شعورِها الدائم باليُتم، ورغم كلّ شيء. منذ أن غادرت هذا البيتَ قبل أربعة عشر عاماً لم يعدْ لها بيت. كانت تظنّ أن بيتَ خالد سيكون بيتَها أيضاً، لكنّها كانت مخطئة. أما قالت لها أمّها ذات يوم إنّ الزّوج يظلّ دائماً غريباً ما دامت لا تجمعُهما رابطة الدم؟ أما كانت أمّها تعاملها بتلك القسوة المرَضية لتحميها من غُربةِ الحياة ووحشيتها؟

كانت حزينة، ولو أنّ جناحَين صغيرَين بدءا ينبتان في قلبِها. «جناحا المرأة مالُها وصحّتها»، تقول أمّها دائماً بثقة. لكنّ جناحَي إيمان معجونان بالبرد واليتم والوحدة والغربة. ترفع رأسها نحو سماء إسطنبول الغائمة، وتسمعُ صوت تكسّر خطواتِها على الإسفلت الرمادي. تفكّر في نظرةِ كِنان مرّةً أخرى، ثمّ تدخل وسط مئات الوجوه القادمةِ من مختلف بلدان العالم، باحثةً عن الانتماء، وعن الألفة والحرارة، وعن شمسِ بلدِها. تفكّر في خالد القديم مرّةً أخرى. تدمعُ عيناها وهي تفكّر أنّ بلدَها فعل كلّ شيءٍ ليرمي بهما إلى زمهرير الغربة القارس.

يذكّرها جمال إسطنبول بمعنى الحياة

دخلَت هازال مسرعةً إلى السوبر ماركت، واتجهت نحو قسمِ الفوَط الصحية. أخذت علبةً من الحجم الكبير، وركضتْ نحو الصّندوق لتدفع. كانَ هناك صفٌّ طويلٌ من الناس قبلَها، ما جعلَ توترها يزداد، والدّمَ يصعدُ إلى وجهها وأذنيها. لقد رفعت صوتَها قبل قليل على مديرها في العمل، بسببِ طلبِها الذي بدا له غريباً وشاذاً، وتعاملَ معه بصفتِه مجرّد دلالٍ من هذه الصحافية التي تفضّل الجلوسَ في البيت على العمل الجادّ. طلبت هازال إجازةً شخصية مدفوعةَ الأجر لمدّة يومٍ واحد حتى تهدأ آلام حيضِها.

وبدل أن تنظر هازال إلى الأمر على أساس أنّه مجرّد صباح اثنين مُتعِب وشاقّ بسبب آلام الدورة الشهرية، رأت أن كلّ شيءٍ في حياتِها أسودٌ ومكشّر: الرّبيع الذي يذكّرها بنهاية علاقتِها مع حبّ حياتِها، يومُ الاثنين الذي يذكّرها بالاستعباد الذي رضخت له منذ عشر سنوات تحت اسم العمل والنجاح المهني، الجلوسُ في المكتب طوال تسع ساعاتٍ كاملة من أجل الحصولِ على راتبٍ في آخر الشهر بالكاد يكفي لدفعِ الإيجار والمأكل والملبس وبعضَ الحفلات الصغيرة في نهايات الأسبوع، آلامُ الحيض الذي أبى إلّا أن يأتيها وهي جالسةٌ في المكتب تقومُ بعملها، لتنهض ببنطالٍ ملطّخٍ بالدم.

كانت غاضبة، متوتِّرة، ساخطةً على الجميع وعلى نفسِها، حاقدةً

على العالم وعلى الرأسمالية الجشعة التي سرقت منها حياتها، مشتاقةً إلى كِنان، متشوّقةً للخروجِ إلى الميدان للعمل على تحقيقاتٍ صحافية شجاعة بدل الجلوس في المكتب لنقل الأخبار من الوكالات.

جعلت الهرمونات مشاعرَها مختلطة، وحين كانت واقفةً أمام البائعة المتعجرفة لتدفعَ ثمن مقتنياتِها، استرجعت بندم كلّ ما تفوّهت به في المكتب قبلَ قليل.

قالت لمديرها:

- عليّ أن أخرج.

رفع رأسه نحوَها، فالتمعت صلعته تحت الضوء، ثمّ سألَها:

- لماذا؟

قالت وهي تكتم عصبيتها:

- لديّ آلامٌ رهيبةٌ في بطني، وأحتاج إلى الراحة.

قال المدير بوجهٍ بلا تعابير:

- لا يوجد من نعوّضكِ به اليوم.

قالتْ بعصبية:

- أحتاج إلى الخروج من أجل تغيير ملابسي.

كان ينظر إليها كمن لا يفهم. كرّرَ:

- لا يوجد من نعوّضكِ به اليوم.

قالت بعصبيةٍ أكبر:

- هناك دمٌ على بنطالي بسبب العادة الشهرية.

احمرَّ وجهه الأبيض. قال:

- غيّري ملابسك ثمّ عودي إذاً.

قالت:

- لن أعود.

خرجت من مكتبه صافقةً الباب وراءها، وفكّرت ألّا تعود أبداً.

مكتبة
t.me/t_pdf

كان الغضب الذي يشتعلُ داخلها كافياً لإحراق العالم كلّه. دفعتْ ثمن علبة الفوَط، وخرجت من السوبر ماركت راكضةً نحوَ بيتِها في بشكتاش. كان الألمُ يتلوّى في بطنِها، وينتقلُ إلى ظهرها ورجليها، ثم ينتشر في كلّ جسدِها، ومع ذلك يظلّ الأمر مبرّراً غير كافٍ لتحصل النساء العاملات على إجازةٍ مدفوعة الأجر! عبرَت الأزقة بعينَين دامعتَين، وفكّرت في كِنان مرّة أخرى. وخزَها ندمٌ خفيف لأنّها تركته. أدركت اليوم، وهي تدلف إلى التاسعة والعشرين، أنّها فعلت ذلك حمايةً لنفسِها من الشعورِ بأنّها مرفوضة ومتخلّى عنها مرّة أخرى، وليس لأنّ كنان كان يريد دعوة حبيبته السّابقة إلى حفل زفافهما.

دخلت إلى شقّتها الواقعة في الطابق الثالث من مبنى قديم في زقاق داوود أفندي. كانت هناك فوضى في كلّ مكان. منفضةُ سجائر ممتلئة على آخرها فوق طاولة الطعام، قنّينات عصير فارغة أو ممتلئة إلى النصف، فواتير لم تُدفع بعد، ملاءةٌ مرمية على الأرض، حمّالاتُ صدر في كلّ مكان، أكياسٌ مليئة بالقمامة في البهو، ساندويتش مقضوم طلبته منذ يومَين ولم تأكله، عُلَب مسكّنات، طلاء أظافر، ديوان سيلفيا بلاث الشعري، مشابك شعر مختلفة الألوان، ولّاعاتٌ فارغة... فتحت النافذة لتهوية البيتِ، ثم توجّهت نحو المطبخ عابرةً كلّ هذه الفوضى لإعداد عُجّة بيض. وحين تبِعها قطّها الرّمادي ذو العينين الخضراوين المدعوّ «باكي»، تذكّرت أنّها لم تترك له طعاماً هذا الصباح.

بعد أن انفصلت عن كِنان، تحوّلت حياة هازال المنظّمةُ والمرتَّبة إلى حياةٍ فوضوية، بل إنّ شخصيتها كلّها تغيّرت، إذ صارت المرأةُ التي تفضّل ارتداء الفساتين المزيّنة بالورود، امرأةً لا تأبه لمظهرِها الخارجي. ترتدي طوال الوقت سراويل جينز ممزّقة من الرّكبتين، وأقمصةً بألوانٍ موحّدة وغامقة، وتحوّلَ اهتمامُها بالتفاصيل الصغيرة في

البيت إلى إهمالٍ ليس له حدود. عندما انتقلت إلى هذه الشقة أوّل مرة، حرصت على ألّا تشتري إلّا ما تحتاجه، أملاً منها في الرّجوع إلى بيتِها الحقيقيّ الذي هو بيتُ كِنان. لكنّ كِنان لم يبحث عنها ولم يطلب الاعتذار، فظلّت شقّتها فارغةً لا تحتوي إلّا على أريكةٍ واحدة، وكرسيّ واحد، وطاولةٍ واحدة، وسجّادةٍ واحدة، وكأسٍ واحد مخصّص للنّبيذ، وفنجانٍ واحد للقهوة، وصحنٍ واحد، ومِلعقةٍ واحدة، وشوكةٍ واحدة، وسكّينٍ واحد، وغِطاءٍ واحد، وفوطةٍ واحدة.

وضعت العجّةَ على الطاولةِ بعصبية، وسكبت للقطّ طعامَه في آنية، ثمّ جلسَت تأكل بلا شهية، محدّقةً في ذيلِ قطّها المرفوعِ المتحرّك يمنةً ويسرة وهو يتناول طعامَه بشهية. تمنّت لو كانت مجرّد قطّةٍ تولدُ وتعيش كما كتبت عليها الطبيعة ثمّ تموت بسلامٍ بعد عشرة أو خمسة عشر عاماً على أبعد تقدير. دفعت الصّحنَ من أمامِها بقرف دون أن تُكمِله، وتوجّهت نحوَ الحمّام بخطىً متثاقلة.

تخلّصت من ملابسِها، وفتحت رشاش الماء الدافئ. كانت تزدادُ كرهاً لحياتِها يوماً بعد آخر. كأنّ الحبّ هو الشيءُ الوحيد الذي كان يضفي معنىً على وجودِها. وبعدَ انتهاء ذلك الحبّ، صارت وحيدة. وحيدة حتى وهي محاطةٌ بالأصدقاء. مرّرت إسفنجةَ الاستحمام المليئة بالرغوة على عُنقِها ثمّ على نهدَيها وبطنِها ورجلَيها، وحين كانت تحاول غسلَ ظهرها، تذكّرت مرّةً أخرى ذلك الوشم الذي وضعته هناك قبل ثلاثِ سنوات. وضعته عمداً في الظهر لكيلا تضطرّ لرؤيتِه كلّ مرّةٍ تتعرّى فيها أو تنظرُ فيها إلى جسدِها في المرآة. كان الوشمُ عِبارةً عن دائرةٍ يتوسّطها حرف A، وهو شكلٌ يرمز إلى الأناركية. وضعت هازال الوشم في ظهرها حتى لا تضطر أن تتذكّر كلّ يوم أنّ نظام الحياة الحالي لا يتماشى مع مواقِفها وقناعاتِها الدفينة.

سكبت الصابون برائحة اللوز الممزوجة بالخزامى مرّةً أخرى في

الإسفنجة، وراحت تغسلُ عنُقها ويديها برفق. لم يستطِع قلبُها أن يبدأ حياةً جديدة، على الرّغم من كلّ محاولاتِه للهروب من ذِكرى كِنان مثل السّهر وتبادل القُبل والنظرات الرومانسية مع شبابٍ آخرين، أمّا أولئك الذين نامت معهم، فلا تستطيع حتى أن تتذكر أسماءهم.

كان يخطر ببالها أحياناً أنّ الأمور ستتحسّن يوماً ما، فيبدأ الأمل بالتسرّب إلى داخلِها، خاصّةً عندما تكون برفقة ناجي، يتمشيان قربَ البوسفور ويتفرّجان بصمت على القوارب والعبّارات والنوارس، فيذكّرها جمال إسطنبول وطبيعتُها بمعنى الحياة.

والحقّ أن هازال لم تلتقِ من قبل بشخصٍ أكثر حناناً من ناجي، ويمكنها أن تجزمَ أنّ هذا الرّجل الذي يحمل جسدَ امرأة هو أفضل صديق لها على الإطلاق. تعرّفت إليه في نفسِ اليوم الذي غادرت فيه بيت كِنان قبل حوالي سنة. كانت تركضُ مسرعةً جارّةً حقيبتها دامعةَ العينَين حين ارتطمَ جسدُها بجسدِ ناجي. وفي اللحظة التي توقّفت فيها للاعتذار، رأتْ نظرةَ حنان في عينَيّ الفتاة الجميلة التي كانت واقفةً أمامها ترمقها بذهول.

قالت الفتاة الجميلة بالإنجليزية:

- على رسلك يا عزيزتي.

رمشت عينا هازال مرّتين لطردِ الغمامةِ التي منعتها من رؤية العالم حولها بوضوح. اعتذرت بسرعة وهمّت بمواصلةِ الرّكض.

قالت الفتاة الجميلة بهدوءٍ مُخدّر:

- لا أحد يستحقّ أن تبكي من أجله.

كانت هازال تبدو مثل طفلةٍ تائهة. خرجت كلِماتُها اليائسة من وسط الدموع:

- أشعر أنني سأموت! لقد تركتُ حياتي ورائي.

ارتسمت على وجه الفتاة الجميلة ابتسامةٌ مطَمئنة. كانت هازال قد بدأت تهدأ بعدما تفوّهت بتلك الكلمات لشخصٍ غريب.

- حياتُكِ تركض معكِ الآن، إنّك تحملينها معكِ أينما حللتِ.

تردّدت هذه الجملةُ مرّتين في رأس هازال. قالت وهي تمدّ يدَها:

- اسمي هازال، وأنت؟

همست الفتاة الجميلة بخجلٍ ممزوجٍ بالسخرية:

- النّهود أحياناً لا تعني شيئاً عزيزتي.. اسمي ناجي.

لا يحذر الناس من حكي أسرارهم إلّا لأولئك الذين يعرفونهم، ولذلك تحمّست هازال للتعرُّف أكثر إلى ناجي. ذهبا معاً إلى ميدان أورتاكوي، وجلسا في مقهى مطلّ على البوسفور، وبدأ كلّ واحدٍ منهما بسرد قصّة حياته بأريحيةٍ منقطعة النظير.

تطوّرت علاقة هازال وناجي حتى صارا لا يفترقان أبداً، وقدّمت هازال صديقَها لعائلتها كونَه رجلاً سيخضع لعملية التحوّل الجنسي قريباً، وكان هذا، بالنسبة إلى ناجي، أحسن هدية تُقدّم له في حياته. وعلى الرّغم من أن والدَي هازال وأختَها الوحيدة كانوا يخطئون، أحياناً، حين ينادون ناجي أو يتحدثون عنه بصيغة المؤنّث، إلّا أنّه كان يبتسم متقبّلاً ذلك برحابة صدر.

لم تكن عائلة هازال من العائلات المثقّفة والمتفتّحة، لكنّ والدَيها كانا طيّبَين جدّاً، وكانت طِيبتهما المتدفِّقة وسذاجتهما المفرطة تحكم كلّ تصرّفاتهما إزاء الآخرين. كانَ والدُها كردياً يملك محلّاً صغيراً لبيع الموادّ الغذائية في حيّ شوقور جمعة. أما والدتُها فهي ربّة بيتٍ إسطنبولية بسيطة لم تكمل تعليمها الابتدائي بسببِ الفقر واضطرارِها للعمل في محلّ لبيع الحلويات منذ سنّ صغيرة. كان شعورُ والد هازال الدائم بالاضطهاد والتهميش هو الذي جعله يتقبّل وجودَ ناجي بينهم، كأنّ في ذلك نوعاً من التواطؤ المستتر بين مَن قُدّرَ عليهم أن يعيشوا

حيواتٍ طافحةً بمشاعر القهر وهم يعرفون أنّ العالم لا يعترف بوجودهم.

انتقل جدّ هازال المدعوّ بيرزو إلى إسطنبول سنة 1970 برفقة زوجته وأبنائه الثلاثة، وأكبرهم سنّاً والد هازال الذي كان يبلغ من العمر حينها عشر سنوات، بعد أن كانوا يعيشون في قرية كردية نائية في الجبال الواقعة جنوب شرق تركيا.

ولأنّ آزاد، والد هازال لم يدخل المدرسة أبداً، فقد تعلّم اللغة التركية بعدما جاء إلى إسطنبول، لكنّ لسانه حافظ على اللكنة الكردية، ثمّ تزوّج فاطمة التركية القحّة، وأنجبَ معها فتاتَين اختار لهما اسمين تركيين هما هازال وبيسان.

وعلى الرّغم من أن آزاد تشرّب الثقافة التركية تشرُّباً كاملاً، وأتقن اللغة التركية، وتزوّج امرأةً تركية، وأنجبَ فتاتين لا تعرفان من اللغة الكردية سوى بعض الكلمات مثل «خبز» و«ماء» و«تعالَ» و«اجلس»، إلّا أنّه ظلّ دائماً يشعر بعدم الانتماء إلى المجتمع التركي، ويعتبر الأكراد في تركيا أقلّيةً مضطهدة، بسببِ منع لغتهم عن المدارس ومؤسسات الدولة، وإجبارهم على التسمية بأسماء تركية، وتغيير أسماء الكثير من القرى والبلدات الكردية منذ عام 1980.

«إننا موجودون، وهم يحاولون محونا، ليأتوا بعد ذلك ويقولوا إننا لسنا موجودين»، يقول آزاد دائماً وهو يداعب شاربَه الكثّ رافعاً عينيه المتأمّلتين ناظراً إلى السّقف. يضحكُ ناجي بسرور موافقاً على هذا الكلام، بينما تفضّل زوجته فاطمة أن تلوذَ بالصمت، متظاهرةً بعدمِ سماعِ أيّ شيء، مركّزةً في الخياطةِ أو في شربِ الشاي. أمّا هازال فقد كانت دائماً مدافعةً شرسة عن حقوق الأكراد في تركيا، وسبقَ أن أنجزت استطلاعاتٍ وتحقيقات عن مواضيع مختلفة تتعلّق بالأكراد

وثقافتهم والصعوبات التي يواجهونها في حياتِهم اليومية بسبب غياب لغتهم عن المؤسسات.

كانت أغلبُ النقاشات بين ناجي وعائلة هازال تدور حول الثقافة والهوية والتاريخ وحقوق الأقلّيات والشعور بالاضطهاد. كانت هناك نقطٌ مشتركة كثيرة، وكان التفاهم يعمّ كل لقاءات ناجي مع عائلة صديقته، رغم بعض المشادّات التي كانت تُثار فجأةً حين يشتعلُ الشعور القومي داخل والدة هازال. تضعُ كأس الشاي على الطاولة وتقول بثقة لإنهاء النقاش: «رغم كلّ شيء، نظلّ جميعاً أتراك».

* * *

ملتحفةً فوطةً بيضاء، سارت هازال نحو البهو بخطواتٍ بطيئة كأنّها دودةٌ خرجت للتوّ من شرنقتها. أشعلت سيجارة واتصلت بناجي. كانَت الساعةُ تشير إلى الواحدة وخمس وأربعين دقيقة، وكانَت شمسُ الأيام الأخيرة من الشتاء قد أشرقت وامتدّت خيوطُها إلى داخل البيت. يومٌ مثاليّ بالنسبة إلى هازال لتناول الغداء مع صديقِها وتبادل أطراف الحديث عن كلّ شيءٍ وأيّ شيء، خاصّةً عن الرأسمالية. وخزَها ألمٌ خفيف في البطن. كلّ الأيام بالنسبة إلى هازال مثاليةٌ للحديث عن النظام الرأسمالي ووصفه بالجشع والمستغلّ والمتوحّش الذي يقتات على حيواتِ الناس. كلّ الأيام بالنسبة إليها أيضاً مثاليةٌ لتذكّر قصّتها مع كِنان وسردِها في كلّ مرّةٍ بطريقةٍ مختلفة، بحزن أحياناً، بحنين أحياناً أخرى، وببهجةٍ في بعض الأحايين.

السّفر لاسترجاع السعادة

تطلّع خالد إلى زوجتِه بنظرةٍ تنمّ عن حزنٍ شديد. كان يبدو أنّ تعاستَها أقوى من أن يجرِفها سفرٌ قصيرٌ إلى بودروم لقضاء نهاية الأسبوع بعيداً عن روتين الحياة في إسطنبول. كلّ محاولاتِه لإصلاحِ الأمور ذهبت سُدىً. استأجرَ شقّةً مطلّةً على البحر في هذه المنطقة الجميلة، دعاها لتناول العشاء في مطعم فاخر كما يفعلُ العشّاق في بداية العلاقة، تمشّيا معاً على البحر، لكنّ إيمان لا تزال حزينة.

كانا جالسَين على الشاطئ صباح السبت يراقبان أمواج البحر الهادئة في صمت. وبينما كانت إيمان شاردةَ الذهن وهي تمرِّر إصبعها على الرّمال، قال خالد بحماسّ:

- ما رأيك أن نشتري شقّةً على البحر، ثمّ ننجب طفلاً جميلاً يشبهكِ؟ أليسَ هذا أقصى ما يمكن أن يتمنّاه الإنسان من سعادة؟

توقّفت إيمان عن تحريك إصبعها فوق الرّمال. رفعتْ رأسَها نحوَه وقالت ببرود:

- لمَ لا!

اقترب منها واحتضنها، لكنّها لم تبعد جسدَها عنه كما تفعل دائماً. وضعَت رأسها على صدره وأغمضت عينَيها، ثمّ قالت:

- هل تظنّ أنّ الطفلَ سيكون سعيداً في حياته؟

داعبَ خالد شعرَها الناعم بحنان، وقال جازماً:

- سيكون سعيداً.

كانا يبدوان زوجَين سعيدَين ومتفاهمَين. قالت إيمان بهدوء:

- كيفَ يمكنك أن تكون متأكداً من ذلك؟

قالَ خالد وهو لا يزال يداعب شعرها وينظر إلى الأمواج الهادئة أمامه:

- يكفي أن يكون له بيتٌ دافئ يؤويه وأمّ وأبٌ يحبّانه مثلنا.

قالت إيمان بنبرةٍ تسرّب منها حزنٌ رقيق:

- كان لي بيتٌ وأبٌ وأمّ أيضاً، لكنّني لم أكن سعيدة.

سكتَ خالد برهةً من الزمن، وضمّ هذه الكتلة من الحزن إليه أكثر. كان يُحاول البحثَ عن أيّ حبلِ أملٍ يتمسّك به من أجل حمايتِهما من السّقوط. قال:

- ما زال لكِ بيتٌ وأبٌ وأمّ، وصارَ لكِ الآن بيتٌ ثانٍ وزوجٌ يحبّك.

صمتت كأنّها تفكّر في شيءٍ ما، ثمّ سألته:

- هل تعرف أن أبي لا يحبّني كما يحبّ أبٌ ابنته فعلاً؟

ظلّ صامتاً وهو يتذكّر حماه. كان رجلاً طيّباً ويعامل ابنته كأنّها أميرة. كيف يُمكن ألّا يحبّها؟

قال:

- لماذا تنهضين؟

قالت وهي تبتسم:

- لنتمشَ قليلاً على الشاطئ.

تناهى إلى سمعه صياح النوارس. نهض ونفضَ الرمال عن ملابسه، ثمّ سارا على طول الشاطئ دون أن يمسك الواحد بيدِ الثاني، ودون أن يقولا كلمةً واحدة.

مرّت نهاية الأسبوع في بودروم هادئةً جدّاً. حاول خلالها خالد

الاستمتاع بجمال الطبيعة، وطمأنةَ إيمان وتهدئةَ حزنِها غير المفهوم. كان هدوؤها، رغم ذلك، مطمئناً له، وشعرَ أخيراً أن الأمور قد بدأت تعود إلى نِصابها، وأنّهما صارا اليوم منسجمَين أكثر مما كانا عليه خلالَ شهورهما الأولى في إسطنبول. غمرَه سلامٌ داخليّ غريب وهو جالسٌ في شرفة الشقّة المطلّة على البحر مساء الأحد، حين جاءت إيمان مرتديةً ثوبَ نوم حريرياً حاملةً كأسَي نبيذ أحمر، وجلسَت قبالته. راودَه شعورٌ مريحٌ أنّها أحسّت بمقدار المجهود الذي يبذله لكي يكونا سعيدَين معاً. ظلّا صامتَين، يشربان النبيذ ويراقبان الزوارق البعيدةَ في البحر والغيومَ الخفيفة التي تغطّي نصفَ النجوم المنتشرةِ في السماء. وحين أنهيا كأسَيهِما، توجّها إلى الداخل، ومارسا الحبّ في الظلام.

تركيات وعربيات

بعدما عادَ خالد وإيمان إلى إسطنبول، جاءت إيناس مساءَ اليوم الموالي. بكامل أناقتِها، جلسَت على الأريكة واضعةً ساقاً على ساق. وفي لحظةٍ ما بدأت تحرّك قدَمها المنتعلة كعباً عالياً أخضر اللون بتوتُّر كمَن تنتظر شيئاً. أعدّت إيمان شاياً تركياً، ووضعتِ الكؤوس على الطاولة مع صحنِ حلويات، ثمّ جلسَت جنبَ خالد تحدّق في إيناس بفضول.

كانت إيناس ترتدي كالعادةِ بنطالاً ضيّقاً، وتضعُ على رأسِها طرحةً تظهر منها خصلاتٌ من شعرِها الناعم، وأحمرَ شفاه خارجاً عن إطار شفتَيها الرفيعتَين. أمسكَت إيمان يدَ زوجِها، كأنّما لتقول لإيناس: «ليس لديكِ مكانٌ هنا، وهذا الرّجل لي وحدي»، لكنّ الفتاة السّورية كانت ذكيةً كفاية لتلاحظ أنّ إيمان لا تحبّ زوجَها، أو على الأقلّ غير متعلّقةٍ به، وأنّ علاقةَ الاثنين أكثر هشاشةً ممّا يتصوّران، ومع ذلك، ابتسمتْ بمكر وهي تنظر إلى أصابِعهما المشبوكة، وقالت:

- في الحقيقة، كنتُ أريد استشارتكما في موضوعٍ مهمّ.

لاذت إيمان بالصّمت وهي تشربُ الشاي. قالَ خالد بلطف:

- طبعاً!

ابتسمَت إيناس في وجه خالد، وقالت بغنج فاضح:

- تقدّم لخطبتي شابّ تركيّ يعمل صحافياً، لكنّني ما زلتُ مترددة. . .

قالت إيمان:

- هل تحبّينه؟

نظرتْ إيناس في عينَيّ خالد، وقالت:

- نعم.

ضحكت إيمان وتمتمت:

- تزوّجيه إذاً!

قالت إيناس وهي تعتدل في جلستها:

- الرّجل متزوِّج من امرأة أخرى.

أشعلت إيمان سيجارة. كانت إيناس تُدوّر كأس الشاي بين يديها وتنتظر جوابهما بعينَين مفعمتَين بالأمل.

سألَها خالد باهتمام:

- أليس لديكِ مانعٌ أن تكوني زوجةً ثانية؟

قالتْ إيناس بثقة:

- حسب الظروف.

كانت إيمان قد بدأت تتوتّر من طريقةِ إيناس. سألتْها:

- وما هي ظروف هذا الرجل بالضبط؟

قالت إيناس:

- تزوّج وهو لا يزال يافعاً، واكتشَف بعد برهةٍ من الزّمن أنه لا يحبّها، وأنّ كلّ ما كان يجمعُه بها هو إعجاب المراهقة. إنهما ينتميان إلى نفس الحزب ويعملان في نفس المؤسسة الصحافية وتجمعهما مصالح كثيرة، لذلك لم يفترقا بعد.

شربتْ من كأسِها، ثمّ تابعت:

- تعرفان أنّ الحبّ والزواج ليسا مرتبطَين ببعضهما بالضرورة!

ضغطتْ إيمان على يدِ خالد. قالتْ:

- هل سيطلّقها ليتزوّجكِ؟

قالت إيناس في حيرة:

- لا أدري!

ضغطتْ إيمان على يدِ زوجِها أكثر، وسألت مرّةً أخرى:

- هل لديهما أطفال؟

قالت إيناس وهي تنظر إلى خالد:

- طفلان.. هل يمكنني أن آخذ سيجارة؟

مدّت لها إيمان علبةَ سجائرها وهي تقول:

- لم أكن أعرف أنّك تدخّنين...

قالت إيناس وهي تشعل السيجارة باحترافية من تدخّن منذ سنوات:

- أحياناً فقط!

نظرتْ إليها إيمان شزراً. نفثت إيناس الدخان وقالت بنبرةِ بائعٍ يعرضُ منتجاته:

- ما رأيكما إذاً؟

شعرتْ إيمان كأنّ المرأة تعرضُ نفسَها عليهما. نظرَ خالد إلى زوجته كأنّه يسألُها عن رأيِها في السلعة المعروضة أمامَها. قالتْ إيمان وهي تنهض لتسكب لها شاياً:

- أنا ضدّ التعدُّد يا عزيزتي. أنتِ ستدمّرين عائلةً بفعلتك هذه!

كانت إيناس تنظر إليها باستغراب. تابعتْ إيمان وهي مستمتعةٌ بما تقوله:

- ثمّ لماذا دخلتِ في علاقةٍ مع رجلٍ متزوّج أصلاً؟ كان عليكِ أن تفكّري قبل أن تفعليها!

جلستْ، ثمّ قالت لزوجها:

- حبيبي، هل يمكن أن تغلق تلك النافذة؟ الجوّ لا يزال بارداً.

قالت إيناس بعصبية واضحة:

- الرّجل مستقيم ومتديّن ولا يمكن أن يؤذي أحداً، خاصّةً زوجته! ثمّ إنّ الله أحلّ التعدّد!

حدّقت فيها إيمان بذهول، وقالت:

- وهل تظنّين أنه سيترك زوجته ليتزوّجكِ أنتِ؟

سكتت قليلاً ثمّ أضافت بهدوء:

- هذا النوع بالضبط لا يطلّقون زوجاتهم، بل يبقون معهنّ طوال حياتهم، لأنهم يمتلكون عشيقاتٍ في السرَ يفعلون معهنّ كلّ ما يشتهون!

قالت إيناس:

- ماذا تقصدين؟

أغلق خالد النافذة. قالت إيمان بهدوء:

- شكراً حبيبي.

ثمّ التفتت إلى إيناس من جديد وقالت بسخرية مريرة:

- هل تريدين رأيي بصراحة؟ أكره هذا النوع من الرجال الأتراك الذين يدّعون التديُّن ويتزوّجون محجّباتٍ عفيفات، بينما لديهم عشراتُ العشيقات في السرّ، وفوق ذلك، لا يتوقّفون عن صيدِ الفتيات العربيات الساذجات اللواتي يصدّقنهم بعمى.

قالت إيناس مدافعةً عن نفسِها:

- هذا ليس صحيحاً. إنه يحبّني!

تابعت إيمان بنبرةٍ تنمّ عن التحسُّر:

- نعم يحبّك مثلما يحبّ سلطانٌ جاريته!

قالت إيناس في انزعاج:

- انتبهي لكلامِك يا إيمان!

وهمّت بالنهوض والمغادرة، لولا أنّ إيمان ردّت بثقة:

- هذه هي الحقيقة! أنتِ فقط ترفضين رؤيتَها. لقد أكَلوا أدمِغة العرب بخطاباتهم الكاذبة!

كان النّقاش بين المرأتَين يشبه سباقاً محموماً، أمّا خالد فقد اكتفى بالتفرّج. صاحت إيناس:

- مَن تقصدين؟

قالت إيمان:

- الذين يحكمون هذا البلد!

قالتْ إيناس:

- وما علاقةُ موضوعِنا بهذا الموضوع؟ ثمّ إن من يحكمون هذا البلد الآن يدافعون عن اللاجئين السّوريين بشراسة، ولا يمكنني إلّا أن أصفّق على مجهوداتهم في هذا الإطار!

قالت إيمان:

- من أجل مصلحتِهم طبعاً... الحصولُ على قاعدةٍ انتخابية واسعة من أجل البقاء في كرسيّ الحكم!

قالتْ إيناس:

- هراء!

قالَ خالد:

- هذا ليسَ موضوعنا على أيّ حال.

أمسكت إيمان بيد زوجِها مرّةً أخرى، وقالت:

- كلّ شيءٍ في الحياة مترابط يا عزيزتي إيناس!

أطفأت إيناس سيجارتَها بتوتّر. كانت تريد أن تنهض لتذهب، لكنّها لم تشأ أن تبديَ استياءها ممّا حصل للتوّ. ظلّت جالسةً لدقائق. لاذت إيمان بالصمت لدقائق وهي تبعث بريداً إلكترونياً لرئيسة تحرير موقع «تونس بريس» تتضمّنُ مقترحاً جديداً، وظلّ خالد يحدّق بصمت في إيناس التي لم تجد بدورِها ما تقوله.

نهضت إيمان، وتوجّهت نحو إيناس ووقفَت أمامها مباشرةً، ثمّ قالت بنبرةِ المنتصرة:

- لديّ الكثير من العمل، سأترككما وأنسحب.

قبّلتها في وجنتَيها بقوة مصدرةً صوتاً، وذهبتْ إلى الشرفة. بعدَ دقائق قليلة، سمِعت بابَ البيت يُغلق. تنفّست الصعداء، فكّرت لبرهة في كِنان الذي لم يظهر إلى حدّ الآن، وتمنّت، من كلّ قلبِها، لو كانت لا تزال تحبّ زوجَها.

في تلك الأثناء، وصلَها بريد إلكتروني بالموافقة على مقترحِها. ثمّ اتصلت بنجوى. كان الهاتف يرنّ في الجانب الآخر. أجابَها الصّوتُ الأنثوي الدافئ:

- مرحباً إيمان.. كيف حالك؟

قالت إيمان:

- كلّ شيءٍ بخير، والعملُ بخيرٍ جدّاً.. توصّلتُ بمستحقّات المقالات الثلاثة الأولى، وأعملُ الآن على موضوعٍ جديد.

قالَ الصوتُ الأنثوي الدافئ بفرح وحماس:

- عظيم! هذا يعني أنّك فعلاً كاتبة جيّدة.

دغدغَ هذا الكلامُ غرورَ إيمان. قالت بنبرةٍ تنمّ عن الرضى:

- لو كان الجميع يقدّر ذلك كما تفعلين!

رأت خالداً واقفاً في الغرفة ينظر إليها. قالت:

- أحتاجكِ بخصوص مقالٍ أشتغل عليه أعقِد فيه مقارنةً بين وضعيتَيْ النساء العربيات والتركيات. أظنّ أن عليّ أن ألتقي نساءً تركيات، هل يمكنكِ أن تساعديني؟

قال الصّوت الدافئ بعد برهةٍ من التفكير:

- لي صديقةٌ تركية رائعة اسمُها هازال، وهي أيضاً صحافية.. سأخبرها عنكِ وأهاتفك لتحدّدا موعداً يناسبكما.

35

قرطٌ فيروزيٌّ جميل

كانت إسطنبول تختال ضاحكةً وهي تتدثّر بألوان الربيع. الأشجارُ المنتصبةُ في الشوارع ازدادت اخضراراً. الزّهور المختلفةُ الألوان المزروعةُ على طولِ الشوارعِ النظيفة تعطي رونقاً خاصّاً لهذه المدينة التي لطالما ظلّت غامضةً كحلم في عينيّ إيمان، أمّا الشمس فقد تسلّلت من بين الغيوم وترقرقت في الفضاء، باعثةً البهجة في نفسِها التوّاقة للخلاص.

وصلتْ إلى مطعم «كات 5» الواقع في منطقة بيه أوغلو في تمام السّاعة الواحدة ظهراً، وجلست في الشرفةِ الواسعة المطلّة على البحر منتظرةً بحماس لقاء هازال. جعلها كلامُ هازال اللطيف على الهاتف متفائلةً بخصوص اللقاء، متأكدةً أنه سيكون مثمراً ومفيداً لمقالِها القادم.

راحت تنظر إلى البحر الهادئ بصفاء نفس لم تعهد مثله من قبل. لأول مرّةٍ تشعر أنّها تخطو نحو مستقبلِها بثبات، وأنّ الحياةَ ليست فقط حبّاً وزواجاً وبيتاً واستقراراً، بل مغامرةً طويلةً لتحقيق الذات. وعندما اتصلت هازال لتخبرها أنّها ستتأخر نصف ساعة، طلبت قهوة سوداء، وراحت تشربُها على مهل، متلذِّذةً بكلّ لحظةٍ تقضيها في هذا المكان، ثمّ سحبَت ورقةً من حقيبتِها، وبدأت تعدّ أسئلةَ الحوار:

- هل ترينَ أنّ النساء التركيات شرقياتٌ في طبعهنّ أم غربيات؟

- من خلال ملاحظتي الشخصية، تبيّن لي أنّ النّساء التركيات يمتلكن حرّيةً أكبر في التصرّف بأجسادهنّ، مثلَ حرّية اللباس والخروج والعمل أكثر من النّساء في منطقتَي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. هل لذلك علاقةٌ بالطابع العلماني للدولة التركية؟

- هل يحمي القانون التركي النساء من التحرّش الجنسي؟

- قرأتُ بعضَ المقالات التي تتحدّث عن زواج الرجال الأتراك بالنساء المنتميات إلى منطقتَي الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، في حين تقول الأرقام إن النساء التركيات لا يمِلن إلى الزّواج من الرجال المنتمين إلى هاتين المنطقتَين. هل لذلك علاقةٌ بالعادات والتقاليد التي تفرض على هؤلاء النسوة عدم الزواج من أجانب، أم أنّ لذلك علاقةً بتحرّر النساء التركيات ونظرتهنّ إلى الرجال «العرب» باعتبارهم محافظين جداً؟

- كيف ينظر المجتمع التركي إلى النساء؟

- تبيِّنُ بعض الأرقام الرّسمية أنّ العنف الذي تتعرّض له النساء التركيات قد يصِل إلى تعرّضهن للقتل من طرف أزواجهنّ السابقين أو حتى عشّاقهنّ بمجرّد الانفصال عنهم، وهي ظاهرةٌ غريبة لم أسمع عن وجود ظاهرةٍ مماثلة لها في بلدان أخرى. كيف تفسّرينها؟

بعد ثلاثين دقيقة من التأخُّر، ظهرت هازال أخيراً. كانت ترتدي سروال جينز ممزقاً من الرّكبة اليمنى، وقميصاً واسعاً وحذاءً رياضياً ونظارة شمسية، بينما كانت خصلاتُ شعرِها الكستنائي الناعم تتحرّك بخفّة بفعل نسمات الهواء.

مدّت يدَها لإيمان قبلَ أن تجلس، ثمّ اقتعدت كرسياً قبالتَها وهي تقول:

- كنتُ أنظر إليك من بعيد وأتساءل إن كنتِ نفسَ الفتاة التي رأيتُ في الصّورة على فيسبوك.

قالت إيمان مبتسمة:

- صحيح، لم أغيّر صورة بروفايلي منذ أربع سنوات. كان وجهي ممتلئاً أكثر، وكان شعري أطول.

قالت هازال برقّة وهي تزيل نظارتَها الشمسية:

- عجيبٌ كيف يغيّرنا الزّمن. سنةٌ واحدة كافية لتغيّري نظرتك إلى الحياة كلِّها.

ردّدت إيمان مركّزةً نظرها على الطاولة:

- صحيح.

نظرتا إلى بعضِهما برهةً من الزّمن وهما تبتسمان فقط، كأنّ كلّ واحدةٍ منهما تحاول، عبر النظرِ إلى الأخرى، سبرَ أغوارِها العميقة.

قالت هازال:

- إذاً، أخبرَني ناجي أنّكِ بصددِ كتابة مقالٍ عن النساء التركيات.

لم تنتبه إيمان إلى صيغة المذكّر في فعلِ «أخبرَني» الذي استعملته هازال. قالت مصحّحةً وهي تضحك:

- اسمها نجوى وليسَ ناجي. نسمّي ناجي للذكور فقط!

قالتْ هازال مستدركة:

- أقصد نجوى.. عفواً، أخبرتني أنّكِ تريدين الحصول على بعض المعلومات عن النساء التركيات...

أومأت إيمان دلالةً على الإيجاب.

في تلك اللحظة، جاءَ النادل بقائمة الطعام والشراب. قالت هازال وهي تمسك القائمةَ في يدِها:

- أنا جائعةٌ جدّاً.

سألتْ إيمان بفضول:

- أليسَ لديكِ دوامٌ اليوم، أم أنّك تعملين كفريلانسر؟

أجابت هازال دون أن ترفع عينَيها عن قائمة الطعام:

- قدّمتُ استقالتي الأسبوعَ الماضي. ماذا ستأكلين؟

تحرّكتْ خصلاتُ شعرِها. حدّقت إيمان في ذلك الشعر الطويلِ الناعم وهي تتذكّر شعرَها الذي تخلّصت من نصفهِ في لحظةِ غضب. أمسكَت قائمةَ الطعام دونَ أن تبعِد عينَيها عن شعرِ هازال وهي تقول: «لا أعرِف». نظرت إلى ذلك الشّعر ملياً وهو يتحرّك إلى الوراء، ثمّ نظرت إلى الأذن الصغيرة المثبّتة في رأسِ تلك المرأةِ أمامها، ثمّ إلى شحمةِ الأذن، ثمّ إلى القرطِ الصغيرِ المثبّت في شحمةِ الأذن، ثمّ إلى لونِ القرطِ الفيروزي الأنيق. لم تنتبه إلى أنّها كانت مركّزةً نظرَها بشكلٍ غير طبيعيّ. وراءَ أذنِ هازال، كانَ العالمُ مضبّباً وغير واضح. ذهبَ نظرُها أبعدَ من الأذن، فصارت المرأةُ أمامَها مضبّبةً واتّضحت الصّورةُ وراءها. كان كِنان واقفاً هناك يختارُ مكاناً يجلسُ فيه بين الطاولات المقابلة.

قالت هازال:

- إلى ماذا تنظرين؟

تنبّهت إيمان التي كانت تقلبُ صفحاتِ قائمة الطعام دون أن تنظر إليها. قالت:

- قِرطُك جميل.

قالت هازال وهي تلمسُ القرط كأنّها تُداعب قطّاً عزيزاً على قلبِها:

- هذا القرطُ هديةٌ من أحبّ شخصٍ إلى قلبي.

تظاهرت إيمان بتركيز نظرِها على القرط، بينما كانت تنظر إلى ما وراء القرط، لكنّ كِنان لم يكن هناك هذه المرّة. كلّ الطاولات كانت فارغة، ومع ذلك غادر المكان. راحت تجول بنظرها باحثةً عنه في المكان كلّه، بينما بدأ ألمٌ غريب ينتشر في رأسها. لم يكنْ هناك سوى طاولتَين مشغولتَين في الشرفةِ كلّها. جلسَت إلى إحداهما سيّدتان

مسنّتان تشربان عصيرَ فواكه، وإلى الثانية، فتاتان شابتان تشربان البيرة وتتناولان السّلطة. في مدخلِ الشرفة، يقفُ النادل. ما عدا ذلك، لم يكنْ هناك أحد، ولم يبدُ أنّ أحداً كانَ هنا قبل ثوانٍ. هل كانت تتخيّل، أم أن كِنان كانَ هنا فعلاً؟

صُداع رهيبٌ يدبّ في رأسِها، فيحوّله إلى ميدانِ حرب.

كانت تعرِف أنّ الفتاة التي تجلسُ قبالتها الآن تتكلّم، لكنّها لم تستطع تحديدَ الموضوع الذي تتحدّث عنه بالضبط. وخزَها ألمٌ في جسدها، لكنّها لم تستطع تحديدَ موضِعه، ثمّ سمعتها تقول:

- قرّرتُ إذاً أن أصبغ تلك الجدران بفيروزيّ فاتحٍ أيضاً.. أحبّ هذا اللون جدّاً.

قالت إيمان بذهول كأنّ أحداً صفَعها للتوّ:

- نعم، لونٌ جميلٌ فعلاً...

مكتبة
t.me/t_pdf

قالت هازال وهي تتنفّسُ بعمق وحسرة:

- لكنْ، وكما يقول المثلُ التركي، حين يذهبُ الرأس، تذهبُ الأقدام.

لم تكنْ أذنا إيمان تلتقطان أيّ شيءٍ من كلامِ هذه المرأة الجالسة قبالتها. سافَر عقلُها في خيالاتٍ عجيبة. تخيّلت كِنان يأتي ويجلسُ إلى جانبِها. تخيّلته يجثو على ركبتيه وهو يعرضُ عليها الزواج. لم تفهم لماذا تتخيّل مثلَ هذه الأشياء. حاولت إبعادَ هذه الصورِ عن رأسِها، لكنّ دِماغها استمرّ في عرضِها أمامها بسرعةٍ مدهشة. تخيّلت نفسَها تضعُ كفّها على فمِها مندهشةً ومتفاجئة ومبتهجة في الوقتِ نفسه. تخيّلت دمعةَ فرحٍ تسيلُ على وجنتِها متأثرةً بالمشهد، بينما يخبرها هو أنه يحبّها ويريد أن يُكمل ما تبقى من حياته معها. لم تستطع أن تمنع خيالها من السّفر إلى ذلك المكانِ الغريب الموجودِ في رأسِها. مكانٌ

متوحّش يبتلِعها، فتصبِح غير قادرةٍ على أن توجَد في الواقع. مكانٌ يشبِه البحر، تعرِف أنها تغرقُ فيه، لكنّها تستمتعُ بالغوص في أعماقه.

أمّا عندما دخلت هازال في صلب الموضوع وبدأت تتحدّثُ عن وضعيةِ النساء التركيات، صارت إيمان ترى كِنان في كلّ مكان. تراه أمامَها وعلى جانبيها، وتشعرُ بوجودِه خلفها. تحرّك رأسَها في كلّ مرةٍ لتعطي الانطباع لمحدّثتها أنها منتبهة إلى كلامِها. تسجّل نصفَ الكلامِ على الورقة أمامها، بينما يختفي النصف الآخر وسطَ فوضى أفكارها المزدحمةِ والصّاخبة والهجينة. كلّ جزءٍ من دماغِها لا يحملُ إلّا صورةَ كِنان ورائحته وملمسَ كفّه. كلّ شِريان في جسدها لا يجري فيه إلّا كِنان. الأشياءُ حولَها لها طعمُ كِنان، الطعمُ الذي لم تتذوّقه، لكنْ تخيّلته. الطاولةُ التي تضعُ عليها يدَها الآن لها ملمسُ كفّ كِنان، والرّوائح المنتشرةُ في الأجواء لها نفسُ رائحة كِنان. أمّا الناس الذين يتحرّكون أمامَها الآن، والجالسون إلى الطاولاتِ في الشرفة، والندُل، فكلّهم يظهرون لها في صورةِ كِنان. كانت تسجّل الأفكارَ على الورقة، وترى فيها وجهَ كِنان. تكتبُ بسرعة وتتمنى لو تستطيع كتابةَ اسم كِنان. ظنّت أنّها جُنّت.

ثمّ أخرجَها من أفكارها صوتُ هازال:

- أتمنّى أنني أجبتُ عن سؤالِك.

أومَأتْ إيمان برأسِها دلالةً على الإيجاب.

قالتْ هازال:

- أتمنّى لو أنني أعرف العربية لأستطيع قراءة مقاللكِ.

ابتسمتْ إيمان لبرهة، ثمّ قالت:

- لديّ سؤالٌ أخير، هل تعرفين زهرة التوليب، الكاتبة التركية؟

تغيّر لونُ هازال. شحُبت. بدت كما لو أنّها تعِبت فجأةً. أرجعت نظارتَها السّوداء في حركةٍ سريعة وهي تنظرُ إلى الفتاتَين الجالستَين إلى

الطاولة بجانِبهما. كانتا لا تزالان تشربان البيرة وتضحكان بصوتٍ مرتفع. قالت باقتضاب:

- لا.

قالت إيمان باستغراب ممزوجٍ بالحماس:

- كيف؟ إنها مدوِّنةٌ تركية رائعة جدّاً، وتكتب قصصاً جميلة بالإنجليزية عن النساء التركيات وأوضاعهنّ.

قالت هازال بحدّة:

- لا أحبّ الكاتبات النّسويات. إنّهن يُغرِقن في وصف المشاعر ويهملن الإبداع الأدبي.

كانت إيمان صامتة مستغربة. أزالت هازال نظّارتها مرّةً أخرى وقالت:

- أتمنّى أنني ساعدتكِ...

قالت إيمان:

- كثيراً، أتمنى أن نلتقي مرّةً أخرى، وسأخبركِ عنها أكثر.

* * *

في صباحِ اليوم التالي، ظهر كِنان مرّةً أخرى. رأتْه إيمان من شرفةِ بيتِها المطلّة على الشارع. كانَ جالساً في شرفةِ مقهى صغير مقابلٍ للبيت يشربُ قهوة. أغلقت حاسوبَها بسرعة، ارتدت معطفاً فوق المنامة، ونزلت إلى الخارج مستعملةً الدرج. كان قلبُها ينبضُ بقوة، ولم تستطع انتظارَ المصعد. خرجتْ من المبنى وهي متأكدةٌ أنها ستتحدّث إليه هذه المرّة، وستطلب رقمه. مثل المجنونةِ عبَرت إلى الجانب الآخر من الزقاق حيث يوجد المقهى، لكنّ الطاولةَ كانت فارغة.

ألمُ الحبّ

ظهرتْ هازال مرّةً أخرى في حياة كِنان. عندَ الساعة الحادية عشرة صباحاً وثلاث دقائق بالضبط من يومِ الأربعاء الموافق للثاني من مايو 2019، اتصلت به من رقمٍ جديد. تفحّصَ الرّقم في البداية، وتردّد في الجواب حين لم يتعرّفه. وضعَ الهاتف على الطاولة الصغيرة قربَه، وأخذ ينظُر ببرود إلى ذلك الرّقم الذي يرنّ بإلحاح، مرّةً، فمرّتين، فثلاثة. وضعَ فرشاة الرّسمِ في صِباغةٍ حمراء قانية، وبدأ يصبُغ من دون حماس فمَ الفتاة التي يرسُمها على اللوحة. ينظرُ إلى صورتِها الحقيقية، ويمزِج الأحمر بالأبيض، ثم يرسم انعكاسات الضّوء على شفتيها. وحين بدأ يلوّن تموّجاتِ شعرِها الأشقر، رنّ الهاتف من جديد، لكنْ هذه المرّة رنيناً قصيراً منذراً بوصول رسالةٍ جديدة.

تقول الرّسالة التي جاءت من نفس الرقم الذي كان يحاول الاتصال: مرحباً كِنان، أنا هازال شاهين. أودّ دعوتَك إلى حفلةِ ميلادي يومَ الأحد القادم على السّاعة السابعة مساءً، في شقتي الواقعة في زقاق داوود أفندي، ببشكتاش.

دونَ أن يشعر، تركت يدُه فرشاةَ الرسم. نهضَ محدّقاً في الهاتف. مشى نحوَ الكنبةِ وهو لا يزالُ يحدّق به. ارتمى على الكنبة وهو لا يزال يحدّق به أيضاً. وأخيراً، كتبَ مجيباً عن الرّسالة:

- مرحباً هازال. . كيف حالك؟ أين غبتِ كلّ هذا الوقت؟

مسَح ما كتبه. شرعَ في الكتابة من جديد:

- مرحباً هازال. . أتمنى أنك بألف خير، وأتمنى لك عيد ميلادٍ سعيد، لكنّني سأعتذر منك، لأنني سأكون في أنقرة يوم الأحد.

مسَحَ ما كتبه مرّةً أخرى. شرعَ في الكتابة من جديد:

- أظنّ أنكِ أخطأتِ في رقمِ المتلقّي. أنا كِنان يلدريم يا هازال.

بعثَ الرّسالة من دون تردّد. وضعَ الهاتف على الطاولة. تنفّس عميقاً وتمنّى لو يستطيع أن ينفث روحَه التي كانت تنبض بقوة وسرعة. نهضَ وأخذ يروح ويجيء من البهو إلى مدخلِ البيت كدجاجةٍ تريد أن تبيض. هل عادت هازال فعلاً أم أنّها أخطأت في الرقم؟ ماذا يعني إذاً أنها ما زالت تحتفظ برقمه رغم أنّها غيّرت رقمها؟ وماذا لو قصدَتْ فعلاً دعوتَه إلى حفلة ميلادِها؟ ماذا يعني ذلك؟

راودَه شعورٌ عارمٌ بالبلاهة، وندِم لأنّه كتبَ تلك الرّسالة. ندِم لأنه بدا غير واثقٍ من نفسِه أبداً وهو يقول ذلك الكلام.

تأخّرت هازال في الردّ. وكلّما كان الوقتُ يمرّ، كلّما كان كِنان يشعر بما يشبه الإهانة أكثر فأكثر. كانَ هناك ألمٌ متكوّر في معدتِه، يتحرّكُ ببطء كلّما فكّر في جوابِه على تلك الرسالة. يمرّ مزيدٌ من الوقت، ويتدحرج الألمُ نحو بطنِه. وكلّما تدحرجَ كبُر وتعاظم. وقعَ نظره على باقة التوليب الذابلة التي وصلته عندما كان في المستشفى. تحرّكت كرة الألم داخله أكثر مخلّفةً وجعاً لا يُطاق. انتقلَ الألمُ في شرايينه. كأنّ كرةَ الألمِ في بطنه انفجرت وتفتّتَت وتطايرت قِطَعُها لتنتشرَ في أجزاء أخرى من جسدِه، في رأسِه، وفي حاجبيه، وفوقَ جفنيه، وفي صدرِه. تُغرزُ القطعُ الحادّة في كلّ جزءٍ منه. تتناهى إليه الأصواتُ من الشارع صاخبةً ومزعجة. تتحرّكُ القِطع المغروزةُ في دواخله، فيزدادُ الألم. يكبَحُ الصّراخ داخله وهو يعودُ ليرتمي على الكنبةِ، سائراً ببطء، مخافةَ أن تتحرّك القطعُ المغروسةُ فيه أكثر وتقتله.

يتذكّر رسالته مرّةً أخرى. تزداد القِطعُ حِدّةً وجموحاً وهيجاناً. تهتزّ بجنون. يكادُ يغمى عليه من الألم. ثمّ يتكوّر على الكنبةِ مثل حيوانٍ خائف.

لم يستطع تحديدَ المدّة التي مرّت وهو متكوّر على نفسه، قبلَ أن يسمع رنينَ رسالةٍ أخرى. مدّ يده نحوَ الهاتف. في تلكَ اللحظة، عادَ إليه وجه هازال، حينما رآها آخر مرّة. كانت قد جاءتْ قبلَ سبعة أشهر لأخذِ أغراضِها المتبقّية. أعدّت لنفسِها قهوة متصرّفةً كما لو كانت في بيتِها. شربتْها وقوفاً في المطبخ. لم يتكلّما. تركتْ أحمر شفاهٍ ملتصقاً بالفنجان، وغادرت.

أمسَك الهاتف بيدٍ ترتعدُ من الألم. تحوّلتِ الكرةُ في بطنِه إلى صخرة. صخرة أثقل من تلك التي يحمِلها سيزيف. أمّا نبضاتُ قلبِه فكانت تشبه قرعَ الشرطةِ على بابِ متّهمٍ بجريمة قتل.

لم تكن الرّسالة من هازال، بل من تلك المرأةِ الشقراء التي كان يرسُمها قبلَ قليل. تلك المرأةُ الشقراء التي قضى معها بعضَ الوقت الأسبوع الماضي، ووعدَها، تحت تأثير السّكر والرّغبة، أنّه سيرسُمها. بعدَ أن نامَ معها، ندِم على وعدِه، وندِم لأنه نامَ معها أيضاً.

تقول الرّسالة: هل رسمتَني أم ما زلتَ تماطل؟ اشتقتُ إليك. تعالَ نشرب بيرةً هذا المساء.

قلبَ الهاتف على وجهه وهو يتذكّر فمَها الواسع الذي يُفتَح لدرجة ظهور لوزتيها حين تضحك. في تلك اللحظة، قرّر ألّا يُكمِل رسم اللوحة، وألّا يراها ثانيةً أبداً.

تحرّك على الكنبةِ محاولاً النهوض، شاعراً بالألم في كلّ مكان من جسمه، وخاصّةً في معِدته. مصدرُ كلّ المشاعرِ المعدةُ وليس الدّماغ. توجّه نحو اللوحةِ التي كان يرسم، ووقفَ ينظر إليها ملياً، إلى ذلك الوجه، إلى ذلك الفمِ المفتوح، إلى تموّجات ذلك الشعر المزيّف

المصبوغ بالأشقر. توجّه إلى المطبخ. سحبَ من الدرج إسفنجة. سكبَ صباغةً سوداء على ورقٍ مقوّى. كانَت كرةُ الألمِ في بطنه تتضاءل شيئاً فشيئاً، والحرارةُ في جسمه ترتفع. وضعَ الإسفنجة في الصباغة، ولطّخ بعنف الوجهَ الذي في اللوحةِ بالأسود. حينها فقط، ذابت كرة الألم في بطنه. تمدّد جسدُه واسترخى.

لكنّ ذلك لم يستمرّ إلا ثواني فقط، إذ رنَّ الهاتف من جديد منذراً بوصولِ رسالةٍ أخرى. تكوّنت كرةُ ألمٍ جديدة حين قرأ الرسالة:

- مرحباً كِنان، أتمنى أنك بألفِ خير. لم أخطئ في رقم المتلقي، فالرسالةُ لكَ. أظنّ أنّ الانفصال لا يجبُ أن يفسِد الودّ الذي بيننا. يمكننا أن نبقى أصدقاء. سأكون في انتظارك يوم الأحد في الساعة السابعة. محبّتي وقبلاتي.

الحبّ تحت سماء إسطنبول

لدى إيمان سرّان فقط لم تخبر بهما أيّ أحدٍ على الإطلاق، الأوّلُ أنّ الرجلَ الذي وجدتْ أمامها حينما بدأت تعي الحياةَ ليس أباها فعلاً، والثاني أنّها حقّاً واقعةٌ في حبّ هذا الرجل التركي الذي يُدعى كِنان. كيف؟ ولماذا؟ لا تهتمّ بالإجابة عن هذين السّؤالَين بقدر ما تهتمّ برؤيتِه ولقائه.

ثمّ ما هو الحبّ؟ تتساءل إيمان في استهتار، وتجيبُ نفسَها بسرعة: هو أن يعانِق جرحٌ جرحاً آخر، ويحاربا معاً عبث العالم.

ولذلك، تشعر إيمان بالوحشةِ أكثر من أيّ وقتٍ مضى. بل تشعرُ أنّها قطعةُ وَحشة تسير على قدمَين. تتيه في الشوارعِ تحت سماء إسطنبول الغامضة، وترى جرحها التوأم في كلّ مكان: داخل السيارات، وفي المقاهي، والبارات، والمطاعِم، والباصات. تراه في الأسواق والمحلّات التجارية، وفي ملصقاتِ الإشهار. تراه في كلّ شخصٍ يسيرُ في شارع الاستقلال الطويل، مهما اختلفت جنسيته وملامحه وشكله وجنسُه. تراه في النساء والرجال والأطفال والشباب والشيوخ والباعة المتجولين وموسيقيي الشارع. كأنّ صورةَ كِنان تحوّلت إلى انعكاسٍ لوَحشتِها الداخلية، ولحزنها الذي لا يُشفى، ذلك الحزن الأصيل الذي يشكّل أساسَ أعماقِ الإنسان. وحين تراه، تبتسم. تبتسم بعمقٍ من فهِم هذه الوحشةَ وتصالح معها ويُريد أن

يحضِنها بحبّ. لذلك كانت تريد احتضانَ كِنان، والالتصاقَ به، والتوحُّد معه.

إنها ترى هذه الوحشَة الآن بوضوح. تشمّها بعمقٍ في كلّ الرّوائح. تحسّها في كلّ شيءٍ يلمسه كفّاها. تسمعها في جميع أصواتِ العالم المحيط بها. لقد عثرت على وحشتِها أخيراً، عثرتْ عليها في كِنان. وهذا هو الحبّ.

حين تغوصُ إيمان تماماً في وحشتِها وفي ألمِ الغربة، كأي شجرةٍ اقتُلِعت من جذورها ولم تستطع أن تنبُت في مكانٍ آخر، كانت تستحضرُ كِنان. لقد بنَتْ لها بيتاً داخل ذكرى نظرتِه، وصنعتْ لها وطناً وانتماءً في ابتسامته. خيالاتُها مع كِنان أصبحَت أباها الحقيقي الذي لم تمنحه لها الحياة. خيالُها صار جذورَها واسمَها وهويتها. خيالُها هو الغطاء الدافئ في لحظات الوحدةِ القارسة، هو عالمُها حين تفتحُ نافذة بيتِها ولا تتعرّف العالم، فتغلق النافذةَ كأنّها هاربةٌ من عاصفةٍ هوجاء، حينَ تشعر أن كلّ الخيوطِ التي تربطُها بالعالم قد تمزّقت وانقطعت.

كانَ أغرب شعورٍ اختبرته في حياتِها على الإطلاق. شعورُ الحبّ تحت سماءِ إسطنبول. ذلكَ الذي راودَها وهي تستندُ إلى جدارِ محلّ Koton للملابس في شارع الاستقلال، وقد خرجت للتوّ من قبلةٍ طويلة مع طيفِ كِنان. السّبت الموافق للخامس من مايو 2019، السّاعة الثالثة والنّصف بعد الظهر. عيناها الجاحظتان المحمرّتان تنظران مباشرةً إلى عينَيّ كِنان العسليتَين. تتنفّسُ بسرعة، بينما تعودُ أصواتُ الشارع إلى أذنيها شيئاً فشيئاً. إحساسٌ هو مزيجٌ بين الرغبة والدهشة والخوف والحزن. كأنّه كان حلماً لذيذاً خرجتْ منه عندما مرّت درّاجةٌ نارية وتوقّفت بقربِها. التفتت يمنةً ويسرة لتتأكّد أنّ أحداً لم يرَها وهي مستندةٌ إلى الجدار تقبّل الفراغ. ثمّ إنّها لم تكن متأكّدةً أنها كانت فعلاً

تقبّل الفراغ، أم أنّها كانت تقبّل أحدهم متخيّلةً أنه كِنان. اختلط عليها الواقعُ بالخيال. ثمّ فكّرت في خالد بخوف.

ارتعشَ جسدُها حين فكّرت أنه كان من الممكن أن يضبِطها متلبّسةً بخيانته. إنّها طبعاً خيانة ما دامت فكّرت في شخصٍ آخر وتخيّلت نفسَها في حضنه. إنّها خيانةٌ ما دامت قبّلت شخصاً آخر، حتى لو كان في الخيال. فكّرت أنّها لا تعرف ماذا يدورُ في خيالِ خالد أيضاً، وأنه يمكن أن يكون خانَها في عقله، فعلى أي حال لا يمكنُها أن تعرِف إذا كانَ قد ضاجع آلافَ النساء في خياله، وعلى أيّ حال، لن يخبرها حتى لو فعل.

كان شبحُ كِنان لا يزال واقفاً أمامَها. نظرتْ في عينَيه كأنها تقول له: «اذهب ولا تقلق». كانت قادرةً على استحضاره في أيّ وقت، وتقبيله، ثمّ تطلب منه الانصراف، تماماً كما كانت تفعلُ مع أولئك الممثلين الأتراك الذين كانت تشاهدهم في المسلسلات. اختفى كِنان من أمامِها. تنفّست عميقاً، ثمّ تابعت المشي في الشارع.

ثمّ ما هو الحبّ؟ تساءلَت وهي تبتسم، وأجابت نفسَها في الحال بانتشاء: أن أستحضر حبيبي متى شئت، وأقبّله كيفما شئت، وأفعلَ به ما شئتُ في خيالي، بل أجعَله، في خيالي، يرغبُ في فِعل كلّ ما أريده، حتى لو لم يكنْ يريده فعلاً في الواقع.

هذا هو الحبّ. الحبُّ قوة الخيال التي تغلب الواقع.

38

رقصةُ الوداع

في تمام السّاعة السادسة مساءً من يوم الأحدِ الموافق للسادس من مايو، كانت هازال قد جهّزت كلّ شيءٍ لحفلةِ ميلادِها. وضعَ ناجي، أخيراً، كؤوسَ الشمبانيا على الطاولة، أشعل الشموع وأطفأ الأضواء.

كانت هازال متوتّرةً جداً، رغم أنّ البيتَ صارَ جاهزاً لحفلةِ عيد الميلاد، فقد اقتنى ناجي كلّ ما يحتاجانِه لتكون الشقّة لائقةً باستقبال الأصدقاء والاحتفال بهذا اليوم. كانت في قمّةِ أناقتِها. رمت سراويل الجينز الممزّقة جانباً، وارتدت فستاناً أسودَ قصيراً، مفتوحاً من الصدر، وضعت أحمرَ شفاهٍ، وانتعلت كعباً عالياً. كانَ شعرُها الناعم الطويل المنسدلُ على كتفيها، والذي يغطّي ظهرها كلّه، يعطيها رونقاً لا يضاهى، ولم يتوقّف ناجي عن ترديد ذلك على مسامعها. كان ينظر إليها بإعجاب ويلقي عليها المجاملات من دون حساب، في محاولةٍ منه لتهدئة توترها.

وحين تبقّت نصفُ ساعة على بداية الحفل، هربتْ هازال إلى غرفةِ نومِها. تبعها القطّ باكي بخمول، وجلسَ قربَها على السرير الذي ارتمت عليه. كانت نادمةٌ لأنها دعَت كِنان إلى الحفل، ولم تكن تتوقّع أنّ انتظارَ حضوره سيثير في داخلِها كلّ هذا التوتّر والريبة، وأنه سيمنعها من الاستمتاع بهذه الليلة.

كانت دافنةً رأسَها في الوسادة حين دخل ناجي إلى الغرفة. قالَ:

- انهضي، ستُفسدين أحمر شفاهك. ماذا قُلنا؟

قالت هازال دون أن ترفعَ رأسها عن الوسادة:

- لا يجب أن أدعَه يظنّ أنّني غير قادرة على العيشِ من دونه.

قالَ ناجي:

- برافو! وماذا سنفعلُ الآن؟

قالت هازال مكابرةً وهي تنهض:

- سنشرب الشمبانيا، ونسكَر ونبتهج.

في تلك اللحظة، طرقَ أحدُهم الباب. تمسّح باكي بصاحبته بدلال، لكنّها لم تكن مكترثةً له. خرجَ ناجي من الغرفة ليفتَح. كان أوّل من جاء إلى الحفلة هو مراد، الذي كان زميلاً لهازال في الجامعة، أتى متأبّطاً ذراعَ فتاةٍ شقراء طويلة. عرَفت هازال في الحال أنّها حبيبته الجديدة، فهذا الشابّ الوسيم والعابث يغيّر الرّفيقات كما يغيّر جواربَه وتبابينه. ابتسمت للفتاة وهي تستقبِلهما في الباب. قالَ مراد:

- أقدّم لكِ أليف، طالبةٌ في شعبة الصحافة، وصحافية متدرِّبة.

رمَقته أليف شزراً. بدت منزعجةً من طريقة تقديمه لها، لكنّها حافظت على ابتسامتِها المصطنعة وهي تمشي نحو البهو بخطواتٍ متبخترة كأنها عارضة أزياء.

جلس الاثنان وقدّم لهما ناجي نبيذاً، بينما شغّلت هازال أغنية Summertime لجانيس جوبلين.

بعدَ دقائق، وصلَت توبا، زميلة هازال في الموقع الذي استقالت منه قبل وقتٍ قصير. كانت توبا فتاةً لطيفة وخدومة وقريبةً جدّاً من قلب هازال، عيبُها الوحيد أنّها ثرثارةٌ كبيرة. جاءت بشعرها القصير المجعّد مرتديةً سروال جينز وقميصاً واسعاً، وأحضرت معها قنّينة نبيذٍ أحمر. مدّت القنّينة لهازال في مدخل البيت وقالت وهي تلهث:

- آسفةٌ جدّاً يا عزيزتي. أعرف أنّ منظري لا يناسب حفلاً كبيراً

كهذا، لكنّ مشكلةً حصلت معي، وكنت سأتأخّر. . بل لم أكن لآتي أصلاً. . . لكنْ، لا أستطيع أن أفوّت حفلةَ صديقةٍ عزيزة مثلك. . .

جلسَ الجميع في البهو يشربون النبيذ. قفزت إلى ذهن هازال صورٌ من حفلة ميلادِها الماضية مع كِنان. اهتزّ قلبُها. كانت الصّور في ذاكرتها مضبّبة، لكنّها تذكر جيّداً أنّها رقصت مع كِنان، هناك في شقته الواقعةِ في زقاق بالاسكا، على سيمفونية بيتهوفن السّابعة، رقصةً يائسةً كأنّها رقصةُ الوداع.

كانت توبا في تلك الأثناء، تتحدّث مع ناجي، بلا توقُّف، عن مدى حبّها للعمل الصحافي، قالت له إنّها فخورة جدّاً لمراكمتِها عشر سنواتٍ من التجربة. وكانَ ناجي يحاول أن يُثبتَ لها أنّ الجلوسَ في المكتب لمدة تسع ساعاتٍ يومياً لا يمكن اعتباره تجربةً صحافية، بل استعباداً للإنسان.

أمّا مراد، فبدا أنه يشعر بالملل مع أليف، التي كانت لا تتحدّث إلّا نادراً، منشغلةً بتعديل شعرِها الأشقر المتموّج وتفقّد أظافرها المصبوغة بالأحمر كلّ ثانية.

قالَ مراد بالإنجليزية:

- كيف تشعرين وأنتِ الآن على مشارف التاسعة والعشرين؟

سكتَ الجميع. قالت هازال مازحة:

- هل ينبغي أن يشعر الإنسان بشيءٍ ما وهو يدلِف إلى التاسعة والعشرين؟

ضحِك الجميع. في تلك اللحظة، رنّ جرس الباب. اهتزّ قلب هازال مرّةً أخرى. قال ناجي وهو ينهض:

- أنا سأفتح.

جاءَت إيمان لوحدِها، مرتديةً فستاناً أزرق طويلاً، مفتوحاً من

الجانبِ الأيسر حتى الفخذ، وكعباً عالياً، بينما ربطتْ شعرها في كعكة. أومأ لها ناجي بالدخول. وضعتْ هازال كأسَها على الطاولة، ونهضت لاستقبالها. مدّت لها إيمان هديةً وقنينة نبيذ أبيض وهي تبتسم.

قالَ ناجي:

- لماذا لم يأتِ خالد؟

قالت إيمان باقتضاب:

- يعمل غداً، وعليه أن يستيقظ باكراً.

اقتربت منه وهمست بمكر:

- ثمّ إنه لا يستطيع الحديثَ بالإنجليزية!

نظرتْ إليها هازال بدهشة، وقالت:

- أنتِ متزوّجةٌ إذاً!

همست إيمان بسخرية:

- الزواج والحبّ ليسا مرتبطَين ببعضها بالضرورة!

سادَ صمتٌ مريب. لاحظَت هازال أنّ أليف تمسكُ بيد مراد بقوة.

قالَ مراد وهو ينظر إلى إيمان:

- هل أنت تونسية مثل نجوى؟

رمقتْه هازال شزراً. فهِمت أنه يريد التقرّب من إيمان. قالت إيمان مبتسمةً بانتشاء:

- مغربية.

سأل مراد:

- وماذا تفعلين في إسطنبول؟

قالت إيمان بافتخار واضح:

- كاتبة رأي.

سكبت هازال كأسَ نبيذٍ آخر وهي تنظر إلى الساعة في هاتفِها. لم

يتبقَّ من الضيوف سوى صديقِها تشتين وزوجته عائشة، وصديقتها الفلسطينية الأميركية ياسمين، وكِنان.

فكّرت أنّه لن يأتي. شربت من كأسِها وهي تتذكر مشاهدَ من عيد ميلادها السابع والعشرين. فكّرت في موسيقى مزيّن سينار، وفي قارورة العطر من نوع شانيل التي أحضرها لها كِنان كهدية، وفي مراد وهو يغازل الفتيات الحاضرات، وفي ثرثرةِ توبا بعد أن تمكّن منها السّكر، وفي تشتين وعائشة اللذين تسلّلا إلى غرفة النّوم بعد أن ثمِلَ الجميع، ليمارسا الحبّ. فكّرت في رأسِها المتكئ على صدر كِنان وهما مستلقيان على الكنبة، في رائحة الكحول المنبعثة من فمِه وهو يتنفّس بعمق، بعدَ أن تمكّن منه النوم.

عندَ الساعة الثامنة، جاءتْ ياسمين. ومع أنّ قصّة شعرِها كانت رجالية، إلا أنّها حرصت على ارتداء فستان سهرة أسودَ ضيّقاً مزيّناً بأحجار لامعة، وانتعلت كعباً عالياً. بعدَها بدقائق، جاءَ تشتين متأبطاً ذراع عائشة. دخل الزوجان في كامل أناقتِهما وآثار البهجة بادية على وجهيهما، تماماً كما عرفتْهما هازال أول مرّةٍ قبل عشر سنوات، كأنّ الزمن لم يؤثّر عليهما ولا على علاقتهما.

وحين كان مراد يتبادل القُبَل مع أليف، وإيمان تتبادل أطراف الحديث مع عائشة وتشتين، وهازال تثرثر مع توبا وياسمين، صاح ناجي بسرور:

- الجميع هنا إذاً. يمكننا أن نحتفِل بعيد ميلاد عزيزتنا هازال!

رفعَ الجميع كؤوسهم إلى أعلى مردّدين:

- لنحتفل بعزيزتنا هازال!

ابتسمت هازال برقّة، وشرِبت من كأسِها.

كانت إيمان، في تلك الأثناء، تحاول ربطَ علاقاتٍ مع الجميع. تتحدّث بلا توقف عن مقالاتها. تتناقش في كلّ المواضيع. تضحكُ

بغنج في وجه مراد. كانت تريد إثارة انتباه الجميع. أمّا هازال فقد كانت تنظر إليها شزراً. همستْ في أذن ناجي:

- صديقتُك هذه لم تعجِبني! يبدو وكأنّها تعاني من جنون العظمة.

قالَ ناجي بهمس وهو ينهض:

- لا أظنّ أن كِنان سيأتي.

توجّه ناجي إلى المطبخ. شغّلت هازال أغنية «لا أحدَ مثلك» لمزيّن سينار. حرّك مراد رأسَه ويديه مستمتعاً بالأغنية. انزعجتْ أليف بشكلٍ واضح لأنه ترك يدَها. قبّلَ تشتين زوجتَه بعمق وحبّ. قالت توبا إنّ النّبيذ لذيذ. ركضَت إيمان نحوَ الحمّام تتفقّد شكلَها. مشى القطّ باكي بأبّهة. رقصت ياسمين على أنغام الموسيقى بانتشاء. جاء ناجي ببعض الأطباق الخفيفة من زيتون وأجبان وعِنب. انضمّت هازال للرّقص مع ياسمين. ابتسمَ مراد بعمق. سكبت أليف لنفسِها كأساً آخر. طوّقَ تشتين عائشة بذراعَيه. أغمضت عائشة عينَيها وهي تحرّك جسدَها منتشيةً بالأغنية. عادت إيمان من الحمّام تتمختر في مشيتها. التقت عينا مراد بعينيّ إيمان وابتسما كسكرانَين. شرِبت أليف كأسَ النبيذ دفعةً واحدة. تناولَ ناجي حبّة زيتون. ضحِكت إيمان على نكتةٍ تافهة عن النساء قالها مُراد. تثاءبَ القطّ باكي وتمدّد. استمرّت هازال وياسمين في الرّقص. انتهت الأغنية. لكنّ كِنان لم يأتِ.

جلست ياسمين جنبَ إيمان، وارتمت هازال قربَ ناجي وهي تتنفّس بعمق. قالت إيمان لياسمين بالعربية:

- لماذا تركتِ أميركا من أجل تركيا؟

ردّت ياسمين بالإنجليزية:

- اشتقتُ إلى رائحةِ الشرق وأجوائه، لكنّني لم أشبع بعدُ من حرّية الغرب. إسطنبول هي المدينة الوحيدة التي يمكنُها أن تمنحَ لي حميمية الشرق وحرّية الغرب دفعةً واحدة.

في تلك اللحظة، وقعَ نظرُ إيمان على أليف وهي تقول شيئاً لمراد بالتركية. قالت بالعربية:

- هذا صحيح! هذا ما أحببته في إسطنبول بالضبط.

كان السُّكر قد بدأ يتمكّن من توبا. قالت وهي تضحكُ بانتشاء:

- لا يوجدُ في العالم كلّه مدينةٌ أجمل من إسطنبول!

كان نظرُ هازال متسمّراً على الباب. قالَ مراد متجاهلاً رفيقته:

- إسطنبول ستصبِح عمّا قريب بلداً عربياً. لقد أصبحنا نسمعُ العربيةَ في الشارع أكثر ممّا نسمع لغتنا التركية!

تناول تشتين قطعةَ جبن، ثمّ قال:

- أحبّ هذا الخليط العجيب من الجنسيات الموجودة في إسطنبول، وبالعكس، أرى أنه يثري المدينة ويزيدها جماليةً.

كانت أليف صامتة. أشعلتْ هازال سيجارة. جلسَ القطّ باكي على ركبتيّ أليف التي بدا عليها الانزعاج والقرف. قال مُراد:

- أظنّ أنّ كثرة الأجانب هنا، وخاصّةً العرب، ستفقدنا خصوصيتنا الثقافية.

قالتْ عائشة بمرح:

- عُنصري!

نظرت إيمان إلى مراد الذي كانت تهمسُ له أليف شيئاً في أذنه، واستطاعت، رغم صخب الموسيقى التركية التي شغّلتها هازال، أن تسمع كلمة «يابانجي» تخرج من فمِ أليف. فهِمتْ أنّها تقول عن الأجانبِ أشياء لا تريدُ أن يفهمها الأجَانب الحاضرون.

قالَ مراد بحدّة:

- لسنا عنصريين، نحن نحاول الحفاظ على خصوصياتنا فقط.

صاحَ تشتين:

- أي خصوصياتٍ تتحدّث عنها يا عزيزي؟ بيننا وبين العربِ مشتركاتٌ لا تعدّ ولا تُحصى.

قالَ مراد:

- مع احتراماتي للعربِ الحاضرين، منذ أن سمحَ أردوغان للسوريين بالمجيء إلى هنا ونحن نعاني من قلّة فرص الشغل... لقد استولوا على كلّ شيء، وبقيَ لهم أن يستعمرونا ويعلنوا اللغة العربية لغةً رسمية للبلاد.

تدخّل ناجي:

- أولاً، الحاضرون هنا من الأجانب ليسوا كلّهم عرباً، فأنا أمازيغية، ويمكنني أن أقول إن إيمان أيضاً ليست عربية بل شمال أفريقية، وبذلك تكون العربية الوحيدة الحاضرة هي ياسمين، مع أنّ ياسمين أيضاً ليست عربية مئة بالمئة، لأنّها عاشت في أميركا لأكثر من نصف عمرها، وتشبّعت بالثقافة الأميركية، ثمّ حصلت على الجنسية الأميركية وبذلك صارت تشكّل جزءاً من هويتها. التعميم ليس جيّداً يا سيّد مراد.

أومأت ياسمين مبتسمة.

احمرّ وجه مراد. قالَ مدافعاً عن نفسه:

- لا أعمّم، أمازيغ كنتم أو شمال أفريقيين، تظلّون عرباً في نهايةِ المطاف!

قالَ ناجي:

- هذا ليس صحيحاً. لا يمكنك أن تكونَ فرنسياً، وتظلّ أميركياً في نهايةِ المطاف!

قالَ مراد بعصبية:

- لا تحوّري كلامي!

تابع ناجي:

- استمعوا إلى هذه القصّة.. عندما كنتُ أسكن في أورتاكوي قبلَ سنة، كانت هناك امرأةٌ تركية مسنّة تسكنُ في الشقّة المقابلةِ لشقتي. كانت تنظرُ إليّ شزراً من رأسي حتى أخمص قدميّ كلّما التقينا صدفةً في باب المبنى أو في الدّرج، لم أكنْ أعيرها اهتماماً، لأنني كنتُ أشعر أنني إذا نظرتُ إليها، سوفَ تنهال عليّ ضرباً. تجاهلتُها طويلاً، لكنْ، ذات يوم، سمعتُ طرقاً قوياً على بابِ شقّتي، نظرتُ من الثّقب الموجود في الباب، فبدتْ لي واقفةً في الخارج، واضعةً يديها على نِصفها، مكشّرة، ورأسُها إلى الأمام مثل ثورٍ هائج يتأهّب للمصارعة. فتحتُ الباب رغم الخوف الذي راودني، وحمدتُ الله أنني أفهم التركية قليلاً وأستطيعُ تركيبَ جملة مفيدة. قالت المرأة بنبرةٍ همجية: «أينَ هي عيني الزّرقاء أيتُها الفتاة؟»، سألتُها بدهشة: «أيّ عينٍ زرقاء؟»، أجابت وهي تقتربُ منّي حتى كادت تدخل إلى البيت: «عيني الزرقاء!»، سألتُها باستغراب أكبر: «وكيف أعرفُ أين هي عينُك الزرقاء؟». اقتربتْ منّي أكثر. تراجعتُ إلى الوراء وتناهت إليّ رائحةُ فمِها المقرفة، قالت: «العين الزرقاء التي كانت معلّقةً على باب شقّتي! لا يسكنُ أحدٌ في هذا الطابق غيرُك أيتها الفتاة». استجمعتُ الكلمات حتى أستطيع تركيب جملة، وقلتُ لها: «ربّما سقطتْ، أو ربّما نسيتِ أنك أخذتِها وخبّأتِها في بيتك!». اقتربتْ منّي أكثر وبدأت تسبّ وتلعن بينما يتطايرُ اللعاب من فمِها. لم أفهم نصفَ ما كانت تتفوه به في تلك اللحظة، لأنّ كلماتِها كانت متداخلةً بشكل لا يُصدّق، كلّ ما فهمتُه منها هو أنّها تأكدت الآن أكثر من أي وقتٍ مضى أن الفتيات العربيات عاهرات وسارقات ومتخلّفات فعلاً، يهربن من بلدانهنّ ليمارسن العهر هنا ويسرقن الرجال الأتراك.

قالَ مراد بحدّة:

- لا يفكّر جميع الأتراك بهذه الطريقة! ثمّ إنكِ قلتِ إنّك لستِ عربية.. لماذا يُحزنكِ كلامُ هذه المرأة الفظة؟

ضحِك ناجي باستهتار، وشرِب من كأسِه.

قالَ تشتين:

- قبلَ سنوات، كنتُ أظنّ فعلاً أن جميع النساء العربيات مضطهدات وغير قادراتٍ على التحرُّر من قبضةِ المجتمع الذي يكبِتهن ويعيقُ قدراتهنّ، حتى تعرّفت إلى صديقاتٍ عربيات رائعات، واجهنَ المجتمع واستطعن التحرّر من قبضته، وصرن قادراتٍ على أن يكنّ مستقلّاتٍ مادياً ومعنوياً... بصراحة، تفاجأتُ كثيراً.

صاحت إيمان بدهشة:

- عجيب! ولماذا ظننتَ أنّ الأمرَ هكذا؟

قال تشتين:

- صورةٌ نمطية لا غير!

قفزَ القطّ باكي برشاقة من فوق الكنبة، وسارَ نحوَ ياسمين رافعاً ذنبه إلى أعلى، كأنه يريد المشاركة في النقاش. نظرتْ إليه هازال مبتسمةً بيأس. نطّ القطّ المدلّل في حضنِ ياسمين. قالتْ بسخرية وهي تمسّد رأسَه:

- هل تظنّون أن العربَ يعيشون داخل مجتمعاتٍ بدائية؟

قالَ تشتين:

- لم أقصد ذلك أبداً.

ثمّ التفتَ نحو زوجته التي كانت تتثاءب، وأضاف مدافعاً عن نفسِه:

- اسألي عائشة، أخبرتُها أكثر من مرّة أنّ كلّ شيء تغيّر في السنوات الأخيرة. بعد أن وصل أردوغان إلى الحكم أصبح الأتراك يشبهون العرب، بينما صار العربُ يشبهون الأوروبيين!

كانت هازال جالسةً متسمّرةً في مكانِها. أذناها غير قادرتَين على التقاط ما يُقال خلال السّهرة. عيناها غارقتان في الذكريات. عقلُها عاجزٌ عن الاندماج في الحاضر. في لحظاتٍ ما كانت تحاول التركيز، لكنَّ الماضي كان يجرّها إلى الوراء، كأنّما تغفو، أو تغرقُ باستسلام. تعودُ لتتيقّظ مرّةً أخرى، لكنّها سرعان ما تغفو مرّةً أخرى في ذلك الماضي المخدّر.

بخِفّة فراشة، نهضتْ. نفضت ذاكرتَها من بقايا صورِ كِنان. شغّلت أغنية «العيون التي توقظ لياليَّ» لزكي مورين. نهضَ ناجي أيضاً برفقة ياسمين ليعدّا طاولةَ العشاء. كانت آثار السّكر قد بدأت تظهرُ على الجميع. انتهت النقاشات حول القضايا الكبيرة والمواضيع الجادّة. ارتفعت الأصواتُ في البيت. تعالت الضحكات أكثر. ازداد تماهي الأجساد العرقانة مع ألحان الموسيقى. رقصَ مراد مع أليف، وجرّ تشتين زوجته للرّقص أيضاً. رقصَت هازال مع الجميع، بحماس أحياناً، ببهجة أحياناً أخرى، بحزنٍ في لحظاتٍ ما، بيأسٍ في الكثير من الأحايين. رقصت بنهم كأنّها ترقص لآخر مرّةٍ في حياتِها.

عند العاشرة، كانت طاولةُ العشاء جاهزة وعليها مختلف أصناف الطعام، سلطاتٌ، ملفوفُ ورق عنب، محشيّ الفلفل الأخضر، أرزّ باللحم... وحين كان الجميع يأكلون بلذّة وشراهة، كان نظرُ هازال لا يزال يلتفتُ صوبَ الباب في كلّ مرّة، متخيّلةً أنّ كِنان سيطرقه ويدخل. وكلّما توجّه نظرُها نحو الباب، كانت وتيرةُ نبضِ قلبِها تزداد، لدرجةٍ لم تكن قادرةً حتى على بلعِ الطعام.

حين انتهى العشاء، ظلّ الجميعُ متحلّقين حول الطاولة في انتظار كعكةِ الميلاد والشمبانيا. تذكّرت أنها قالت لكِنان في عيد ميلادِها الثامن والعشرين أنّها ستكون معه في كلّ أعياد ميلادِها المقبلة، حتى عندما ستبلغ الثمانين وتصبح مشيتُها مثل مشيةِ السلحفاة. ضحكا كثيراً

تلك الليلة، وقالَ لها إنه سيظلّ يحبّها بنفس القوة والجنون حتى عندما تبلغُ الثمانين وتصبح مشيتُها مماثلةً لمشية السلحفاة.

أطفأت هازال شموعَ الميلاد. صفّق الجميع بحماس. صفّر تشتين بحماس. شغّل ناجي أغنية «لا ترحلي، أحتاجُكِ» لزكي مورين. وزّعت ياسمين كؤوس الشمبانيا على الحاضرين. رقصَ تشتين ما يُشبه الفوكستروت مع عائشة بحبّ. تخلّصت هازال من حذائها، حملَت القطّ باكي حاضنةً إيّاه بحنان، وأخذت تتحرّك كأنها تراقصه. انضمّت إيمان برفقة مراد إلى حلبةِ الرّقص. انفلتَ باكي من حضنِ هازال وانصرفَ بأناقة. مدّ ناجي يدَه لهازال لترقُص معه. ضمّا بعضهما بحنان كأنهما حبيبان منذ الأزل. ارتمت أليف على الكنبة بخمول. تخلّصت توبا من حذائها أيضاً، وجلست على الكنبة تشربُ الشمبانيا وتتفرّج على أصدقائها وتثرثر بلا توقّف. عادَ باكي إلى البهو من جديد. شخرت أليف النائمة على مسندِ الأريكة وضحِك الجميع من ذلك.

كانت إيمان ثمِلة، وكانَ جسدُها ملتصقاً بجسدِ مراد. رأتْها هازال تنظرُ ناحية بابِ البيت بعينين ناعِستين كمن تنتظر أحداً بيأس. حوّلت عينَيها الملتمعتَين من الحزن ناحيةَ البابِ أيضاً وهي تتخيّل كِنان يدخل، ويأخذُها من بين يديّ ناجي، ويراقصُها.. يراقصها حتى تبلغ الثمانين وتصير مشيتُها كمشية سلحفاة.. يراقِصها إلى الأبد.

39

قرّرت أن تُشفى من الحبّ

تذكّرتْ إيمان شيئاً مهمّاً: زهرةُ التوليب. إنّها الوحيدة التي ستجعلُها تصلُ لكِنان. لو وجدتْ أمّه المختفيةَ منذ سنوات، سيكون هناك مبرّرٌ لرؤيته، بل إنه سيظلّ مديناً لها طوال حياته.

كان الطقس مشمساً ودافئاً في الخارج. ارتدتْ تنّورةً قصيرة عليها ورودٌ مختلفة الألوان، وقميصاً أحمرَ ملتصقاً ببطنِها النحيل وصندلاً مفتوحاً. جمعتْ شعرَها في ذيل حِصان، تعطّرت جيّداً، حملت حاسوبها في حقيبة الظهر، وخرجتْ من البيت متجهةً إلى بيه أوغلو.

جلسَتْ في مقهى Lumière دون أن تفكّر في كِنان. كلّ تركيزها منكبّ على «زهرة التوليب» وطريقةِ العثورِ عليها. فتحت الحاسوب ودخلَتْ إلى مدوّنة الكاتبة. ابتهجَ قلبُها وهي تنظر إلى غلافِ المدوّنة الورديّ المزركش بكلّ ألوان التوليب الأخرى. حملها الحنين إلى حياتِها في المغرب حين كانت تتابعها بوفاء وتقرأ كلّ جديدِها. لاحظتْ أنّ آخر قصّة للكاتبة نُشرت في الخامس والعشرين من ديسمبر الماضي، أي أنّها لم تنشر أيّ شيءٍ منذ حوالي ستة أشهر، ولم تدرِ لماذا فكّرت أنها ماتت.

في نهايةِ الصفحة، هناك خانةٌ كُتبَ عليها: تواصل معي. فكّرت أنّ هذه الوسيلة قد لا تجدي نفعاً، وأنّ كِنان قد يكون حاولَ مئات المرّات التواصل معها عبر هذا العنوان البريدي، ولم تردّ عليه. على

كلّ حال، هذا منطقيّ جداً ما دامَ أن زهرة التوليب هربتْ ولم تقرّر العودة بعد. لكنْ، لماذا ستترك عنوانَها هنا؟

مع ذلك، صمّمت على أن تجرّب. فتحت علبةَ رسائلِها، وكتبت:

إلى زهرة التوليب الرّقيقة،

أنا نبتةُ صبّار تائهة في مكانٍ ما من هذا العالم. أشعر بالغربة كوني أعيشُ في بلدٍ غير بلدي. تحمّلتُ، طوال حياتي، الكثيرَ من الحرّ، والكثيرَ من الجفاف، وظللتُ على قيدِ الحياة، لكنْ، جافّةً ومعذّبة. ثمّ جاءتْ كتاباتُك لتكون نسمةَ الهواءِ الباردة التي تنعش حياتي. عودي من فضلكِ.

مع محبّتي

نبتةُ صبّار

بعثت الرسالة، وأغلقت الحاسوبَ في الحال حِمايةً لنفسِها من ألم الانتظار. كانت مدركةً أنّ الزّمن لا يعني شيئاً. مجرّدُ فكرةٍ في رأسِ الإنسان، لا يستطيع التحكّم فيها إلّا إذا ضبطَ مشاعرَه، خاصّةً شعورَ الانتظار. لقد جرّبت الانتظار في أبشع صورِه خلالَ طفولتِها الكئيبة، حين كانت تجلس طوال ساعاتٍ على الكنبة بلا حركة تشاهد التلفاز. في ذلك الوقت كان الانتظار بالنسبة إليها، وحشاً مخيفاً، لأنّها لم تكن في انتظارِ شيءٍ معروفٍ ومُحدّد. كانت تعرف أنها ستقضي كلّ السّاعات القادمة من النهار جالسةً على الكنبة إلى أن يحين وقتُ النّوم. إنّ أمّها في الحقيقة هي التي درّبتها على التجلُّد في انتظار اللاشيء، لتصبحَ الآن هذه المرأةَ التي تجلِس في مقهىً لساعاتٍ طويلة في انتظار شخصٍ لا تعرفه وليست على موعدٍ معه.

في اللحظةِ التي أغلقت فيها الحاسوب، قرّرت أنّ عليها أن تُشفى

من هذا الشعورِ المدعوّ الانتظار حتى تتخلّص من ألمه وعذابه. كانت مدركةً أنّ ذلك يعني أن تقتلَ في داخلِها أمّها التي علّمتها انتظار اللاشيء، أن تقتُل في ذاكرتِها تلك الطفولة المشوَّهة التي أرغمتْها على أن تكون ما هي عليه الآن، أن تتخلّصَ من شخصيتِها الهشّة أمام الزّمن، وأن تبحث لها عن شخصيةٍ جديدة. كانت تعرِف أن الشخصيةَ لا تُباع في الأسواق، وأنّ بناء شخصيةٍ أقوى سيتطلّبُ منها فترةً طويلةً من الزّمن، لكنّها لم تكن يوماً مصمِّمة كما هي الآن وهي جالسةٌ في مقهى Lumière، تفكّر في طريقةٍ للعثور على زهرة التوليب.

بعدَ شهر، كانَ عددُ المرّات التي تفقّدت فيها إيمان علبةَ رسائلِها قد تجاوزَ الألْف مرّة. ذهبتْ إلى مقهى Lumière ثلاثين مرّةً بحثاً عن كِنان. تفرّجتْ على الأشياءِ الموجودةِ فيه بلا ملل. رأتْ كِنان في كلّ الأماكن، وتخيّلت وجهه في كلّ الوجوه، وقبّلته في شارعِ الاستقلال أيضاً.

كان العشق أغلى ما يملكان

استيقظَ خالد عند منتصف الليل. كانَ جسدُه عرقان بفعلِ الحرارة المرتفعة والطقس الخانق في إسطنبول الذي يستمرّ منذ بداية يوليو. توجّه إلى الحمّام بخطواتٍ بطيئة وهو بين النّوم واليقظة، بينما كان شخيرُ إيمان الرّتيب يتناهى إلى سمعه.

خرَج من الحمّام. كانت شفتاه جافّتان ومتشقّقتان. توجّه نحو البهو. وبينما كان يشربُ كوبَ ماء قبلَ أن يعود إلى النوم، لاحظ أنّ حاسوبه من نوع آبل لم يعُد موجوداً على الطاولة، ولا حتى هاتفه النقّال من نوع آيفون، ولا حتى حاسوب إيمان. ارتفعت الحرارةُ في جسده أكثر. عادَ إلى غرفةِ النوم من جديد ليبحثَ عن هاتفه، أشعل ضوء الأباجورة حتى لا يوقظ إيمان. لكنّه لم يجد شيئاً في الغرفة أيضاً، ولا تحت المخدّة، ولا تحت السرير. عادَ إلى البهو مسرعاً، وبحثَ عن الهاتف تحت كومةِ أوراق موضوعة على الطاولة، وتحت وسادات الكنبة، وتحت الكنبة، لكنّه لم يجد شيئاً. توجّه نحو بابِ البيت ليتأكّد أنّه أغلقه جيّداً بالمفتاح قبل أن يخلدا إلى النوم، لكنّ البابَ لم يكن مغلقاً بالمفتاح.

ركضَ نحو غرفةِ النوم من جديد غير مصدّقٍ لما حصل. كان قلبه ينبض بقوة، وشعرَ أن حرارةِ جسده كلّها تركّزتْ داخل أذنيه في تلك

اللحظة. حرّكَ إيمان محاولاً إيقاظها. توقّفت عن الشخير للحظة وهي تقول كلاماً غير مفهوم، ثم عادت للشخير مجدّداً.

قال لها وهو يهزّ جسدَها بقوة:

- إيمان، أظنّ أن بيتنا سُرِق.

فتحتْ إيمان عينيها مرعوبة. أشعلَ خالد الأضواء. نظَرتْ إليه بدهشة، قبل أن تقفز من السّرير بسرعة متّجهةً نحوَ درج المنضدة الذي تضعُ فيه أشياءَها الثمينة: طقمُ ذهب يتألّف من خمسِ قطع: عقدٌ وسوار وخاتم وأقراط، كانَ أهداه لها خالد يومَ زواجِهما، بالإضافة إلى خاتمِ الزّواج الذهبي المرصّع بالماس، وعقدٍ رفيعٍ من الذهب كانت اشترته لها أمّها يوم ميلادِها الخامس والعشرين، ومبلغٌ مالي قدرُه ألف وخمسمئة دولار، هو حصيلةُ عملِها مع موقع «تونس بريس»، وبعضُ الحليّ الفضّية التي اشترتْها خلالَ رحلاتِها إلى جنوبِ المغرب، أغلبُها أقراطٌ تحمِل رموزاً وحروفاً أمازيغية.

فتحتِ الدرج بيدَين مرتعشتَين، وقلبٍ يكادُ يتوقّف من الرّعب. مرّرت يدها تحتَ أوراق عقدِ الإيجار وعقدِ عملِ زوجِها. سحبتِ الأوراق كلّها ورمتها على الأرض، ثمّ راحت تحدّق في الدرج الفارغ متسمّرةً في مكانِها من الصدمة.

ضرَب خالد جبينه بكفّه، وضربَت إيمان رأسَها إلى المنضدة. قالَ خالد:

- أين هاتفُك؟

تحرّكت إيمان بصعوبة من شدّة الصدمة. أدخلت يدَها تحت المخدّة. سحبت الهاتف ومدّته لخالد. جحظت عيناها كأنّهما ستنفجران، ثمّ صاحت:

- ماذا سنفعل؟

نظرَ إليها في حيرة، وحين التقتْ عيناهما، وقعتْ على الأرض مطلِقةً صرخةً قوية. اقتربَ منها محاولاً تهدئتها. بدأتْ تبكي بهستيرية وهي تردّد:

- لقد سرقوا منّي حياتي! سرقوا حياتي يا خالد!

قال خالد وهو يحاول أن يحضنها بلا جدوى:

- لا تقلقي، إذا بلّغنا الشرطةَ الآن، قد يعثرون على السارق ونسترجع ممتلكاتِنا.

صرخت إيمان:

- كيف سنتكلّم معهم؟

ثمّ دخلت في نوبةٍ بكاءٍ من جديد.

فكّر خالد أنّ نجوى هي الوحيدة التي تستطيع مساعدتهما، لأنها تفهم اللغة التركية. اتصلَ بها، لكنّ الهاتفَ كان يرنّ في الجانب الثاني من دونِ جواب. شعرَت إيمان باليأس. لم تكن قادرةً على التفكير، ومع ذلك استجمعت قوتها ونهضت:

- هاتِ التلفون، سأتصل بهازال.

وصلتْ هازال عند الثانية بعد منتصف الليل. ارتمت إيمان بيأسٍ في حضنها، قبلَ أن يخرجَ الثلاثةُ متوجّهين إلى دائرة الشرطة.

وطوال الطريق، كانت إيمان تُكرّر ترديدَ ما سُرِق منهما: حاسوبان وهاتف من نوعِ آيفون وطقمُ ذهب متألّف من خمسِ قطع وخاتمٌ مرصّعٌ بالماس وعِقد رفيعٌ من الذّهب والكثيرُ من الحليّ الفضّية وألف وخمسمئة دولار.

قالتْ هازال بأسفٍ واضح:

- يا الله! كيف حصلَ ذلك؟

قالَ خالد:

- لا نعرِف، استيقظتُ في منتصف الليل لأشرب ماءً، ولاحظتُ أنّ الحاسوبَ غير موجود...

قاطعته إيمان بصوتٍ متقطّع:

- لم نشعر بأيّ شيء!

التفتت إلى خالد وأضافت:

- لماذا لم نشعر بأيّ شيء؟

كانت ملامِحها متعبة، ووجهها مبلّلاً بالدموع، أمّا خالد فقد كان يلهث مثلَ كلبٍ عطشان. قالت هازال:

- اللصوص في إسطنبول محترفون جدّاً، إنّهم يرشّون في الهواء مواداً تسبّب فقدان الوعي، حتى يستطيعوا القيام بأفعالهم الشنيعة دون إزعاج.

في قاعةِ الانتظار بدائرة الشرطة، كانت تجلسُ امرأةٌ تركية محجّبة تبدو في عقدِها الخامس، ومعها فتىً مراهق يبدو أنّه ابنُها. كانَ أنفُ المراهق يسيلُ دماً، ووجهه مليئاً بآثار ضربٍ، بالإضافة إلى ندوبٍ قديمة. يبدو أنّ هذا الولد المكشّر قد دخَل في شجارٍ كبيرٍ مع أحدِهم، وجاءتْ به أمّه ذات السّحنة السّمراء اليائسة كي تشتكي ممّن ضربه. قُبالة إيمان مباشرةً، يقفُ رجلٌ ذو ملامح عربية، وهو يضربُ الأرضَ بقدمه بوتيرةٍ تسبّب التوتّر. كانت إيمان تشعر كأنّ ذلك الصّوتَ يأتي من داخلِها. حضنَها خالد بحنان وهو يردّد: «لا تقلقي، ما زال هناك أمل»، بينما كانت هي تفكّر، في خضمّ الإحباط المحيط بها، أنّ هذا الرّجل لم يوفّر لها الحمايةَ التي ادّعى أنّه سيوفّرها لها قبل أن يتزوّجا. كانت تبحث عن أيّ مبرّرٍ لتكرهه أكثر.

وفي اللحظةِ التي ابتعدتْ عنه فيها بسخط، خرجَت من مكتب الضابط امرأةٌ مسنّة ترتدي فستاناً مزركشاً وتغطّي نصفَ شعرِها الأبيض بطرحةٍ مزيّنةٍ بورودٍ مختلفةِ الألوان. لم تستطع إيمان أن تخمّن ماذا

يمكن أن تكون امرأةٌ مثلها تفعلُ هنا، لكنّها كانت تعرف أنّ العالمَ يغصّ بالكوارث التي لا يمكنها حتى أن تتخيّلها، وأنّ ثمّة أشخاصاً تحصلُ لهم مصائبُ أكبر من المصيبة التي وقعَت فيها.

دخلتْ برفقةِ خالد وهازال إلى مكتبِ الضابط. كان الضابطُ هو كِنان نفسه! وحين تقدّمت إلى الأمام وهي تحدّقَ جيّداً بعينَين متعبتَين تحيطُ بهما هالاتٌ سوداء، اكتشفت أنّ الرّجل أمامَها ليسَ كِنان بل لا يشبهه أبداً.

جلسَت إيمان وهازال على كرسيَّين متقابلَين أمام مكتبِ الضابط، بينما ظلّ خالد واقفاً. وعندما كانت هازال تقوم بوظيفة المترجم وتحكي للضابط ما حصل لصديقيها بالتركية، كانت إيمان تحدّق في وجوم في تقاسيم وجه الضابط. كان يشبه الفيلسوف نيتشه بشاربه الكثّ وذقنِه المحلوق وشعره الكثيف الناعم وزاويتَي وجهه الحادّتين.

كان الضابط يحرّك رأسَه مستمعاً إلى ما تقوله الفتاة، وهو يداعب شاربه ويطرحُ بعضَ الأسئلة المرتبطة بالسّرقة التي حصلت، مثل قيمةِ الأشياء التي سُرِقت وشكلِها ونوعِ الحاسوبَين والهاتف. كانَ ذلك مستفزّاً لخالد، خاصةً عندما بدأ الضابط يرقن شيئاً على حاسوبه وهو يدندن بأغنيةٍ تركية غير عابئ بأيّ شيء، ويرمق الزوجَين بين الفينة والأخرى شزراً.

سألَ الضابط هازال بنبرةٍ لا تشي بالاهتمام، إذا ما كانت هناك كاميراتٌ في المبنى. أجابَ خالد أنّ هناك كاميرا مثبتة في الحائط فوقَ بابِ الشقّة، وأنّه سيكون من السّهل التعرُّف إلى هوية اللصوص إذا لم يكونوا يرتدون أقنعة.

لم يكترث الضابط لهذا الكلام الذي ترجمته له هازال. طلبَ منها مرّةً أخرى أن تسألهما إذا كانا يشكّان في أحد. أجابَ الزوجان بالنفي.

حرّر الضابط الشكاية، وأخذَ رقم هاتفِ خالد، ثمّ قال إنه سيبعثُ المحقّقين ليطّلعوا على الكاميرات الموجودة في المبنى.

أثناء خروجِهم من الدائرة، قالت هازال بسخريةٍ مرّة:

- أرجو ألّا تنتظرا شيئاً منهم، لأنّهم لن يفعلوا أيّ شيء.. ستودعُ الشكاية في رفوفِ الانتظار، ولن يتّصلوا بكما.

قالت إيمان بصوتٍ ضعيف لا يكادُ يُسمَع:

- لماذا؟

طوّقها خالد بذراعه، وقال بيأس:

- كأنّكِ عندما تعرّضتِ للسرقة في بلدكِ آخر مرّة استطعتِ استرجاع حقّك! إنّهم لا يفعلون شيئاً غير تحرير الشكايات...

قاطعته هازال:

- للأسف، الأمرُ ليس كما تتخيّلان. هنا لا يأخذون شكاياتِ الأجانب على محملِ الجدّ، لأنّهم يعرِفون أنّ هؤلاء في الغالب، لا يتكلّمون اللغة التركية، وبالتالي يتعبون بسرعةٍ في الرّكضِ لاسترجاع حقوقهم وتتبّع ملفّاتهم...

كانَت الساعة تشيرُ إلى الرابعة صباحاً، وكانت أزقّة بشكتاش الخلفية مظلمةً وصامتة، فارغةً إلّا من القططِ التي تتحرّك مختبئةً وسطَ مكبّاتِ النفايات. سارتْ إيمان مثل جثّة، جاحظةَ العينَين، منفوشةَ الشعر مثل بقايا دميةٍ ناجيةٍ من قصف. أمّا خالد، فقد كانَ يمشي صامتاً، شاعراً بالعجز، كمن يمشي في جنازة. لم تشأ أن تمسك يدَه، ولا أن تتركَه يسيرُ مطوّقاً إياها بذراعه. كان ضعفُه إزاء ما حدث يعمّق شعوره بالألم، فيرغبُ أكثر في الاقترابِ منها وإلصاقِ جسدِه بجسدِها، كما يفعلُ المحبّون حينَ تصيبهم مصيبةٌ ما. كانَ هناك جزءٌ في كلّ واحدٍ منهما يريدُ الإمساكَ بذلك اللصّ الجبان الذي سرقَ منهما أغلى ما كانا يملكان: الحبّ. وكان هناكَ جزءٌ آخر في داخل كلّ واحدٍ

منهما يعرفُ جيّداً أنّ اللصّ موجودٌ في داخلهما، يعيشُ معهما في نفس البيتِ، ويرقدُ بينهما في الفراش.

قالت هازال وهي تنظرُ إلى الأرضِ أمامَها:

- ثمّ إنّ لصوص إسطنبول الجبناء يتجرّؤون أكثر على اقترافِ جرائمهم عندما يتعلّق الأمر بأجانب. أظنّ أنّ من فعلَها يعرفكُما جيّداً، ويعرفُ أنّكما لا تعرفان التركية!

41

الغربة

في الأيام التي أعقبت السّرقة التي تعرّضَت لها شقّة خالد وإيمان، صارت الحياة في إسطنبول بالنسبة إليهما لا تُطاق. لدرجة أن خالداً الذي لم يكن يحتمل العودةَ إلى المغرب، أصبَح يشتاق إلى الدار البيضاء وإلى بيتِ والدَيه، وأصبح يتكلّم كثيراً عن الغربة وعن العودةِ يوماً ما. كان شعورٌ قويّ بالاغتراب وعدم الأمان يراود الاثنين، كأنّهما اضطرّا للهروبِ من حرب عبر سلوك طريقٍ أكثرَ خطورةً من الحربِ نفسِها.

أصبحَ البقاء في البيتِ لوقتٍ أطول هو الحلّ الوحيد من أجلِ عدم التعرّض للسّرقة مرّةً أخرى. وعندما كان خالد يذهب إلى العمل، كانت إيمان تتأكّد في كلّ مرّةٍ أنّ البابَ مغلقٌ بإحكام من الداخل. تغلقه بالمفتاح، ثمّ تذهبُ إلى الشرفةِ لتكتب، ولا تستمرّ وقتاً طويلاً حتى تعود لتتأكد إن كان مغلقاً فعلاً أم لا، ولتطمئنّ أنّ أحداً لم يدخل، وأنّ كلّ الأشياء لا تزال في مكانِها.

ومع مرور الأيام، ركِبهما ذعرٌ مرضيّ، وصارَ كلّ ساكنةِ المبنى متّهمين في قضية السّرقة هذه: الفتاةُ التركية الشابّة التي تسكنُ معهما في نفس الطابق والتي تبادلُهما التحية والابتسامة كلّما التقيا معها صدفةً في المصعد أو قرب باب المبنى أو مدخل الشقّة. الزوجان التركيان اللذان يسكُنان في الطابق الثالث وابنتُهما غريبةُ الأطوار، التي أصبحت

إيمان تشتكي لخالد من نظراتها المشبوهة بلا توقّف، فهذه الفتاةُ السّمينة من ذلك النّوع من الناس الذين ينظرون ويطيلون النظر في الآخرين دون أن ترمشَ لهم عين، ولا يمكن أن يحزرَ أحدٌ ماذا يدور برؤوسهم. الشابّ ذو الذراعَين الموشومَين والذي لا يعرفان في أيّ طابقٍ يسكن ولا ماذا يفعل في حياته، أيضاً في قائمةِ المشتبه بهم. والبوّاب وزوجته، اللذان أتيا يومَ الحادثة مبديين أسَفهما وحسرتَهما وهما يردّدان «يا الله! يا الله!» بلكنةٍ تركية، أيضاً مشتبهٌ بهما. حتى البقّال الذي اعتادت إيمان على اقتناء كلّ حاجياتها من عنده مشتبهٌ به، بل إن إيمان قاطعته مقاطعةً تامّة، وأصبحت تشتري مستلزماتِ البيتِ من عند بقّالٍ آخر، ولم تعد تردّ حتى على تحيته.

الخلاصةُ التي خرج بها خالد وإيمان من هذه التجربة هي أنّ كلّ أولئك الذين يبادلونك التحية ويبتسمون في وجهك في بلدٍ غير بلدِك هم مشاريع لصوص، يطبخون لكَ مصيبةً على نارٍ هادئة، وينتظرونَ موعدَ التنفيذ.

كانتِ الأيام التي يمرّان بها متوتّرةً أكثرَ من المتوقّع. أصبحَ خالد يكره الأتراك ولغتَهم وكلّ ما يرتبط بهم، بل إنّه بدأ، شيئاً فشيئاً، يفكّر في الرّجوع للعيش في المغرب. كانت هناك بذرةُ فكرةٍ صغيرة بالعودة تنمو في عقله رغماً عنه. كلّ ما كان يصبّره على البقاء هو ذلك الحلم بشراء شقّةٍ يوماً ما، وعدم الاضطرار إلى دفعها بالتقسيط طوال ما تبقّى من سنواتِ حياته.

أمّا إيمان، فقد عادت إلى قضم أظافرها من جديد، ولم تعدْ قادرةً على الكتابة. مرَّ عشرون يوماً دون أن تستطيع كتابةَ حرفٍ واحد. كان يراودُها شعورٌ عميق بأنّ كلّ المجهود الذي تبذله كي تمتلك شيئاً.. أيّ شيء، يذهب سُدىً، وكان اليأسُ يتسرّب إلى أعماقِها ببطء مثلما تتسرّب قطراتُ الماء من صنبورٍ معطّل. كأنّ ذلك الحلم بأن تكون

مستقلّةً يوماً ما وتتخلّص من هذه الحياة المريضة كان مجرّد رغبةٍ هشّة كجناحَي فراشة، وصارتْ مقاومةُ اليأس الذي يستبدّ بها كلّ يوم مهمّةً مستحيلة.

لكنّهما فهِما الآن ما معنى الغربة.

* * *

ذات مساء، كانت إيمان جالسةً قبالة خالد يتناولان العشاء في وجوم. صمتٌ ثقيلٌ لا يكسّره سوى ضجيجُ السّيارات والناس القادم من الشارع. صمتٌ تنبعثُ منه رائحةُ الحِقد والحذرِ والرّيبة.

قالَ خالد محاولاً الهروب من ذلك الصّمت الخانق والمخيف:

- حصلَ نبيل اليوم على جائزة أحسن تقرير صحافي عن مقالٍ حول المصريين المنفيين خارج الوطن.

قالت إيمان من دون حماس:

- جميل. مبروك.

تابع خالد:

- يتناول التحقيق قصصَ العديد من الشباب الهاربين من مصر بسبب الأحكام القاسية التي صدرتْ ضدّهم هناك.

قالت إيمان دون أن ترفعَ رأسها عن طبقها:

- جيّد.

قالَ خالد:

- طائرةُ أمّي بعد يومَين. الحمدُ لله أنّ مجيئها تصادف مع هذه الفترة التي نحتاجُها فيها.

توقّفت اللقمة في حلقِ إيمان. بلعتْها بصعوبة، ثمّ قالت:

- مرحباً بها! لكنّني في هذه الفترة سأكون مشغولةً جداً، لذلك لن أستطيع الترحيب والاعتناء بها كما ينبغي.

قالَ خالد مبتسماً في ارتياح:

- هي التي ستعتني بنا.

وأضافَ بعد أن بلعَ لقمةً من الخبز المحمّص:

- تعلمين؟ إنّها تصرّ علينا أن ننجبَ أطفالاً يؤنسوننا في هذه الوحدةِ القاتلة.

رفعَت إيمان رأسَها عن الطبق، ورشقَت ابتسامةَ زوجِها البليدة بنظرةِ حقد، ثمّ صاحت:

- هذه أنانية!

صمتتْ قليلاً ثم أضافت بعصبية:

- ثمّ إنني لا أفهمُ لماذا تصرّ بعض النساء دائماً على التدخُّل في فروجِ وأرحام كنّاتهنّ!

أرجَع خالد كرسيّه إلى الوراء بعنف، ونهض. وحين صار واقفاً، رفعتْ إيمان عينَيها نحوه وقلبُها ينبضُ بشدّة. صرخ:

- هذا يكفي! أعرفُ أنك لا تريدينها أن تأتي، لكن هذه أمّي، وستتحمّلينها رغماً عن أنفك!

أجابت إيمان بهدوء مستفزّ وهي تملأ ملعقتها بالحساء:

- لن أسمحَ لها بالتدخُّل في حياتي.

تناولَت ملعقةَ الحساء، ثمّ سمِعَت ارتطامَ الكرسيّ بالأرض بعنف. لكنّها ظلّت متسمّرةً في مكانِها، تتناول الحساء، كأنّ شيئاً لم يكن.

القرط الفيروزيّ الجميل مرّةً أخرى

استيقظَ كِنان على طرقٍ قويّ على الباب. كانت السّاعة تشير إلى الثانية عشرة ظهراً، وكان رأسه ثقيلاً كصخرة. ساقاه المتمدّدتان أمامه غير قادرتَين على الحركة كأنّهما وقعتا في مصيدة. بجانبه امرأةٌ شقراء تشخرُ فاتحةً فمها الكبير الذي تفوح منه رائحة الكحول البائت، النّصفُ السفلي من جسدِها مغطّىً بشرشفٍ أبيض، بينما ظلّ النصف العلوي عارياً. تطلّع إلى نهديها الضخمين والنّافرين بقرف، ونهض.

لم يستطِع استرجاع أيّ شيءٍ من الليلة الماضية، لأنّ لا شيء مهمّاً حدث. فقط كمّياتٌ كبيرةٌ من الكحول، قُبَلٌ محمومةٌ يتبادلُها جسدان متعرّقان، ثمّ مضاجعةٌ شرِسة تشبه تناطح ثورين هائجين.

ارتدى بنطالَه الذي كان مرمياً على أرضية البهو وفتَح البابَ بعينَينِ نصفِ مغمضتَين. كان البوّابُ واقفاً أمامه يحدّق به بدهشة ويبتسم.

قالَ كِنان بعصبية:

- ماذا هناك؟ لماذا ترنّ منذ الصّباح؟

مدّ البوّابُ يدَه لكِنان وهو يعطيه كيساً ورقياً صغيراً، وقال:

- جاءت تلك الفتاة التي كانت تعيشُ معك هنا، وطلبتْ منّي أن أعطيكَ هذا.

أمسَك كِنان الكيس في يدِه بدهشة واستغراب. ثمّ تناهى إلى

الرِّجْلَين صوتٌ أنثوي مِغناج من داخل الغرفة يقول: «كِنان.. حبيبي.. أينَ أنت؟» التقت عيناهما، وابتسم البوّاب المُسِنّ بمكر.

أغلقَ كِنان الباب دون أن يشكره. كان هذا البوّاب يستفزّه بشكلٍ لا يُطاق.

متجاهلاً الشقراء التي تناديه من الغرفة كأنّها تتأوّه، توجّهَ نحو البهو، وجلسَ وهو يفتحُ الكيس بفضول. قرطان صغيران فيروزيا اللون كان قد أهداهُما لهازال في عيد ميلادِها السّابع والعشرين. ارتعشَ جِسمه وانقبضَ قلبه، ثمّ شعرَ من جديد بكُرةِ الألم تتكوّن داخل بطنه وتكبر رويداً رويداً. تنفّسَ بعمق محاولاً طردَ الألم باستدعاء كلّ تلك الذكريات الجميلة المرتبطة بهذَين القرطَين.

اشترت والدةُ كِنان القرطَين عامَ 1997. كانت تسيرُ في شوارع حي نيشان طاش مع ابنِها ذي الثماني سنوات، يتفرّجانِ بانبهار على واجهات المحلّات ويشتريان ملابس وأغراضاً للبيت. وحينَ وقعَ نظرُها على القرطَين الفيروزيي اللون، انفتح فمُها وترقرقت عيناها. دخلت في الحال إلى المحلّ تسألُ عن ثمنِهما. كانا مجرّد قِرطَين رخيصَين من الفضّة مزيّنين بحبّتي عقيق فيروزيتي اللون. لكنّ قيمةَ الأشياء لا تُقدَّر بغلاء ثمنها ولا بالأحجار الكريمة التي تزيّنها، بل بالتجارب التي صحِبتْها والتاريخ الذي رافقَها. إن تلك اللحظةَ التي عاشها كِنان في ذلك اليوم المشمس من عام 1997، بكلّ ما تحتويه من تفاصيل، هي التي جعلت القرطَين نفيسَين في نظرِه.

ملمسُ يدِ أمّه في يدِه. تلألؤ الشمسِ في شعرِها النّاعِم. فُستانُها الأزرق السّماوي الهادئ. انعِكاسُ صورتِها في الواجهةِ الزجاجية للمحلّ. شفتاها المنفرجتان. لمعانُ عينَيها. الخُطوَة الأولى التي خطتْها داخلَ المحلّ. الرّائحةُ التي تناهت منها عندما تحرّكت بسرعة مستديرةً نحوَ المرآة لترى شكلَ القرطَين في أذنيها. رأسُها المرفوع،

وقعُ خُطواتِها وهي تمشي في الشارع منتشيةً بنفسِها، كأنّها تريد للعالم كلّه أن يرى قِرطَيها الجديدَين. كلّ الأشياء التي تضيعُ منّا في الحياةِ قابلةٌ للاسترجاع، حتى المشاعر العظيمة كالحبّ والسّعادة. الشيء الوحيد الذي نخسرُه فعلاً هو اللحظاتُ الجميلةُ التي تمضي. ولأنّ قيمةَ الأشياء تُحَدّد بالنظرِ إلى قابليتِها للخسارةِ إلى الأبد، فإنّ تلكَ اللحظةَ التي ارتدت فيها والدةُ كِنان القِرطَين لم يكن لها ثمن.

بالإضافة إلى الولَع بالكتابة، كانت والدةُ كِنان مغرمةً بالأقراط أيضاً. جمعَت أعداداً كبيرةً منها، من مختلَف الأشكال والأحجام والألوان. وعلى الرّغم من أنّ هذه الأقراط لم تكن ثمينة، إلّا أنّ زينب كانت تستمتع بارتدائها كأنّها سُلطانةٌ تلبسُ أغلى المجوهرات. بل إنّها اختارت لكلّ حالةٍ من حالاتِها النفسية شكلاً وحجماً ولوناً خاصّاً. في الأيام العادية، كانت ترتدي قرطَين فضيَّين صغيرَين، وفي المناسبات الخاصّة أقراطاً ذهبية اللون مستطيلةَ الشكل متوسّطةَ الحجم. أمّا في أيام الحزن فيلازِمها قِرطان فضّيان على شكلِ قطرتين تزيّنهما حجَرتان زرقاوان فاتحتان، كأنّهما دمعتان انعكسَ فيهما لونُ السّماء. في أيّام البهجة، ترتدي أقراطاً وردية على شكلِ قلوب أو ورود، كأنّ الفرح يُعيد إليها طفولتَها. وفي الأيّام التي تزورها نسوةُ العائلة أو الجاراتُ الثرثارات والنمّامات اللواتي لا يحببنها ولا تحبهنّ، ترتدي قرطَين صغيرَين على شكلِ حبّتي عقيق حمراوتا اللون. لونٌ عُدوانيّ وعنيف ودمويّ. كأنّما لتعبّرَ به عمّا لا تستطيعُ فِعلَه، ولتُعلِن به موقفاً ضدّ هؤلاء النّسوة اللواتي لا تستسيغهنّ.

أمّا حالاتُ السّعادة العميقة والخالصة، تلك الحالاتُ التي تجعلُ الإنسان مبتسماً دون أن تنفرِج شفتاه، لأنّ عينَيه في الواقع، هما اللتان تبتسمان، هذه الحالاتُ تجعلُ زينب تختارُ القرطَين الصغيرَين فيروزيي

اللون. اللون الفيروزي بالنسبة إليها، هو لون السّعادة لأنّه مزيجٌ بين لونِ سماءٍ صافية ولونِ مرجٍ أخضر بهيج. الفيروزيّ هو لون البوسفور، لونُ زينة المِعمار العثماني. الفيروزيّ باختصار هو التصاقُها بمدينة إسطنبول.

لكنّ زينب لم تأخذ معها القِرطَين عندما غادرت البيت. كأنّ سفرَها الأخير استدعى أن تتركَ وراءها سعادَتها وابتسامةَ عينَيها وصدى ضحكاتها وكلّ حالاتِها النفسية الأخرى. بقيت الأقراطُ في صندوقٍ خشبيّ صغير مخبّأ في الدولاب، وظلّت كلّ أشياء زينب في مكانِها، حتى جاءت زليخة.

في غرفةٍ صغيرة بالبيت، غرفةٍ مظلمة ورطبة وبلا نافذة، حيثُ تُرمى الأشياءُ القديمة والمعطّلة، رمَت زليخة فساتين زينب ومعاطفها وأقراطَها ومشابِك شعرها. جمعتها في حقيبةٍ بنّية عتيقة، وألقت بها قربَ كرسيّ مكسور وطاولةٍ عرجاء وآلةٍ كاتبة معطّلة ولوحاتٍ فنّية غير مكتملة. ظلّت الحقيبة في تلك الغرفة طوال ستة عشر عاماً، دون أن يقترب منها أحد. حتى كِنان نفسُه، لم يجرؤ يوماً على الاقترابِ من تلك الأشياء. كان يخافُ تطايُرَ غبارِ الحنين، ويخشى فتحَ الجروح العتيقة في الروح. لكنْ، بعد وفاة أبيه، وانتقال زليخة للعيش في شقّةٍ جديدة، اضطرّ كِنان إلى أخذِ الحقيبة معه، بالإضافة إلى بعضِ لوحاتِ والدِه قبل أن يسلّم مفاتيحَ الشقّة لصاحبِها.

ظلّ القرطان مع كِنان طوال الوقت، مخبّئَين في درج منضدةٍ صغيرة في غرفةِ النّوم. لم يستطِع سحبَهما ولا النّظرَ إليهما ولا لمسَهما، حتى جاءت هازال. وفي اللحظةِ التي وضعت فيها أصابِعها فوقَ اللوحةِ التي رسمَها لوالدتِه، ثمّ أخذت تنتقل بين اللوحات مثلَ فراشةٍ تتنقّل بين الزّهور، قرّر أن يكون هذان القرطان لها.

* * *

كانت كرةُ الألمِ التي تكوّنت داخل بطنه قد كبُرت وملأت جِسمه كلّه. بعصبية، رمى القِرطَين على الطاولة. وحين رفَع رأسَه، كانت المرأةُ الشقراء واقفةً أمامَه عاريةً، تحدّق فيه بدهشة.

قالتْ وهي تنظر إلى القرطَين:

- هل من خطب؟

لم يردّ. انحنَت وأمسكت أحدَ القرطين في يدِها بقوة، ثمّ قالت بنبرةٍ حادّة:

- ما هذا؟

قال بسخرية:

- خاتم!

مكتبة
t.me/t_pdf

قالت بحنَق:

- لِمن هذا القرط؟

قالَ بهدوء:

- لأمّي.

أرجعت القِرط إلى مكانِه وقالت وهي تتوجّه نحو غرفة النوم:

- أنتَ تسخرُ منّي! سأذهب الآن.

صرخ:

- نور.. انتظري!

توقّفت في الدهليز المؤدي إلى غرفة النوم، دون أن تلتفت. مشى كِنان نحوَها بقدمَين ثقيلتَين كأنّه لا يريد أن يصِل إليها. توقّع أنّ غيابَه عن حفلةِ ميلاد هازال سيجعلُها تلحّ في التواصل معه، لكنّ الواقع أنّها أرجعت القرطَين، وهذه إشارةٌ إلى أنّ كلّ شيءٍ قد انتهى فعلاً.

في عتمة الدهليز، احتضنَ نور وطوّق خصرها، ملصقاً صدرَه إلى ظهرها. شمّ رقبتها بعمق وألم. كان يبحثُ فيها عن رائحةِ هازال التي فقدَها إلى الأبد.

43

تركيا أفضل بلدٍ في العالم!

منذ أن جاءت إلى إسطنبول، لم تتوقّف زهور عن المشي داخل البيت ذهاباً وإياباً، متفقّدةً كلّ شيء، ومتسائلةً عن كلّ شيء: لماذا ليست لديكم قنّينة غاز؟ لماذا لم تضعا الكنباتِ في مكانٍ آخر بحيث تكون متقابلةً مع النافذة؟ ألا تفكّران في صالونٍ بطرازٍ مغربي؟ هل تنظّفين الحمّام يومياً؟ لماذا لم تشتريا طاولةَ طعام تتسع لستة أشخاص؟ لماذا لا تفتحان النوافذ كي تتخلّصا من رائحة السّجائر الخانقة؟ هل تخرجان كثيراً؟ هل تطبخان طعامكما في البيت أم تأكلان في الخارج فقط؟

كانت تسيرُ في البيت مثل دجاجة تريد أن تبيض. تمرّر يدَها فوق الأريكة، تزمّ شفتَيها وتمسحهما بطرف طرحة رأسها، ثم تفتح عينَيها تعبيراً عن الاندهاش، حتى لو لم يكن هناك شيءٌ يستدعي الدهشة. تتكلّم طوال الوقت عن تصاميم البيوت التركية كما رأتْها في المسلسلات، وعن جمالِ إسطنبول، وعن الملابس التركية. وبين كلّ موضوع وآخر، تقول إنّ كلّ التقدّم الذي وصلت إليه تركيا اليوم هو بفضل أردوغان، وأنّها حلمت دائماً بالمجيء إلى هذا البلد من أجل اقتناء ملابسَ وعباءات تركية أصلية. تكرِّرُ هاتين الجملتَين عشرات المرّات في اليوم. وكلّما فتحت فمَها لتتكلّم، كانت إيمان تشعرُ

بالقرف، ليس لأنّها ملّت من مواضيع حماتِها، بل لأنّها تكره حماتَها بكلّ بساطة.

كانت المرأتان تجلسان في البهو محدّقتين في بعضهما البعض دونَ أن تنبسا بكلمة. تبتسم زهور بمكر، وتردّ لها إيمان ابتسامةً بطعمِ الحِقد أو السّخرية. تشغّل زهور التلفاز لتشاهد مسلسلاً تركياً باللغة التركية، على أملٍ أن تتعلّم بعضَ الكلمات. تحدّق في الشاشةِ بتركيز وهي تقرمش البندق أو الفستق مثيرةً في داخل كنّتِها شعوراً بالاشمئزاز. تنهضُ إيمان متوجّهةً نحو الشرفة بحجّة العمل، في حين أنّها في الحقيقة هاربةٌ من رؤيةِ وجه هذه المرأة السّمينة والغبية والمزعجة.

كانت إيمان كلّما نظرَت إلى حماتِها، تتذكّر كيف كانت تحشو رأسَ خالد ضدّها عندما كانا في المغرب. كانت تتلصّص على زوجِها في كثيرٍ من الأحيان وهو يتحدّث معها في الهاتف، فتفهمُ من كلامِه أنّ حماتها تنتقدها أو تعيبُ عليها لباسها كما اعتادت أن تفعل دائماً. في أحيانٍ أخرى، كانت تأتي لزيارتِهما في شقّتهما من دون موعد، وتنتقدُ طريقة ترتيب إيمان لأثاث البيت، وطريقةَ طبخِها للدجاج المحمّر، واستعمالها للكركم في الطبخ، ومشيتَها، والبرامج التي تشاهدها، ونظرَها إلى شاشة الهاتف، ودخولها إلى الحمّام بالرّجل اليمنى، ووضعَها لأحمر الشفاه، وقصّةَ شعرِها، وتمدّدها على الأريكة، وطريقةَ مضغها للطعام، وقراءتَها للكتب. كانت باختصار، امرأةً لا تُطاق.

كان خالد سعيداً بمجيء أمّه، ومع ذلك، لم يكن يقضي معها وقتاً طويلاً بسبب ملاحظاتِها الكثيرة ونميمتها التي لا تنتهي والمواضيع التافهة التي تخوض فيها. بل استمرّ في الخروجِ مع أصدقائه وزملائه بعد نهاية الدوام، تاركاً إيمان وحدَها معها في البيت، فكانتا تقضيان النهارَ صامتتَين. صمتٌ لا تشوبه سوى بعض الرّسائل المشفّرة التي تحاول زهور إيصالها لكنّتها، لتقولَ لها بطرقٍ مختلفة، إنّ لباسها غير

محترَم، وإنّ عليها أن تغيّر أسلوبها في اللباس وتفكّر جدّياً في اقتناء العباءات الطويلة التي ستستر جسدَها وتحميه من نظراتِ الرّجال الجائعة.

ذات يوم قائظ، لم تستيقظ إيمان إلّا عند الظهيرة، بعدما سهِرت طوال الليل من أجل إنهاء مقالٍ عن أهمّية القراءة في حياةِ الناس. كانت تشعرُ بالتعب والدوار، لكنّها كانت راضيةً عمّا كتبت. توجّهت نحو المطبخ لإعداد القهوة وكلّ تفكيرها منصبّ على العمل وجمع المال والهرب من هذه الحياة التعيسة. ثمّ ذهبت إلى البهو. كانت حماتُها جالسةً هناك واضعةً سبّابتها داخل أنفِها بتركيزٍ شديد، كأنّها تنقّب عن معدنٍ نفيس. أبعدت إيمان نظرَها في قرفٍ وهي تلقي عليها تحيّة الصباح، ثمّ أخذت تمسحُ طاولةَ الطعام.

كانت رائحةُ القهوة القوية قد بدأت تنتشرُ في البيت، فيما كانت زْهور لا تزال منهمكةً بالتنقيب عن المعادن النفيسة داخل أنفها، آخذةً كلّ وقتِها. ثمّ في لحظةٍ ما، أخرجت الإصبع، وفتّتت ما أخرجته من أنفِها كأنّها تنثر الملح على الطعام. وضعت رجلاً فوق رجل وقالت:

- يبدو أنّك لم تنامي جيّداً ليلة البارحة...

قالت إيمان دون أن تنظر إليها:

- ضرورة العمل تستدعي ذلك. هل تريدين قهوة؟

أومأت زهور إيجاباً.

عادت إيمان إلى المطبخ، وأحضرت فنجانَي قهوة. وضعَت فنجاناً على الطاولة القصيرة في البهو دون أن ترمقَ حماتَها. بينما أخذت زْهور تنظرُ إلى كنّتها وهي تتحرّك أمامها، من الرأسِ حتى أخمصِ القدمين. كان شيءٌ من الحسد يطفرُ من نظرتِها وهي تتأمّل نحافةَ جسدِ إيمان، وتموّجاتِ شعرِها، وبنطالَها الضيّق. لم تكنْ قادرةً على تفسير ذلك الإحساس الذي غمرها في تلك اللحظة، لكنّها تذكّرت

أنها لم يسبق أن بدتْ بهذا الشكل من قبل في حياتِها. نظرتْ إلى بطنِها الضخم والمترهّل، وقالت لإيمان التي جلست قبالتها:

- متى ستفرحينني بحفيد؟

شرِبت إيمان من قهوتها وقالت باقتضاب:

- لا أريد إنجابَ الأطفال.

قالت زهور مركزةً نظرها على الفنجانِ أمامها:

- لكنّ خالداً يريد!

قالت إيمان بهدوء:

- من قالَ لكِ ذلك؟

رمقتها زهور شزراً، ثمّ قالت:

- ومن سيقول لي ذلك؟ هوَ طبعاً.

قالت إيمان:

- أنا لا أريد.

نهضت زْهور وجلَست على الكنبة بجانب كنّتها. بهدوء، وضعتْ يدها على كتِف إيمان، وهمستْ:

- اسمعي يا ابنتي، ينبغي أن تعرفي أن أغلب الرّجال الذين يطلّقون زوجاتهم أو يتزوّجون عليهنّ يكونون بحاجةٍ إلى أطفال.

كانت تعرِف أنّ ابنها ليس من ذلك النّوع من الرّجال، لكنّها أرادت استفزاز إيمان.

قالتْ إيمان:

- وما شأني أنا في أغلب الرجال؟

كانت إيمان تعرِف أيضاً أنّ زوجَها لن يتركها لأنها لا تريد الإنجاب، لكنّها لم تستطع أن تمنع الخوف من التسرُّب إلى أعماقها.

سكتت زهور. شرِبت من قهوتِها وهي تفكّر في طريقةٍ لإقناع كنّتها العنيدة. قالت بهدوء:

- ثمّ إنّكما تعيشان في إسطنبول.. لا يمكن للمرء أن يخاف على نفسه وأطفاله هنا.. يجب أن تكونا مطمئنَّي البال، لأنّ أطفالكما لن يولدوا في بلاد الكفّار، بل في بلدٍ متقدّم ومحافظٍ على الدين في نفس الوقت!

أطلقت إيمان ضحكةَ استهزاءٍ خفيفة. تابعت زهور:

- ستربّيان أطفالكما هنا على مبادئ الإسلام الحقّة.

ركّز دماغ إيمان على كلمة «أطفال» التي جاءت بالجمع. كأنّها وافقت على إنجاب طفلٍ واحد، كي تقرّر إنجاب أطفالٍ كثيرين. قالت وهي تنظر مباشرةً إلى عينَي حماتِها:

- عليكِ أن تخرجي في تقسيم ليلاً كي تري الإسلام الموجود في هذا البلد!

كان الاندهاش بادياً على زهور. سألت:

- لماذا؟

سكتتْ إيمان قليلاً وهي تنظر إلى وجه حماتِها المتجعّد، وملامِحها المتعبة، وعينَيها المشتعلتَين ثقةً بالنفس. شربت من فنجانها، ثمّ قالت بهدوء:

- هل تعرفين عددَ المغربيات والعربيات اللواتي يمارسن الدعارة في إسطنبول؟

اتّسعت عينا زهور، واكتسحها الامتعاض. لم تكن تريد تصديقَ كلام كنّتِها، أوّلاً لأنها كنّتها، وثانياً لأنّ صورةَ الرّئيس التركي وهو جالسٌ قبالةَ الرّئيس الأميركي بطريقةٍ توحي بالفخر والقوة قفَزت إلى عقلِها. صاحت:

- هذا غير صحيح! هذا الكلام يروّج له أعداء الإسلام حتى يقنعونا أن الدولة الإسلامية القوية ليس لها وجود!

تابعت إيمان كلامها غير مكترثةٍ لكلام حماتها:

- لقد رأيتُ بأمّ عينَيّ رجالاً يرتدون ملابسَ نسائية يسيرون في أزقّة تقسيم عندَ منتصف الليل باحثين عن زبائن، ورأيتُ في المطار مغربياتٍ يرتدين ملابس ضيّقة مزركشة مثل جلد النّمر، بشعورٍ شقراء زائفة وحواجب سوداء، يمضغن العلكة بطريقةٍ فاضحة، سألوهنّ كلهنّ في المطار عن سببِ ذهابهنّ إلى إسطنبول، وقد منعوا واحدةً منهنّ من المرور لأنّها مشبوهة. هل أزيدك؟ هناك أيضاً صالونات حِلاقة خاصّة بعاملاتِ الجنس، حيثُ يساعدن بعضهنّ البعض على الحصول على زبائن.. انتظري.. سأخبرك بشيءٍ آخر، هناكَ من المغربيات من تبعثهنّ عائلاتهنّ إلى إسطنبول خصّيصاً لممارسةِ الدّعارة، طمعاً في مبلغٍ من المال في آخر الشهر. لا يمكنك أن تصدّقي، أعرف ذلك، لكنني سأخبرك المزيد.. سمِعتُ عن عاملات جنس عربيات يتعرّضن للاستعباد هنا بشكلٍ لن تستطيعي تصديقه.. هناك عصاباتٌ تغريهنّ بالعمل، وتستولي على جوازات سفرهنّ لمنعهنّ من الهروب، ثمّ تحبسهنّ في بيوتٍ صغيرة طوال النّهار، وعندما يصلُ الليل، يُجررنَ إلى العلبِ الليلية الحقيرة، يرقصن طوال الليل، ويرافقن المكبوتين الذين يمارسون عليهنّ الجنس ويعتدون عليهنّ في الكثير من الأحيان، وهذا كله مقابلَ طعامهنّ وشرابهنّ فقط. هل هذا هو الإسلام التركيّ الذي تتحدّثين عنه؟

بعد أن ألقتْ إيمان هذا الكلام على حماتِها المصدومة، شعرتْ براحةٍ عجيبة. ارتشفت القهوة بلذّة، ثمّ وضعت ساقاً على ساق، منتظرةً ردّ فعل زهور.

كانت زهور متسمّرة في مكانِها. زمّت شفتيها بقوة ومسَحت فمَها بطرفِ طرحتِها في حركةٍ سريعة، بينما كان الغضبُ يجتاحُها. لم تكنْ من ذلك النّوع الذي يمكنه تصديق مثل هذا الكلام، ولا كان ينطلي

عليها ما يقوله أعداء الإسلام. لكنّ نظرتَها الواثقةَ انكسرت في لحظةٍ ما. صمتت لبرهة باحثةً عمّا تقوله، ثمّ صاحت:

- وماذا تفعلين أنتِ في تقسيم عند الثانية عشرة ليلاً؟

قالت إيمان بثقة:

- كنتُ مع ابنك نستنشق بعضَ الهواء، ونكتشف ليل إسطنبول.

كادتْ زهور تموت عندما سمِعت هذا الكلام. إنّ خروج المرأة عند الثانية عشرة ليلاً بالنسبة إليها، يعني أنّها من ذلك النّوع الذي تحدّثت عنه كنّتها للتوّ. قالت:

- لا تستمعي كثيراً لأعداءِ الله الذين يروّجون للأخبار الخاطئة، لأنّ هذا ليس جيّداً.. ليس جيّداً على الإطلاق!

قالت إيمان:

- اخرجي إذاً، وتأكدي بنفسك.

بمجرّد ما تفوّهت بهذه الكلِمات، حتى شعرت بدوارٍ أكبر من سابِقه حين استيقظت من النّوم، وبمعِدتها كأنّها ستخرج من فمِها. ركضتْ نحو الحمّام وسط دهشةِ حماتِها، وتقيأت، تقيأت بقوة وعنف، كما لم تتقيّأ من قبل أبداً.

44

أن تلتقط سيلفي مع الطباخ التركيّ بوراك

صعِدت زهور أدراج المبنى بكلّ السّرعة والقوة التي تملك. فتحت بابَ الشقّة وهي تلهث كأنّها في سباقٍ مع الزّمن. لديها كلامٌ مهمّ يجب أن تقوله لابنها قبل عودةِ إيمان، التي كانت تتسوّق معها طوال النّهار ثمّ قرّرت أن تشربَ قهوةً مع صديقةٍ التقتْها صدفةً في شارع الاستقلال. كانت زهور تحملُ أكياساً كثيرة تحتوي على عباءاتٍ وطُرَح رأس مختلفة الأشكال والألوان، وكانت تشعر، في تلك اللحظة، أنّ الدنيا كلّها لن تستطيع استيعابَ سعادتِها، فهي لم تتسوّق فقط، بل رأت أيضاً الطبّاخ التركي بوراك، الذي كان يفتتح مطعماً جديداً له في شارع الاستقلال. ومع أنّ هذا الطبّاخ المشهور كانَ محاطاً بعشراتِ الناس المنبهرين برؤيته، وأغلبهم عرب، إلّا أنّ زْهوراً أصرّت على الدخول وسط الزحمة بجسدِها الضخم، واستطاعت، بعد اصطداماتٍ كثيرة، أن تلتقطَ صورةَ سيلفي معه.

اندفعت بجسدِها الضخم داخل البيت، وارتمت على الكنبةِ تستردّ أنفاسها المقطوعة. لم يكنْ خالد قد عادَ بعدُ من عملِه. سحبَت الهاتف من حقيبتِها، وكتبت له رسالةً على واتساب، ملحّةً عليه للعودةِ بسرعة. بعدما بعثت الرسالة فتحت ملفّ الصور، وأخذت تنظر إلى السّيلفي الذي التقطته مع بوراك. ابتسمت بلذّة وهي تنظر إلى ابتسامتِه، وعينَيه المغلقتَين من شدّة تمدّد عضلاتِ وجهه. غمرت السعادةُ قلبَها، ونبضَ

قلبُها نبضاتٍ سريعة من الإثارة، لدرجةٍ لم تستطع الجلوسَ في مكانٍ واحد بلا حَراك، بل إنّ صوتاً بداخلِها، في لحظةٍ ما، بدأ يكلّمها، يكلّمها بلا هوادة. فترفعُ رأسَها ناظرةً إلى السّقف، مبتسمةً مُثارةً كأنّها تناولت مخدّر الإكستازي.

قال لها الصّوت:

- لقد حقّقتِ حلمك يا زهور، أترين؟ أنتِ الآن في إسطنبول، في المكان الذي عاش فيه أقوى السلاطين، وصُوّرت فيه أجمل المسلسلات، وجاءت منه أحسن الملابس... الجميع يحسدك على ذلك يا زهور، جاراتُكِ ونساءُ العائلة كلهنّ يتمنّين أن يكنّ مكانَكِ، أن يرَين ما رأيتِ، ويشترين ما اشتريتِ، ويعبرن الطُّرُق والشوارعَ التي عبرتِ.

أسندت رأسها إلى الأريكة، أغمضت عينَيها ثمّ سمِعت الصّوتَ يهمس لها من جديد:

- الأتراكُ شعبٌ عظيم فعلاً، إنّهم يتقنون كلّ شيء ويتفوّقون في كلّ شيء!

فتحت عينَيها الطافحتَين بالإعجاب والذهول، وهي تسمعُ الصّوتَ يتابع كلامه:

- إنهم يمتلكون كلّ شيء يمكن أن يحلُمَ به بلد. رئيس دولةٍ قويّ، دراما رائعة، جمالٌ فتّان، رجالٌ حقيقيون، رومانسية، تحضُّر، تديُّن، شوارع نظيفة، سياحة، وبوراك أيضاً...

توقّف الصّوتُ قليلاً ثمّ كرّرَ:

- شعبٌ عظيمٌ فعلاً!

تنهّدت زهور من الأعماق وهي تستمع إلى الصّوتِ القادم من رأسِها بلذّةٍ منقطعة النظير:

- أنتِ بالضبط يا زهور، كان عليكِ أن تولدي هنا وليس في المغرب.

بمجرّدِ ما سمِعت هذه الجملة، حتى قفزَ حزنٌ شديدٌ إلى قلبِها. استمعت إليه بانتباه وألم. تابَع الصّوتُ، بحرقةٍ هذه المرّة:

- لو أنّك وُلِدت هنا، لكنتِ سعيدةً حقّاً...

حملت رأسَها الذي كان مستلقياً على مسند الأريكة، واستقامت في جلستِها، ثمّ ركّزت نظرَها على الحائطِ أمامها. همسَ لها الصّوت كأنّه يفشي لها سرّاً من الأسرار:

- هناكَ نوعٌ من النّاس، مثلكِ تماماً، خُلِقوا في بقعٍ ما من العالم خطأً.

بدأت ابتسامتُها تتقلّص شيئاً فشيئاً. استدركَ الصّوت:

- أستغفر الله! أستغفر الله. فالله لا يخطئ أبداً.

تحرّكَ جسدُها الضخم على الأريكة بصعوبة، بينما كانت تشعر بكلّ ثقلِ العالمِ متمدّداً فوق صدرها. انحنى رأسُها، وسقَطت نظرتُها على قدمَيها الجافّتَين المتشقّقتَين والمعوَجّتَين من كثرةِ الوقوف طوال حياتِها. لم تكن تجلسُ أبداً حتى بلغتِ السّتّين وتقاعدت. كانت تظلّ واقفةً طوال اليوم في حجرات الدرس، ثمّ تدخلُ إلى البيتِ لتظلّ واقفةً في المطبخ، ثمّ تستلقي مباشرةً على سريرها لتنام.

قالَ الصّوت:

- انظري إلى زوجةِ أردوغان، إنكِ في نفس عمرها، ومع ذلك تبدين في عمرِ والدتها.

أرادت أن توقِف الصّوت، لكنّه استمرَّ في وخزِ قلبِها بكلماتٍ جارحة:

- أنتِ لا تهتمّين بنفسِك أبداً، ولم تهتمّي بنفسِك يوماً. لقد كنتِ دائماً تفكّرين في الآخرين، وتحْيين من أجلِ الآخرين، من أجلِ زوجِك وأبنائك، ولم تعيشي من أجل نفسِك يوماً واحداً. ماذا فعلَ زوجُكِ وأبناؤكِ من أجلك؟ حتى ابنكِ الذي جئتِ به إلى هذا العالم فعلَ ما أملاه عليه رأسه وتزوّج تلك المرأةَ الخبيثة دون أيّ اعتبارٍ لك...

توقّفَ قليلاً، ثمّ أضاف:

- لماذا تفكّرين فيه؟ لماذا؟ فكّري في نفسِك قليلاً، ولو مرّة واحدة في حياتك.

سكت رأسُها لوهلة. رأتْ دمعةً تسقطُ على قدمِها السّمراء المتشقّقة. واصل الصوتُ داخل رأسها:

- ماذا تنتظرين من العالم إذا كانَ ابنُكِ نفسُه عاقاً؟

أرادته فعلاً أن يتوقّف، لكنّه استمرّ في تحريضِها ضدّ ابنِها وضدّ العالم:

- عليكِ أن تبيّني له حقيقةَ تلك المجنونة، وأن تثبتي له أنّك كنتِ على حقّ عندما رفضتِها، وإلّا فإنه سيقضي ما تبقّى من حياتِه تعيساً. إنّها مهمّتُكِ وواجِبك ومسؤوليتك.

تنهّدت من الأعماق. كان ظهرها متقوّساً كأنّه يحمل جبلاً لا مرئياً. قال الصّوتُ آمراً:

- توقّفي عن التفكير!

وبعدَ برهةٍ أضاف:

- لا، بل يجبُ أن تفكّري!

وفي اللحظةِ التي دخل فيها خالد إلى البيت، سكتَ الصّوتُ داخل رأسِها. سألَها عن إيمان وهوَ يتخلّص من حذائه في مدخلِ البيت، فزمّت شفتيها، ومسحتهما بطرفِ طرحتِها، ثمّ صاحت:

- إنّها تخيطُ الشوارعَ منذ الصّباح، ولم تشبع بعد.

- ماذا تقصدين؟

مسَحت شفتيها بطرف طرحتها مرّةً أخرى، وقالت مركّزةً نظرها في قدمَيها:

- التقت صديقةً لها بينما كنا نتسوّق في شارع الاستقلال، وقالت إنها ستضطرّ للذهاب معها. تركتني وحدي وسطَ ذلك الشارع الكبير

المليء بالبشر. . كِدتُ أضيّع الطريق لولا أنّ امرأةً طيّبة، جازاها الله خيراً، ساعدتني على الوصول إلى محطة التاكسيات.

تقدّم خالد نحو البهو. تابعت زهور:

- لاحظتُ أنّها لا تهتمّ بكَ أبداً.

جلَس بقربِها. أكملتْ:

- الرجال يتزوّجون كي يرتاحوا من همّ الدنيا، لا ليزدادوا تعاسةً.

قال:

- لستُ تعيساً يا أمّي.

رمقته بحنانٍ موجع، ثمّ قالت:

- أشعر أنّها تخطِّط لشيء ما، لا سمح الله. لقد تغيّرتْ منذ أن جاءت إلى إسطنبول، كأنّ عينَيها فُتحتا على الدّنيا أكثر، خاصةً بعد أن بدأتْ تعمل.

- ماذا تقصدين؟

ردّت بنبرةٍ تشي أنّ ما تقوله حقيقةٌ ليست بعدها حقيقة:

- إنّ المرأةَ عندما تفتحُ عينَيها على الدنيا تصبحُ طمّاعة، ترغبُ دائماً بالمزيد، وتبحثُ باستمرار عن الأفضَل. الخطأ خطؤك أنتَ وحدك. . كان عليكَ أن تضبطها منذ البداية، أمّا وقد تركتَ لها حرّية الخروج والدخول في أي وقتٍ شاءت، فستنقلبُ عليكَ يوماً ما. . أنا أحذّرك!

قال:

- أنتِ تبالغين يا أمّي. . إيمان ليست سيّئةً إلى هذه الدرجة. . صحيحٌ أنّها عصبية وأنّ سلوكها يجعلُني أرغبُ في ضربِها في بعض الأحيان، لكنّني أتفهّم شعورَها. لقد كانت دائماً تشعر بالنقص أمامي وأمام أصدقائنا لأنّها لا تملك عملاً ولا تشعر بالاستقلالية المادّية، والآن بعد أن حصلَت على عملٍ بسيط، صارت تشعر بالرغبة في إثبات

نفسِها وتعويضِ ذلك الشعور بالنقص.. ربّما بتطرُّفٍ أحياناً، لكنْ من حقّها ذلك. هذا كلّ ما في الأمر.

زمّت زهور شفتيها مرّةً أخرى في امتعاض. كلّ هذا الكلام لم يكن يعنيها أو يحرّك داخلَها شيئاً. قالت:

- أنا لا أقوم إلّا بواجبي في تحذيرك، لديّ تجربةٌ كبيرة مع النساء اللواتي ينتمين إلى فصيلة الأفاعي... لكنّكَ في نهايةِ المطاف، لا تفعلُ إلّا ما يمليه عليك عقلك...

اكتفى خالد بابتسامةٍ صغيرة.

- ماذا سنأكل اليوم من يديكِ المباركتين؟

تجاهلت زهور سؤاله. مسحت شفتيها المزمومتين مرّةً أخرى بطرفِ طرحتِها وقالت:

- انظر إلى تلك الصّورة على المنضدة قربَ الباب، صورتكما معاً.. هل رأيتَها؟ أنا متأكدة أنّها هي التي قلَبتها على وجهها هكذا حتى لا تراها أمامها.. هذه المرأة لا تحبّك يا بنيّ.

قال بعصبية:

- أمّي، أرجوك، لا تبالغي!

جاءهما صريرُ المفتاح في الباب. غيّرت زْهور الموضوع بسرعة:

- سأطبخ لكما اليوم أحدَ أطباق بوراك الشهيرة!

دخلتْ إيمان مسرعةً وتوجّهت مباشرةً إلى الحمّام. سمعها خالد تتقيأ، وأسرعَ وراءها. أمسكَ شعرها إلى الوراء، بينما كانت تفرغ معدتها من كلّ ما تناولَته خلال النهار. عندما انتهتْ، التفتتْ نحوَه. سألَها بهدوء «هل أنتِ بخير؟» رمقتْه بابتسامة مُكابِرة، بينما كان وجهها شاحباً مثلَ وجهِ جثة. ضمّها إليه بحنوّ جارف. وعندما تناهت إلى أنفِها رائحةُ عطره، تقيّأت من جديد.

طنينُ الألم

منذ أيّام، لاحظت إيمان أنّ هناك صوتاً مزعجاً يتردّدُ داخل رأسِها. في البداية، لم تستطِع تحديدَ السّبب الذي يجعلُ رأسَها يطنّ طوال الوقت، لكنّها بمجرّدِ ما فكّرت في كِنان وشعرت بالألمِ في جسدِها، أدركت في الحال أنّ مصدَر الصّوتِ هو الألم.

الألمُ يزعج عندما يتجاوز حدود المعقول، ويصير له صوتٌ عندما يتكرّر ويمتدّ في الزّمن. صوتٌ هو عبارةٌ عن طنين، يبدأ من الرّأس، ثمّ ينتقل إلى أجزاء أخرى من الجسم وينتشرُ فيها. كان تذكّرُ كِنان يسبِّب لإيمان طنيناً لا يستطيع حتى النّوم إيقافَه، ولا حتى طنينُ حماتِها المستمرّ. بل إنّ رغبتَها في الهرب كلّما استمعت إلى نميمةِ زهور وانتقاداتِها، كانت تجرّها نحوَ الشوقِ لكِنان والعوالِم الخيالية التي اخترعتها له، وكان الشّوق يولِّد الألم، والألم يولّد الطنين، والطنين يلحّ عليها بالاندفاع خارجَ البيت والسّير في شوارع وأزقّة إسطنبول بحثاً عن السلوان.

يقولون إنّ التركيزَ على التفكيرِ في مواضِع الوجَع هو الذي يجعلُ الألمَ أكثر شدّةً وفتكاً، لذلك اخترع الإنسان طُرُقاً مؤلِمةً للقضاء على بعضِ الآلام، مثلَ الوخزِ بالإبَر، الذي يُعتَبر في الطبّ الصّيني التقليدي محاولةً لموازنةِ الطاقة في الجسم، لإلهاء الدماغ عن الألم الرئيس عبر الشعورِ بألمِ الوخز. فكّرت إيمان أنّ شفاء الألمِ يوجدُ في الألمِ نفسِه.

لذلك، بمجرّد ما وقَع نظرُها على محلٍّ للوشم في أحدِ أزقّة شيشلي، دخلت على الفور، دونَ أن تفكّر حتى في شكلِ الوشمِ الذي تريده.

كان الألمُ يغمر رأسَها لدرجةٍ لم تخفْ من الألم الذي سيسبّبه لها غرزُ تلك الإبرة الرفيعة في جلدِها الذي سيستمرّ لساعات. فكّرت وهي تدلف إلى المحلّ، في الوشمِ على ذقنِ أمّها. كانَ عبارةً عن خطٍّ أخضرَ عمودي يرمز إلى جذعِ نخلة، إشارةً إلى القوةِ والخصوبة. كادت قدمُها تعود إلى الوراء عندما تذكّرت وجه أمّها، لولا أن حيّاها صاحبُ المحلّ بابتسامةٍ لطيفة.

كان شاباً ذا شعرٍ أزرق طويل، وعضلاتٍ رياضية قوية. كانت ذراعاه ممتلئتَين بالوشوم لدرجةٍ أخافت إيمان. تخيّلت أنّ قوةَ هذا الرّجل لا يمكن إلّا أن تحدِث ثقوباً عميقةً في لحمِها. وعندما أرادت أن تعتذر وتتراجع، قال الشّاب ذو الشعر الأزرق الطويل بالإنجليزية:

- مرحباً آنستي، هل تريدين أن تطّلعي على نشرتنا المصوّرة لتختاري وشماً؟

قالت مواجهةً خوفها:

- أعرف الوشمَ الذي أريد!

ثمّ أضافت بسرعة:

- «If I am afraid of it then I must do it». أريد وشمَ هذه الجملة على ساعدي!

قال:

- رائع! بأيّ خطّ تريدينها؟

قالت رافعةً كتفيها كطفلةٍ غير مكترثة:

- لا يهم!

كان طنينُ الإبرةِ يتسلّلُ إلى رأسِها مشوّشاً على طنين الألم الناتج عن التفكير في كِنان. وكانت حركاتُ الإبرة السّريعة وهي تخِز جِلد

ساعِدها تُشَتّتُ انتباهها عن ألمِ الحبّ وكلّ الآلام النفسية التي تكبّدت طوال حياتِها. كلّ ثقبٍ صغيرٍ في جِلدها كان يمتصّ بقوةٍ عجيبة، ذكرياتِها الموجِعة. ألمُ أن تُصبِح بلا أب، ألمُ الشعورِ بالهَجر، ألمُ الجلوسِ أمام التلفاز طوال اليوم، ألمُ الشعور بالنّقص أمام خالد وأصدقائه، ألمُ الغربة، ألم فقدان الأشياء الثمينة التي كانت تملكها، ألم الوحدة، ألم البحث عن كِنان، الألم الناتج عن قراءة قصص زهرة التوليب، الألم الناتج عن سماع انتقاداتِ حماتِها مذ عرفَتها، الألم الذي تسبِّبه لها رؤية تلك الصورة التي يحضنها فيها خالد، ألمُ الخوفِ من التقدُّم إلى الأمام، ألم التعطُّش إلى السعادة، ألم السعادة نفسِها لأنها ستصبح يوماً ما مجرّد ذكرى، ألم الشعورِ بالعبث، ألم الوجودِ كلّه. . . كانت كل الآلام تبدو عبثيةً وصغيرةً أمام تلك الغُرَز السريعة التي تشكّل في ساعِدها تلك الجملة العميقة للكاتبة الأميركية إيريكا يونغ: «إذا كنتُ خائفة من شيءٍ ما، فإن ذلك يعني أنَّ عليّ فعله».

كان الشابّ ذو الشعر الأزرق الطويل منهمكاً في عمله بتركيز شديد ودقّةٍ كبيرة، ضاغطاً بذراعه الموشومة على ساعدِها. أحبّت ذلك الوخز المتواصلَ على جلدِها والذي يضاعف وعيَها بوجودِها. ليسَ هناك شيءٌ في الحياةِ يصقل الوعي مثلَ الألم. الألمُ يصنعُ الإنسانَ الأصيل. أغمضت عينَيها وفكّرت أنّه لولا الألم لما قرأنا قصصَ الحبّ العظيمة في التاريخ، ولولا الألم ما عرفنا الأبطال الحقيقيين. البطولة تُقاس بكمّ الوجَع الذي يتكبّده الواحد منّا ومدى قدرتِه على تحمّله ومقاومته. مع مرور الوقت، كان جلدُها ينملُ ويفقد شعوره بالألمِ شيئاً فشيئاً. يراودُها إحساسٌ بالدوار. يبدأ الطنين بالنفاذ إلى رأسِها عبر مسامّ ساعدِها. يتحوّل رأسُها إلى فقاعةٍ مليئةٍ بالنّحل. تشعر أنّ رأسَها ينفصل عن جسدِها ويطير مع حركةِ الهواء الهادئة إلى مكانٍ غريب، عالمٍ ليسَ فيه إلا هي وكِنان، يرقصان بلا هوادة على السيمفونية

السّابعة لبيتهوفن، يرقُصان رقصةَ الحياة بكلّ تناقضاتها: بقسوتِها وسرعتِها وبطئها وهدوئها وصفائها وانكسارها ومجدِها وألمِها وسعادتِها. ترى ملامحَه بوضوح، وتشعر بملمسِ كفّه التي تمسك كفّها، وبذراعِه التي تحوط وسَطها. يتحرّكان يميناً ويساراً، يرجعان إلى الوراء خطوةً، ثمّ يتقدّمان خطواتٍ إلى الأمام، منغمسيْن في تلك الحالة الجنونية من الرّقص. في لحظةٍ ما، تشعرُ أنّ الجسد اللصيق بجسدِها لم يعد نفسَ الجسد. ترفعُ نظرها نحوه، فتجد وجهَ خالد، بابتسامته الهادئة وتقاسيمه الحالمة. يراقصُها ببطء وهدوء، يُبعدها عنه، ثمّ يجرّها نحوه في حركاتٍ رتيبة. يتسرّب إليهما الإعياء بسرعة، لكنّهما يستمرّان مع ذلك في الرقص، ضدّاً في التعب والرتابة. سرعان ما تصير حركاتهما مع الوقت بلا معنى. يهدّهما التعب كأنّهما ركضا آلاف الكيلومترات تحت شمسٍ حارقة. يلهثان. . ثمّ يسقُطان.

تحاول النهوض، يختفي وجه خالد، ويحلّ محلّه وجه أبيها، أو ذلك الذي كان من المفترض أن يكون أباها، بشاربه الكثّ، وعينَيه الكسيرتَين. يرقُصان رقصةً بطعمِ الخيبة. يستسلمان لتلك الخيبة، ثمّ يستلذّان طعمها. يراقصُها ببطء وهو يُبعد خصلاتِ شعرِها عن وجهها الحزين بين الفينة والأخرى. يضمّها إليه. يغمضان أعينهما. يرتفعُ الطنينُ في رأسِها. ترفعُ رأسَها المهدود عن كتفه. تنظر إليه، فتجدُ وجهاً بلا ملامح. مذعورة، تبتعدُ خطوةً إلى الوراء، ثمّ خطوةً ثانية، ثمّ ثالثة. يستبدّ بها الخوف والألم. تتعثّر بطرف فستانِها الطويل، وتسقط.

يتوقّف الطنين في رأسِها.

- انتهينا!

فتحت عينيها وهي ترمق بذهول الوشمَ في ساعِدها محاطاً باحمرارٍ خفيف. ابتسمت وهي تستعيد شعورَها بالمكانِ حولها،

وبوجودِ ذلك الشابّ ذي الشعر الأزرق الطويل بجانِبها. كان رأسها خفيفاً كفقاعة. اختفى الطنين وحلّت محلّه ألحانُ سيمفونية بيتهوفن السّابعة، لكنّها كانت لذيذةً هذه المرّة. الموسيقى العظيمة قادرةٌ على استيعاب كلّ المشاعر الإنسانية.

بعينَين ناعستَين ووجهٍ شاحب ويدَين مرتجفتَين، دفعَت حسابها، ثمّ خرجتْ إلى الشارع غير قادرةٍ على استيعاب الصخب والبشر.

بجسدٍ مخدَّر وابتسامةٍ نشوة، مشتْ نحو البيت. لأول مرّةٍ تشعر أنها جزء من هذا العالم الفسيح، وأنها تنتمي إلى البشرية بأفراحها وعذاباتها الأزلية، وأنّ هناك شيئاً ما يربطها بالعالم والتاريخ: الألم.

عندما دخلت إلى البيت، كانت حماتُها جالسةً كالعادةِ تشاهد مسلسلاً تركياً وهي تتناول حبّاتِ البندق والفستق. رمقتْها بريبة، وقالت:

- أينَ كنتِ كلّ هذا الوقت؟ انتظرتُك طويلاً على الغداء.

قالت إيمان بلا اكتراث وهي تتوجّه نحو الغرفة بخطواتٍ بطيئة:

- لم أكنْ في أيّ مكان.

6

حياةٌ غير مكتملة

خرجَ ناجي إلى الشرفة في بيتِه، وتطلّع إلى الخارج بحزن. كانَ الأُفُق أمامه مغطّى بشجرةٍ ضخمة زُرِعت في الحديقة الخلفية للمبنى الذي يسكن فيه. على الطاولةِ كتابُ **الخوف والرعشة** لسورين كيركغارد وكأسُ نبيذ فارغ بقيا هنا من ليلةِ البارحة.

في الداخل، تركَ هازال جالسةً إلى طاولةِ الطعام، مُسنِدةً مرفقيها إلى الطاولة، ورأسَها إلى كفّيها. آخر الكلماتِ التي تفوّهت بها هي أنّ لا أحدَ في العالم يستطيع أن يفهم ألمها الكبير. جثمَت الخيبة على صدره وتركها وحدَها في البهو غارقةً في نشيجٍ حارّ.

ماذا عساه أن يفعل؟ لقد حاول بكلّ ما أوتيَ من حنان وحِكمة تهدئتَها. ضمّها إلى صدره وقال لها إنّ ذلك اليوم الذي ستبدأ فيه حياتَها من جديد سيأتي بلا شكّ، لكنّها لم تتوقّف عن البكاء منذ أن أرجعت القرطَين لكِنان. لم يكن يهمّها القرطان، وإنّما كِنان الذي لم يقم بأيّ ردّ فعل بعدما أرجعتهما له. كانت تظنّ أنّه سيأتي قربَ بابِ بيتِها وينحني على ركبتيه طالباً منها الرّجوع.

ليسَ هناك في العالم أقسى من أن يحبّ الإنسانُ شخصاً يحبّ شخصاً آخر. لذلك تعِب ناجي من لعب دور الأمّ الحنون التي تهدّئ من روعِ أطفالها بلا مقابل. لقد كان أملُه دائماً أن يكون مكانَ كِنان في قلبِ هازال، لكنّ هذه الأخيرة اختارت أن تظلّ قابعةً في ذكرياتِها،

بدل التقدُّم إلى الأمام في حياتِها. وطوال سنتين، صبرَ على كلّ شيء مردِّداً في داخلِه أنّ كلّ ما يحدث له هو مجرّد اختبارٍ من اختبارات الحياة الكثيرة، وأنّ كلّ هذه المعاناة ستكون لها نهايةٌ يوماً ما، لكنّ الكيلَ طفح الآن، وهازال تمادت كثيراً، وقِطعُ قلبِه المكسور صارت فتاتاً.

بغضب، نظرَ إلى تلك الشجرة التي تغطي الأُفُق أمامه. لا يعرِف كيف ظهرت هذه الشجرةُ هنا فجأةً، فعندما استأجرَ هذا البيتَ أوّل مرّة، كانت الشرفة تطلّ على البحر. جلسَ إلى الطاولة ممسكاً في يدِه كتاب كيركغارد. هل كانت هازال ستحبّه لو لم يكن هناك كِنان في قلبِها؟ كان متأكداً أنّ الجوابَ هو لا. لذلك اختار ألّا يعترف لها بأيّ شيء. إنّ هازال في نهاية المطاف، لا ترى في ناجي رجلاً يحبّها، بل امرأة، صديقةً عزيزة على قلبِها. لذلك لا تخجلُ من تغيير ملابسها أمامه، ومِن التحدّث معه في الأمور الحميمية، ومن طبع قبلاتٍ خفيفة على خدّه بين الفينة والأخرى، كما أنها لا تجدُ حرجاً في أن يراها عاريةً، أو فقط بملابسها الداخلية، أو وهي تخرج لتوّها من الحمّام.

تعرِف هازال أنّ ناجي رجلٌ، لكنّ جسدَه الأنثوي يعطيها انطباعاً في الكثير من الأحيان، أنّ الشخص الذي أمامها أنثى وليس ذكراً. هذه هي الحقيقة الوحيدة التي عليه أن يراها ويتقبّلها. وهذه الحقيقة لن تتغيّر إلّا بتغيُّر هذا الجسد.

الخطأ ليس خطأ هازال وليس خطأ أيّ أحدٍ على الإطلاق، بل هو خطأ الطبيعة التي اختارت أن تخلقَ مثلَ هذه الاستثناءات في عالمٍ يتقزّز من الاختلاف ويريد أن يجعلَ من الجميع نسخاً متشابهة.

شعَر ناجي اليوم وهو يستمع إلى هازال اليائسة والهائمة حبّاً بكِنان، أنّ علاقته بهذه المرأة وصلتْ إلى مفترق الطرق، وأنّ عليه أن يبتعد بكرامة احتراماً لرمادِ قلبه على الأقلّ. عندما يحبّ الرّجلُ امرأةً،

فإنّه يرى في كلّ رجلٍ آخر نِدّاً له، لذلك شعر ناجي دائماً أنه يضحّي بحبّه وراحته في سبيل سعادةِ محبوبته، في الوقت الذي كانت رجولته وغيرته تُداسان كلّ يوم من طرف رجلٍ آخر، هو كِنان. كِنان الذي لا يعرف بوجود شخصٍ اسمه ناجي أصلاً، بل إنّ هناك احتمالاً أنه قد يعاكسه إذا رآه يوماً في الشارع لأنه سيظنّ أنه امرأة!

واقفاً فوق ذلك السراط الرفيع الذي يفصِل بين الكبرياء والتضحية من أجل الحبّ، امتلأ حلقُه بمرارةِ الحيرة. استنفدت هازال كلّ ما كانت تملك من مال بعد استقالتها من العمل، ومنذ شهور وهي تحاول البحث عن عملٍ آخر بلا جدوى، وسيكون عليها في غضون أشهر ترك شقّتها والانتقال للعيش في بيتِ والدَيها إن لم تجد عملاً آخر، ومع ذلك تصرّ على التمسُّك بحبّ كِنان الذي ينخر دواخلها. إنها كمن تمشي نحو الدمار بثبات. بكت بجنون هذا الصّباح، ولم تتوقّف عن سردِ قصّة القرطَين التافهَين اللذين أعطاهما لها ذلك التافه.

دخلَ ناجي إلى البهو وتسلّلَ نحو غرفة النوم دون أن ينظر إلى هازال التي كانت لا تزال غارقة في دموعها. اختلسَ نظرةً إلى المرآة المعلّقة على الجدار، ورمقَ نفسَه بحزن. هذا الوجه الأملَس الخالي من الزغب، هذا العنق الطويل الدقيق، هذان الكتفان الصغيران، هذان النهدان النافران من القميص الفضفاض، هذا الحوض الذي تبدو استدارته واضحةً حتى مع ارتدائه هذا البنطال الواسع. . . هذه هي الحواجز التي تفصِل بينه وبين هازال، بينه وبين الحبّ، بينه وبين أن يعيش رجولتَه على أكملِ وجه.

لكنّ القلبَ لا يستشير الحواجزَ حين يرغبُ في الوقوعِ في الحبّ، بل إنه لا يكترثُ لها، يركضُ باندفاعٍ كبير وبراءة مثلَما يركضُ مهرٌ صغير في مرجٍ فسيح. يركضُ إلى الأمام بلا توقُّف، معانداً الحواجز، مصطدماً بها، فيُجرَح. وعندما تملأه الجراح، لا يقوى على النهوضِ

والرّكض من جديد. لقد تعمّقت جروح ناجي اليوم، ولم يعد يقوى على التحمّل. لم يعد يستطيع مكابدة نظرةِ هازال المنكسرة بسبب حبّ رجلٍ آخر، ولا صوتِها المبحوح وهي تتحدّث عنه بحرقة.

لم يكن الوقوع في الحبّ ضمن خططه، لأنّ هذا المكانَ مجرّد محطّة عبور إلى مكانٍ آخر وجسدٍ آخر سيكون فيهما مرتاحاً وسعيداً وراضياً.

اندفع إلى الحمّام، بينما لا يزال نشيجُ هازال يتناهى إلى سمعه. أمسكَ آلة الحلاقة بقبضةٍ قوية. تطلّع إلى وجهه في المرآة. رمى فوطةً على ظهره، وشرَع في حلاقةِ رأسِه، بعنفٍ وحقد وغضب. كان ضجيج الآلةِ يُسكت كلّ الأصواتِ التي تتردّد داخل رأسه، وكانَ الشعرُ الذي يسقطُ أرضاً مع كلّ حركةٍ من الآلة، يُشعره بالسلوان، كأنّما يحلِقُ عن قلبه الحبَّ وعذابه. ثمّة دائماً أشخاصٌ في هذا العالم يدفعون ثمنَ أخطاء لم يرتكبوها. احمرّ أنفه وطفرت دمعةٌ من عينه وهو يدفعُ بخشونة حبّ هازال خارج قلبِه. تخيّلَ نفسَه لوهلة بلحيةٍ كثيفة، وعضلاتٍ مشدودة، واعتراه الخوف.

في ما مضى، كان مكتفياً بقربه منها، وخروجه معها، والسّير إلى جانبها على البوسفور، والاستماع إلى ضحكتها. كان سعيداً لولا أنّ الإنسان يظلّ دائماً طامحاً إلى الأفضل.

الحبّ هو الذي يبحث عنّا!

وثَبَ قطٌّ رمادي سمين فوق حضنِ خالد في رمشةِ عين، ثمّ قفزَ من جديدٍ إلى الأرض، كأنه لم يجد العطف الذي كان يبحث عنه. كان مطعمُ «يني كوي ساحل» ممتلئاً على آخره كالعادة بالزبائن. وكان خالد ونبيل يجلسان متقابلَين، صامتَين كأنّهما في جنازة.

هبَّ نسيمٌ خفيف محرِّكاً العلمَ التركي المثبّت على الحافّة بين أرضية المطعم والبحر الفسيح. تنفّس خالد عميقاً محاولاً التمسُّك بالأشياء الإيجابية التي جناها من تجربته المرهِقة في إسطنبول. لقد جمعَ قدراً من المال سيمكّنه من دفعِ تسبيق شقّة، والباقي سيتمّ دفعه بعدَ ذلك بالتقسيط. بدأ يحلم بالشقة، وبامتلاكِ كلبٍ ضخم من نوع هاسكي، وبإنجاب طفلٍ أو طفلَين. إنّ بوصلة الحياةِ بالنسبة إليه هي النجاحُ في العمل وبناء أسرة. ومع أنّه كان منزعجاً، إلّا أنه رفَع نخب السّعادة لصديقه.

قالَ نبيل:

- لا تأخذ الحياة على محملِ الجدّ يا عزيزي. . افعل ما يُريحك ولا تفكّر كثيراً!

ردّ خالد بسخريةٍ مريرة:

- ما يريحني!

ضحِك نبيل، وقد بدا في عينَيه لمعانٌ غريب. وضعَ كأسه، واستند بمرفقيه إلى الطاولة، ثمّ قال:

- لقد آمنتُ لوقتٍ طويلٍ أنّنا نحن من علينا أن نبحث عن الحبّ لنجِده، لكنّني أدركتُ الآن أنّ الحبّ هو الذي يبحثُ عنا، ثمّ يجدنا يوماً ما في مكانٍ ما.

قال خالد مبتسماً:

- هذا يعني أنّك تحبّها!

ردّ نبيل بعينين تطفران سعادةً:

- قرّرنا أن نتزوّجَ الشهر القادم.

أرجعَ خالد كرسيّه إلى الوراء، وقد اتسعت عيناه دهشةً وفضولاً. قال:

- هل أنت متأكدٌ من هذا القرار؟ لا ينبغي التسرُّع في مثلِ هذه الأمور.

قالَ نبيل بثقة:

- صحيحٌ أنّ إسراء لا تزال متخبّطةً في بعضِ المشاكل، لكنّ حبّنا أقوى من ذلك. إنّها المرأة التي أريد أن أكمِل معها ما تبقّى من حياتي.

سألَ خالد بفضول:

- أيّ نوعٍ من المشاكل؟

* * *

التقى نبيل إسراء في أحدِ أيّام مهرجان القهوة الذي ينظَّم بإسطنبول في شهر أبريل. كانت تقِف وحيدةً ممسكةً فنجاناً في يدِها، شاردةً في الأُفُق البعيد بعينَين ملتمعتَين. كانت عيناها أجملُ ما فيها. عينان

خضراوان برّاقتان كأنّ فيهما دموعاً. اقتربَ منها وألقى عليها التحية. أومأت له مبتسمةً بخفر وهي تعدّل طرحةَ رأسِها المزركشة بألوانٍ كثيرة ومختلفة. ابتسم لها أيضاً، ثمّ خاضا في حديثٍ طويلٍ عن القهوة. قالت الفتاة إنّه لا يوجدُ أكثر شاعريةً من علاقةِ حبٍّ تربط الإنسانَ بالقهوة، وقال نبيل، بكلّ نمطية، إنّه يفضّل شربَ الشّاي، لكنّه مستعدٌّ ليشربَ معها فنجاناً فقط لجمالِ عينيها. توجّها معاً إلى كشك من أكشاك القهوة المنتشرةِ في كلّ مكان، واشتريا فنجانَين، ثمّ اتخذا لهما زاويةً بعيداً عن الزّحمة، حيث وقفا للتعرّف إلى بعضِهما أكثر.

بحزنٍ عميق، حكَت إسراء لنبيل عن بعضِ فصول حياتِها المأساوية. لكنّ الدّموع التي في عينَيها طوال الوقت لم تنزل على خدَّيها. كان نظرُها مركّزاً في الفراغ وهي تتحدّث، كأنّها ترى أشياءَ لا يستطيع الآخرون رؤيتَها.

في أحد صباحات يوليو 2014، تقول إسراء، بدلَ أن تستيقظ لتجِد نفسَها على سريرها، فتحت عينيها وسط العتمة. كانت هناك آلامٌ في كلّ مكانٍ من جِسمها. حاولت أن تتحرّك، لكنّ جسدها كان محاطاً بركامِ البيت الذي هُدِم فوقَها. وحين أدركت أنّ انفجاراً طالَ منزلهم، سمِعت أصواتاً تأتي من فوق، ثمّ رأت يداً تزيح الحطام من فوقِها. انسلَّ ضوءٌ دافئ غامراً عينَيها ووجهها، وتذكرُ فقط أنّها أرادت أن تبكيَ في تلك اللحظة، قبلَ أن تُنقَل إلى المستشفى فاقدةً الوعي.

تحوّلَ كلّ أفرادِ عائلة إسراء إلى أشلاء، ومنذ اللحظة التي دفنت فيها ما تبقّى من أجسادِهم وأصواتهم وضحكاتهم وأحلامهم في مقبرة خان يونس، قرّرت أنّها لن تعودَ إلى هناك مرّةً أخرى، وأنّها ستغادر فلسطين إلى الأبد.

في عام 2015، حصلت إسراء على منحةٍ دراسية في جامعة إسطنبول لدراسة التاريخ. قدِمت إلى هذه المدينة ممتلئةً بالأمل،

وبدأت العملَ بشكلٍ حرّ مع عددٍ من المواقع الإلكترونية. كانت مقتلَعةً قسراً من جذورِها، لذلك أرادت أن تصنعَ لها جذوراً في مكانٍ آخر. تعلّمت اللغة التركية وأتقنتها في وقتٍ قصير. كان الألمُ يدفعُها بشكلٍ سريع إلى الأمام، بحثاً عن مكانٍ بلا وجَعٍ ولا حنينٍ ولا ذكريات. انغمست في الحاضر والمستقبل وفي المكان الذي توجد به الآن، ثمّ صارَ هدفُها هو الحصولُ على الجنسية التركية.

وفي خِضمّ سعيِها السّريع إلى تحقيق حلمها في إيجادِ مكانٍ لها في إسطنبول، تعرّفت إلى الشابّ التركي يوسف وتزوّجت منه بعد شهورٍ فقط من العلاقة، ليتحوّل الحلم إلى كابوس.

انتقلتْ إسراء لتسكن مع زوجِها في حيّ تارلاباشي، الذي يقعُ في قلبِ إسطنبول، على مسافةٍ قريبةٍ جدّاً من ميدان تقسيم، لكنّه حيّ مهملٌ ومهمّش ومتهالك، ولا يمتّ لإسطنبولِ التي يعرِفها الجميع بأيّ صلة. قبِلت أن تعيش معه في وضعٍ صعبٍ للغاية، متعلّقةً بأملِها في البدء من جديد.

وعلى الرّغم من أنّ الأتراك يتعاملون بشكلٍ خاصّ مع الفلسطينيين، تقول إسراء بعينَين مترقرقتَين بالدّموع، إلّا أنّ زوجَها السّابق كانَ يعاملها معاملةً سيّئة، إذ كان يضربها ويعنّفها ويرفسها كأنها حشرة، بينما كانت حاملاً، بل كان يتصرّف معها كما لو كانت جارية، يرغِمها على النّوم معه، وعلى غسلِ رجلَيه، وعلى القيام بأشياء شنيعة في الفراش، أشياءُ لم تستطع إسراء ذكرَها، بل إنّ عينَيها دمعتا عندما تذكّرت ذلك. مدَّ لها نبيل منديلاً، تابعت وهي تمسح دموعَها:

- بعد سنتين من المعاناة والمهانة، وجدتُ قدمَيّ تركضان في أزقّة تارلاباشي المظلمة، تاركةً طفلي، البالغ من العمرِ سنةً واحدة فقط، بين أحضان ذلك الوحش. وعندما طلبتُ الطلاق، حصلَ يوسف

على حضانة الطفل. لقد استطاعَ أن يُثبِت أنني أمٌّ غير جيّدة، لأنني ظللتُ خارجَ البيت بضعةَ أيّام قبل أن أطلبَ الطلاق!

بدَت إسراء أكثر شخصٍ وحدةً في العالم، كأنّ الكلام الذي قالته كانَ عالقاً في حنجرتِها، منتظراً أيّ أحدٍ كي يندفع إلى الخارج.

تابعتْ بحقد مغالبةً دموعَها:

- كان يخونني أمام عينَي، ويتعامل معي كما لو كان السّلطان سليمان القانوني!

كان نبيل يُنصت لإسراء باهتمام كبير وتعاطُفٍ بالغ. انسحبا معاً من زحمةِ المهرجان، وتوجّها إلى مقهىً هادئ مطلّ على البحر في حيّ السلطان أحمد، ليكملا حديثهما في هدوء. كانَ ينظر إلى يديها اللتين تتحرّكان وهي تشرحُ وضعَها مع زوجِها السابق الذي يمنعها من رؤية ابنها، وإلى عينَيها وهما تترقرقان بالدموع وهي تتحدّث عن شوقِها إلى رائحةِ طفلها، ينظر إلى طرحةِ رأسِها المزركشة بالورود وهي تتحرّك بفعلِ حركة الهواء، وإلى خصلاتِ شعرِها الأسودِ المجعّد التي انفلتت من الطرحة.

بدت جميلةً جدّاً في عينَيه. كان كلّ ما يحيط بها حلواً وهادئاً، لكنْ قوياً وصلباً في الوقت نفسِه. كانت أصيلةً، حقيقية مثلَ الحزن. غير قابلةٍ للانكسار. إعجابُه القويّ بها جعَله يغضّ الطرف عن كلّ تعقيداتِ قصّتها المجنونة، الجامحةِ كثورٍ جريح. أمسكَ بتلابيب الحوار وجرّه إلى عوالِم أكثر رِقّةً وجمالاً. تحدّثا عن حبّها للقهوة، عن عشقِها للكتابة، عن مهرجان التوليب الذي نُظّمَ في إسطنبول قبل أسابيع والذي حضره كلاهما ولم يلتقيا، تحدّثا عن المقاومة، عن الهروب، عن اللِّقاءات التي تأتي بالصدفة.. وأخيراً عن الحبّ.

* * *

عندما سمِع خالد هذه القصّة، فكّر مباشرةً في إيمان، لكنّه لم يستطع أن يتذكّر كيف كانت تبدو في عينَيه عندما كان لا يزال هائماً بعشقها. وفي الوقت الذي كان نبيل يحكي عن حبيبته بحماس وشوقِ المحبّ وقتَ البدايات، مستمتعاً بالغرق في الحبّ، رمى خالد بصره إلى البحر، ورأى قلبَه يطفو فوق الحبّ كما تطفو جثّةٌ فوقَ الماء.

بداية الخلق

فتحت إيمان عينَيها، فوجدت نفسَها في غابةٍ مخيفة، كثيفةِ الأشجار ومعتمة. كانت مستلقيةً على الأرض، وتتناهى إليها رائحةُ التربةِ قويةً وصاخبة. رفعت رأسَها ونهضت بصعوبة، فتراءى لها نورٌ غريب وقويّ يحجب الرؤية. تقدّمت إلى الأمام بخطواتٍ حذرة، مذعورةً من الصّمت الذي يملأ المكان. شاهدت غير بعيدٍ عنها امرأةً ترتدي ثياباً رثّة، واقفةً وأمامها شيءٌ أبيضُ شفّاف مرتفعٌ عن الأرضِ قليلاً. وحين أرادت أن تفتح فمَها لتكلّمها، التفتت المرأة، وابتسمت بمكر.

عادت المرأةُ المشوَّهة مرّةً أخرى. كانت هذه المرّة تحاول أن تركبَ فوق غيمة. قالت لإيمان المذهولة إنّ الغيمةَ ستعبُر بها السّماوات وستأخذها إلى الجنّة. تراجعت إيمان خطوتَين إلى الوراء، وعادت المرأةُ لتحاول من جديد حملَ رجلِها والصّعودَ فوق السحابةِ الصغيرة المرتفعة عن الأرض بمقدار سنتيمتراتٍ فقط.

كان جسدُ المرأةِ يتذبذب كأنّما هي بردانة. ترفعُ رجلَها اليمنى وتضعُها فوق السحابة، وعندما تحاول رفعَ الرّجل اليسرى، تصرخُ عالياً كأنّ أحداً يقطّعُ جسدَها بمنشار.

تكتفي إيمان بالتفرّج على المشهدِ من بعيد. كانت مذعورةً، غير قادرةٍ على تحديد المكانِ، في أيّ بقعةٍ من الكرةِ الأرضية يوجد.

الزّمن أيضاً غير محدَّد، ولا محدود. كأنّه يسبق وجودَ البشرية على الأرض، ولن ينتهي بانتهائها. لم يكنْ هنالك هواء. كلّ ما كانت إيمان والمرأة المشوّهة تتنفّسانه في تلك اللحظة هو عبارة عن ذرّاتِ خوف عنيف، فتختنقان، وترتعدان.

تحاول المرأة المشوّهة مرّةً أخرى رفع قدَمِها عن الأرض، لكنّ شيئاً ما كان يجذِبها إلى تحت، ويجعلُها ثقيلةً، فتعجزُ عن ذلك. وكلّما حاولت، كلّما تألّمت. صرختْ عالياً مرّةً أخرى، لكنّ القدمَ لم تكن تتحرّك. شعرتْ إيمان بالدوار وهي تتخيّل أنّ قدمَ المرأة المشوَّهة ستنفصلُ عن جسدِها.

هذا الخوفُ الذي يراود إيمان الآن ليس جديداً عنها، فكأنّها شمّت رائحتَه من قبل، وأحسّت بثقلِه في زمنٍ ما، في حياةٍ أخرى عاشتها. متى كان ذلك؟ بحثت في ذاكرتِها، لكنّها لم تجِد أيّ شيء. كانَ رأسُها عبارةً عن صفحةٍ فارغة بلا قصّةٍ ولا ذكريات.

صرَخت المرأةُ المشوَّهة بألم:

- ساعديني!

انكمشتْ إيمان على نفسِها، وقالت:

- لا أستطيع!

صرَخت المرأة المشوَّهة:

- بلى، تستطيعين! لنْ يكونَ الأمرُ صعباً لو ساعدتِني.

صاحت إيمان:

- سأموت إذا اقتربت.

صرخت المرأةُ المشوّهة:

- ستموتينَ من الخوفِ ما دمتِ لا تريدين الاقترابَ منّي.

صمتتْ إيمان وهي تحاول مداراةَ الأفكار التي توسوسُ لها أن

تقترب. تابعت المرأةُ المشوَّهة وهي لا تزالُ تحاول اقتلاعَ قدمِها عن الأرض:

- إنّها مجرّد غيمة! لماذا تخافين منها؟

صاحت إيمان:

- لماذا تريدينني أن أقترب؟

صرخت المرأة المشوَّهة وقد تعرّقَ وجهُها:

- ألا تريدين أن تذهبي إلى الجنّة؟

صاحت إيمان وقد ازداد خوفُها:

- الأرضُ تكفيني!

صرخت المرأةُ المشوَّهة:

- هل تريدين أن تظلّي خائفة؟

صاحت إيمان بدهشة:

- لا، ولكنْ...

قاطعتها المرأةُ المشوَّهة:

- إذاً عليكِ أن تتقدّمي إلى الأمام.

كانت أفكارُها لا تزال توسوس لها بالتقدُّم. شياطين صغيرة ترقصُ داخل عقلِها وتحدِث فوضىً مزعجة. رفعتْ رجلَها اليُمنى وهي تشعرُ أنّ قلبَها سيتوقّف عن الخفقان، ثمّ رفعتِ اليُسرى وخطتْ خطوةً إلى الأمام في اتجاه المرأة المشوَّهة. كان قلبُها ينبض بسرعةٍ وقوة، بينما كانت المرأةُ المشوَّهة تبتسمُ بحنان. وكلّما خطَت نحو الأمام، كلّما كانت وتيرةُ نبضاتِ قلبِها تتناقص، وتصبِح منظَّمةً أكثر. وعندما أصبحتْ قريبةً جدّاً من المرأة المشوَّهة، انحنت إلى الأرض. وبمجرّد ما لمسَت تلكَ القدمَ السّمراء المتشقّقة والتي كان الدّم يتفجّر من تشقُّقاتِها، حتى ارتفعَت عن الأرض. قفزت المرأةُ فوق الغيمة. شعرت إيمان بألمٍ حارّ في بطنِها وظهرِها، ثمّ بسائلٍ دافئ ينسابُ بينَ فخذيها،

ثمّ بدوار لذيذ. حدّقت في بنطالِها، فوجدتْه ملطّخاً بالدّم. رأسُها أصبحَ خفيفاً كمِنطاد. مدّت لها المرأة المشوَّهة يدَها. صعِدت إيمان فوق الغيمة، واستلقتْ في حالةٍ تشبه الإغماء وقد غمرَها سلامٌ غريب. كانت الغيمة ترتفع عن الأرض ببطء، وكان وزنُ إيمان يخفّ ويزدادُ خفّةً معَ الوقت. ولا تذكر متى بالضبطِ أخذَها الغفو.

* * *

فتَحت إيمان عينَيها. كانَ كلّ شيءٍ أمامَها أبيضَ ناصعاً: الجدران والأرضية والشراشف. أدركتْ، بعد لحظةِ دهشةٍ دامت ثوانٍ، أنّها في المستشفى، وأنّها أجهضت الجنين الذي كان يسبحُ في فقاعتِه الصّغيرة داخل بطنِها.

جسدُها مخدَّر، وعقلُها يشوبه إحساسٌ فظيعٌ بالذنب، ليسَ من أجل الجنينِ فقط، بل من أجلِ خالد أيضاً. خالد الذي لا يعرِف أنّ زوجتَه كانت حاملاً أصلاً. أمّا حماتُها، فلو عرفت بما حصل، ستقتلُها.

عدمُ اكتراثِها لما حصل، وغيابُ أيّ مشاعرِ حبّ تجاه طفلِها جعلا الذنب يعتصرُها أكثر. تدّعي كلّ الأمّهات أنهنّ يشعرن بالحبّ تجاه أبنائهنّ وهم لا يزالون أجنّةً في أرحامهنّ. ما بالها لا تشعرُ إلّا باللامبالاة؟

في لحظةٍ واحدة، شعرَت بالغثيان، وبرغبةٍ في البكاء، وبإحساسٍ عميق بالوحدة، وبرغبة قوية في تناولِ مهلّبية بالقرفة. وحين تحرّكت وسط الشراشف، دخلت الممرّضة مرتديةً وزرتها البيضاء الناصعة.

قالت بإنجليزية ممزوجةٍ بلكنةٍ تركية:

- الحمدُ لله على سلامتِك. مرّت العملية بنجاح. كيف تشعرين؟

اتسَعت عينا إيمان، وانهمرت دمعةٌ من عينِها اليسرى. قالت:

- بالذنب!

قالت الممرّضة بابتسامةٍ مطمئِنة:

- هذا طبيعي، تشعرُ العديدُ من النساء بهذا عندما يجهضن، لكنّهن سرعان ما يتخلّصن من هذا الشعور بمجرّد تحسُّن حالتهنّ الصحية.

سكتت قليلاً وهي تسجّل شيئاً على ملفّ تحمله، ثمّ أضافت:

- كانت بنتاً.

ترقرقت عينا إيمان بالدّموع. صاحت:

- وهل يمكن تحديد جنسِ الجنين منذ الشهرَين الأوّلَين؟

قالت الممرّضة بنفس الابتسامة المطمئنة:

- طبعاً.

تخيّلت الطفلةَ تركضُ في البيت بفستانٍ ورديّ مزيّنٍ بالورود، وحذاءٍ صغير الحجم كحذاء دمية. تخيّلت رأسَها الصغير الذي لا تغطّيه إلّا شعيراتٌ قليلةٌ ناعمة، وضحكتها التي تخرج من فمٍ لم تنمُ أسنانُه بعد، ورائحتَها التي تشبِه رائحةَ الحليب الطازج، واعتصرها الذنبُ أكثر.

يقولون إنّ الإنسان عندما يولد يكون عبارةً عن صفحةٍ بيضاء ناصعة، تتكلّف الحياةُ بملئها بالقصص والحكايات، والأخطاءُ بتدنيسِها. أضافت إيمان خطأً جديداً إلى صفحة حياتِها اليوم، خطأً لا يُغتفر.

فكّرت أنّ المشكلة في الحملِ هي كونُه لا يمنحُ سوى خيارَين اثنَين، إمّا الاحتفاظُ به وإمّا التخلّص منه، والخياران كِلاهما يحتملان الوقوع في الخطأ، فإذا كان التخلُّص من جنينٍ خطيئة، فإنّ الاحتفاظَ به خطيئةٌ أكبر. ليس الآباء مَن يمنحون السّعادةَ لأبنائهم. السّعادةُ قدَر،

وكلّ ما يستطيع الآباء والأمّهات توفيرَه هو ظروف حياةٍ مريحة. ماذا لو احتفظت بهذا الجنين، فعاشَ حياةً تعيسة؟

اجتاحتها مشاعر كثيرة لم تستطع تفسيرَها، في لحظةٍ واحدة، فكّرت في بدايةِ الخلق، وتناهت إلى أنفِها رائحةُ التراب، وأحسّت بملمسِ السائل المنويّ، وآلام الحيض، ورأتْ لونَ الدّم.. وتساءلتْ كيف يمكن أن تكون الحياةُ بعظمتِها وآلامِها ومآسيها وسعادتِها مجرّدَ شيءٍ تكوّن بسببِ بويضةٍ وحيوانٍ منويّ لا يُرى حتى بالعينِ المجرّدة؟

تمنّت لو أنّ الحملَ لا يحصلُ إلّا عندما يكون هناك حبٌّ كبير بين المرأة والرّجل، لكنّ أغلبَ الأطفال الذين يولدون كلّ يوم، يكونون مجرّد نتيجةٍ لاختراق حيوانٍ منويّ لبويضة، وفي بعضِ الأحيان، دون حتى أن يشعرَ الشريكان بلذّة الجنس. إنّها نفسُها وُلِدت من صلبِ رجلٍ لم يرغب في رؤيتِها تكبر أمام عينَيه، ولا حتى في التعرّف إليها.

ثمّ ماذا إذا كانت المرأة تحبّ رجلاً آخر غير زوجِها، إذا كانت تفكّر أثناءَ الجنس برجلٍ آخر؟ هل ينبغي اعتبارُ الجنين الذي حملتْه إيمان بنتَ خالد، لأنّها نتجتْ عن حيوانه المنويّ، أم بنتَ كِنان، لأنّ التفكير فيه هو الذي جعلَ إيمان تتجلّدُ على ممارسةِ الجنسِ مع زوجِها؟ ثمّ ماذا لو كان الأطفالُ ينتجون عن اختراق فكرةٍ للدّماغ وليس عن نفاذ حيوانٍ منويّ إلى بويضة؟

تحرّكت بجسدِها المهدود على السرير، وقد أنهكَها التفكير واجتاحتها حرارةٌ كالحمّى حتى تعرّقت. تناهى آذانُ العصرِ إلى مسمَعِها من جامعٍ قريب، فارتختْ في اطمئنانٍ غريب. كانت في حاجةٍ إلى التمسُّك بأيّ شيء من أجل القدرةِ على الوقوف على قدميها من جديد.

عندما كانت تنهض من السّرير، فكّرت أن الإنسانَ ضعيف ولا يساوي أيّ شيء، ما دام أنّ أمره يمكن أن ينتهي بهذه السرعة، ودون حتى أن يعِيَ ذلك.

عادت إلى البيت قبلَ غروب الشمس بقليل، حاملةً كيساً مليئاً بعُلبِ المهلّبية بالقرفة. كانت جائعةً وعطشانة. وجدَت زوجَها وحماتَها جالسَين في البهو يشربان شاياً تركياً. كانتْ زْهور تتعاملُ بشكلٍ خاصّ مع ذلك الكأس ذي الخصر النحيل والحوافّ الرفيعة، لأنه كأس تركيّ! ذكّرها شكلُ الكأس بزهرةِ التوليب. ابتسمت بتصنُّع وهي تسلّم عليهما وكأنّ شيئاً لم يكنْ. كانَ عليها أن تتظاهرَ باللطفِ أكثر من أيّ وقتٍ مضى حتى لا يشعرا بأيّ شيء، خاصةً حماتها، التي كانت من ذلك النوع من النساء اللواتي يستطعن العثور على إبرةٍ وسطَ كومةِ قشّ.

قالتْ زهور:

- متى سنراكِ يا عزيزتي إيمان وأنتِ تقضين النّهار كلّه في الخارج؟ سأعود إلى المغرب عمّا قريب، ولم أجد الفرصة للحديث معكِ بعد!

قالتْ هذا، ثمّ ضحكت وهي ترمقُ ابنَها كأنها تمرِّر له رسالةً مشفّرة. كان خالد في تلك اللحظة، ينظر إلى عينَي إيمان مباشرةً، وكانَت نظرتُه تغلي غضباً.

قال بنبرةٍ باردة:

- تأخّرتِ كثيراً. . أصبحتُ أسبقك في العودةِ إلى البيت!

جلستْ إيمان بقربه، طوّقت عنقه بحنان، وقالت لتهدئة الأوضاع:

- أنا آسفة يا حبيبي، من الآن فصاعداً، سأعملُ في البيت، ولن أسمحَ لأيّ شيءٍ أن يزعجك.

وحين همّت بتقبيله، زمّت زهور شفتيها ومسحتهما بطرفِ طرحتِها، متظاهرةً بالتحديق في الجدار أمامها. كانت إيمان تعرِف أن حماتها تشاهد بطرف عينها، كلّ شيء.

49

عندما تتساقط أوراق العشق

حدّقت إيمان من النافذة إلى المارّة وهم يدوسون أوراقَ الأشجار التي تغطّي الرّصيف في الخارج. تساقُط أوراق الشجر يذكّرها بالأفلام الغارقة في الرومانسية التي كانت تشاهدها عندما كانت مغرمةً بخالد، وأيضاً بحلمِها في السّفرِ إلى باريس لرؤيةِ ذلك المشهدِ هناك. لكنّ قلبَها لم يكن قادراً على تذكُّر الإحساس الذي كان ينتابُها وهي واقعةٌ في الحبّ.

لم تخرج من البيتِ منذ حوالي شهر. وتوقّفت عن الذهاب إلى بيه أوغلو والسّير في أزقّته. تعبٌ غريب تسرّبَ إلى أوصالِها منذ تجربةِ الإجهاض، كأنّها ما عادت المرأةَ نفسَها التي كانت قبل الحمل. سرى الهدوء في شرايينها، وغمر بطنَها ومعِدتَها ورأسَها، فتراءت لها فكرةُ البحثِ عن كِنان بلا معنى. أمّا انتظارُ رسائل زهرة التوليب فلم يعد ضِمن حساباتِها. كلّ شيءٍ كان ضرباً من العبث والجنون، وما عادت كلّ هذه الأمورِ تعنيها.

تكلّست عواطفُها. حتى حضور خالد بجانِبها لم يعد يثيرُ فيها أيّ شعورٍ بالانزعاج. يقبّلها أحياناً، يطوّقها بذراعَيه في بعضِ الأحايين. يأتيها في الكثير من الأحيان وهي تطبخ ويجلس بجانبِها ليروي لها نكتاً تافهة. يهديها وروداً تارةً، ويساعدُها في التنظيف طوراً. تكتفي بالابتسام بجمود أحياناً وهي تفكّر أنّ الأمور في الحياةِ أقوى من أن

تُجرّ نحوَنا أو تُدفَع بعيداً عنّا. تتكلّم معه أحياناً أخرى، وتنتظر أن يمرّ الوقت.

عادت إلى عاداتِها القديمة: طبخُ الأطباق المغربية للعشاء، وانتظار خالد على طاولةِ الطعام، لكن دون ارتداء الفساتين الحمراء ولا الكعب العالي، ودون وضعِ أيّ مساحيق على وجهها، ودونَ السّير خمس خطواتٍ نحو النافذة لتنظرَ إليه وهو قادمٌ من عمله.

أصبحت تعملُ في البيت، وتقضي استراحاتِها في الشرفة أو عند النافذة تدخّن السّجائر، وتنظر إلى أوراق الأشجار وهي تتساقطُ على الرّصيف بهدوء، كما تتساقطُ الأيّام من عمر الإنسان.

ولأنّ الحياة تستمرّ، ولأنّ الكثيرَ من الناس يعيشون مع بعضهم البعض تحت سقفٍ واحد، وينجبون الأطفال، دون أن يطيق الواحد منهم الآخر، فإنّ فكرةَ الطلاق بدأت تتسلّل من دِماغ إيمان رويداً رويداً. هل أصبحت نسخةً من أمّها وحماتِها والنساء اللواتي قضين حيواتهنّ مع رجالٍ لا يكنُنّ لهم أيّ مشاعر؟ تساءلت ذات يوم بينما تنفضُ ملاءةً في الشرفة، لكنْ سرعان ما تطايرت فكرتُها مع الغبار وقد استحالت سراباً.

جاء الخريف وتساقط غضبُ إيمان ورغبتُها في الهرب. تساقط حماس خالد في إصلاح الأمور أيضاً. أصبح يقضي معظمَ وقتِه في الخارج. يسهرُ كثيراً ولا يعود إلّا في وقتٍ متأخّر من الليل، ثمّ يذهب إلى العمل متأخّراً في الصباح. كانت إيمان تراقبُه يذبل كأنّه ما عاد الرّجل نفسَه الذي كان يعشق عملَه، ولم تكن مكترثةً لذلك.

في اللحظةِ التي حدّقت فيها إيمان إلى المارّةِ وهم يدوسون أوراق

الأشجار، تناهى إلى سمعِها رنّةٌ قصيرة. وصلتها رسالةٌ من زهرة التوليب على بريدها الإلكتروني. لم تصدّق عينَيها وهي تقرأ:

إلى نبتة الصبّار القوية،

تردّدتُ كثيراً قبلَ أن أكتُبَ لكِ. عادةً لا أجيبُ على الرسائل التي تصِلني على هذا البريد، لكنّني وجدتُ في رسالتك شيئاً من يأسٍ يُشبِهني إلى حدٍّ كبير.

قبل سنوات، أخبرني أبي أنّ الغربةَ الحقيقية ليست تلك التي نشعر بها في بلدان غير بلداننا، بل تلك التي نشعر بها ونحن داخل أوطاننا، فنضطرّ للبحث عن وطنٍ جديد، وأغلبُ الظنّ أننا لا نعثر أبداً على وطنٍ آخر، ونضيّع الطريق إلى أوطاننا الأصلية.

عندما أشعر بالاغتراب، ألجأ إلى الخيال والكتابة والكتب. لكنّها لا تعوّض الوطن أبداً، لأنني أكون فيها لاجئةً لا غير.

أحسّني أحياناً نبتةَ صبّار، وأنا أواجه كلّ العقباتِ بقوة وإرادة. لكنّ زهرةَ التوليب تشبهني أكثر. إنني، على عكسِك، أحتاج الكثير لكي أتفتّح، أحتاج دفئاً وصفاءً ورقّةً وجوّاً ربيعياً رائقاً. أمّا البردُ والجفاف فيجعلانِني أنغلقُ على نفسي وأفقِد جاذبيتي.

وإذا كنتِ تنتعشين عندما تقرئينني، فتخضرّين، فأنا أتدفأ عندما أقرأ رسالةً مثلَ رسالتك، فأتفتّح.

أودّ التعرُّف إليكِ أكثر.

مع محبّتي

زهرة التوليب

اهتزَّ جسمُ إيمان وتفتّحت مسامّها في قشعريرةٍ قوية. لم تعرِف إذا كانَ عليها العودةُ إلى التفكير في خطّتها، أم الاستمرارُ في السّير في

الطريق الذي حدّدته لها الحياةُ سلفاً، طريقُ النسيان والتعايش مع الوضع كيفما كان. فإذا كانت زهرة التوليب هي والدةُ كِنان، ما هي علاقةُ إيمان بالأمر كلّه؟ لا علاقةَ لها بالموضوع ولا شيء سيتغيّر. ستظلّ زهرة التوليب هي تلك الكاتبة التي كانت تقرأ لها كثيراً قبلَ سنوات، لا أقلّ ولا أكثر.

ومع ذلك، لم تستطع أن تمنعَ نفسَها من التفكير في جواب. أرادت فقط أن تتواصلَ مع واحدةٍ من كاتباتها المفضّلات اللواتي يُثِرن في داخلِها مشاعرَ الدهشة والتأثُّر والحبّ.

توجّهت نحو البهو بخطواتٍ سريعة. تخلّصت من حِذائها، وقفزت على الكنبة، حاملةً هاتفها في يدِها. رفعت رأسَها مبتسمةً، وراحت تفكّرُ في كلامِ حميميّ يفتحُ مساحاتٍ جديدة بينَها وبين زهرة التوليب.

كتبت:

زهرة التوليب الرقيقة،

أنا إنسانةٌ تحبّ التحديق ملياً في انعِكاس وجهها في المرايا وفي زجاجِ النوافذ. كثيراً ما أتسمّر أمام نافذةٍ ما وأنهمك في مداعبة خصلاتِ قلبي، وأنا أحدّث نفسي بنفسِ نبرة الجدّات حين يروين قصصهنّ الدافئة والحلوة.

هل أحتاج فعلاً إلى ذلك لأهدأ؟ الأزقّةُ حولي صاخبةٌ بالغربة، وفي روحي تصدحُ فيروز وإديث بياف وأم كلثوم. أضجّ أحياناً بالأدرينالين مثل أرجوحة تتطايرُ في الهواء، وأنا أفكّر في حياتي المليئة بالأسرار، فأرتعشُ بخوف مثل شقيقةِ نعمان رقيقة.

أحبّ أن أكون رقيقة، لكنْ ليس كالأميرات، بل كالفلّاحات. أعلمُ أنّ الرقّةَ ليستْ بشرةً كريستالية ناعمة، بل ضحكةً نابعةً من القلب لحظة الاستراحةِ من الكفاح.

ومع ذلك، لم أعرِف الكِفاح كثيراً في حياتي. لقد رُبّيت على أن أكون دميةً سهلة التكسّر، ولذلك أنا اليوم حسّاسةٌ وهشّة، أستشعرُ الأشياء بسرعة مثلَ لغم، ويستطيع نَفَسُ فراشةٍ أن يوقظني من غيبوبة.

مثل الجميع، ارتكبتُ الكثير من الأخطاء، وأبحثُ اليوم عن الصفاء. ماذا عنكِ؟

مكتبة
t.me/t_pdf

بعد دقائق، بعثت زهرة التوليب:

نبتة الصبّار القوية،

ليست لديّ أسرار كما تعلمين. أسراري كلّها موجودةٌ بين سطور ما أكتبه على مدوّنتي، والقرّاء الأذكياء مثلكِ فقط يستطيعون أن يستشفّوها.

ما لا يعرِفه أحد هو أنّني فقدتُ والديّ في يومٍ واحد، ومنذ هذا الحدث وأنا مُرّةٌ وساخرة وحالكة كقصائد بودلير. ثمّ هناك الأمومة، التي جعلت مني امرأةً تضجّ حناناً وشاعرية، ثمّ الحرمانُ من الأمومة الذي جعلَ منّي امرأةً قاتمة ولا تطاق. إنني كلّ هذا المزيج. أعشقُ القهوة أيضاً، والألوان البهيجة، والضحك. حزني وارفٌ وبهيج، ومهمتي في الحياة أن أخرج في كلّ يومٍ جديد، بكامل أناقتي من جرح العالم.

كتبت إيمان:

زهرة التوليب الجميلة،

أظن أن كل واحدةٍ منا تعيشُ غربةً بشكل ما، وتواجه هذه الغربة بطريقتها. لكن، لماذا هربتْ زهرةُ التوليب تاركةً كلّ شيءٍ وراءها؟

ردّت زهرةُ التوليب:

نبتة الصبّار القوية

ليسَ هروب المرأةِ من بيتِ الزوجية في مجتمعاتِنا الإنسانية شيئاً سهلاً، ولم نعتد على امرأة ترغب في الهروب، بما أنّ النساء يمِلن أكثر إلى الاستقرار والثبات في مكانٍ واحد. بينما من حقّ الرجال دائماً أن يتركوا كلّ شيء للرّكض وراء أحلامهم، أو بحثاً عن الراحة في مكانٍ جديد، بما أنّ هذا يدخل ضمن طبيعتهم بالنسبة إلى المجتمع.

قالَ ريلكه ذات مرّة إن المرأةَ ستوجدُ يوماً ما في زمنٍ لا يعني فيه اسمُها شيئاً عكسَ الذكورة فحسب، بل شيئاً خاصّاً بنفسه، شيئاً يُفكّر فيه ويوصف بكلماتٍ لا تهدِف إلى التحديد والشمول، بل إلى الحياة والوجود.

لقد كانت النساءُ دائماً تابعاتٍ للرجال، لكنّهن اليوم صرنَ كياناتٍ قائمة بذاتها. أصبحن يفكّرن ويعملن ويحببن ويحلمن. وانطلاقاً من هذا أصبحَت تتولّد لديهنّ هذه الرغبة في ترك كلّ شيء والهرب، عندما لا يكنّ غير مرتاحات وغير راضياتٍ عن حيواتهنّ وأوضاعهنّ.

زهرةُ التوليب هربتْ لأنّها كانت تعيسة. لا تظنّي أنّ من السّهل أن يترك الإنسان أطفاله من أجل أن يعيشَ بكرامة. إنه أمرٌ أصعب ممّا تتصورين، لكنْ عندما يصلُ بك الأمر إلى درجاتٍ عليا من التعذيب والإهانة، قد تضطرّين للهرب والنفاذ بجلدك، ولو كان في ذلك تهديدٌ لحياتِك نفسِها.

ردّت إيمان:

زهرة التوليب الجميلة،

كانَ موضوع الأمومة دائماً مصدرَ قلق وتساؤل. أعرفُ أنّ الأطفال في حياةِ أمّهاتهم ليسوا كالأطفال في حياة آبائهم. إنّ الأمّ

تحتضن طفلَها منذ اللحظات الأولى في تكوّنه، بل إنه يكون جزءاً من جسدِها، والأمّ في أغلبِ الأحيان هي التي تربّي وتمنحُ من وقتها وطاقتِها من أجل أطفالها، عكس الأب الذي لا يتعرّف إلى طفله إلّا بعدَ أن يخرجَ إلى العالم، وفي مقدوره امتلاك حياة اجتماعية ومسيرةٍ مهنية والتركيز على عمله وإبداعه وأحلامه حتى بعد ولادة الطفل.

أمّا الطفل في حياةِ أمٍّ كاتبة ومبدعة، فهو تجربةٌ أخرى مختلفة تماماً، أصعبُ وأقسى. إذ كيف يمكن للكاتبة التي تنظرُ إلى أعمالِها على أنّها أبناؤها أن تتّخذ لها أبناء آخرين يأخذون من وقتها وجهدها وطاقتها؟

لا أقول إنّ الكاتبات لا يستطعن أن يكنّ أمّهاتٍ جيّدات، لكنّني أظنّ أنّ الأمر صعبٌ للغاية، وقد أثبتَ لنا التاريخ كيف أنّ الكثيرات منهنّ طُمِرت أسماؤهنّ داخل الحفّاظات، وأخرياتٍ نسينَ مواهبهنّ الأدبية وسط البكاء والرضّاعات. هل كانت سيلفيا بلاث أمّاً سعيدة؟ ماذا عن زيلدا فتزجيرالد، ودوريس ليسينغ؟ وأليف شافاك نفسُها التي خصّصت لهذا الموضوع كتاباً كاملاً، كم كانت تحتاج من القوة لتستطيع تجاوز سؤال «الأمومة أم الكتابة؟»، حتى تستطيع الجمْع بين الاثنتين؟

قبل ثلاثة أشهر، اضطرِرت لإجراء عملية إجهاض. لم يكنْ للأمرِ علاقةٌ بالكتابة ولا بالإبداع، بل بالرّجل الذي أعيشُ معه، والذي لم أعد أحبّه. هل أنا أمّ صالحة لأنني لا أريد لطفلي أن يعيش في بيتٍ مليءٍ بالكذب والحقد والتظاهر، أم أنني امرأةٌ متجرّدةٌ من مشاعر الأمومة لأنني لم أمنح لهذا الطفل فرصةَ أن يستنشق هواء العالم؟ لا أعرِف الجواب عن هذا السؤال. سأتركُ هذا للوقت.

مع محبّتي

نبتة الصبّار الحزينة

كانت السّاعة تشير إلى الحادية عشرة ليلاً. غارقةً في التفكير، توجّهت إيمان إلى الشرفة مرتديةً معطفاً طويلاً فوق فستان النّوم الورديّ الخفيف. كانَت الشوارعُ صامتةً لا يشوبُها سوى صوت الرّياح العاتية وحفيف أوراق الأشجار وهي تتطاير. البيتُ أيضاً صامتٌ وفارغٌ من أيّ نَفَسٍ بشري. شغّلت إيمان سيمفونية Ave Maria لشوبرت، وراحت تنظر إلى شاشة الحاسوب في انتظارِ جوابٍ من «زهرة التوليب».

بعد دقائق، ردّت زهرة التوليب:

نبتة الصبار...

الكثيرون كتبوا لي، وحاولوا التواصل معي، لكنّني في كلّ مرّة كنت أتردّد في الجواب. لا أعرف لماذا جعلتني كلماتكِ أرتاح، ربّما لأنّ فيها نزيفاً مستتراً. أرى صوراً كثيفةً للألم في رسالتك الأخيرة، وأتخيّل أننا صديقتان منذ زمنٍ بعيد، على الرغم من أننا لا نعرف عن بعضنا البعض أيّ شيء. لا تهمّني معرفةُ اسمك ما دمتُ قادرةً، عبر كتاباتِك، على الاطّلاع على بعضٍ من معالم دواخلك، التي تشبه إلى حدٍّ كبير دواخلي. أحسّ الآن بأعماقي تتفتّت وحشةً وأنا أنظر، عبر النافذة، إلى البيوت القديمة في هذا الزقاق المظلم من أزقّة حيّ الفاتح بإسطنبول. تعوّدت على ثقل هذا السّكون ورتابته، واعتدتُ على مراقبة الوقت وهو يمرّ أمامي في الظلمة بسرعةٍ كشبح. والآن، أحسّ أنّ رسائلك تعيدُ إلى السّكون خفّته وطعمه الحلو وفتنته.

إنني أفكّر الآن، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، في حياتي. أستعيدها صورةً صورة، شهقةً شهقة، وأشعر أنني قادرة على ترتيبها في لوحةٍ متكاملة ولها معنى. لوحةٌ أضعُها أمامي وأحدّق بها بعمق وأستطيع أن أفهم، عبرها، كلّ ما صرتُ عليه الآن.

زهرة التوليب

اهتزّ قلبُ إيمان مرّةً أخرى حين قرأت عبارة «حيّ الفاتح بإسطنبول». يعني هذا أنّ زهرة التوليب امرأةٌ حقيقيةٌ من لحمٍ ودم، موجودةٌ بالفعل، تعيش في زقاقٍ من أزقّة إسطنبول القديمة، وتكتب رسائلَ عميقة، وتردّ على كلّ الرّسائل. أحسّت إيمان بالانتصار، شعورُ من بحثَ كثيراً عن شيءٍ ما، ثمّ عثرَ عليه بعد انتظارٍ طويل، وصارَ في قبضته.

شرعَت في الكتابة:

زهرة التوليب...

زوجي لم يعدْ بعد من سهرته الطويلة التي ربّما لن تنتهي حتى الرابعة صباحاً، لا يهمّ.. ما يهمّني هو أنني أشعر الآن كأنّ صديقة حميمة جرّتني نحو خلوةٍ طويلة يكتسِحها الحكي والضحكات والمغامرات، بعيداً عن ضجيج العالم.

أتمنّى أن تطولَ صداقتُنا...

مع محبّتي

صبّارة

ردّت زهرةُ التوليب:

صبّارتي العزيزة

كانت لديّ صديقةٌ وحيدة أيّام الثانوية، لكنّ ظروف الحياة أبعدتني عنها. أشعر الآن أنني قد بدأت أبني صداقةً حقيقية مع إنسانةٍ ناضجة وجميلة. أشعر أنني لن أكون وحدي بعد الآن في معارك الحياة الطويلة والقاسية.

ليلتك سعيدة،

زهرة التوليب

بعد أن قرأَت الرسالة، دخلت إيمان، وأغلقت باب الشرفة، ثمّ ارتمت على السرير مُسندةً رأسها إلى المخدّة مغمضةً عينَيها شاعرةً بسعادةٍ غامرة. لم تعرِف متى وكيف أخذَها النّوم. في لحظةٍ ما، أيقظَتها قهقهاتٌ قوية وبابٌ يُغلقُ بعنف. كانت السّاعةُ تشير إلى الرابعة صباحاً، وكان خالد قد دخل لتوّه وهو يتحدّث في الهاتف مع شخصٍ ما.

عادت إلى النوم.

وداعُ الأشياء

في الشقّةِ الواقعة في الطابق الثالث من مبنىً قديم في زقاق داوود أفندي، استندت هازال على كرسيّ خشبيّ هزّاز وسطَ البهو، مباشرةً أمام النافذة المفتوحة على فضاءٍ مظلم، إلى جوارِها حقيبتان بنّيتان كبيرتان تحتويان على ملابِسها وأحذيتِها.

كان الكرسيّ يهتزّ بها بينما تنظرُ إلى جنباتِ البهو الذي تحوّلَ إلى مزبلة بعدما تخلّصت من كلّ الأشياء التي لا تحتاجُها، وجمعَت أغراضَها استعداداً للعودةِ إلى بيتِ والدَيها في شوقور جمعة بعد أيّامٍ قليلة، أو ربّما بعد شهر أو أكثر.. لا يهمّ. المهمّ أن تكون مستعدّةً للرحيل في أيّ وقت.

وجهها شاحب كوجه جثّة. عيناها مفتوحتان على آخرهما كأنّها شاردةٌ في عالم آخر، لكنّهما في الحقيقةِ مركّزتان في القطّ باكي الجالسِ قُبالتَها على الأرض فاتحاً عينَيه الرّماديتين ومحرّكاً ذنبَه يمنةً ويسرة. تمسك كأس النبيذ الأحمر في يدِها، وتشرب دون أن ترمش عينها ولو لحظةً واحدة، ودون أن تُبعِد نظرَها عن باكي، الذي كان ينظر إليها كأنّما يتساءل عن سببِ جمودِها الغريب، كأنّها تمثالٌ محنّط.

حين حرّكت رأسَها بعد بضعِ دقائق، وثبَ القطّ باكي وجلسَ في حضنِها، لكنّها لم تضمّه كما تفعلُ عادةً. كانَ عقلُها يفكّر باستغراب

في تجرّدها العجيب هذا من كلّ شيء، وحيادِ مشاعرها إزاء هذه الشقّة التي قضت فيها سنةً ونصف، وأثاثِها الذي استعملته واستلقت عليه ونامت فوقه طوال هذه المدّة. كأنّها ترى تلك الأشياء لأوّل مرّة، وكأنّها ما أحسّت بوجعِ الوداعِ من قبل في حياتِها.

ذاكرتُها عبارة عن غرفةٍ خاوية إلّا من بقايا أشياء لا تصلح لأيّ شيء، تماماً مثل هذا البهو الذي تجلسُ فيه الآن، الذي تغمره الفوضى، والفواتير المدفوعة، وقوائم الطعام، ومشدّاتِ شعرٍ مكسورة، وأصباغ أظافر منتهية الصلاحية، وغبار... غبار في كلّ زاوية.

عاجزةً عن التذكّر وعن الإحساس بالعالم والأحداث والأشياء حولَها، شرِبتْ من كأسِها مجدّداً وهي تمسّد رأسَ باكي من دون حنان، ثمّ تتنفّس عميقاً باحثةً عن دمعةٍ تُعيد المعنى إلى الأشياء من حولها.

الكرسيّ يهتزّ بجسدِها. تبحثُ عن تقاسيم كِنان داخل ذاكرتِها، لكنّها لا تعثر إلّا على وجهٍ مضبّب. تركضُ داخل ذاكرتِها مجدّداً مثل حصانٍ مجروح، باحثةً عن ملامحِ ناجي وصوتِه الدافئ، لكنّها لا تعثر إلّا على مقطعٍ يظهر فيه وهو يديرُ ظهره لها ويرحل. تبحثُ عن أملٍ داخلَها ينقذها من مرارةِ العبث، لكنّها لا تجدُ غير اليأس، ثقيلاً ومعتّقاً كنبيذٍ قديم.

يقفز القطّ باكي من حضنِها، ويجلسُ أمامها من جديد، ناظراً إلى عينَيها الفارغتَين. تبتسمُ له بسخرية مريرة، وتشربُ من كأسِها. تغمضُ عينَيها وهي تستمعُ إلى هبوبِ الرّياح القوية وحفيف أوراق الأشجار الميّتة وهي تتطايرُ، وإلى لحظاتِ السّكون التي تفصِل بين كلّ هبوب وآخر. ستغادر هذا البيتَ قريباً، وستتوجّه إلى بيتِ والدَيها ورأسُها فارغٌ من أيّ هدفٍ محدَّد في الحياة. يراودُها شعورٌ قويّ كأنّها ستعودُ إليه. ما فائدةُ كلّ الحياة التي عاشتْها خارج هذا البطن، ما دامت ستعودُ إليها في النهاية؟

تشعرُ بالدوخة وهي تنظرُ إلى عينَي باكي الرماديتَين. حلقةٌ مفرغةٌ تلك التي تدور هازال وسطها الآن. مساحةُ عدمٍ فسيحة من دون أُفُق. تشربُ من الكأس مرّةً أخرى، ثمّ تنخرطُ في البكّاء.

في لحظةٍ ما، تسمعُ رنين الهاتف. يظهرُ رقم إيمان على الشاشة. تهمّ بالردّ، ثمّ تتراجع. تفكّر أنّ حالةَ هذه المرأة أسوأ من حالتِها بكثير، لأنّها بلا حياة، ولم تمتلك يوماً حياةً. تنبجسُ ابتسامةٌ من بين دموعِها. هناك دائماً من هو أكثرُ معاناةً منّا. إيمان تكذبُ على الآخرين لتوهِم نفسَها أنّها تعيشُ الحياة التي تحلم بها. ناجي أيضاً يقتاتُ على أمنية بعيدة، مثلما يقتاتُ الفقراء على أحلامِهم. كِنان يستمدّ قوّتَه من التظاهر بالقوة وعدم الانكسار. مراد يُسقِط الفتيات في شباكه ليُثبت لنفسه أنه رجلٌ حقيقي. توبا تهربُ من فراغات الصّمت المخيفة ومن التفكير بالثرثرة والضحك. ياسمين تظنّ أنّها قادرةٌ على امتلاكِ الشيء ونقيضه، الشرق والغرب، في نفس الوقت. أليف تخفي ضعف شخصيتها وخوفَها من الفقدان وثقتَها المهزوزة بالنفس بالأصباغ والمساحيق. أبوها يطفئ نارَ شعوره الدائم بالدونية والاضطهاد بلعبِ دور الضحية. أمّها تتمسّك بقوميتها المفرطة لتمنع عينَيها من رؤية الفقر والذلّ الذي عاشته طوال حياتها في وطنِها.

انفرجت أساريرها أكثر وهي تفكّر في تفنُّن الإنسان في تغطية تعاسته العظيمة. رنّ هاتِفها للمرّةِ الثالثة.

كلّ شيءٍ سينتهي يوماً ما

فتحَت إيمان عينَيها ذات منتصف ليلٍ مقمر. كانَ باب الشرفةِ مشرعاً، تتغلغلُ منه ريحٌ خفيفةٌ تحرِّك السّتائر المزركشة. نهضتْ من الفراش وتوجّهت نحوَ بابِ الشرفة، بينما كانت خصلاتُ شعرِها تتحرّك بخفّة. نظرتْ إلى القمر المكتمل بسعادة وصفاء، وقد داهمها شعورٌ عارمٌ بالحبّ. تجاه من؟ لا تدري بالضبط. كلّ ما شعرتْ به أنّها قادرةٌ على احتواء العالم كلّه في تلك اللحظة.

هناك لحظاتٌ يستطيع فيها الإنسان رؤية حياتِه كاملةً أمامَ عينيه، مثل لوحةٍ مكتملة، أو فيلمٍ له بدايةٌ ووسط ونهاية ومغزى. استعادت ذاكرتُها، في ذلك المساء وهي تنظر إلى البدر المضيء، كلّ شيءٍ منذ البداية، منذ تلك اللحظة التي وطأتْ فيها قدمُها أرضيةَ مطار الدار البيضاء حتى الآن.

لم يكن خالد قد عاد إلى البيتِ بعد، ولم تكنْ مهتمّةً لذلك. تذكّرت حين كانَ يمسكُ يدَها في المطار، ويضغطُ عليها لطمأنتِها. ابتسمت بسخرية، ثمّ أغلقت بابَ الشرفة بهدوء.

وحين توجّهت نحوَ البهو، مرّتْ قربَ المرآة الكبيرة الملتصقة بالحائط، ورأت جسدَها جميلاً. تخيّلتْ مباشرةً اللحظةَ التي ستحصُل فيها على الطلاق، وكيف سينهال عليها المعجبون، لكنّها ستختارُ في النهاية كِنان. كِنان الذي ستمشي بجواره داخل قاعةٍ كبيرة مليئة

بالحضور، وهي ترتدي فستاناً أبيضَ طويلاً. تصاعدت سعادةٌ مفرطة في داخلِها وهي تتخيّل ما ستشعرُ به عندما ستكون في حضن رجلٍ تحبّه.

في البهو، انفجرت داخلَها طاقةٌ غريبة وهي جالسةٌ أمام شاشة الحاسوب تفكّر في الكتابة عن موضوعٍ يكسّر الدنيا. كانت مشاهدُ حياتِها في إسطنبول تنهالُ على رأسِها كمطرٍ غزير على شكلِ مواضيع: العنصرية، القومية، الغربة، الدراسة في تركيا، الثقافة التركية، العرب في إسطنبول، المثلية الجنسية، المتحوّلون جنسياً، الدعارة... نعم، الدعارة، هو الموضوع الذي كانت تبحث عنه، وبالضبط دعارةُ العربيات في تركيا، وخاصّةً في إسطنبول، وخاصّةً في تقسيم. كانت قادرةً على التفكير في كلّ شيءٍ بعقلانية، إلّا في قصّة حبّها لكِنان.

من المشاهدِ التي أثّرت في إيمان طوال مدّة إقامتِها في تركيا هو ذلك الكمّ الهائل من النّساء اللواتي يتحدّثن بالعربية، ويظهرن فجأةً في منطقة تقسيم عند منتصف الليل. كانت تنظرُ إليهنّ باندهاش، خاصّةً عندما تسمعهنّ يتحدّثن بالدارجة المغربية. عندما كانت تخرج للسهر مع خالد في بداية إقامتِهما هنا، كانت تلكزه كلّ مرّةٍ بمرفَقها وهي تهمس له: «إنّهن مغربيات»، فيلتفتُ خالد ليرى مجموعةً من الفتيات جالساتٍ إلى طاولةٍ كبيرة. فتياتٌ يبدين من بعيد متشابهاتٍ إلى حدٍّ كبير كأنهنّ خرجن من بطنٍ واحد، يرتدين نفسَ النوع من الملابس الفاحشة، ويصبغن شعورهنّ بنفس اللون الأشقر، ويخفين وجوههنّ بنفسِ طبقات وألوان الماكياج، وأحياناً يمضغن العلكةَ بنفسِ الطريقة. لكنْ، عندما يحدّق الواحد جيّداً بوجوههنّ، يستطيع بسرعة تحديد الاختلافاتِ الكبيرة في ملامحهنّ، فمنهنّ من هي جميلةٌ جداً، ومنهنّ من هي متوسّطةُ الجمال، ومنهنّ من هي بشعة لدرجةٍ لا تُتصوّر. يلكزُها خالد بدوره، ويهمس في أذنِها مشيراً إلى إحدى أولئك الفتيات: «انظري إلى

تلك الجالسةِ وراءكِ مباشرةً، تلك التي ترتدي فستاناً أحمر، انظري إلى طبقاتِ بطنِها والبثورِ في وجهها. لن أرغب في ممارسةِ الجنس معها حتى لو كانَ ذلك بالمجّان، حتى لو انقرضت النساء من على وجهِ الأرض»، ثمّ يضحكانِ بانتشاء مفرط.

أخذت إيمان تدوِّن بعضَ رؤوس الأقلام وهي تفكّر في مَن يمكن أن يساعدها للوصول إلى إحدى هؤلاء الفتيات. توقّفت قليلاً وهي تفكّر، ثمّ رنَت إلى النافذة وقد شعرَت بوحشةٍ غريبة لم تدرِ سببَها. في تلك اللحظة بالذات، رنَّ هاتفُها. كانَ رقمُ نبيل ظاهراً على الشاشة. استغربَت اتصاله بها في هذا الوقتِ، وحزرت أنّ مكروهاً حصلَ مع خالد.

ردّت على الهاتف، بينما كان قلبُها ينبضُ بقوة. قالَ نبيل:

- عزيزتي إيمان، آسفٌ جداً على إزعاجِك في هذا الوقت.. حاولتُ الاتصال بخالد لكنّ هاتفَه مقفل.

قالت إيمان وقد اتسعت عيناها في خوف:

- خير إن شاء الله؟

قالَ نبيل بصوتٍ متقطّع:

- خطيبتي في المستشفى.. أغميَ عليها بينما كنّا نتحدث في الهاتف، ولا ندري ماذا حصلَ معها.. هل يمكن أن تطلبي من خالد أن يأتي إلى مركز الأطبّاء السّوريين بالفاتح؟

تنفّست إيمان الصعداء، ثمّ قالتْ ببرود:

- خالد غير موجود، ولا أعرِف أين هو.

ثمّ استدركت بسرعة:

- أتمنى أن تكون خطيبتُك بخير.. هل يمكنني أن أساعدَ في شيء؟

سادَ صمتٌ قصير، ثمّ قال نبيل:

- في الحقيقة، بطاقتي البنكية لا تعمل، وأحتاج مبلغاً من المال لدفع مستحقات المشفى والأدوية.

أغلقت إيمان الحاسوب، وقالت بحزم:

- أنا قادمة. ابعث لي موقِع المستشفى على واتساب.

ارتدت ملابِسها، وخرجتْ من البيت وقد غمرَها إحساسٌ بالبطولة. لأولِ مرّة ستشعرُ أنّها قادرةٌ على فعلِ شيءٍ جيّد من أجل أحد، وأنّها تمتلك الوسائل التي تمكّنها من مساعدة الآخرين. كانَت نبضات قلبِها تتسارع من الفرح وهي تنظرُ إلى الشوارع من نافذةِ التاكسي. كلّ شيءٍ كان يمرّ أمام عينَيها سريعاً، المباني والعمارات والسّيارات والراجلون وعلامات المرور وواجهات المحلّات والأرصفة والأضواء والأشجار، بينما تتوجّه نحوَ بطولتِها الأولى في الحياة، مثل فارسةٍ منقذة. دمعةٌ خفيفةٌ سارت ببطء على بشرتها البيضاء عابرةً ثغرها الباسم وتلك التجعيدة الصغيرة التي خلّفها الزّمن في ذقنِها، متجهةً نحو عُنقِها المغطّى بشالٍ خريفيّ أخضر. تلك التي يسمّونها دمعةَ الفرح. نزلَت من سيّارة الأجرة بسرعة كأنّها في سِباقٍ مع الزّمن، ودلفتْ إلى المستشفى. لم تكنْ لتعيشَ مثلَ هذا الشعور لو أنّ خالداً كان موجوداً، لأنّ جسدَه الرجولي ونقودَه كانا يخفيانها، يغطّيانها بالكامل، ينتصِبان أمامَها جداراً يفصِلها عن التقدُّم نحوَ العالم، هي المرأةُ التي بلا مال ولا أيّ نوعٍ آخر من القوة. كانت تعرِف أنّ خالداً يتمايلُ الآن في حانةٍ ما، بينما تتوجّه هي بكامل وعيِها وبما جنته من تعبِها وعملِها، لتساعد إنساناً آخر. وكانَ مجرّد هذا يعطيها شعوراً غامراً بالسعادة.

* * *

في قاعةِ الانتظار بالمشفى، جلسَت إيمان مع نبيل وإسراء، في انتظار نتائج التحاليل. كانَ التعبُ بادياً على وجهِ إسراء التي أسندتْ

رأسَها على كتِف خطيبها، بينما كان نبيل يحضنُها بقوةٍ ممزوجةٍ بالقلق. أمّا إيمان، فقد هدّأت توتّرها العارم أمام هذا المشهد بالتفكير في أنّ كلّ شيءٍ له نهاية، وأنّ كل هذا الحبّ والقلق والاحتضان الصادق سينتهي يوماً ما، مثلما حصل بينها وبين خالد.

قالت إسراء بصوتٍ أجشّ وهي تنظر إلى إيمان:

- شكراً لكِ على مجيئك.. حدّثني نبيل عنكِ وعن خالد كثيراً، وكنتُ أتمنّى أن نلتقي في ظروفٍ أحسن.

حزرتْ إيمان مباشرةً أنّ إسراء تعرِف كلّ شيء عن تدهور علاقتِها بزوجِها، لكنّها ابتسمت، وقالت:

- حدّثني خالد عنكِ أيضاً.. أهنّئك على قوتك في مواجهةِ الحياة.

كانَ شيءٌ ما يغلي داخلَها، شيءٌ يشبه الحسد، لكنّها ظلت محافظةً على ابتسامتِها، متظاهرةً بالتعاطف مع إسراء والقلق عليها.

أضافتْ:

- أقدّركِ جدّاً يا إسراء، لذلك تركتُ عملي وأتيت.

قالتْها بنبرة «هل رأيتُم كم أنا طيّبة؟».

قالت إسراء بنبرةٍ تنمّ عن الامتنان:

- أشكركِ جدّاً.. فعلاً لا أعرِف كيف أشكرك...

قالَ نبيل مُقاطعاً لتلطيف الأجواء:

- تعملين في هذا الوقت؟

قالت إيمان بفخر:

- الكتابةُ ليسَ لها وقت يا عزيزي.

قالَ نبيل دون أن يتوقّف عن تمسيدِ ذراعِ حبيبتِه، كأنّها قطّة مدللة:

- عمَّ تكتبين؟

سكتتْ إيمان قليلاً كأنّها تستطعِم مذاقَ فكرتِها، ثمّ قالت:

- دعارةُ العربيات في إسطنبول.

أومأ نبيل تعبيراً عن الإعجاب. قالت إسراء كأنّها تبذل مجهوداً خارقاً لتتكلّم:

- موضوعٌ جيّد ومهمّ، لكنّه صعب.

قالَ نبيل:

- أستطيع أن أساعدكِ. . لديّ بعضُ المعطيات المهمّة.

قالت إيمان بحماسٌ:

- هل أتصل بكَ غداً؟

قالَ نبيل بابتسامةِ عرفان:

- طبعاً. سأكون في الفاتح، سأقيمُ مع إسراء في هذه الفترة.

قالَها ونظرَ إلى حبيبته كما تنظرُ الأمّ إلى رضيعِها.

عباءات حريم السلطان

كانَ مقهى «مرحبا» مقهىً صغيراً يقعُ في أحدِ أزقّة حيّ الفاتح بإسطنبول، وهو واحدٌ من المظاهر الشرقية في هذا الحيّ، والتي تجعلُ الزائر يشعرُ بنفسِه في أحدِ الأحياء العربية وليس في الجانبِ الأوروبي من إسطنبول. ففي بابِ المقهى، ينتصبُ العلمُ اللبناني، وفي داخلِه تصدح فيروز بأغنيتِها «لبيروت»، وتختلِطُ الأصواتُ العربية بروائح القهوة التركية في مزيجٍ شرقيّ محبَّب.

ليسَ مقهى «مرحبا» سوى جزءٍ صغير من الطابع العربي والشرقي لحيّ الفاتح، الذي يضمّ أكبَر عددٍ من العرب في إسطنبول. ذكّرت الأسواق الشعبية لهذا الحيّ إيمان بأسواق طنجة والدار البيضاء، بزحامها وصخبِها وألوانِها وروائحِها. الملابسُ المعروضةُ للبيع في الهواء الطلق بأثمنةٍ زهيدة، الإكسسواراتُ الرخيصة التي شكّلت هضباتٍ كبيرة وتتدافعُ حولَها النّسوةُ والفتيات المرتديات لعباءاتٍ طويلة. الخضرُ والفواكه. روائح التوابل والبخور التي تزكم الأنوف. الباعةُ الذين ينادون بصوتٍ مرتفع للفتِ الانتباه إلى بضائعهم ومعروضاتِهم. محلّاتُ الحلاقة والخياطة وشركات السّفر التي يمتلكُها ويعمل بها سوريون أو لبنانيون، والتي كُتِبت أسماؤها على الواجهة باللغة العربية. روائحُ الشوارما واللحم المشوي المنبعثة من المطاعم التي تحمل أسماء مكتوبة بالعربية أيضاً. أصواتُ غناء عربيّ تعلو كلّ

الأماكن. توقّفت إيمان بذهول أمام محلٍّ لبيع الملابس النسائية اسمه «عباءات حريم السلطان»، قبل أن تتابعَ طريقَها نحو مقهى «مرحبا»، وتتخِذ مكاناً فيه في انتظار نبيل.

عند الحادية عشرة صباحاً، كانت فيروز لا تزال تصدحُ بأغانيها الملآنةِ بالحنين والرّقة، وكانت إيمان تشربُ شاياً تركياً، حين دخلَ نبيل. رمقته بنفسِ نظرةِ التواطؤ التي كانَ يرمقُها بها حين كان يزورهما في البيت. أرادت استغلال غرقِ خالد في قعورِ كؤوس العرق والبيرة لتربَح صداقة نبيل. جلسَ إلى جانبِها وطلبَ قهوةً تركية، ثمّ قالَ بلطفه المعهود نفسِه:

- لماذا لم يأتِ خالد معكِ؟

قالتْ بثقة وراحة:

- لا يزال نائماً.

توقّفت قليلاً وقد وقعَ نظرها على فتاتَين لبنانيتَين تدخّنان النرجيلة، ثم أضافت دون أن تبعِد عينَيها عنهما:

- لم يعد إلى البيت إلّا عندَ الرابعة صباحاً...

كانَ الضيق بادياً على وجهِ نبيل. أحسّت أنه لم يعد يريد أن يحشر أنفه في علاقتِهما، لكنّها استمرّت في الحديث عن زوجِها:

- أصبَح يخرجُ كثيراً مؤخّراً، ويسهر كثيراً، ويشربُ كثيراً...

توقّفت قليلاً وهي تستمعُ إلى غرغرةِ إحدى الفتاتَين وهي تجرّ الدخان من النرجيلة. قفزَ وجهُ إسراء إلى ذهنِها. اتسعت عيناها، وسألَت بحزن:

- كيف يمكن أن تساعدني إذاً؟

ارتشفَ نبيل من قهوته، وقال:

- أرجو أن يبقى هذا الكلام الذي سأقوله لكِ بيننا، يمكنُ أن

تستعملي القصّة في مقالكِ، لكن دون الإشارة إلى اسمي. ولا تخبري إسراء بالأمر. . لا أريدُها أن تنزعج.

أومأت إيمان مطَمئِنة.

قال نبيل بعدَ أن ارتشفَ من قهوتِه بلذّة:

- اسمعي إذاً.

أومأت إيمان مرّةً أخرى، وعيناها تشتعلانِ فضولاً.

بحماسٍ كبير، بدأ نبيل بسردِ قصّته مع سِهام، الشابّة المغربية «الجميلة جدّاً» كما وصَفها. «لم أرَ امرأةً بمثل جمالِها من قبل»، قالَ وقد طفر من عينَيه حزنٌ عميق، وتابعَ سردَ القصّة.

في أحدِ الأيام الباردةِ جدّاً من شهر ديسمبر الماضي، التقى نبيل سِهاماً. كانت جالسةً إلى البار في حانة «أفندي» في نيشان طاش، مرتديةً فستاناً أسودَ قصيراً، وحذاءً بكعبٍ عالٍ. كانَ شعرُها الأسودُ الطويل والناعم منسدلاً على كتِفيها، وكانت تضعُ أحمر شفاهٍ غامقاً. جلسَ إلى البار بجوارِها يحتسي الويسكي. بعدَ ساعةٍ ونصف، اكتشفَ أنّ هذه الحسناء الأنيقة ليست في انتظار أحد. استجمَع شجاعتَه وكلّمها بالإنجليزية.

«لم أستطع مقاومةَ جاذبيتها، كانت ذكيةً ولطيفة ورائعةَ الجمال»، قالَ نبيل وهو يسترجعُ بعضاً من لحظاتِ السّهرة مع تلكَ الشابة المجهولة والغامضة، وأضاف:

- وفي غمرةِ الثمالة، اعترفت لي أنّها عاملة جنس.

اتّسعت عينا إيمان، وقالت:

- غريب! وماذا بعد؟

تنفّس نبيل كأنّه يزيح عبئاً عن كاهله، وتابع:

- قضيتُ معها ثلاثة أيّام في شقّتها الفاخرة الواقعة في نيشان

طاش. كأنني كنتُ داخلَ فقاعة، غير عابئ بالعالم حولي، من فرطِ السعادة التي عِشتها معها، وغرابةِ القصص التي كانت ترويها لي.

من مدينة سلا المغربية، حيثُ كانت تعيشُ في حيّ فقير، بدأت رحلةُ سهام الطويلة للبحثِ عن المال، يروي نبيل، لينتهي بها الأمرُ في شقّةٍ كبيرة ورائعة في أحدِ أرقى الأحياء بمدينة إسطنبول سنة 2016.

ورغم أنّ الفتاة لا تبلغُ من العمر سوى أربعةٍ وعشرين عاماً، إلّا أنها استطاعت بسرعة، أن تتحوّل إلى عاملة جنس من فئة خمس نجوم في واحدةٍ من أكثر المدن المعروفة بالمنافسة الكبيرة في هذا المجال بين الجنسيات المختلفة.

كانت إيمان تستمِع إلى القصّة باهتمام، وتدوِّن بعضَ رؤوس الأقلام، حين قالَ نبيل:

- بدأ شغفُ سِهام بالدعارة منذ أن كانت في السّنة الأولى جامعة، حيث تعرّفت أول مرّةٍ إلى هذا العالم مع مجموعةٍ من الطالبات اللواتي كنّ يمارسن نفسَ المهنة.

رفَعت إيمان عينَيها عن الورقة بدهشة، ونظرت مباشرةً في عينَي نبيل، ثمّ قالت:

- شغف؟

قالَ نبيل بثقة:

- طبعاً!

توقّفت عن الكتابة، وأسندت مرفقيها إلى الطاولة، ثمّ قالت بحزم:

- إنّها الظروف يا نبيل التي تدفع الناس إلى القيام بهذه الأشياء! هل تعرِف ما معنى أن تقول إنّ امرأةً شغوفةٌ ببيع جسدِها؟ هذا هراء!

نظرَ إليها نبيل شزراً، كمن يعرف جيّداً ماذا يقول، ثمّ تابع:

- خلال سنواتِ دراستِها الجامعية بالرباط، لم تكنْ سِهام تُصاحب سوى الأغنياء. كانت تركبُ السيّارات الفاخرة التي تقف في انتظارها غير بعيدٍ عن الحيّ الجامعي، وتبيع جسدَها مقابل حوالي 100 دولار لليلة الواحدة... وعندما جمعَت قدراً من المال، تركَت دراستَها، واستأجرت بيتاً بعيداً عن الحيّ الفقير الذي عاشت فيه مع عائلتِها.. تقول إنّها لم تكنْ ستموت جوعاً لو لم تدخل عالم الدعارة، لكنّها كانت تكره حياتَها وسطَ ذلك الحيّ البئيس، ووسطَ والدَيها اللذين لم يكونا يتوقّفان عن الشكوى من العجز والفقر وإخوتِها الصغار الذين كانوا طامعين في منحتِها الجامعية.. تقول أيضاً إنّها كأيّ فتاة، كانت تحبّ الملابس الجميلة والفساتين غالية الأثمان والمجوهرات والخروج إلى أماكن راقية وركوب سيّاراتٍ فاخرة.. أغراها ذلك العالم، وساعدَها جمالُها على الوصولِ إلى ما كانت تتمنّاه بسرعةٍ فائقة. وفي أحدِ الأيام، اقترحَت عليها إحدى صديقاتِها أن تنتقلا معاً إلى إسطنبول، بعد أن سمِعت أنّ «المجالَ مزدهرٌ هناك والعمل كثير والمرورَ سهل». لم تتأخّرا كثيراً في التفكير، فقد جهّزتا حقيبتَيهما بعدَ أسبوع وتركتا المغرب. في إسطنبول، تعرّفت سهام إلى شخصياتٍ مهمّة، وأعدّت ملفّاً يتضمّن شواهد طبّية تثبت عدم إصابتِها بأيّ مرض، ثمّ أصبحت لا تعملُ إلّا مع السّياسيين والديبلوماسيين والسّفراء والشخصيات الكبيرة في البلد، من العرب والأتراك. أمّا صديقتُها، فلم يُسعِفها جسدُها الهزيل ووجهها المتوسّط الجمال في الوصول إلى نفسِ المنصِب الذي وصلتْ إليه سِهام، فظلّت متسكّعةً في شوارع تقسيم، تنامُ مع الأتراك الفقراء والسوريين البائسين مقابل بعض الليرات، قبل أن تعودَ، في الأخير، إلى المغرب.

كانتْ أنفاسُ إيمان محبوسة وهي تستمعُ إلى قصّةِ سِهام. كانَ لديها انطباعٌ غريبٌ أنّ هذه القصة مجرد حكايةٍ خيالية مثل الحكايات

التي كانت تقصّها عليها جدّتها قبلَ النوم في زمنٍ مضى. سألتْ بفضول:

- ولماذا حكَت لك هذا؟

قالَ نبيل:

- لثلاثةِ أسباب: الأوّل أنّها لا تعرِفني، والثاني أنّها لم تكنْ سعيدة، بل بدتْ لي، في بعض اللحظات، نادمةً على الطريق الذي سلكتْه...

سكتَ قليلاً وقد ركّزَ نظره على الفتاتَين اللتين كانتا تدخّنان النرجيلة وتتحدّثان بصوتٍ مرتفع.

سألتْ إيمان:

- والثالث؟

اقتربَ نبيل من وجهها وهمسَ كأنّه يفشي لها سرّاً:

- لقد تعلّقت بي خلال الأيام الثلاثة التي قضيتُها معها، كنتُ أعامِلها بحبّ ولطفٍ ورومانسية.. لم يسبِق لها أن عاشت علاقةَ حبّ من قبل، ولم تعتد على تعاملٍ كهذا. كلّ ما أحبّته طوال حياتِها هو المال.

رمقَته إيمان بمكر كأنّها تقول: «يظهرُ أنّك أيضاً تعلّقتَ بها». تراجَع نبيل إلى الوراء، وقالَ:

- الفتاةُ جميلة كجوهرة، ولا يمكن مقاومتُها.. كيف تريدينني أن أعاملها؟

شرِبَت إيمان من كأس الشاي الذي كان لا يزال ممتلئاً. كانَ بارداً وسيّئ المذاق. تراجعت إلى الوراء مسندةً ظهرها إلى الكرسيّ، وقالت:

- إذاً، متى ستتزوّجان؟

ظهرَت على ملامحِ نبيل علاماتُ الارتياح، ولمعَت عيناه بسعادةِ محبّ، ثمّ قال:

- بمجرّد أن تصحّ. إسراء امرأةٌ رائعة ومختلفة عن كلّ اللواتي عرفتهنّ.

عندما سمِعت إيمان هذا الكلام، تساءلت في نفسِها: هل سبَق لخالد أن تحدّثَ عنها يوماً هكذا في غيابِها؟ ثمّ فكّرت في كِنان، وابتسمَت بمرارةٍ لم تستطع إخفاءها، وقالَت:

- كيف تعرِف أنّ شخصاً ما مختلف عن الذين عرفتَهم من قبل؟

هزّ نبيل كتفيه ورفعَ يديه عن الطاولة، ثمّ قال:

- مثلُ هذه الأشياء لا نعرِفها، بل نعيشُها.

تاهتْ عينا إيمان في الفراغ. وقفزَ إلى ذهنِها ذلك السّؤال الذي يؤرِق البشرية منذ بدء الخلق: هل نحبّ شخصاً لأننا لا نعرِفه، أم بعدَ أن نعرِفه؟ وأيّ هذين الحبّين أحقُّ بأن يُسمّى حبّاً؟ فكّرت أنّها لم تعِش مع كِنان كي تعرفَ إذا كانَ مختلفاً أم لا، وأنّهُ في واقع الأمر، يشبِه كثيرين رأتْهم في الشوارع وعلى شاشةِ التلفاز، ورغمَ ذلك أحبّته. تنفّست عميقاً، وتناهت إلى سمعِها، مِن مكانٍ غائرٍ من الذاكرة، طقطقةُ كعبِها العالي وهي تمشي خمسَ خطواتٍ نحو النافذة، لتُراقبَ خالد، بإعجاب وشوق، وهو يمشي نحو المبنى الذي كانا يسكُنان فيه في الدار البيضاء قبلَ سنوات. كانت حينَها تعرِف الكثيرَ عنه، وكانت تعيشُ معه، وكانت تراهُ مختلفاً، وكانت تعشقُه.

قالتْ بانفعال:

- أغبِطكما! لا تنسَ أن تدعوني إلى زفافِكما!

دفعَت كرسيّها إلى الوراء متأهّبةً للنّهوض، لكنّها لم تستطع، لأنّ نبيلاً كان لا يزال يتكلّم:

- ما أجمَل أن تلتقي شخصاً، وتقولَ منذ اللحظة الأولى: «إنّه هو! هذا الذي كنتُ أبحثُ عنه!».

نظرتْ بتأثّر إلى عينَيه اللتين تلمعان كأنّه سيذرفُ دمعاً، وقالت:

- طبعاً، هذا أجملُ ما في الحبّ. عليّ أن أذهبَ الآن، لديّ عملٌ كثير.

نهضتْ ومدّت يدَها لنبيل. صافحته بقوة وامتنان، ليسَ شكراً له على ثقته فيها والمساعدة التي قدّمها لها، بل على صدقِه في حبّه لإسراء. كانت ممتنّةً لرؤيتِها حبّاً كهذا، على الرّغمِ من تعاستِها العاطفية. خرجتْ من المقهى بسرعة، تاركةً إياه واقفاً وراءَها، وعبرَت السّوق الصاخب، ثمّ توقّفت منتظرةً مرورَ سيّارة أجرة. وحينَ رفعتْ عينَيها، وقَع نظرُها من جديد على محلّ «عباءات حريم السّلطان». تساءلت: من يكون هذا السّلطان الذي يمتلك حريماً في القرن الحادي والعشرين؟

لا وجود لشيء اسمه «فرصةٌ ثانية»

في الحبّ، لا يوجدُ شيءٌ اسمه «فرصةٌ ثانية للرجوع كما كنّا من قبل». هذه الفرصةُ الثانية ليست إلّا ولادةً لعذابٍ أكبر، ونهايةً أكثر بشاعةً. خلَصَ خالد أخيراً إلى هذه الفكرة، بينماً كانَ يتأهّب لركوب الطائرة المتوجّهة إلى الدار البيضاء عند السّاعة الخامسة والنصف بعد الظهر.

في صباحِ اليوم نفسِه، تناولَ فطوره مع إيمان بهدوء وجهّز حقيبتَه بنفسِه. وعندما كان يرتدي معطفَه عند الباب، توجّهت نحوَه ووقفَت تنظر إليه وتبتسم. عرفَ أنّها كانت سعيدةً لأنّه سيقضي خمسةً وعشرين يوماً بعيداً عنها لأوّل مرّة منذ مجيئهما إلى إسطنبول. أبعدَ نظرَه عنها في نفور. قالتْ بحدّة:

- لا تتعامل معي بهذه الطريقة!

قالَ بهدوء وهو يرتدي حذاءه:

- أيّ طريقة؟

أطلقتْ ضحكةً فيها كثيرٌ من الاستهزاء. سكتَت قليلاً وهي تُرجعُ شعرَها إلى الوراء، ثمّ قالت بحزن مفاجئ:

- لم يكنْ أحدٌ منّا لوحده منذ سفرِك إلى باريس قبل ثلاثِ سنوات.

تذكّرَ باريس التي لم يجدْها في الحقيقة كما رآها في الأفلام. قالَ بجدّية:

- الأمرُ مختلفٌ الآن.

قالتْ إيمان وقد بدا الفضول في عينَيها:

- لماذا؟

ردّ بصوتٍ منخفضٍ وهادئ:

- عندما ذهبتُ إلى باريس، كنتُ غاضباً منكِ، وكان لديّ أمل، وكنتُ أنتظرُ متى أعود. أمّا الآن، فأشعرُ، لأوّل مرة، أنني أريد الذهابَ إلى مكانٍ ما ولا أعود.

قهقهَت بنبرةٍ مستفزّة، وتعمّدت أن تفتحَ عينَيها جيّداً على اتّساعِهما، ثمّ قالت:

- ألم تعدْ تعجِبكَ إسطنبول؟ عجيب! أنتَ أصررتَ على المجيء بنا إلى هنا، وكنتَ ستجنّ لو لم تأتِ! طوال سنةٍ كاملة، كنتَ تقضي الليالي في البحثِ عن عمل هنا! إسطنبول.. إسطنبول.. إسطنبول.. صدّعتَ لي رأسي بإسطنبول هذه. والآن، بعدَ أن حصلتَ على ما تريده، أصبحت ترغب في الرحيل وعدمِ العودة. عجيب أمر الإنسان!

كانَ قد انتهى من ارتداء حذائه، وكان صامتاً. استندَ إلى البابِ ينتظرُ أن تفرَغ من كلامِها ليذهب، لكنّها لم تشأ أن تسكت. كانت بعد كلّ جملةٍ تقولها، تنفعِل أكثر وترفعُ صوتَها أكثر فأكثر:

- ثمّ إذا عدتَ إلى المغرب، ماذا ستفعل هناك؟ قل لي! هل تظنّ أنك ستكون سعيداً؟ أنتَ تعرِف الأوضاع هناك أكثَر منّي! في آخر المطاف، أحسنُ نهايةٍ يمكن أن تحظى بها هناك هي أن تموتَ ذليلاً كالكلب في أحدِ تلك المستشفيات المهترئة! ثمّ متى انتهى والداك من تسديد قرض شقّتهما؟ وأمّي؟ أليستْ من دون بيتٍ إلى الآن، وتضطرّ إلى الانتظار شهوراً وشهوراً حتى يأتيها ذلك الرجل الفاشل بسومةِ الكراء؟ هل تريدُنا أن نعيشَ مثلَ والدينا؟ ماذا عن الأطفال الذين

ستنجبهم؟ هل ترضى لهم أن يذهبوا إلى تلك المدارس المليئة بالمجرمين والمغتصبين والمرضى النفسيين؟

سكتَت لبرهة بينما كانت عيناها تغليان أسئلةً، ثمّ اقتربت منه ووضعتْ إصبعها في رأسِه كأنها ستطلق عليه رصاصة:

- اترك عقلَك في رأسِك، وشغّل دماغك جيّداً قبلَ أن تُقدِم على أيّ شيء.

أطلقتْ رصاصتَها واستدارت دون أن تتمنّى له سفراً سعيداً. كانَ يتمنّاها أن تموت في تلك اللحظة. وبينما كانت تسيرُ نحوَ غرفة النّوم، صرخَ وقد أشارَ بإصبعه نحوَها:

- لهذا السّبب لا أريد أن أعود!

عندما اختفت من أمامه، ساوره الخوف والشكّ. فتحَ الباب، وقذفَ هذه الكلمات في الفراغ قبل أن يخرج ويغلقَ البابَ وراءه بعنف:

- ولا أريدُ أن أنجبَ أطفالاً!

* * *

عندما ارتفعت الطائرةُ عن أرضِ إسطنبول، انتابَ خالد شعورٌ عارمٌ بالاطمئنان، كأنّ كلّ الخوف والرّيبة اللذين كانا يستوليان على دواخله تحوّلا إلى سراب. أرجع رأسه إلى الوراء مستنداً إلى الكرسيّ وأغمضَ عينَيه محاولاً استرجاع مشاهِد ضياعه في شوارع تقسيم وكاديكوي حتى الرابعة صباحاً، بينما هو سكران. لكنّ ذاكرته عجزتْ عن الاشتغال. كلّ ما كان عقله قادراً على فعلِه هو استدعاء مشاهِد من المستقبل القريب، كأنّ تعبَه كان ضخماً إلى درجةِ تخيُّل مشهد دخولِه إلى بيتِ والدَيه. أرادَ فقط أن يشمّ رائحةَ ذلك البيت، ليستطيع تحديدَ مرجعياتِه وطُرُقه في الحياة. أرادَ أن يقبِّلَ يدَ أبيه السمراء النحيفةِ البارزةِ عروقها،

ورأسَ أمّه الطافحِ برائحةِ الحنّاء، أن يجلسَ على تلك الكنباتِ القديمة المزركشة وهو ينظرُ إلى مباني وعمارات الدار البيضاء من النافذة المشرعة ذات الستائر البيضاء الشّفافة، أن يتناولَ طبقَ كسكس باللحم والخضار، أن يتمدّد على الكنبة ويستمع إلى نميمة أمّه وأخبار الجارات ونساء العائلة التي لا تهمّه، إلى أن يأخذَه النوم في قيلولةٍ لذيذة.

وعلى الرّغم من أنّ المغتربين في بلدٍ ما قادرون على خلقِ مجموعاتٍ والتحوّل إلى أُسَر، بناءً على مشتركاتٍ جغرافية أو لغوية أو تاريخية أو ثقافية أو حتى فكرية، إلّا أنهم يظلّون، في نهاية المطاف، أفراداً من دون مجتمع، ومن دون وطنٍ يحتضنهم. يشبِه ذلك أن يبلُغ الإنسان الثامنة عشرة ويصبح مضطراً لتركِ بيتِ والدَيه من أجلِ الدراسة أو العمل أو تحقيق أحلامه كيفما كان نوعُها، ثمّ يتّخذ له بيتاً جديداً، ويصير لديه أصدقاء يحبّهم ويتفاهم معهم ويرتاح في حضورهم، لكنّه يظلّ دائماً في حاجةٍ إلى الرّجوع إلى ذلك البيتِ الأول، بيتِ والدَيه، الذي تفوحُ منه رائحة أمّه. تلك الأمّ التي تحتضنُ أبناءها وتغمرهم بحنانِها، مهما اختلَفت معهم أو غضِبَت عليهم أو حتى ضربتْهم. كان هذا شعورَ خالد وهو في إسطنبول، بيتِه الجديد، الذي، على الرغم من جماله وآفاقِه الواسعة، يجعله يشتاق إلى المغرب، بيتِه الأول، القديم والمهترئ والدافئ والمألوف في آنٍ واحد.

لم يكن يعرف كم من الوقتِ مرَّ على إقلاعِ الطائرة، حين شعرَ بيدٍ تربّتُ على كتِفه برقّة. فتَح عينيه، ووجدَ نفسَه مسنداً رأسَه على كتِف الشخصِ الذي يجلس بجانبه، ولم يكن هذا الشخص سوى فتاةٍ جميلة، ذاتُ عينَين سوداوين تشبهان عينَي غزالة، وشعرٍ أسود ناعم وطويل. قالتْ له بإنجليزية أنيقة:

- معذرة، لم أكن أريد إيقاظك، لكنّ رأسَك ثقيل، وكتفي الصغيرة لا تتحمّل كما ترى.

وعندما أنهت جملتَها ابتسمَت بلطف مثلَ موظّفةِ استقبال. كان هو لا يزال يرمقها بانبهار متسائلاً كيف لم ينتبه إلى أنّ شابةً بهذا الجمال تجلسُ إلى جانبه، هو الذي لم يكنْ يتركُ مؤخرةً تمرّ بقربه إلّا ونظرَ إليها، مهما بلغت بشاعةُ صاحبتها.

قالَ متأسّفاً:

- أخذني النوم دون أن أشعر. أرجو ألّا أكون قد أزعجتكِ كثيراً...

انفرجت أساريرُها أكثر وهي تنظرُ مباشرةً إلى عينَيه، نظرةً طويلةً وحادّة وفيها شيء من الشبق، كأنّها تقولُ له بها: «أعرفُ أنّني أعجبتُك، ويُعجبني أنّني أعجبتُك»، ثمّ قالت بالدارجة المغربية:

- أنت مغربي، أليسَ كذلك؟

كانَ لا يزالُ منبهراً، وشكّ في واقعيةِ ما يحدث. لا يمكن لهذه المرأةِ أن تكون حقيقية. إنّها ملاك من عالم الأحلام. شعرَ برغبةٍ قويّة في أن يلمس ساقَيها البيضاوين ليتأكّد ما إن كانت هذه المخلوقة فعلاً موجودةً بقربه، وتتحدّثُ معه، لكنّه استطاع أن يضبِط نفسَه. تمتمَ بالدارجة:

- نعم.. هل أنتِ أيضاً مغربية؟ أقصد.. تتكلّمين الدارجةَ جيّداً.. هل تعيشين في إسطنبول؟

أخبَرته أنها تعيشُ في إسطنبول منذ ثلاثِ سنوات، وأنّ المدينة تعجِبها كثيراً، لأنّها مختلفةٌ عن كلّ مدنِ العالم التي رأتْ، ولم تشرحْ له لماذا. لكنّها قالت له كلّ هذا بنبرة «يا للرجل المسكين! على رِسلك يا حبيبي». كان يستمع إليها وهو يدقّق النّظرَ فيها. ملامِحها متناسقة وجسدُها جميل وجلستُها أنيقة بشكلٍ لم يستطِع تصديقه، كأنّ من صنَعها ليسَ نفسَ مَن صنَع باقي البشر. وكلّما دقّقَ النّظرَ فيها وسمِعها تتكلّم، كانت تلك الهالةُ التي تحيط بها تتبخّر. كانت جميلةً لدرجةٍ

مملّة. مثاليةً لدرجةٍ لا يمكنُ الاستمرارُ في النظرِ إليها والتحدّث إليها والاستماع إليها. كأنّها صُنِعت خصّيصاً لتثيرَ الانتباه إليها منذ الوهلة الأولى، ثمّ لمضاجعتِها، والرّحيل دون الالتفات إليها. كانتْ مثاليةً لدرجة لا يمكن أن يعرف الواحد ما هي مهنتها أو تخصّصها. إذ يمكن أن تقولَ إنها ربّة بيت كما يمكن أن تقول إنها امرأةُ أعمال.

قالَ لها بثباتٍ هذه المرّة:

- ماذا تفعلين في إسطنبول؟

قالت وهي تنظر عبر النافذةِ إلى السّحب الكثيفةِ في الجوّ:

- أعملُ في مشاريع تصدير الملابس التركية إلى المغرب. . .

بمجرّد أن نطقت بهذه الجملة، عرفَ أنّها تكذب، وأنها تعملُ في الدعارة. إنّ كلّ النساء المغربيات اللواتي يعِشن في إسطنبول ولا يرغبن في تحديد مهنهنّ بالضبط، إذا كنَّ مهندسات أو صحافيات أو طالبات أو ربّات بيوت التحقن بأزواجهنّ، هنّ بالضرورة يعملن في الدعارة. هذه هي القناعةُ التي كوّنها خالد.

أرادَ أن يحرجَها أكثر انتقاماً من تأثيرها عليه في البداية. قالَ:

- ما هو منصبك بالضبط في هذه المشاريع؟

قهقهت بمكر، وقالت:

- لماذا تستجوبني؟ هل أنتَ صحافيّ أم رجلُ أمنٍ في المطار أم ماذا؟

قالَ لها بنفسِ المكر:

- لا، أنا مجرّد سائح في إسطنبول، وأعملُ وأعيشُ في المغرب.

همستْ:

- لا أحدَ يسأل الرجال في المطار عن ماذا سيفعلون في إسطنبول، معَ أنّني أعرف، وأنتَ تعرف، لماذا يذهبُ الكثيرون إلى هناك.

أرادَ أن ينهي المحادثة. قال: «معكِ حقّ»، وأسندَ رأسَه إلى الكرسيّ، محاولاً الرجوع إلى النّوم، لكنّه لم يستطِع. قفزت فكرةُ الطلاق إلى ذهنه مرّةً أخرى، وتساءل إن كان سيكون بإمكانه العيشُ من دونِ إيمان. إذ ليس الحبّ وحده من يجعلُ الإنسان غير قادرٍ على العيش من دون شخصٍ ما، بل أحياناً، حتى ذلك التشابه والتطابق بين شخصَين، الذي ينتُج عن العيش معاً لسنوات، والذي يجعلُ الواحد يرى في الآخر انعكاساً له ولشخصيته وجروحه وتاريخه، مهما اختلفت الطموحات والانتظارات والأحلام. إيمان هي مرآةُ خالد. مرآته التي يرى فيها ماضيه وتطوّره وما آلَ إليه الآن، مِرآته التي يرى فيها جانبَه المظلم، وأبشَع ما يمكن أن يصدُر عنه.

في الشهور الثلاثة الأخيرة، تعرّف خالد على نفسِه أكثر. وأدرك حجم الألم الذي يُعَشّش في داخله. كانَ ذلك بمثابةِ خلايا سرطانية نائمة استيقظَت فجأةً وبدأت بالانتشارِ في جسمِه، أو مرضٍ خطير كان يتعايشُ معه باستعمال المسكّنات طوال الوقت، ثمّ بمجرّد ما توقّف عن تناول هذه المسكّنات، ثارَ الألمُ بداخله كحيوانٍ متوحِّش. بمجرّد ما ابتعدَ خالد عن إيمان، وعن حياتِه اليومية معَها، وانفصلَ عن أحلامه في الترقّي الوظيفي وشراء شقّة، رأى بوضوح حقيقةَ ألمِه. إنّ الألم هو الذي يجعلُ الإنسان مؤذياً لنفسه وللآخرين، وبقدرِ ما كان الألم كبيراً بقدر ما يزداد احتمالُ أذية النفس والآخر أكثر. اتضحَ ألمُ خالد في سهراته الطويلة، وفي إفراطه في تناول الكحول حدّ التقيّؤ ونسيان الطريق إلى البيت، وفي لجوئه إلى أرخصِ عاملات الجنس لإفراغ منيّه، وهي أشياء لم يتخيّل أنّه سيكون قادراً على فعلِها في يومٍ من الأيام. بل إنّه لم يكن يستوعب كيف يمكن لإنسان أن يصلَ به الأمرُ إلى هذه الدرجة. وبينما كان الطيّار يعلن عن تأهُّب الطائرة للنزول، قفزت إلى ذهنه صورة عاملةِ جنسٍ سورية في الأربعينات كادَ يقتلُها

أثناء مضاجعتِها. أغلَق فمَها وأنفها بكفّه وشرع يمارس عليها الجنس بقوة ووحشية حتى كاد يمزّق مهبلها. تذكّر ملامِحها المتعبة، والهالات السّوداء المحيطة بعينَيها الغائرتَين. كان لا يزالُ فوقَها حين نظرتْ مباشرةً في عينَيه بحزنٍ قاتل. لم تكن نظرةً عادية، بل كانت نظرةً تروي قصّة. نظرة مثقلة باليأس. نظرة تحملُ تاريخاً كاملاً من المعاناة. نظرة تفوحُ منها رائحةُ الحرب والموت واللجوء. أخرَج عضوَه بقرفٍ ممزوج بالخزي والعار. تمنّى، وهو يسترجع شعورَه في تلك اللحظة، لو أنّ الطائرةَ تنفجر، لكنّها حطّت في مطارِ المغرب بسلام.

لم يخن خالد إيمان فقط، بل خانَ نفسَه وإنسانيته. نزلَ عبر درج الطائرة وهو يشعرُ بعارٍ أكبر. عارُ من يعيشُ ويتنفّس وهو لا يستحقّ الحياة.

مكتبة
t.me/t_pdf

5

حياةٌ شبيهة بالدراما التركية

في يوم الاثنين الموافق للسابع من نوفمبر 2019، استيقظتْ إيمان بعدَ الظهيرة بقليل على رنين الهاتف. ردّت بفضول وهي تنظر من باب الشرفة الزجاجي إلى المطر الغزير يهطل في الخارج. كانت المتصلة مديرة تحرير في موقع أميركي ناطق بالعربية، أخبَرتها أنّها قرأت مقالها «عاملات الجنس العربيات في إسطنبول.. حريمُ السّلطان الجديد»، بعد أن حصدَ تفاعلاتٍ واسعة على مواقع التواصل الاجتماعي، وأنّ معالجتَها للموضوع كانت ذكية جداً، وأنّها معجبةٌ بقلمها، ثمّ اقترحت عليها كتابةَ مقالات رأي للموقع.

قفزَتْ إيمان من الفراش وهي تصرخ بقوة من الفرح. توجّهت إلى البهو بخطواتٍ سريعة حافية القدمين، فتحت اللابتوب وهي تتفرج على التفاعل الذي حظيَ به مقالها الذي نُشر أمس على موقع «تونس بريس». كانَ قلبُها ينبضُ بقوة. حاولت الاتصال بنجوى لتخبرها بما حقّقته وتشكرها على الفرصة التي أتاحتها لها للكتابة، لكنّ هاتفها كان مقفلاً، فتركتْ لها رسالة شكر على واتساب.

بعثت اقتراحاتٍ للموقع الجديد الذي ستعمل معه. لم تكن قادرةً على استيعاب كمّ المشاعرِ الجميلة التي تفجّرت في داخلها لحظتَها، لدرجةٍ أرادت أن تبكي. وكان الفرحُ يولّدُ داخلها الأمل، والأملُ يولّد التفاؤل، والتفاؤل يولّد الأحلام. وكانت الأحلامُ عبارةً عن شريطٍ من

الصّوَر لما ستكون عليه في المستقبل: سيعود خالد بعد أسبوع. ستُفصِح له عن رغبتِها في الطلاق، سيحضران معاً جلساتِ الطلاق في المحكمة بالمغرب، ستحصل على وثيقة طلاقِها. ستصبحُ حرّة. حرّةً حقّاً. ستعود إلى إسطنبول. ستحصل على إقامةٍ سياحية. ستستأجر بيتاً في بيه أوغلو. ستنسى كلّ ما مرّت به. ستعملُ بجدّ. ستكتبُ كثيراً. ستلتقي زهرةَ التوليب. ستقابل كِنان. سيتقابلان كثيراً. ستتطوّر علاقتُهما. سيحبّها. ستعيش قصّة حبّ رائعة. ستسافر كثيراً. ستصبح مشهورة. ستتزوّج كِنان. ستنجِب معه الأطفال... باختصار، ستعوّض عن كلّ تلك السنوات التي عاشتْها منحنيةً وذليلةً وشاعرةً بنفسِها أقلّ من الآخرين.

ولأنّ الأحلام لا حدود لها ولا رادِع، فقد كانت تتناسل داخلَ رأسِها وتتكاثر بسرعةٍ هائلة، وتبدي لها الحياةَ في صورةٍ جميلة. كانت سعيدةً لدرجةٍ لم تستطع أن تجلس في مكانٍ واحد. كانت تنهضُ في كلّ مرة. تتوجّه نحو النافذة. تنظر إلى المارّة وهي تبتسم. ثمّ تعودُ من جديد إلى البهو. تشغّل مقاطع موسيقى بهيجة. ترقص وحدَها كالمجنونة وهي تتخيّل أنها سترقص ببهجةٍ أكبر عندما ستصل إلى تحقيق أحلامِها.

ولأنّ الأحلام بالمجّان، فإنها أطلقت العنان لها، وتخيّلت كلّ شيءٍ بتفاصيله المملّة. لا تدري لماذا كِنان بالضبط، لكنّها تخيّلته يضعُ الخاتمَ في إصبعها وهما يركبان عبّارةً يستأجرُها حبيبُها خصّيصاً ليطلبَ يدها، ثمّ تخيّلته يقبّلها بينما يرقص أصدقاؤهما على إيقاع موسيقى بهيجة، أصدقاؤهما الذين بدوا في خيالها بلا وجوه، لأنها لا تملك أدنى فكرة عمّن يكونون. هي ليسَ لديها أصدقاء ولم يكن لديها أصدقاء حقيقيون من قبل. تخيّلتهم، لأنه لا يصحّ أن تعيشَ لحظةً كهذه دون أن تكون محاطةً بأشخاص تحبّهم ويحبّونها ويفرحون لسعادتِها.

تعرِف إيمان أنّ كلّ شعبٍ يتضمّن أناساً طيبين وجيّدين كما يتضمّن أيضاً أناساً غير جيّدين، وتعرف أنّه لا يصحّ التعميم، لكنّ الأتراك، في نظرها، هم أكثر شعبٍ رومانسي على الإطلاق، الرّجال الأتراك بالخصوص يعاملون حبيباتهم برقّة كبيرة، لكنّهم حين يغضبون، يستطيعون أن يكسّروا الجدران بقبضاتِ أيديهم، خاصّةً حين يغارون. كانت هذه الفكرة كافيةً لتجعلَها مجنونةً بكِنان. ولم تكن قادرةً على تخيُّل شيءٍ آخرَ مع هذا الرّجل التركي سوى أنّ حياتَهما ستكون شبيهةً بالدراما التركية التي شاهدتها قبل سنواتٍ في المغرب، مدبلجةً بالعربية.

لكنْ، كيف ستكون حياتُهما كذلك بينما سيتواصلان باللغة الإنجليزية؟ توقّفت قليلاً ناظرةً إلى المطر الغزير من النافذة وقد اختفت ابتسامتُها، كأنّ هذا هو العائق الوحيد الذي سيحول بينَها وبين أن تعيشَ مع كِنان ما حلمت به دائماً. هل سيبدو كِنان مثل مهنّد وهو يتحدث بالإنجليزية؟ وهل ستبدو هي مثلَ سمَر وهي تعبِّر عن غضبِها منه بالإنجليزية؟ هل ستبدو حياتهما بنفس الشكل إذا لم تكن بنفس اللغة التي تتخيّلها؟

جلست على الأريكة، وأوقفَت الموسيقى. «سيكون كلّ شيء على ما يرام»، قالت لنفسِها بصوتٍ مرتفع، وأضافت وهي تفتحُ علبةَ رسائلِها: «عليكِ فقط أن تبدئي في تنفيذ مخطّطاتك، وكلّ شيء سيُحلّ مع الوقت».

الحبّ ليس مهمّاً إلى تلك الدرجة

بحماس كبير ممزوجٍ بفرحةٍ واضحة، تفحّصت نور بطاقات الدعوة البيضاء المزيّنة بورودٍ حمراء على الحواشي، ولمسَتْها بانفعال، قبل أن ترتّبها وتضعَها على الطاولة. كانَ كِنان جالساً أمام لوحتِه الجديدة يرسم ويسترِق النظر إلى هذه المرأة التي ستُصبِح، بعدَ يومَين، خطيبته.

تمنّى لو أنّ والدتَه حاضرةٌ هنا، رغم أنّ انطباعاً كان لديه بأنّها لن تحبّ نور، وربّما لن توافق عليها أبداً. غمرَه الفضول ليعرِف ماذا يمكن أن يكون رأيُها في المرأةِ التي سيتزوّجها، وراح يتخيّل ردودَ أفعالِها.

تخيّلَ نفسَه يدخل إلى بيتِ والدَيه الواقعِ في فيروز آغا، ويجلسُ إلى جانبِ أمّه على الكنبة، بينما يسمع موسيقى مزيّن سينار تنبعثُ من ورشةِ والده. وعلى الرّغم من تجربتِه الكبيرة في مجال الرسم وتصميم الجرافيك، لم يستطِع أن يركّبَ صورة أمه بحيثُ تظهر التجاعيد على وجهها، والشيب في رأسِها. كانتْ، في رأسِه، لا تزالُ تلك الشابة في بدايةِ الثلاثينات، ترتدي قميصاً أبيضَ وتنّورةً مزيّنة بالورود المختلفة الألوان، وتضعُ قرطَيها الفيروزيَّي اللون، وتجلسُ على الكنبةِ بأناقة، واضعةً رجلاً على رجل، ممسكةً بين يدَيها رواية **الكنّة** لأورهان كمال، بينما تحترقُ سيجارتُها الرفيعة في المنفضة، بعدَ أن نسيتْ تدخينها من

شدّة التركيز في القراءة. يُخرِجها من عالمِها وهو يخبرُها أنّه يريد مفاتَحتها في موضوعٍ مهمّ. تغلق الكتاب وتضعه على الطاولة، وتنظرُ إليه باهتمام. يخبرُهاً أنه يرغبُ في الزواج، وأنّ الفتاة التي سيتزوّجها هي نور التي تعرّف إليها منذ أشهر قليلة. تتحرّك الستائرُ المزركشةُ بفعل حركة النسيم. تبتسِم أمّه فرحاً بالخبر. تسأله عن الفتاة بضعةَ أسئلة. يخبرُها أنّها في الثلاثين من عمرها وأنها تعملُ مصمِّمة جرافيك في إحدى المؤسسات الصحافية، وأنّها تحبّه. تبارِكُ زواجَهما، وتتحمّس للاستعداد للخطوبة.

أو...

يُخرِجها من عالمِها وهو يخبرُها أنه يريد مفاتَحتها في موضوعٍ مهمّ. تترك الكتاب على الطاولة مفتوحاً. تنظرُ إليه باهتمام. يخبرُها أنه سيتزوّج نور. يسحبُ صورةً لها من جيبِه. تحدّق أمّه بذهول في الفتاةِ الشقراء ذاتِ الضحكةِ البليدة التي تفترّ عنها شفتانِ مصبوغتان بأحمرٍ قانٍ. تخبرُه أنّها لم تعجِبها، وأنّ هذا النوع من الفتيات اللواتي يصبغن شعورهنّ بالأشقر للتشبُّه بالممثلات الغربيات لا يصلحن له. تحملُ الكتاب من جديد بين يديها، وتعودُ إلى القراءة بلا اكتراث.

أو...

يُخرجها من عالمِها وهو يخبرها أنه يريد مفاتحتها في موضوعٍ مهمّ. تغلق الكتاب وتضعه على الطاولة. تنظر إليه باهتمام. يخبرُها أنه عازمٌ على الزواج. تنفرج أساريرها عن ابتسامةٍ ساحرة. تربّت على كتفه وتقول له إنّ هازال امرأةٌ رائعة، وأنّ كلّ زواجٍ عن حبّ، هو مباركٌ بالضرورة. يصحّح لها أنّ نور هي التي ستكون كنّتها وليس هازال. ترمقه بيأس كأنّها تسأله «لماذا يا بنيّ؟». يقول لها إنّ هازال، بكلّ بساطة، لم تكن تصلح إلّا للعشق وتقلُّباته فقط، أمّا نور فهي للزواج، للحياة اليومية المشترَكة، لأنّها مستعدّة للتضحية بحقّها

وكرامتِها حتى تعيش حياةً هادئة. تقول له على مضض: «افعل ما شئت. . أنتَ ناضجٌ الآن وتعرف مصلحتك».

أو. . .

يخرِجها من عالمِها وهو يخبرُها أنه يريد مفاتحتها في موضوعٍ مهمّ. تغلق الكتاب وتضعه على الطاولة. تنظرُ إليه باهتمام. يخبرُها أنه سيتزوج نور. تسأله إن كان يحبّها. يخبرُها أنّ الحبّ ليسَ شرطاً أساسياً في الزواج، وأنّ الأهمّ هو التفاهم بخصوص الحياة المشتركة. تنظر إليه بازدراء، هي التي تزوّجت عن حبّ، ولا تزال تعشقُ زوجَها إلى حدّ الآن. يقول لها إنّ الفتاةَ تحبّه، وإنّها مستعدّةٌ للتضحية بأيّ شيء من أجله. تتحدّاه أنه سيعيش تعيساً إذا تزوّج امرأةً لا يحبّها. ليُثبِت لها أنّها على خطأ، يقول لها إنّها نفسُها أحبّت أباه أكثرَ ممّا أحبّها، ومع ذلك عاشتْ معه حياةً هادئة. ترمقه بحزن. تشعلُ سيجارة، وتقولُ له إنها لهذا السّبب لم تعد موجودةً الآن، ولهذا السّبب تركت كلّ شيء وهربت.

لم يكن يهمّه رأي أمّه في زواجه، بقدرِ ما كان يهمّه حضورُها في حياته بصفة عامة. قبلَ حوالي سنتَين، كان هنا مع هازال، يرتّبان لزفافهما معاً بحماس وفرحة، وكانَ يعرِف أنّ أمّه ستبارك ذلك الزواج، حتى لو كانتْ في القبر. كان مندفعاً وسعيداً، ولم يكنْ هناك شيء ليوقفه عن الارتباط بحبيبته إلى الأبد، لولا أنّها ذهبت بسبب عدم ثِقتها فيه. أمّا الآن، فهو متردِّد وحائر وضعيف لدرجةِ الانسياق إلى كلّ ما تقوله نور، تماماً مثلما ينساقُ إنسانٌ يائس للانتحار. أعدّت بطاقاتِ الدعوة بنفسِها، واختارت المدعوين، وانتقت بدلاً عنه بذلةَ الخطوبة، واشترت فستاناً جديداً لنفسِها، واتصلت بطبّاخ معروف ليتكلّف بإعداد أطباق الحفل، ووضعتْ لائحةً للأشياء التي سيحتاجانها من نبيذ

وشمبانيا وعرق وجبن وشموع وحلوى. كانتْ تفعلُ كلّ هذا بكلّ استمتاع كأنّها طفلةٌ تكتشفُ ألعابَها الجديدة، أمّا هو فقد كانَ يتابع حياتَه اليومية بشكلٍ عاديّ، تاركاً لها حرّية التصرُّف في كلّ شيء.

قالت نور بمرح بعد أن أنهَت اتصالاً هاتفياً مع الكوافور:

- هل اتصلتَ بعمّك لدعوتِه إلى الحفل؟

قالَ وهو يضعُ فرشاةَ الصباغة على الطاولة الصغيرة إلى جانبه:

- إنه مريضٌ ومتعب، ولن يستطيع تحمّل أجواء الخطوبة وصخبها.

كانت خيبةُ الأمل باديةً في عينَيها. قالت:

- ألن تدعوَ أيّ أحدٍ من عائلتك أو أصدقائك؟

قال بحماسٍ مصطنع:

- بلى، هناك صديقةٌ عزيزة عليّ من أيام الثانوية، اسمُها هازال. إنّها في مقامِ أختي. لا بدّ أن أتصل بها. ستكون سعيدةً جداً من أجلِنا.

افترّ ثغر نور عن ابتسامةٍ سمِجة، وقالت:

- أعرِفها. لقد تركتُ لكَ ملصقاً صغيراً مذيّلاً باسمها في غرفةِ النوم ذات يوم، كتبت فيه: «سأذهب لرؤية أمّي، وسأعود بسرعة.. أحبّك». يبدو أنّك لم ترَه لأنّ الريح أسقطتْه ورمتْ به تحت السرير.. وجدته بينما كنتُ أنظّف، ولكنْ، لا بأس.. يمكنك دعوتُها ما دمتما قد صرتُما أصدقاء.

كان قلبُه ينبض بعنف وهو يتأمّلها بذهول. أضافتْ بنبرةٍ محايدة:

- بطاقاتُ الدعوة جاهزة.. سأضيف واحدةً باسم هازال.. ما اسمها الكامل؟

لم يستطع أن ينطق اسمها كاملاً، ولم يستطع النظر مباشرةً في عينَي نور. قال:

- لا أذكر...

قالت نور وهي تنهض:

- لا بأس.. سنكتفي باسمِها الشخصيّ فقط. لا تقلق. عليّ أن أذهبَ الآن. لديّ جلسةُ تدليك في الصالون. لن أتأخر.

قبّلته على فمِه قبلةً سريعة، كأنّها تتفادى أن تلتقي أعينهما. فتحت الباب، وسط ذهولِ كِنان الذي لم يعرِف كيف يتصرّف في موقفٍ كهذا ولا أن يصفه. وأخيراً، استطاع فتحَ فمه والتمتمةَ بهذه الكلمات:

- نور.. انتظري، لديّ شيءٌ لكِ.

توقّفت. أغلقت الباب، واستدارت نحوه وهي ترمقه بفضول. اقتربَ منها، وأمسكَ يدَها، وجرّها نحو غرفة النوم. «اجلسي»، قالَ بهدوء، انحنى على ركبتيه وأخذَ يبحثُ في درجِ الخزانةِ التحتيّ عن القرطَين الفيروزيَّين. كانت تتابعه بعينَين مندهشتَين. «انتظري، سأجدُهما»، قالَ وهو يلتفتُ نحوَها شاعراً بشيءٍ كالهزيمة أمام هذه المرأة التي لا يهزّ كيانَها أي شيء، حتى غريزةُ الغيرة.

قالتْ وهي تنهض:

- ما هما؟

أفرغَ الدرج من كلّ الأشياء المخبّأةِ فيه: عقودُ عملٍ قديمة، عقدُ الإيجار، توصيلاتُ الفواتير المدفوعة، حاملُ مفاتيح عبارة عن عينٍ زرقاء، فرشاةُ أسنان غير مستعملة، شاحنُ هاتف معطّل، ولّاعةٌ حمراء اللون كُتب عليها I love Istanbul، صورةٌ قديمة لأمّه بالأبيض والأسود، أشرطةُ أغاني مزيّن سينار، مفكّرةٌ صغيرة على غلافها صورةٌ لمتحف آيا صوفيا. فرشاتُ رسم جديدة، مسكّنات لآلام الرأس، رواية **غرابةٌ في عقلي** لأورهان باموق، ملصقٌ صغيرٌ يحتوي صورة فان غوخ... لكنّه لم يعثر على القرطَين.

وقف بيأسٍ وهو ينظرُ إلى كلّ تلك الأشياء على الأرض، وقال:

- القرطان فيروزيا اللون.. هل تذكرينهما؟ كانت قد بعثتهما المستأجرة الجديدة بعدَ أن وجدتهما في البيت الذي عاش فيه والداي...

حرّكت نور كتِفيها في لا مبالاة، وقالت وهي تخرج من الغرفة:

- ألقيتُهما في سلة القمامة في نفسِ اليوم.. لم أكنْ أعرف أنهما مهمّان إلى هذه الدرجة.

لا مناص من الاحتراق لتُبعَث الحياة من جديد

في الأيّام التي أعقبتْ عودةَ خالد من المغرب، والتي امتدّت من منتصف نوفمبر وحتى الأسبوع الثاني من ديسمبر، هامَت إيمان على وجهها. بعد الانتهاء من العمل، وحتى خلال عطل نهاية الأسبوع، كان خالد لا يفعل شيئاً سوى الجلوسِ في البيت، كأنّ مؤخّرته أصبحت ملتصقةً إلى الكنبة، ويده إلى جهاز التحكّم في التلفاز أو هاتفه المحمول. وكما يرافق عزرائيل الناسَ خلال حياتهم في انتظار أن يقبض أرواحهم، كان خالد متربّصاً بإيمان، حتى كرِهت حياتَها.

وخلال تلك الفترة، أصبحت إيمان تحملُ حاسوبها وتذهبُ للعمل في مقاهٍ هادئة، أو ترتدي لباساً رياضياً وتخرج للسّيرِ على البوسفور في كوروشيشما، وهي تتأمّلُ السماء الرمادية الفارغةَ من النوارس، ونُدفَ الثلج وهي تتساقطُ على الأرضِ ببطء، والعبّاراتِ الذاهبة والقادمةِ من الجانب الآسيوي لإسطنبول، بينما يتناهى إليها الأذان إلى الصلاة من المآذن القريبة، فيُنزل سكينةً غريبةً على قلبِها.

هرباً من وجه خالد، لم تترك إيمان مكاناً في إسطنبول إلّا وذهبت إليه. زارت جامعَ السّلطان أحمد، وجامع السليمانية، وميناء إمينونو، وبرج غلطا، وقصر توبكابي، وقصر ضولمة بهتشة، وقلعة الأناضول، ومتحف آيا صوفيا.

لم تكنْ فقط تهرب من خالد، بل كانت تبحثُ عن الشفاء منه.

كانت تحسّ به مثل مرضٍ مزمن، لا أملَ في الشفاء منه إلّا بالوقوع في الحبّ من جديد، وبجنون. لذلك كانت تريد كِنان من كلّ أعماقِها. وكلّما نخرَ الألم دواخلها عند التفكير في تركِ خالد، كانت تتذكّر قولَ جلال الدين الرومي: من يريد القمر لا يتجنّب الليل، من يرغبُ في الورد لا يخشى أشواكه، ومن يسعى إلى الحبّ لا يهرب من ذاته.

علّقت هذه الكلماتِ في زاويةٍ من رأسِها مثلما تُعلَّق الأحجبة للحماية من العين وشرورها، تسترجعها كلّما استبدّ بها الخوف، واجتاحتها الذكريات. حفِظتها عن ظهر قلب، وصارت تردّدها، بينها وبين نفسها، آناء الليل وأطراف النهار، كأنها تعويذةٌ تحميها شرورَ نهاية قصّتها مع خالد.

كانت تبحثُ عن تفسيرٍ لكلّ شيءٍ تعيشه، لكنّها اقتنعت أخيراً أنّ كلّ ما هو مرتبطٌ بالحبّ لا يمكن تفسيره. إنّ الحبّ يأتي لوحدِه، ويذهب لوحدِه، ويتحوّل لنقيضه أحياناً دون أن نشعر. كانت أعماقُها المتخمةُ بالحزن تهدأ حين تفكّر في هذا. تُنصت في داخلِها إلى كلماتِ الرومي، كما ينصتُ طائرٌ يُحتَضر إلى موتِه بوجعٍ وهدوء.

ذاتَ صباح، وبعد أن ذهب خالد إلى عمله، أخذت كلّ الصّور التي تجمعها به، المعلّقة في جدران البيت أو الموضوعةِ على المنضدات، سحبتها من الإطارات، وخبأت الإطارات في الدرج التحتيّ لخزانة الملابس. سحبت ألبوم صورهما أيضاً، وتفرّجت عليه من البداية إلى النهاية، مرّاتٍ كثيرة متتالية، بمزيج من مشاعر الحنين والحقد والحزن وعدم التصديق. أخذت كل الصّور وتوجّهت نحو المطبخ بخطىً ثابتة. وكما ينبغي دفنُ أو إحراق الجثث حتى لا تتعفّن، ينبغي كذلك إحراق قصص الحبّ الميّتة. سحبتْ إيمان من جيبِ بنطالها الجينز ولّاعةً حمراء كُتبَ عليها I love Istanbul، ومن

دون تفكير، شرعت تحرق الصور واحدة واحدة، بألمٍ كبير. كانت تشعرُ، مع كلّ صورةٍ تضرم فيها النار، أن جزءاً من جسدِها يحترق، أنّها تحرق حياةً كاملةً ممتدّةً على اثنتي عشرةَ سنة، بابتساماتِها ودموعِها وأحلامِها وعناقاتِها ومضاجعاتِها وحميميتها ودفئها وبرودِها وإحباطاتِها وانكساراتِها وضحِكاتها ووعودِها وخصاماتها وانبهاراتِها. لكنْ، لا مناص من الألم للوصول إلى البهجة، ولا مناص من الاحتراق حتى تُبعث الحياةُ من جديد، ولا مفرّ من إضرام النار من أجل التوهّج.

وعندما صارت كلّ الصورِ رماداً، فتحت الصنبور، وسكبت الماء عليه. استندت إلى الحائط وهي تتفرّج على الماء الذي يزيل الرّماد من حوضِ الغسيل، وانتابَها شعورٌ غريب أنّها طهّرت حياتَها السابقة، وأكرمَت ذكرياتها الحلوة، وحرّرتها من الشكل المشوَّه الذي كانت عليه.

توجّهَت نحو البهو، وأشعلت سيجارة، وجلستْ من دون حراك. كانت قد استوعبت للتوّ ما أقدمت عليه. وكانت لا تزال تتفرّج على حكايةِ كل صورةٍ من الصّور داخل رأسِها:

الصّورة الأولى التُقِطت لهما صيف عام 2009، خلالَ سفرٍ إلى مدينة مراكش مع مجموعةٍ من أصدقائهما، تظهرُ فيها إيمان مرتديةً فستاناً أبيضَ خفيفاً وهي ترمقُ خالد، الجالس بجانِبها في المقهى وهو يتكلّم مع شخصٍ غير ظاهرٍ في الصورة، بنظرة يمتزِج فيها الإعجاب بالانبهار. تذكرُ الآن أنّها كانت سعيدةً جدّاً لمجرّد أنّها بجانبه.

أما الصورة الثانية، فيبدو أنها التُقِطت خلال الشتاء، لكنّها لا تذكر في أيّ سنة بالضّبط. كانا يرتديان معطفَين بنّيي اللون، وكان خالد يحتضِنها من الخلف، مغمضاً عينَيه ومبتسماً بلذّة، بينما كانت هي تنظرُ مباشرةً إلى الكاميرا، وترفعُ يدَها إلى فوق وهي تضحك وتطلبُ من

نادية، صديقة خالد من أيام الجامعة، أن تتوقّف عن التصوير. تذكر جيّداً كيف كان شعورُها في تلك اللحظة، بينما كان خالد يحاول تدفئتها وحمايتها من البرد.

في الصورة الثالثة، التي التُقطَت في بداية عام 2011، داخل بهو أول شقّةٍ عاشا فيها معاً في الدار البيضاء، كانَ رأسُها متّكئاً على كتف خالد، الذي كان يحكي نكتةً سمِجة لصديقه سعيد. كانت تشعرُ بالنوم بعدما شربتْ خمس زجاجات بيرة. نامت ليلتَها قبل نهاية السهرة، وحملَها خالد إلى غرفةِ النوم، ورمى عليها غطاءً دافئاً. كانت تلكَ الأيام أجملَ الأيام في حياتِهما، وقد طلبَ يدَها للزواج بعدَ أسبوع من ذلك.

في الصورة الرابعة، كانا يطفئان شمعةَ عيد ميلادِها الثالث والعشرين، وفي الخامسة، تعانِقه بعدَ أن حصلَ على فرصةِ عملٍ جديدة، وفي السادسة، يقبّلها في عنقِها، وفي السابعة، تقبّله في شفتيه بعد أن انتقلا إلى شقّةٍ جديدة، وفي الثامنة، يشعلُ لها سيجارة، بينما ترفعُ رأسَها إلى أعلى في انتشاء نافثةً الدخان من أنفِها، وفي التاسعة، يتناولان طاجين مغربي باللحم والخضار مع سعيد وناديا ومونية وزينب وجهاد، وفي العاشرة، التي التقطتها إيمان نفسُها، يظهرُ خالد نائماً على السّرير، فاتحاً فمه...

في الصورة العشرين، التي التقطتها خديجة، أختُ خالد، داخل بهو منزلها، يبدو خالد فاتحاً فمه ورافعاً يديه وهو يشرحُ شيئاً لأمّه، بينما تجلسُ إيمان إلى جانبِه وترمقه بنظرةِ ازدراء. كانَ فتيلُ المشاكل قد بدأ في الاشتعال بينهما في تلك الفترة، وكانا يزوران والدَيه وأخته كثيراً. لا تدري ما العلاقةُ بين المشاكل التي بدأت تحدث والزيارات الكثيرة والمتكرِّرة لعائلته، لكنّ الصدفة شاءت أن تربط بين الشيئَين، ولا تدري إن كانَ خالد فعلاً في تلك اللحظة، يشرحُ شيئاً لأمّه، لأنّ

الشخص الذي يتحدّث معه خالد غير ظاهرٍ في الصورة، لكنّ دماغها أراد أن يتذكّر هذا المشهد هكذا.

في الصورة الثلاثين، التي التقطَها خالد نفسُه، تظهرُ إيمان مرتديةً جلباب أمه، بعدَ أن أصرّت عليها زهور بارتدائه، بحجّة أنّ ملابِسها فاضحةٌ جداً. كان الجلباب واسعاً جداً، وكانت متضايقةً جدّاً من ارتدائه. لكنّها، مع ذلك، كانت تضحكُ في الصورة. ضحكةٌ مرّة ومنتزعةٌ قسراً من الداخل. بينما كانت مغمضةً عينَيها بقوة، كأنّما هكذا ستحمي نفسَها من عدمِ رؤية الصورةِ في ما بعد. لكنّها رأت الصورة برفقةِ خالد الذي كان ينفجرُ ضاحكاً من شكلِها غير المعتاد، وكرهَت نفسَها أكثر.

كلّ الصور التي تلَت هذه الصورة، كانت تظهرُ فيها إيمان، إمّا مشمئزّة، وإمّا حزينة، وإمّا متعبة، وإمّا ترمقُ زوجَها شزراً، وإمّا غير مدركةٍ أن أحداً يلتقط لها صورةً أصلاً. كانَ الشعور الغالب على كلّ تلك الفترة هو فقدان الثقة بالنّفس كلّما كان خالد إلى جانِبها، وكانت تكره هذا الشعور، لكنّها لم تستطع التغلُّب عليه، بل ازداد ترسُّخاً داخلَها مع مرور الأيام، كما تترسّخ التجاعيد في بشرة الإنسان مع مرور الزمن، بحيثُ لا ينفع معها علاج ولا كريمات ولا عملياتٌ تجميلية.

إنّ حرق هذه الصور، بالنسبة إلى إيمان، كان بمثابةِ مسحٍ، ليس للتجاعيد فقط، بل لملامحِ الوجه نفسِها بصفةٍ نهائية، أملاً في الحصول على ملامح جديدة في يومٍ من الأيّام. وإذا كانت الملامحُ لا تُستَبدل، فإنّ إيمان تفضّل أن تبقى بلا ملامح، على أن تظلّ بملامحِها القديمة المشوّهة، التي، ما إن تراها في المرآة، حتى تهرب خوفاً وقرفاً.

عندما عادَ خالد إلى البيت في المساء، انتبه إلى رائحةِ حريق. قالتْ إيمان إنّها أحرقت غداءها، ولم تفتحِ النوافذ لتغيير الهواء في

البيت، بسبب البرد القارس في الخارج. سألَها عن الصور الغائبة عن جدران البيت وفوقَ المنضدات، وقالتْ إنّها مسحتْ عنها الغبار، وستعيد ترتيبها من جديد غداً.

لكنّها شعرتْ، عندما نظرت إلى عينَيه، أنّه شمّ رائحةَ حريقٍ من نوعٍ آخر. بهدوء، فتحَ النوافذ. لم يكن خالد غبياً، لكنّها كانت تعرِف أنّه يتغابى، كالعادة، وكانَ هذا مناسباً لها، لتربحَ بعض الوقت.

5

الذكرياتُ ضرورية للاستمرار

في صباح اليوم التالي، كان الجوّ ماطراً وكانت الرّيح عاصفة. استيقظت إيمان على صوتِ قطرات المطر القوية وهي ترتطم بأرضية الشرفة وشبّاكِها الحديديّ. كان واحداً من تلك الصّباحات التي تجعلُ الواحد يشعرُ بالغضبِ والحقد على العالم من دون سبب. فتحتْ علبةَ بريدها الإلكتروني بتوتُّر، ووجدتْ رسالتَين من مديرة التحرير في الموقع الأميركي، الأولى عبارةٌ عن رسالةٍ قصيرةٍ من سطرَين تثني فيها على عملِها الذي وصفته بالجذّاب، والثانية عبارة عن تكليف للكتابة في موضوعَ الأحياء الفقيرة والمهمّشة في إسطنبول التي تشكّل الوجهَ الآخر للمدينة، الوجهَ المخبّأ وراءَ واجهات السياحة اللامعة.

وكانت هناك أيضاً رسالةٌ جديدة من زهرة التوليب. وقبل أن تردّ على رسائل العمل، فتحت الرّسالة بفضول، وقرأت:

عزيزتي نبتة الصبّار القوية،

تذكّرتُ هذا الصّباح مشهداً من حياتي السابقة التي حاولتُ إخفاءها عن نفسي بكلّ ما أوتيتُ من وسائل إلهاء، وشعرتُ بالحاجة إلى الكتابةِ عنه، وإلى أن يقرأه شخصٌ يفهمني حتى أتخلّص منه إلى الأبد (ألا يقولون إنّ الكتابة خلاص؟) ولا أدري لماذا فكّرتُ فيكِ.

لا يهمّ متى وأينَ حصل ذلك، فلا الزّمان ولا المكان ولا حتى

التفاصيل المحيطة يمكن أن يبرّرا ما عشتُه في ذلك اليوم، ولا قِدمُ الحادثة يمكنه أن يمسحَها عن ذاكرتي أو يطهّر قذارتَها المقذوفةَ في داخلي. ما يهمّ هو الحادثةُ نفسُها، وكيف يمكن لإنسانٍ أن يعيشَ بعدَها. ثمّة أشياء عندما تحصل للناس، يستحيل معها أن يعودوا كما كانوا من قبل أبداً.

حدث ذلك بعدَ طلاقي بشهور قليلة. كان الليلُ مخيّماً. تركتُ رضيعي نائماً في الغرفة، وخرجتُ إلى الشرفة لأتنفّس بعض الهواء النقيّ. جلستُ إلى الطاولة الخشبية الصغيرة ورحتُ أراقبُ بملل، الحياةَ الليلية في حيّ تارلاباشي: سكّيرون لفظتهم الحانات في منتصف الليل، عُشّاق بوهيميون يمرّون وهم يتبادلون القبل والعناقات، سيّاراتٌ صاخبةٌ بالموسيقى، درّاجاتٌ نارية تمضي مخلّفةً دخاناً قوياً، قططٌ تمشي بأناقة، ثمّ تختفي وراء كومة النفايات التي توجدُ قرب باب المبنى. كنتُ أنظرُ إلى مجموعةِ كِلابٍ ضخمة تنبحُ مطاردةً سيّارةً مرّت، حين أحسستُ بكفٍّ تحطّ على كتفي في ما يشبِهِ الصّفع. وعندما التفتُّ، رأيتُ زوجي السّابق واقفاً أمامي، بقامتِه الطويلة وعضلاتِه المفتولة ووجهه المليء بالندوب والكدمات وفمِه الذي من دون أسنان. كان معروفاً بمصارعاتِه المستمرّة في الحيّ منذ مراهقته، وكان وجهه دائماً عبارة عن ساحة المعركة. كان ذلك من الأسباب التي جعلتني أتركه. لم يعقل رغم مرورِ الزّمن. في البداية، اعتراني شعورٌ خالص بالاستغراب. كيف استطاع أن يدخل إلى البيت؟ لكنّ بعدَ ثوانٍ فقط استبدّ بي الخوف. أدركتُ أنّ هذا الرّجل يوجدُ فعلاً في غرفةِ نومي!

وقبلَ أن أسأله ماذا يريد، وكيف دخل إلى البيت، ولماذا سمحَ لنفسه بالدخول إلى غرفة النوم، أمسَك رأسي كلّه في قبضةِ كفّه، وكاد يلوي عُنقي لولا أنني استسلمتُ له. لم أنبِس بكلمة. كانت الكلابُ

الضالة لا تزال تنبحُ في الخارج مطاردةً سيّارةً أخرى مرّت من هناك. مزّق فستاني بكفّه الثانية، بينما كانت كفّه الأولى تضغطُ على فمي وأنفي. لم أحاول أن أصرخ ولا أن أتحرّك مدافعةً عن نفسي وأنا أرى الموتَ على بعدِ خطوةٍ واحدةٍ مني. كلّ ما فعلته هو أنني أغمضتُ عينَي ودعوتُ الله في نفسي أن أذهبَ إلى الجنّة. أبي قالَ لي يوماً إنّ الإنسان في الجنّة ينسى كلّ الشرور والآلام التي عانى منها في الدنيا، ويلتقي أحبّاءه، ويعيشون إلى الأبد حياةً سعيدة. كنتُ أريد أن أحضن طفلي في الجنّة وليس في الدنيا، لأنّ الدنيا تنتهي بالموت، أما في الجنّة، فليسَ هناك موتٌ ولا عذاب ولا فراق. دخلَ جسمٌ غريبٌ داخلَ جسدي، وشعرتُ أنّ معدتي ستخرج من فمي، لكنّه كان مغلقاً، فظلّت عالقةً في حلقي. نبحتِ الكلاب في الخارج مرّةً أخرى. وجاءني صراخ الحياة من الغرفةِ الثانية حيث يرقد طفلي. قُذِفتُ فوق الطاولةِ الخشبية بعنف حتى انقلبت. لم أبكِ لحظتَها، لكنّني بكيتُ طويلاً في الأيام التي تلتِ الحادثة، لأنّ الله لم يقبض روحي وتركني أحترق في الجحيم.

كلّ عام في تركيا، تُقتَل عشراتُ النّساء التركيات على أيدي أزواجهنّ السّابقين. كنتُ أريد أن أبدأ حياتي من جديد، لكنّه لم يدَعني أفعل ذلك. ومنذ تلك الليلة المشؤومة، لم يبدُ أيّ شيءٍ في عينَي كما كان يبدو لي من قبل.

لكلٍّ منا أسرار لم يخبر بها أحداً على الإطلاق، أسرارٌ حقيقية لا يمكن أن يخبر بها الواحد حتى أمّه، وأكثر ما يمكن أن يفعله، حتى يرتاح من ثقلها، هو أن يخبر بها شخصاً لا يعرفه باسم مستعار. تختلفُ درجة خطورة الأسرار من شخصٍ إلى آخر، وكلّما كانت الأسرار ثقيلةً ومؤلمة، كلّما زاد احتمال أن تدفعَ الشخصَ إلى أخذ قراراتٍ مصيرية في الحياة، يستحيل على الآخرين أن يفهموا دوافعها.

ولذلك وُجِدت «زهرةُ التوليب»، ووُجدت قصصُها الخيالية، لا لشيء سوى لتدسَّ بين كلماتها بعضاً من ألمِها الحقيقي.

مع تمنّياتي أن تقرئي رسالتي وأنتِ في أحسن ما يرام.

زهرة التوليب

رمقت إيمان شاشةَ الهاتف بحدّة ممزوجةٍ بالدهشة. لقد فهِمت الآن كلّ شيء، بل عرفتْ أشياء مهمّة عن طفولةِ كِنان، هو نفسُه لا يعرفها. كانت هناك مرارةٌ في حلقِها. شرِبتْ كوبَ ماءٍ دفعة واحدة، وراحت تفكّر بصوتٍ مرتفع وهي تحرِّك يدَيها كأنها تلقي محاضرة:

تعرّضت والدةُ كِنان للاغتصاب من طرفِ طليقها، وذلك عندما كان كِنان لا يزال رضيعاً. ثمّ صبرت وظلّت على قيدِ الحياة من أجلِ ابنِها، قبل أن تقرِّر تركَ البيتِ نهائياً والمغادرةَ إلى مكانٍ مجهول.

ولكنْ، لماذا لم تصبر إلى النهاية؟ أو بالأحرى، ما هي النقطةُ التي أفاضت الكأس؟

ردّت:

عزيزتي زهرة التوليب،

عندما قرأتُ رسالتك، شعرتُ بغصّةٍ في الحلق، كيف يمكن لإنسان أن يفعل شيئاً كهذا لإنسانٍ آخر؟ هل نلقي اللومَ على ظروف الحياة الصعبة لأنّها تصنعُ لنا أشخاصاً متوحّشين مثلَ طليقِك، أم نلوم هؤلاء الأشخاص على الشرّ المتجذِّر داخلهم والذي يؤدّي دائماً إلى أذية الآخرين؟

مهما كانَ الجواب (ولا أظنّ أن هناك جواباً عن سؤالٍ كهذا)، فأنا تأكدتُ اليوم أنكِ بالفعل امرأةٌ قوية، ولهذا السّبب فقط، أنتِ جديرة بالحياة، وتستحقين أن تكوني حرّةً وسعيدة.

اليوم، وأكثر من أيّ وقتٍ مضى، أتمنّى فعلاً أن ألتقيكِ لأستمدّ منك بعضاً من القوة.

مع محبّتي واحترامي

نبتة الصبّار

لم تتلقَّ إيمان جواباً من زهرة التوليب إلّا بعدَ أيام. كانت تسيرُ في كورنيش كوروشيشما حين وصلتْها الرسالة.

قرأت:

العزيزة نبتة الصبّار،

تلقّفتُ رسالتك الجميلة وأنا في جزيرة بيوك آضا، وهي واحدةٌ من الجزُر التي تسمّى «جزر الأميرات»، وتقع في بحر مرمرة في إسطنبول، وكانت عبارةً عن منافي للأمراء والأميرات خلالَ العصر البيزنطي. أجلسُ أمام البحر، وأنظرُ إلى تمثال عروس بحرٍ منتصبٍ على الأحجار التي تحيط بالماء، وأتفرّجُ على الناس وهم يجيئون ويذهبون، أو يركبون العرباتِ القديمة الطراز التي تجرّها أحصنة، ويلتقطون الصور. لا أدري هل لذلك علاقةٌ بالحنين المتجذِّر لدى الإنسان إلى الماضي والتاريخ، لكنْ ما أنا متأكدةٌ منه هو أنّ اقتناء واستعمال الأشياء القديمة يعطي للناس شعوراً بأنّ حاضرهم ومستقبلهم مرتبطان بماضيهم، وبذلك يكون للزمن والحياةِ معنى.

إنّ المعنى لا يتحقّق إلّا بالربط بين الماضي والحاضر والمستقبل. ولذلك أيضاً يلتقطُ الناس الصورَ ويحتفظون بها ويتفرّجون عليها من وقتٍ إلى آخر. كأنّما ليشعروا أنّ حياتَهم كلٌّ متناسق ومرتّب، وليست مجرّد لحظاتٍ عشوائية وعبثية.

عندما تتذكّرين عشوائياً لحظاتٍ من ماضيكِ، وتضعينها أمامَكِ بنفس الترتيب العشوائي، لا يعودُ لتلك اللحظات أيّ معنى، بل إنّك

لا تستطيعين الرّبط بينها وبين حاضرك. جرّبي أن ترتّبي تلك اللحظات وِفقَ الزّمن، ثم اربطِيها بحاضرِك، ستلاحظين أنّ هناك استمراريةً ما. هذه الاستمرارية هي التي نبحثُ عنها، لأنها تعطينا انطباعاً بأنّ هناك خلوداً ما، نتحايلُ به على الموتِ والنهاية.

وددتُ لو أمحو تلك الذكرى من رأسي، لكنّني أراها ضروريةً من أجل هذه الاستمرارية، ومن أجل أن أعرف من أكون، وليكون لطريقي في الحياةِ معنى ما.

مع محبّتي

زهرةُ التوليب

أغلقتْ إيمان هاتِفها، وجلست على كرسيّ خشبيّ واضعةً يديها المتجمّدتين في جيبَيّ معطفها، ثمّ ألقت نظرَها إلى البحر الهائج، ومنه إلى السّماء الرمادية الكثيفةِ الغيوم، ومنه إلى الأُفُق. كانت خائفةً من المستقبل أكثر من أيّ وقتٍ مضى. وتراءت لها حياتها قفصاً مغلقاً بإحكام، تقبعُ هي داخله حزينةً وشبه ميّتة. لقد أحرقت ماضيها كلّه. والحاضرُ سجنٌ أبديّ للإنسان. من أين سينبتُ المستقبل إذاً؟

على إيقاع موسيقى الأرابيسك

عندما تكون إيمان وحيدةً تشرع في استعادة ذكرياتِها. تظهرُ كلّ المشاهدِ في عينَيها بالعرضِ البطيء، فتتفرّج عليها بضجر ويأس. بمجرّد ما تتخطّى أحداثُ الحياةِ الحاضرَ، وتنضمّ إلى سلسلة الماضي، تتحوّل في الذاكرة إلى قصص. قصّةُ إيمان كانت تشبه روايةً مضجرة أو فيلماً مملّاً لا يريد أن ينتهي.

ومثلما ترافق الموسيقى والأغاني أهمّ اللحظاتِ في الأفلام، سواء كانت لحظاتِ حبّ أو مجدٍ أو حزن أو انهيار، ترافقُ أيضاً أهمَّ المشاهدِ في ذاكرةِ الإنسان خلال لحظاتِ الاسترجاع. تستعيدُ إيمان طفولتَها على إيقاعات مختلفة: سوناتة «الصمت» لبيتهوفن، المترعةِ بالشجن والتكرار، وأغنية «أهواك» لعبد الحليم حافظ، و«أنا عم بحلم» لماجدة الرومي... تسترجعُ المرحلةَ الثانية من طفولتِها، بعدما عرفَت أنّ أباها ليس والدَها فعلاً، على إيقاعِ «حزن» لشوبان. تسترجعُ بداياتِها مع خالد، بحماسّها واتّقادِها، على إيقاعِ أغنية Come Together لفِرقة البيتلز. يعودُ لها مشهد أول قبلةٍ تبادلتها مع خالد على إيقاع الأغنية التي تقفز بهجةً Fly Me To The Moon لفرانك سيناترا. تعودُ لها سلسلةٌ من المشاهد حين كانت تطبخ بحبّ وشغف، مُرفقةً بأغنية «أنت عمري» لأم كلثوم. أمّا سيرُها إلى جانبِ خالد في شوارع الدار البيضاء، يداً في يد، فتسترجعها مُرفقةً بأغنية Stronger Than Me لإيمي واينهاوس.

تسترجعُ أيضاً أول مرّةٍ طلبت الطلاق من زوجِها على إيقاع I Will Survive لغلوريا غاينور، ولحظة التقت كِنان مرفقةً بأغنية «أهواكَ بلا أمل» لفيروز، ولحظةَ التقت أصدقاء زوجِها من مختلف الجنسيات العربية على إيقاعات «للوطن» لفِرقة مشروع ليلى اللبنانية.

تختلفُ الإيقاعات التي تسترجع معَها إيمان حياتَها المسجّلةَ في الذاكرة، بين ألحان حزينة وأخرى بهيجة، لكنّ الأغاني الحزينة كانت تأخذ الحيّز الأكبر، متناسقةً، تماماً، مع حياتِها المضطربة. إنها ترى اليوم أنّ حياتَها كانت مترعةً بالألم، لكنّ إرفاقَها بالموسيقى، جعلَها تجدُ في استرجاعِها الكثيرَ من اللذّة. يقولُ الفلاسفةُ وعلماء الجمال إنّ السرّ في تلذّذ الناس بسماعِ الموسيقى الحزينة هو أنّ الاستجابةَ العاطفية لهذا النوع من الموسيقى ليسَت في الواقعِ حزناً حقيقياً، بل حزناً موسيقياً له طابعٌ تجريدي، يجعلُها أكثر تعبيراً عن جوهر الوجود. لذلك كانت إيمان تجعلُ من الأغاني خلفيةً لذكرياتِها، من أجل التخفيف من ألمِها وقسوتِها وعبثِها.

وإذا أرادت إيمان أن تشبّه حياتَها اليوم بشيءٍ ما، فهي تشبّهها بموسيقى الأرابيسك التركية خلال الثمانينيات والتسعينيات. إنّها سوداوية وقدَرية ويائسة تجاه الحياة والحبّ مثل الأرابيسك تماماً، وبينها وبينَ فنّاني الأرابيسك التركي قواسم مشتركة كثيرة مثل الهجرة والغربة والشعور بالاغتراب. لذلك، أصبحت تستمع كثيراً إلى هذا النّوع من الموسيقى منذ مجيئها إلى إسطنبول، وتجدُ فيها السلوان. وإذا شاءت أن ترفقَ حياتَها في إسطنبول طوال سنتَين بموسيقى ما، فهي ترفِقها بموسيقى الأرابيسك، بأغاني مسلم غورسيس وأورهان كنجباي وفيردي تايفور. . . مغنّون كانوا يجعلون الأتراكَ خلال التسعينيات يجرحون سواعِدهم بشفرات الحلاقة وهم يستمعون إلى أغانيهم الطافحة بالوحدةِ والفراغِ واليأس والمظلومية.

كانت وحيدةً فعلاً بين أربعةِ جدران، تحيطُ بها نوافذُ منقّطةٌ بالمطر، وأحلامٌ أكبَر من قدراتِها بكثير. وعندما تفكّر في الوحدة، ينتابها الخوف. تفتح الحاسوب، تدخل إلى موقع يوتيوب، وتشاهد حلقةً من مسلسلٍ تركيّ.

كتبت في شريطِ البحث هذه المرّة: المسلسل التركي «وتمضي الأيام» مدبلجاً إلى العربية. ضغطت عشوائياً على الحلقة الثانية والثمانين، وتسمّرت أمامَ الشاشة كأنّها مخدّرة.

قالت غزَل لعلي، بينما يتجسّس عليهما الرّجل الشرّير الذي يحبّها من وراء سورٍ قريب:

- كلّ واحدٍ منّا مجروح أكثر من الآخر، وليكن في علمكَ يا علي أنني لستُ مستعدّة للتضحية بأسمر، وليس لديّ أيّ استعدادٍ أن أترك غيري يبني سعادَته على حسابِ سعادتي. على كلّ واحدٍ منّا أن يقتلعَ شوكَه بيدَيه. لا أريد أن أربّي ابني كما تربّينا نحن.

عندما انتهت غزل من كلامِها الذي قالَته بملامح جدّية جدّاً، تراجعَ الرّجل الشرّير متوارياً خلفَ السّور، بملامحَ حزينة، وقال لنفسِه بإصرار كبير وبصوتٍ مرتفع:

- سأنفجر. ليسَ لديّ أيّ أحد، وأنا في حاجةِ إليكِ كثيراً يا غزل، يجب أن أحميكِ من هذا المجرم، يجب أن أكونَ إلى جانبِك دائماً.

ما يهمّ أن يكون الإنسان سعيداً

تفحّصَ خالد الصّلعاء الحسناء الجالسة بجانبِه، من رأسِها إلى أخمصِ قدميها وهو لا يكادُ يصدّق ما سمِعه، بينما أطلقتْ إيمان ضحكةً خفيفة ساخرةً من الوضع. لا شيء في الحياة يعني أيّ شيءٍ. والمظاهرُ الخارجية لا تثبت أيّ شيء. البشرُ يتغيّرون باستمرار، والحياة تجرّهم إلى منعطفاتٍ معيّنة بحيثُ يتعيّن عليهم الاعترافُ بكلّ شيء كي يعيشوا مرتاحي البال. رفعَت حاجبَيها وهي تحدّث نفسَها باستغرابٍ وذهول.

وفي الوقتِ الذي نظرَتْ فيه إسراء إلى السّاعة في هاتِفها، كأنّما لتهرب من شيءٍ ما، ضغطَ نبيل على كفّها بقوة. ابتسمتْ ياسمين وهي تمرّر كفّها على شعرِها ذي القصّة الرجالية، ونهضتْ إيناس من الأريكة محمرّة الوجنتَين، كأنّها كانت تريد الرّحيل، لكنّها قالتْ في الأخير إنها ستذهب إلى الحمّام.

أمّا مراد، الذي كانت ترافقه فتاةٌ جديدة، أنيقة وفارعةُ الطول، وذاتُ شعرٍ أسود مجعّد وعينَين زرقاوين، فقد ظلّ متسمّراً في مكانِه، مركّزاً نظره في نهدَيّ ناجي المدوّرين كتفاحتَين طريتَين. لاحظَ الجميعُ دهشته وعدم استيعابه لما سمِع للتو. لكزَته الفتاة ذات الشعر المجعّد بمرفَقها على مرأى من الجميع. وقالَ خالد مبتسماً لتلطيف الأجواء:

- لا تهمّ القراراتُ التي تتخذينها ولا الطرق التي تسلكينها في الحياة، ما يهمّ أن تكوني سعيدة.

رمقته إيمان شزراً. قالَ ناجي وهو يضعُ كأس الشاي على الطاولة بهدوء:

- كنتُ أقول قبلَ قليل إنني رجل. رجلٌ يا خالد. والرجال نخاطبهم بصيغة المذكّر وليس بصيغة المؤنّث!

تدخّلت إيمان:

- لا تأخذي. . أقصِد لا تأخذ كلامَه على محملِ الجدّ، لقد اعتدنا على مخاطبتكَ بصيغة المؤنّث، وهذا ليس خطأنا. . لا أقصد أنه خطأكِ أنتِ. . أقصد. . أنتَ، بل خطأ الطبيعة بكلّ بساطة.

قالَ ناجي بنبرةٍ جدّية:

- لستُ خطأً.

شربتْ إيمان من شايها، وانكمشتْ على نفسِها في إحباط، لأنّها لم تنجح في تلطيف الأجواء، أمّا خالد، فلم ينطِق بكلمةٍ أخرى.

رنَت إليهما ياسمين كما ترنو أمٌّ إلى طفلَيها اللذين يسقُطان وهما يتعلّمان المشي، ثمّ قالت بالإنجليزية:

- هل تفكّر في العودةِ إلى تونس بعدَ إجراء العملية؟

أطلق ناجي ضحكةً طويلة وساخرة، ثمّ قال:

- على أيّ حال، لن يتعرّف إليّ أحد، حتى صوتي سيصبِح مختلفاً.

في تلك اللحظة، عادَتْ إيناس إلى البهو. تدخّلت وهي تقتعدُ لها مكاناً على الأريكةِ بحذر، كأنّها تخافُ أن ينفجرَ شيءٌ تحتَها:

- وماذا عن عائلتك؟

ردّ عليها ناجي بالإنجليزية:

- لا أظنّ أنهم سيتقبّلونني، باستثناء أختي التي قد تتفهّم الأمر.

في نهاية المطاف، سيكون صعباً بالنسبة إليهم أن يتقبّلوا وجودَ شخصٍ جديد بينهم.

كانت الفتاة ذات الشعر المجعّد تنظرُ إليه بعينَين مترقرقتَين بالدموع. أفلتت يدَها من قبضةِ مراد وصاحت بتأثر:

- رأيتُ شيئاً كهذا في محلٍّ لبيع الموادّ التجميلية في تقسيم، كان هناك بائع.. أقصد بائعة.. ترتدي ملابسَ نساء، لكنّ جسدها كان ضخماً.. أعني مثلَ رجل. يداها كانتا كبيرتان وخشِنتان، وكانت أظافرُها مصبوغةً بالأحمر. كانت تتصرّف كما لو أنّها امرأة، بينما كانَ صوتُها غليظاً، أغلظَ وأكثر خشونةً حتى من أصواتِ كلّ الرجال الذين عرفتهم...

ظلّ ناجي صامتاً. قالت ياسمين بهدوء:

- وكيف تريدينها أن تتصرّف؟ إنّها امرأة، وتتصرّف مثل بناتِ جنسِها. ما الغريبُ في الأمر؟

قالت الفتاة بحماسٍ كبير وهي تمسحُ دموعَها:

- أنا متّفقةٌ معكِ، وأتّفق معكم جميعاً، لكنْ...

قاطعتها إيناس بحدّة:

- أنا لستُ متّفقة.

سكتَتْ قليلاً، وعمّ الصمتُ المكان. وفي غضون برهة، تحوّلت نظرة إيناس الحادّة إلى نظرةِ طفلٍ يتوسّلُ أمّه الفقيرة أن تشتري له لعبةً جديدة. كانت حينها تنظر إلى ناجي. قالت:

- فكّري جيّداً يا عزيزتي. أنا لا أريدُ إلّا مصلحتكِ. هذا مرض، والعلمُ تطوّر وأوجدَ له علاجاً.. عليكِ أن تفكّري ألفَ مرّة قبل أن تقدمي على قرارٍ مهمّ كهذا.

شعرتْ إيمان بالقرف عندما سمِعت هذا الكلام، ولاحظتْ خاتم

خطوبة في يدِ إيناس. استجمعت كلّ ما في داخلها من تركيز وثبات وقالت:

- عزيزي ناجي، مصلحتُك في سعادتك، وأنت وحدَك مَن تعرِف مصلحتك.

ثمّ التفتت نحوَ إيناس، وهمهمت متظاهرةً بالمزاح:

- على كلّ واحدٍ منّا أن يقتلع شوكَه بيدَيه، اهتمّي بشوككِ، واتركي أشواكَ الآخرين لينتزعوها بأنفسِهم.

أومأت إسراء وهي تستمع إلى إيمان باهتمام:

- معكِ حقّ... هذا عينُ الصواب.

اندلقت نظرةُ حقدٍ من عينَي إيناس. تحرّك نبيل في مكانِه وفتحَ فمه كأنما يستعدّ لقولِ شيءٍ مهمّ، لكنّه لم يقل أيّ شيءٍ في النهاية. نظرَ إلى إسراء التي اتسعت عيناها وهي تقول:

- وهل تفكّر في العودةِ إلى إسطنبول يوماً ما؟

اكتسحت وجهَ ناجي ابتسامةٌ فيها مسحةٌ من الحزن، تنهّد كمن يتحسّر على الأيام الخوالي، ثمّ قال بمرح:

- لا بدّ من ذلك.. برلين مدينةٌ رائعة، لكنّ إسطنبول تشبه امرأةً شرقية جميلةً بتناقضاتِها. متحايلة مثلَ شهرزاد **ألف ليلة وليلة**، لها تاريخ عظيم وقصصٌ لا تنتهي، لا تقولُ كلّ شيءٍ مرّةً واحدة. تستدرِجكَ وتجذِبك وتُثيرك، وعندما تتصاعد إثارتُك، تسكتُ عن الكلام وتذهب. إنها تتركُ الواحدَ مشتعلاً طوال الوقت.

كانت إسراء تحدّق فيه بإعجابٍ لم تستطِع أن تخفيَه. ضغَط نبيل على كفّها بقوة مرّةً أخرى، كأنّما ليثير انتباهها إلى وجودِه الذي يبدو أنها نسيته. في الوقتِ نفسِه، كانت إيمان تشعر بأملٍ لا مثيل له. تراءت لها الحياةُ سهلةً جدّاً مثلَ نهرٍ يجري بسلام وسطَ حديقةٍ خلّابة. إذا حقّق ناجي أحلامَه، فلماذا لا تحقّقها هيَ أيضاً؟ صحيحٌ أنّ هناك

الكثير من الصعوبات، لكنْ لا شيء يمكنُ أن يقفَ في وجهِ الإنسان إذا عضّ على تطلّعاتِه بالنواجذ. ألم تقل زهرةُ التوليب إنّ المواجهةَ هي التي تقضي على الآلام والمصاعب، وتضمنُ استمرارَ الحياة بأقلّ الخسائر الممكنة؟

وعندما فكّرت في هذا، التقتْ عيناها بعينَيّ إسراء، ولا تدري لماذا خُيّلَ لها أنّ إسراء هي زهرةُ التوليب. أرادتْ أن تقول شيئاً، لكنّ زوجها نهض. كانَ الليلُ مخيّماً، وكانت السماء تمطرُ بغزارةٍ في الخارج. راودَها شعورٌ قويّ أنها لا تريد العودةَ إلى ذلك البيتِ مجدداً، لكنّها أمسكَت بكفّ خالد التي مُدّت لها، ونهضتْ.

60

لحظةٌ واحدة تحتوي العالم كلّه

تستطيع إيمان أحياناً أن تحتوي الوجودَ كلّه في لحظةٍ واحدة فقط. كلّ الأشياء المرتبطةِ بها، كلّ ما تفعله في حاضرِها، كلّ الأفكار التي تأتيها، ذكريات ماضيها، توقّعاتُ مستقبلها... تتقلّص وتتجمّع وتتحوّل إلى خليّةٍ واحدة في دماغِها. في لحظةٍ واحدة، يتكثّف الوجودُ كلّه في رأسِها. تمسحُ الصّباغةَ من أظافرِها. وفي اللحظةِ نفسِها التي تمرّر فيها الفُرشاةَ الصغيرة المحمّلةَ بصباغةٍ حمراء فوقَ ظفرِ إبهامها، تفكّر في الحبّ، وتفكّر في خالد، وتفكّر في كِنان، وتفكّر في الطلاق. تذوب هذه الأشياء كلّها وتتحوّل إلى فكرةٍ واحدة في رأسها.

في اللحظةِ نفسِها، تأتيها حياتُها في صورة امرأةٍ طويلةٍ وممتلئة، جميلةِ الجسد، لكنْ بوجهٍ ممتلئ بالنّدوب والجراح، كأنّها خرجَت للتوّ من معركةٍ حامية. امرأةٌ عارية تماماً، لكنّها تزيّن أذنيها بقرطَين فيروزيَّي اللون، وتعلّق في عُنقِها قلادةً ضخمة، وتضعُ وشماً على مؤخّرتها عبارةً عن كِتابةٍ غير مفهومة تشبِه الصينية. تنتعلُ حذاءً بلاستيكياً طويلاً حتى الرّكبة أخضر اللون، مثلَ أحذية عمّال النظافة. يداها ملطّختان بالحِنّاء حتى مرفقيها، وشعرُها قصيرٌ وأشعث، كأنه نجا من حريق. تحملُ حقيبةً صغيرة لا تتسع لأيّ شيء، حتى للنقود، وتمشي نحوَ إيمان بخطواتٍ ثابتة، متبخترةً في مِشيتها كأنّها تقدّم عرضاً للأزياء. وعندما تصبح أمامها مباشرةً، تتوقّف، تضعُ إصبعها على صدرِ إيمان

كأنها تريد أن تغرِزه فيه، ترفعُ رأسَها، يهتزّ قرطاها، ثمّ تسألها بنبرةٍ مفعمةٍ باللوم:

- أنتِ، لماذا جعلتِني مشوّهةً هكذا؟

لا تردّ إيمان، لأنها في اللحظةِ نفسِها تفكّر في الكتابة أيضاً. لكنّها لا تكتب، لأنّها، في اللحظةِ نفسِها، تفكّر في مشاهدةِ حلقةٍ أخرى من مسلسل «وتمضي الأيّام». لكنّها لا تشاهد المسلسل، لأنّها، في اللحظةِ نفسِها، تفكّر في الخروجِ من البيت والتوجه إلى بيه أوغلو بحثاً عن كِنان. لكنّها لا تخرج ولا تبحثُ عن كِنان، لأنها، في اللحظة نفسِها، تفكّر أيضاً في الذهاب إلى مقرّ المؤسسة التي يعمل فيها خالد لتطلبَ منه الطلاق. لكنّها لا تذهبُ إلى مقرّ عملِ خالد ولا تطلبُ منه الطلاق، لأنّها، في اللحظة نفسِها، تشعر بالخوف من أن تبقى بلا بيت. تفكّر في الكتابة مرّةً أخرى، لكنّها لا تفتحُ حاسوبَها لتكتب، لأنّها، في اللحظةِ نفسِها، كانت لا تزالُ تمرّرُ الفرشاةَ المحمّلةَ بالصّباغة الحمراء على ظفرِ إبهامها، وتفكّر في حياتِها التي تشبِه امرأةً بلهاء.

61

كما يليق بالنّهايات أن تكون

زقزقَ أطفالٌ في الخارج، ودخلَ شعاع شمسٍ محتشم عبرَ زجاج النافذة إلى الغرفة، ثمّ حطّ على وجهِ كِنان. بدا بريئاً وهو يتنفّس بهدوء، نائماً في وضعيةِ طفلٍ بردان. طبعَت هازال قبلتَين خفيفتَين على عينَيه، وترقرقت عيناها بالدّموع وهي تنظرُ إلى ثغره الذي افترّ عن ابتسامةِ نشوة. رمَت بصرَها إلى الخارجِ، وبدتْ لها شرفةُ الطابق الثاني للمبنى المقابلِ، حيثُ تتموّج ملابسُ وملاءات منشورة على حبل الغسيل مع حركةِ الرّيح الهادئة، وتناهى إلى سمعِها، في الوقت نفسِه، عزفُ بيانو عذب وحزين، تلاهُ صوتُ كمانٍ مضطرب وثائر، ثمّ صوتُ امرأةٍ تتكلّم بانفعال. عرفَت أنّ الجيران يشاهدون مسلسلاً. نفسُ المسلسلِ الذي كانوا يشاهدونَه حين كانت تعيشُ هنا قبل سنةٍ ونصف.

كان الجوّ في الشقّة الواقعةِ في الطابقِ الثاني في ذلك المبنى العتيق بزقاق بالاسكا، أليفاً جدّاً بالنسبة إلى هازال. وعندما تحرّكت أغصانُ الأشجار العارية في الخارج بفعلِ الرياح، تناهت إلى أنفِها رائحةُ المهلّبية بالقرفة المنبعثة من علبة فارغة تناولَها كِنان أمس، فهزّتها الوحشة. كانتْ تعرِف أنّ مجيئها هنا أمس كانَ أجملَ فكرةٍ يمكن أن تخطرَ على بالِها. أرادت أن تودّعه كما يليق بالوداع أن يكون، هادئاً ومسالماً ورائعاً، مثلَ النظرِ إلى وجهه في هذه اللحظة.

ومع ذلك، لم تكن ليلةُ البارحة ليلةً مثالية. ولم يكنْ كِنان ليصدّق

أنّها جاءت فعلاً، وأنّها واقفةٌ عند بابِ بيته. أوقَفها عند الباب، بينما كانت تحاول أن تدخل، متصرّفةً كأنّ البيتَ بيتُها. كانت ثمِلة. سألته صارخةً ما إن كانَت معه فتاةٌ ما. ردّ بالنّفي، ثمّ أخبَرها، وهو يمنعُ جسدَها من الاندفاع إلى الداخل، أنّ هناك امرأةً في حياتِه. في تلكَ اللحظة، توقّفت ورمقتْه بنظرةٍ تنمّ عن شعورٍ بالخذلان والهجر. تثاقلَ جسدُها وكادَ يسقطُ على يدَي كِنان اللتين كانتا تدفعانِه. هوى رأسُها الثقيلُ بفعل الإفراطِ في شرب النبيذ وانحنى إلى أسفل، كأنّه عنقود عِنبٍ ممتلئ تدلّى من كرمة، وتقيّأتْ سائلاً أحمر. جرّ جسدَها الثقيلَ إلى الداخل، كأنّه يجرّ جثّة، وأدخله إلى الحمّام. أوقفَها على رجلَيها بصعوبة، وفتحَ رشاش الماء، ثمّ وقفَ يتفرّج عليها وهي تتبلّل بالكامل. وبلغتهُ رائحةُ شعرِها قويةً ولذيذة. نفسُ الرائحة التي كانت لها قبل سنةٍ ونصف. رائحةُ الخزامى ممزوجةً برائحة اللوز. تقيّأت مرّةً أخرى. لفّ جسدَها في فوطةٍ بيضاء، وقادَها نحوَ البهو.

عندما جلسا معاً على الأريكة قبالة المدفأة، شرعت هازال ترتعد بقوة، وهي تنظر إلى النار المشتعلة. كانت يائسة. وانهمرَت على رأسِها فكرةُ أنّ حياتَها انتهت بالفعل الآن. مدّ كِنان ذراعَه وحوّطها، فاتكأت برأسِها الثقيل على كتفه. لكنّ واحداً منهما لم ينظر إلى الآخر. كأنّهما كانا يتفاديانِ ما أمكن ألّا تلتقي عيناهما.

كانت هازال قد بدأت تصحو من السُّكر. قالت بصوتٍ منخفضٍ وساخر:

- بهذه السّرعة؟

قالَ كِنان بحِدّة:

- بهذه السّرعة.

ازداد يأسُها. سألتْ بحزن:

- لم تعد تحبّني، أليسَ كذلك؟

قالَ بهدوء:

- لا علاقة للموضوعِ بالحبّ.

تدلّت شفتُها السّفلى مثل طفلةٍ تستعدّ للبكاء. التفتت ناحيتَه. لم يتغيّر. قالت:

- له علاقةٌ بماذا إذاً؟

التفتَ إليها. التقت عيونهما. رأته ورآها في ضوء النّار ذي اللون البرتقالي المتوهِّج. أمسَكها من مؤخرة رأسِها، ثمّ شرعَ يقبّلها بشوقٍ ولذّة. كانت هي مستسلمة لتلك الجذوةِ المستعرة من الشهوة، كأنّها آخرُ مرّةٍ ستقبّل فيها شفتَين في حياتِها. توقّفَ عن تقبيلِها، ونظرَ في عينَيها مباشرةً، فتراءى له نفسُ التّوق الممزوج بالخضوع، الذي كان فيها منذ عرفَها. كانت نارُ المدفأةِ تنطفئ شيئاً فشيئاً، وفي غضون دقائق، غرِق البهو في الظلام.

تمدّدت هازال عاريةً على الكنبةِ وهي تفكّر في القطّ باكي الذي تركته وحيداً في البيت. كانت تضعُ قدميها فوق فخذيّ كِنان الجالسِ بجانِبها. أسنَد رأسَه إلى الأريكة، وألقى نظرَه على اللوحةِ غير المكتمِلة أمامه، لامرأةٍ ترتدي فستاناً فيروزيّ اللون. كانَ يحاولُ نقلَ صورةٍ لأمّه التُقِطت لها في أواخر السبعينيات، عندما كانت في السّادسة عشرة. إضفاءُ الألوان على صورةٍ بالأبيض والأسود هو إحياء للحظةِ التقاط الصّورة. فكّر. تنهّدت هازال بعمق.

غمغم:

- هل تعرِفين أنّ أمّي انتحرتْ ولم تهرب؟

رفعتْ هازال رأسَها عن الكنبة، وقالت بنبرةٍ غير مصدّقة:

- ماذا؟

أومأ بحزن، بينما راحتْ هازال تضمّه إليها بأسفٍ كبير، كأنّ أمّه ماتت البارحة، وليسَ منذ عشرين عاماً. لا يهمّ حدوثُ الشيء، بل المعرفةُ بحدوثه.

تنفّس عميقاً كأنه يطرد مفعولَ فكرةِ موتِ أمّه على نفسِه. كانت هي لا تزال تضمّه، مغمضةً عينَيها، وقد سالتْ دمعةٌ رفيعة على خدّها، ليسَ تأثُّراً بموتِ زينب التي حسبتها لسنواتٍ على قيد الحياة، بل لأنّ سيلاً قوياً من الشعورِ بالخذلان جرَفها. لم تكنْ تعرِف ماذا كان يخبّئ عنها أيضاً طوال مدّة علاقتِهما. على كلّ حال، لم يعد ذلك يهمّ.

- كانت أمّي امرأةً طيبة ورائعة. لا أقولُ هذا لأنّها ماتت، بل لأنّها كانت فعلاً إنسانةً رائعة. ضحّت بكلّ شيءٍ من أجل سعادتِنا أنا وأبي، بحبّها للكتابة وطموحِها لأن تصبح روائيةً كبيرة. في المقابل، كان هناك أبي، الرّجلُ اليائس بسببِ عدم نجاحه في مجال الفنّ التشكيلي، رغم أنّه كرّس نفسه ووقته له فقط. لم يكنْ يعمل، ولا كان يهتمّ بأسرتِه. كان يقضي كلّ الوقتِ في ورشته، يرسمُ في النّهار، ويسكر في الليل، لدرجةِ أنّ أمّي كانت تضطرّ إلى أن تجهّز له طعامه لوحده، ليأكلَ داخلَ الورشة. لا أتذكّر أن والدي جلسَ معنا يوماً في البهو، أو خرجَ معنا في نزهة، أو تناول معنا العشاء. كانت أمّي تتحمّل عصبيته وتوتره الدائم الذي كان يصلُ أحياناً إلى كسرِ الأواني وقلبِ الطاولة بكلّ ما فوقَها. كانت تشجّعه، وتحاول دفعه إلى الأمام طوال الوقت، تقتني له قنّينات النبيذ والويسكي، وتعدّ له الطعام، وتنظّف فوضاه، وتربّي ابنهما لوحدِها. غبية... صحيح؟ كانت فعلاً غبيّة! لقد كانت تدفع أجرَ الشقّة التي عِشنا فيها لوحدِها، بينما لم يكن هو يعطيها فلساً واحداً.. لو تركته، لرُميَ هو إلى الشارع وليسَ هي. لم يكن هناك شيءٌ عليها أن تخافَ منه، ومع ذلك لم تتركه، بل ظلّت تخدمه حتى أنهَت عمرها وشبابَها بنفسِها. وماذا استفادت؟ لا شيء

على الإطلاق! عندما كنت أخرج معها وحدنا في نزهات أو للتسوّق، كانت تبدو جميلةً ومتوهِّجةً وقوية، وبمجرّد ما تدخل إلى البيت وتصبح بجانبِه، تتحوّل إلى امرأةٍ أخرى تماماً. تنطفئ عيناها، وتفقد ثقتَها بنفسِها، وتُصبحُ ضعيفةَ الشخصية وعديمة الموقف. لا أعرِف لماذا. هل لأنّ أبي كان يخيفُها، أم لأنّها كانت تحبّه إلى درجةِ محوِ نفسِها حتى يبرزَ هو. وكلّما كانت تضعُف وتصغر أمامه، كلّما كان هو يتضخّم ويزدادُ قوةً وطغياناً. هل الطغيان وممارسة القوة على الناس هي التي تنتِج الضعف، أم أنّ الضعف هو الذي يؤدّي إلى الطغيان؟ لم أعرِف أبداً جواباً عن هذا السؤال. كنتُ أراقبُ أمّي تذبل أمام عينَيّ، بينما كانت الديون تتراكم عليها، بعدما أنفقت كلّ ما تركَه لها والدها من أجلِ أسرتِها. ومع ذلك، لم تكن تشتكي أو تبكي أمامي أبداً! كانت تؤمن إيماناً عميقاً بأنّها خُلِقت للتضحية، وأنّ هذا هو دورها الأساسيّ في الحياة، أما الأشياء الأخرى، فهي مجرّد ترف. لم أفهم هذا إلّا في ما بعد. ذاتَ ليلة، وبينما كان والدي يتناول الكحول في ورشته، تناولَت هي كمّيةً كبيرة من الحبوب المنوّمة، واستلقت على الكنبة. حينما استيقظتُ في الصباح، لم أجدها في البيت، كانَ هناك جسدُها فقط. حرّكتُه بقوة بينما كانَ الخوفُ يستبدّ بي، لكنّها لم تستيقظ، لأنّها كانت قد نامت نومتَها الأبدية.

كانت هازال تحدّق في بؤبؤَي عينَيه وهما يتّسعان حزناً. وكانت تتساءلُ: هل كان يكذبُ عندما أخبرها أن والدتَه هربت من البيت، أم يكذب الآن؟ أم ربّما هو كاذبٌ في كلتا الحالتين؟

قالت:

- ولماذا فعلتَ كلّ هذا؟

اتّسعت عيناه في استغراب، وقال:

- ماذا فعلت؟

أبعدَت قدميها عنه في نفور، وأشعلت سيجارة. لم يهتمّ لها. تابعَ حكيه:

- بعدَ موتِ أمّي، ظهرت زليخة فجأةً في حياتِنا. ظننتُ في البداية أنّ والدي تعرّف إليها منذ وقتٍ قصير، وأنّ علاقتهما توطّدت بسرعة، لأنه كان في حاجةٍ إلى شخصٍ بجانبه، خاصّةً أنها كانت تعاملني بلطف، وكانت تحاول أن تحلّ محلّ أمي بأيّ طريقة. عندما بلغتُ السادسة عشرة، اكتشفتُ أنّ والدي كان يعرِفها منذ سنواتٍ طويلة. سمِعتُهما يتشاجران داخل الورشة. قالت له إنّه ترَكها من أجل امرأةٍ أخرى، وإنها ظلّت تنتظره لسنواتٍ طويلة، ولم تنظر طوال أربعةَ عشر سنةً كاملة إلى رجل آخر غيره. كان واضحاً أنها تحبّ والدي بشكل جنونيّ، وأنها كانت تريد الزواج، لكنّ والدي لم يكن مهتمّاً بالعرض، وظلّا يعيشان معاً تحتَ سقفٍ واحد من دون زواج، حتى مات. كانت تلكَ أوّل مرّةٍ أرى فيها دموعَ زليخة وهي تخرج مسرعةً من الورشة، كسيرةً ومنحنيةَ الرأس. كسرها والدي أكثرَ ممّا كسر أمّي. لكنّني ما زلتُ لا أفهمُ كيف تدَع نساءٌ جميلات وقويات رجالاً يكسرونهنّ. لماذا تضعف النساء فجأةً بمجرّد الوقوعِ في الحبّ؟

نظرَ إليها كأنّما يوجّه السؤال لها. رَمقته باستنكار وقالت:

- لستُ جميلة!

اشتعلت جذوةُ الشهوةِ في عينَيه من جديد. قال:

- أحبّك يا هازال.

خافت عندما بدأ يتلمّس ساقيها. كانت تحبّه، لكنّها خشيت أن يكون مثلَ أبيه. رغم اختلاف التربية التي تلقّاها كلّ واحد منّا، والظروف التي عاشَها، هناك أشياء تنتقلُ إلى الناس عبر الجينات، أي رغماً عنهم، حتى الطبع ينتقل عبر الجيناتِ أحياناً. ومع ذلك، مارست

معه الحبّ مرّتين، بشهوةٍ وحميمية، كأنّما تودّعه. لم تكن تعرِف إذا كانت ستراه ثانيةً، لكنّها كانت متأكدةً أنّها لن تعودَ إلى هنا مرّةً أخرى.

تأمّلت عينَه المغمضة، وشعره الناعم الذي غطّى عينَه الثانية، وخيطَ اللعاب الذي تدلّى من فمه والتصق بالمخدّة، ويدَه الموضوعةَ على بطنِه، وأنفاسَه المنتظمة، ثمّ تحرّكت بهدوء بعيداً عنه. ارتدت ملابِسها، واندفعت إلى الخارج دون أن تلقي عليه نظرةً أخرى. سارتْ في الشارع مبتعدةً عن المبنى، وعن زقاقِ بالاسكا، عابرةً أزقّة بيه أوغلو التي تفوح منها رائحةُ الحياة الجديدةِ والعتيقة في آن، متفرّجةً على الجدران المليئة بالرسوم والألوان والكتابات، مستمعةً بانتباه، إلى صخبِ الحبّ في قلبِها وهو يهدأ رويداً رويداً.

لكلّ واحدٍ منّا ماضٍ، لكنّ الماضي لا يتحوّل إلى تاريخ إلّا عندما ننتهي منه فعلاً. كُتِبتْ أخيراً هذه الجُمَل على صفحاتِ تاريخ هازال بحبرٍ لا يزول:

في زقاقِ بالاسكا الواقع في بيه أوغلو، عاشتْ فتاةٌ اسمُها هازال مدّةَ ثلاثِ سنوات مع رجلٍ فنّان أحبّته بجنون، في شقّةٍ صغيرة، ملتصقةٍ إلى شققٍ أخرى، ومطلّةٍ على مبانٍ أخرى تحتوي شققاً أخرى يعيش فيها أشخاصٌ آخرون.

وفي هذه الشقق الواقعةِ في زقاق بالاسكا الضيّق والصغير، هناك حيواتٌ مختلفة. شِجارات. مسلسلاتٌ تصدحُ موسيقاها عاليةً وتنفذ عبر الجدران لتمرّ إلى الشقق الأخرى. قصصُ حبّ تبدأ وأخرى تنتهي. ولاداتٌ جديدة. جنائز. أحلامٌ وإحباطات. أطفال يلعبون وهم يصدرون أصواتاً تشبه زقزقات العصافير. انتظارات. عيونٌ مترقرقةٌ بالأمل. أرَق. قهقهاتٌ تخترق الجدران. آهاتُ لذّة. أذان. نحيبٌ في آخر الليل. إهانات. أشخاصٌ ينشرون ملابسَهم على أحبال غسيل كلّ

ثلاثةِ أيّام في الشّرفات. لحظاتُ سعادةٍ قصيرة. رياحٌ تهبّ. شمسٌ تشرق. ظلامٌ يهبط. أطفالٌ يحملون حقائبهم الثقيلة ويسيرون نحوَ المدرسةِ عند السابعة والنصف صباحاً. رجالٌ يُخرجون أكياس القمامة. روائح طبخ. نساءٌ ينفضن السجّادات والحصائر في الشرفات، ثمّ يتوارين في الداخل تاركاتٍ غباراً كثيفاً يتطايرُ في الهواء. في شققِ زقاقِ بالاسكا، عَرقٌ ودخان سجائر وسهَر، همسات، رُضّع يبكون في آخر الليل، أوهامٌ كثيرة، كذباتٌ مطرّزةٌ بعناية، خيانات، صمت. في شقق زقاق بالاسكا، أسرارٌ لا يعرفها إلّا أصحاب شقق زقاق بالاسكا. في زقاق بالاسكا، هناكَ أيضاً شقّةٌ صغيرة لفنّانٍ شابّ يُدعى كِنان. شقّةٌ من تلك الشقق الكثيرة الطافحةِ بالأسرارِ التي لا يُمكن أن تُفشى لأحد. في الشقّة نفسِها، كانت تعيشُ فتاةٌ اسمُها هازال.

حتى عندما رحلتْ هازال عن زقاق بالاسكا، ظلّ زقاق بالاسكا هوَ هو، ولم ينقص منه أيّ شيء. تماماً كما في الحياة، يموتُ أشخاصٌ كثيرون كلّ يوم، لكنّ الحياة تظلّ هيَ هي، صاخبةً وضاجّةً بالبشر.. إلى ما لا نِهاية.

بداية ونهاية

عزيزتي نبتة الصبّار،

ديسمبر هذا العام في إسطنبول ثقيلٌ وحزين، وسيبدأ الثلج في التساقط بعدَ أيّام، ولا أعرِف كيف سأتعامل مع الوحدةِ والبرد مرّةً واحدة.

أتمنى أنّك تستمتعين بوقتِك في المكانِ الذي توجدين فيه، وألّا يكون غيابُكِ سبباً للقلق.

مع محبّتي

زهرة التوليب

قرأت إيمان هذه الرّسالة، وأغلقتِ الهاتف بلا اهتمام، ثمّ ألقتْ بصرَها إلى البحر الهائج أمامَها. كانَ البردُ صاعقاً، ولم تفهم لماذا قد يضطرّ إنسانٌ إلى إقامةِ حفلِ زفافه خلال شهرِ ديسمبر على متن عبّارة.

انكمشَت على نفسِها، وهي تضعُ كفّيها في جيبيّ معطفها، حينَ جاءتْها ياسمين بكأسٍ بلاستيكي يحوي نبيذاً. أمسكته شاكرةً، ثمّ رمتْ بصَرها نحو العروسين السعيدين. كانت إسراء ترتدي فستاناً أبيضَ طويلاً يغطّي عُنقها وذراعيها، وطرحةَ رأسٍ بيضاء، بينما كانَ نبيل يرتدي بذلةً سوداء أنيقة، وربطةَ عنقٍ حمراء على شكلِ فراشة. لم يبدُ عليهما الشعور بالبرد. حرارةُ الحبّ المتوهّج في عينَيهما تكفي لتدفئهما

خلال سنين من البرد. نبيل ممسكٌ بيدِ حبيبته، ينتظر بفارغ الصبر اللحظة التي سيضع فيها الخاتم في إصبعها. إيمان أيضاً كانت سعيدةً هكذا قبل سنوات، حتى لو لم ترتدِ فستان العرس أو تحتفلَ بزفافها على متنِ عبّارة. ابتسمت لهما من بعيد وهي تفكّر: النهاياتُ في الحبّ مثلَ الموت، آتيةٌ لا ريبَ فيها.

اختارَ العروسان ألّا يدعُوَا إلى الحفل تركياً واحداً. يقول نبيل إنّه لم يسبِق أن استطاع أن يُكوّن صداقةً حقيقية مع تركيّ، ولم يرَ خلال سنواتِ حياتِه في إسطنبول عربياً وتركياً صديقَين بشكلٍ حقيقيّ، لأنّ العلاقةَ غير متكافئة. الأتراك ينظرون إلى العرب بنظرةٍ فوقية، يقول دائماً بنبرةٍ ساخرة.

لكنّ إيمان سمعَت شائعاتٍ تقول إنّ إسراء تعاني من عقدةِ الأتراك، بعد قصّةِ حبّ فاشلة جمعتها بتركيّ.

كانت مختلف الجنسياتِ العربية حاضرةً في هذا الزفاف الغريب: لبنانيان وفلسطينيتان وسورية وتونسيّ وسعوديّ، بالإضافة إلى إيمان وخالد. حياتُهم جميعاً في إسطنبول تشبه العيشَ على متنِ عبّارة. فبقدر ما أحبّوا مغامرةَ السّفر ومواجهةِ الأمواجِ الهائجةِ للحياة الجديدة، المتحرّكة، المتغيّرةِ على الدوام، بقدرِ ما يشتاقُ كلّ منهم إلى حياتِه القديمة والثابتة في بلده الذي لُفِظ منه. كانَ هناك حزنٌ غريبٌ يتّقد في عينيّ كلّ واحدٍ منهم وهو يتحدّث عن بلده. حزنٌ ممزوج بالخيبة وفقدان الأمل والشعورِ بالخذلان. تأكّدت إيمان أكثر أنّ لا أحدَ منهم سعيدٌ فعلاً حين اقتربَ منها، في منتصف الاحتفال، شابّ أسمر ذو شعرٍ طويل مربوطٍ في ذيل حِصان، بعدَ أن كرَع بضعةَ كؤوسٍ من النبيذ، وقال وهو يرمي بصره إلى البحر:

- لماذا أنتِ صامتةٌ طوال الوقت؟

التفتت إليه بدهشة، وقد عرفَت من لهجته أنّه خليجي، ثمّ قالت:

- لا أحبّ حفلاتِ الزفاف. جئتُ فقط لمرافقةِ زوجي.

مدّ لها يدَه لتلطيف الأجواء، وقال:

- اسمي طلال، وأنا صحافي سعوديّ.

مدّت يدَها وقد راودَها شعورٌ غريبٌ بالقشعريرة. كانت تكره التعميم، لكنّها لم تكن تستسيغ السعوديين كثيراً.

قالَ كأنّه قرأ أفكارها:

- ليس كلّ السعوديين كما تظنّين.

قالت بحدّة:

- كيف عرفَت ماذا أظنّ بخصوصهم؟

قال:

- قصّة السعوديين مع المغربيات.. تعرفين ماذا أقصِد.

شرِبت من الكأس البلاستيكي، وقالت كأنها تمسح تهمةً عن نفسها:

- لا.. لا يجوز التعميم.

ثمّ أضافت وهي تنظر إلى الساعة في هاتِفها:

- ربّما علينا الانضمام إلى الآخرين الآن..

رنَت إلى العروسَين، وإلى خالد الذي كان منهمِكاً في محادثةٍ طويلة مع ياسمين، ثمّ إلى طلال الذي يقِف أمامها مبتسماً، دون أن يحرّكَ شفتيه. كان من نوع أولئك الذين يملكون عينَين ضاحكتَين طوال الوقت، بحيثُ يستحيل معرفةُ متى يكونون مرتاحين فعلاً ومتى يكونون منزعجين.

قالت:

- سيضعُ العريس الخاتم في إصبع العروس...

قال:

- ما زال أمامنا نصف ساعة.

ابتسمت ابتسامةً عريضةً ومصطنعةً جداً، ثمّ قالت لقتل الوقت:

- إذاً، كيف يعيش الناس في السعودية؟ أظنُّ أن الحياة هناك غير محتملة!

قالَ بهدوء:

- الناس يعتادون على كلّ شيءٍ يا عزيزتي. عندما لا يكون لديك خيار، فأنت تتعايشين مع وضعك مهما كان خانقاً وتتحايلين عليه لتعيشي حياةً طبيعية.. ولكنْ عليكِ أن تعرفي شيئاً، ليسَ الأمرُ كما يبدو لكِ، فالناس هناكَ يسهرون في الليل، يرقصون، يقرؤون الكتب، ويعيشون قصص حبّ.

رمقته باهتمام، وقالت:

- من الواضح أنّك لن تستطيع العودةَ إلى هناك بعدَ أن عِشتَ في إسطنبول...

هبّت ريحٌ قوية وباردة، اقشعرّت إيمان بسببها، وتحرّكت معها خصلاتُ شعرِ طلال الطويل. قال:

- لا أستطيع العودةَ إلى هناك لأسبابٍ أخرى تتعلّق بحرية التعبير.. قد أحكيها لكِ لاحقاً، لكنْ، من لا يريد الذهاب لزيارة أهلِه؟ أنا لا أستطيع! لم أرَهم منذ ثلاث سنوات...

لاحَت على وجهِ إيمان تعابير الحزن والضيق. فتحَ طلال هاتفه، ودخل إلى تطبيق أنستغرام، ثمّ راح يمرِّر إصبعه على الصور.

- هذه أفنان، أختي الصغيرة البالغة من العمر خمس سنوات ونصف. انظري كم هي جميلة، أليسَ كذلك؟

نظرت إيمان إلى الطفلة في الصورة. كانت ذات بشرةٍ سمراء، وشعرٍ بنّي، وترتدي فستاناً وردياً، وتضحكُ بقوة. اهتزّ قلبُها تأثّراً. قالَ طلال:

- إنها لا تذكرني جيّداً، لكنّ أمي تريها صوري دائماً حتى لا

تنساني. . هكذا تعرف أنّ لها أخاً في مكانٍ ما من العالم، قد لا تلتقيه واقعياً إلّا بعد سنوات. ومع ذلك، فقد حملتُها كثيراً عندما كانت رضيعة، وضممتها إلى صدري، بل إنني غيّرتُ حفاظاتها أيضاً.

ثم راح يقهقه. ذلك النوع من القهقهات المنتزعةِ قسراً من الداخل لإخفاء الحزن. في تلك اللحظة، انضمّ خالد إليهما. وضعَ يده على ظهرِ إيمان وقال:

- سيُلبسها الخاتم الآن.

كان الجوّ يبرد أكثر فأكثر مع مرور الوقت، وكانت الغيوم تتراكمُ في السّماء. توجّه الجميع إلى حيث يقِف العروسان. انحنى نبيل على ركبَته وهو يقدّم الخاتم لإسراء كما في الأفلام الرومانسية. عمّ الصّمتُ المكان. صمتٌ لا يقطعه سوى صوتُ الأمواج الهائجة، وبعضُ وشوشاتِ الحاضرين. مدّت إسراء يدَها لنبيل وهي تضحكُ بسعادةٍ بالغة، فاتحةً فمها على آخره. ذلك النوع من الضحكات التي يتبعُها بكاء فرح. أدخلَ نبيل الخاتمَ في إصبعها. انسحبَت ياسمين إلى داخل العبّارة، وشغّلت مكبّرات الصوت. اندلَقت بقوة أغنية «للوطن» لفرقة مشروع ليلى. وفي الوقتِ الذي بدأت فيه شابّةٌ لبنانية في الرّقص على إيقاع الأغنية، صاحَت إيناس: «غيّروا هذه الأغنية. . . نريد أن يرقص العروسان على أنغام «عبالي حبيبي» لإليسا». همستْ إيمان في أذنِها مقترحةً عليها أن تترك العروسَين يختاران الموسيقى التي يريدان. كانت الشابتان الفلسطينيتان الحاضرتان واقفتَين تشربان العصير في كأسَين بلاستيكيّين، سعيدتَين، لكنّهما لا تتفوهان بأيّ كلمة. قبّلَ نبيل إسراء قبلةً طويلة ومحمومة. كانت موسيقى الأغنية تعلو أكثر. انسحبت إيمان مرّةً أخرى وراحت تتفرّج على أمواج البحر، وقد سحقَها شعورٌ عارمٌ بالغربة، لم تعرف من أين أتاها.

وفي اللحظة التي كان العروسان يقطّعان فيها حلوى الكريما

البيضاء من خمسِ طبقات، والمزيَّنة باللون الورديّ على الحافّات، والحاضرون يصفِّقون بحرارة، ويلتقطون الصوَر، ويضحكون، ويحلم العزّاب منهم أن يكونوا مكان العروسَين، كان خالد واقفاً وراء إيمان الغارقةِ في الذكريات والحنين إلى المغرب. وأتاها صوتُه خافتاً وبعيداً مثل الأصواتِ في الأحلام:

- علينا أن نتّصل بمحاميةٍ في المغرب لترتيب جلسةِ طلاقِنا في المحكمة.

التفتَت في ذهول، وقالت:

- ماذا؟

رمقَها بنظرةٍ فارغة، وقالَ:

- يجبُ أن ننهيَ كلّ هذا في أسرعِ وقت.

63

السلام يأتي من الداخل

عزيزتي نبتة الصبار القوية،

الليلة بدايةُ السّنة الجديدة. شجرةُ الميلاد الصغيرة واقفةٌ في زاوية البيتِ قرب المدفأة المتوهّجة، والثلوج تنزل بسخاءٍ من السّماء، وقد ملأت الأرصفةَ والسّيارات بياضاً جميلاً ومريحاً. أتمدّد على الأريكة وأتفرّج عليها، وأنا أفكّر في إسطنبول التي تبهرني دائماً ومنذ سنوات بنفس الطريقة.. هذه المدينة التي قالَ عنها نابليون بونابرت: «لو كانَ العالم دولةً، لكانت إسطنبول عاصمتَها».

فعلاً، فإسطنبول تجمعُ بين كلّ التناقضات والاختلافات، ولديها قابلية لاحتضان الثقافات والأديان المختلفة. إنني أنظر الآن، من نافذة شقتي الواقعة في الطابق الخامس في إحدى أزقّةِ منطقة أورتاكوي التي انتقلتُ إليها حديثاً، إلى المسجدِ المطلّ على مياه البوسفور، الذي يؤذّن الآن لصلاة العشاء، وإلى الجسرِ المعلّق المضاء بألوانٍ بهيجة. على أطرافِ الساحل أيضاً، توجدُ كنيسةٌ قديمة من العهد الروماني، لا تزال مفتوحةً إلى اليوم، ويُقام فيها القدّاس والصلوات ومناسبات الزواج. وغير بعيدٍ عن هنا، يوجد سوق أورتاكوي الشعبي، الذي يمكنكِ أن تشمّي فيه روائح المأكولات التركية، وتسمعَي فيه اللهجات العربية في آنٍ واحد.

إنّها قوةُ التاريخ المتنوّع ما جعلَ من هذا المكانِ خليطاً متجانساً

من البشر والثقافات. لهذا لا أستطيع الابتعاد عن إسطنبول، مهما حاولت. إنّها تمنحني الفرادنية حين أحتاجها، والحميمية حين أريدُها. مدينةٌ قابلةٌ للإخضاع لرغبات الإنسان وتقلّباته وتناقضاته.

نُدف الثلج لا تزال تسقط الآن، منيرةً كلّ هذا الظلام الدامس الذي يغطّي عالمي الصغير. وتوهُّج المدفأة يسخّن قلبي البردان. والقهوةُ التركية التي عندي كافيةٌ لكلّ أكوام الأرَق المتراكمة في رأسي. ليست لديّ أيّ مخطّطات للعام الجديد، فعلى أيّ حال سيتغيّر الرقم فقط، أمّا الحياة فستظلّ هي هيَ، عابثةً أحياناً، مبتهجةً أحياناً أخرى، ذابلةً في بعضِ الأحايين.

الآن منتصف الليل. الأول من يناير 2020. ماذا تفعلُ نبتة الصبّار يا ترى؟ وفي أيّ عالم توجد؟

زهرة التوليب

مكتبة
t.me/t_pdf

كتبت إيمان:

عزيزتي زهرة التوليب،

أنا الآن في حيّ ابن بطوطة بطنجة، حيث تسكن أمّي. غادرتُ إسطنبول قبلَ أسبوع، بعدَ أن قرّرنا أنا وزوجي أن نأخذ استراحةً نفكّر خلالها في مصير علاقتنا. كنّا على شفا الطلاق، ثمّ تراجعنا ككلّ مرّة. كأنّنا دخلنا في حلقةٍ مفرغة لا بابَ لها ولا نافذة ولا حتى ثقب صغير نخرج منه.

لا أخفيكِ أنه عندما نطَق كلِمةَ «طلاق»، كِدتُ أتبوّل في بنطالي من الخوف. هذا طبيعي، فأنا لم أعتد على التواجد في الحياة خارج نِطاقه، وبعيداً عن الحدود التي رسمها هو. لقد بُنِيت حياتي وفقاً لتصميمه، ويستحيل بناء شيءٍ جديد دون هدم، والهدمُ يتبعه انهيار وألم وحنين وضياع. أعرِف أنّ عليّ أن أهدم كلّ شيء، إذا أردتُ أن

أحيا حياةً سعيدة، لكنّني لم أعد أتحمّل الألم.

إنّ خوفي يمنعني من كلّ شيء. يقفُ حاجزاً أمام سعادتي. يكسّرني حين أحاول الوقوف. يحبسُ أنفاسي. يعلقُ في حلقي حين أحاول ابتلاعه. يتحوّل إلى مسامير تُدَقّ في بطني ومعِدتي طوال الوقت. أخافُ من ألمِ الفراق، وأخافُ، في الوقتِ نفسه، من ألّا أكون قادرةً يوماً على البَدء من جديد.

لا يمكنِك أن تتخيّلي مقدار الخوف الذي أحمله في داخلي، مثل رضيعٍ يكبر ويكبر في بطني، لكنّه عاجزٌ أن يولَد. لقد نجحَت أمّي في جعلي كتلةً من الخوف تسير على قدمَين. إنني في الثلاثين من عمري، ورغمَ أنني لم أعد أعيش معها منذ أكثر من عشر سنوات، رغمَ أنني درستُ وتزوّجت واشتغلت وحصلتُ على المالِ من عملي، غير أنّني ما زلتُ أتصرّف في بيتِ أمّي بالطريقة نفسِها التي كنت أتصرّفها عندما كنتُ طفلة. أجلس الآن على الأريكةِ من دون حراك. وبدلَ أن أشاهد التلفاز، كما كنتُ أفعلُ وأنا صغيرة، أمسِك الهاتف في يدي. وتتكلّف أمّي بفعلِ كلّ شيءٍ عنّي. تعدّ لي الطعام، تضعه أمامي على الطاولة، تنظّف ملابسي، تحمّمني، وتغسلُ قدمَيّ قبلَ أن أذهب للنوم...

هل يتغيّر الإنسان فعلاً مع الزمن؟ هل سأتغيّر يوماً ما؟ كيف؟ لماذا لم أتغيّر طوال كلّ هذا الوقت؟ ما الذي ينقصني لأتقدّم خطوةً إلى الأمام؟ لديّ انطباعٌ غريب أنّ الجروح الكبيرة للإنسان لا تشفى أبداً مع مرور الوقت، ومع ذلك، ما زال لديّ أمل.

لم أخبر أمّي بأيّ شيءٍ ممّا حصل بيني وبين زوجي. ربّما ستربطني بسلاسل من حديد لو عرفَت. أفضّل أن أقولَ لها بعد عودتي إلى إسطنبول خلالَ أسبوعَين.

مع محبّتي

نبتة الصبّار

ردّت زهرة التوليب:

عزيزتي...

لا أدري هل أسمّيكِ نبتة صبّار قوية، أم شقيقةَ نعمان هشّة. لكنّني أودّ أن أقول لك إنّ ما دفع أمّكِ إلى التصرّف معكِ، طوال حياتِك، بتلك الطريقة، ليسَ القوة، بل الخوف. إنّها خائفةٌ أكثر منكِ. مُرعَبة. يدفعنا الخوف أحياناً إلى أذية أنفسنا والآخرين، وأحياناً أخرى إلى التطرّف في التعامل مع أمورِ الحياة، وأحياناً إلى العنف. بل إنّ الإنسانَ يستطيعُ أن يقتل إذا ما شعرَ بالتهديد.

يُشبِه الخوف خنجراً مغروزاً في مكانٍ ما من الجسد، يستدعي التخلّص منه شجاعةً كبيرة في مواجهةِ الألم، وإيماناً عميقاً أنّ الألمَ جزءٌ من حياةِ البشرية، لا خلاصَ منه إلّا بالمواجهة والتقبُّل والتعايش.

يقول بوذا إنّ السلام يأتي من الداخل ولا ينبغي السّعي له في الخارج. ابحثي عن سلامِك داخلَك. لا أحدَ يستطيع أن يأتيكِ بعلاجِ خوفكِ غيركِ. ليست هناك حقيقةٌ واحدة. لكلّ واحدٍ منا حقيقته، وعليكِ أنت أن تبحثي عن حقيقتِك التي ستجدين فيها شفاءك.

أحبّي نفسكِ. أحبّي نفسكِ جداً، لأنك لن تكوني يوماً قادرةً على حبّ الآخرين، ما دمتِ لا تحبّين نفسكِ كفاية.

اشتري لكِ ملابسَ جديدة. اخرجي في موعدٍ مع نفسكِ في مطعمٍ جميل. تناولي طبقاً لذيذاً. اطبخي لنفسِك أطباقاً شهية. اقتني لنفسكِ أشياءَ ثمينة. تمشّي مع نفسكِ على الكورنيش. استمتعي برائحةِ البحر. تفرّجي على النوارس. مارسي الرياضة. اجلسي في مقهى وتفرّجي على الناس وهي تروح وتجيء، على الكلاب وهي تركض، على القطط وهي تطارد بعضَها بعضاً، انظري إلى عيون الأطفال وهم يضحكون ويلعبون ويبكون عندما يتعبون من الركض.

توقّفي عند بائع متجوّل وتناولي حلوى غزل البنات. اشتري لكِ وردةً فوّاحة. اقرئي كتاباً وأنتِ متمدّدةٌ على الرّمال. شاهدي نُدَف الثلج من نافذة بيتك وأنت تتناولين فنجان كابوتشينو أو كأسَ نبيذ. استمعي إلى مقطوعةٍ لبيتهوفن أو موزارت. قومي بنزهة وسط جمالِ العالم. افعلي كلّ هذا وأنتِ لا تفكّرين في المستقبل. استطعمي الحاضر، لأنك لا تملكين غيره، فالماضي راحَ بلا رجعة، والمستقبلُ لا يمكنُ اللحاق به. فلماذا ينخركِ القلق؟

عودي إلى إسطنبول، ودعينا نلتقي.

مع محبّتي

زهرة التوليب

64

الحبّ لا يُفَسَّر بل يفسِّر كلّ شيء

الحبّ التصاق روحين. وانتهاء الحبّ هو أن يحمِل الواحدُ روحَه عن روحِ الآخر. لذلك تأخذُ النهاياتُ وقتاً قبلَ أن تحدُث فعلاً. تشبه عملية حملِ روحٍ عن روح انتزاع سيجارةٍ ملتصقةٍ بشفتين جافّتين ومتهيّجتين، بمجرّد إخراج السيجارة من بين الشفتَين، يتقشّر الجلد المتهيّج ويبقى عالقاً بعقِبها.

لذلك لم تجرؤ إيمان على التحدّث مع خالد منذ عودتِها من المغرب، ولا حاول خالد أن يبادر بالكلام. كان الحزن والعشق الذي انتهى يزيدان من تعميق تلك الهُوّة بينهما، ويجعلانِهما في الوقتِ نفسه أكثر حرصاً على مشاعرِ بعضهما البعض، لأنّ كلّ واحدٍ منهما يفهم ألمَ الآخر.

كان كلّ منهما قد أخذَ قراره بخصوص العلاقة، لكنّ كلّ واحدٍ منهما كان ينتظرُ أن يبادر الآخر في البوحِ بقراره أولاً. كانا يلتقيان في البهو مثل الأغراب، يدخلان إلى البيت دون أن يلقيَ أحدهما التحية على الآخر. يتناول كلّ منهما طعامه في وقتٍ مختلف عن الآخر. ينام خالد في البهو، بينما تنام إيمان في الغرفة. لا تلتقي عيونهما إلّا نادراً، وحين تلتقي العيون من دون قصد، تهربُ عينا كلٌّ منهما إلى مكانٍ آخر. لم يعد يجمعهما سوى أنهما يوجدان في المكان المغلق نفسِه. لكنّ الجدران لا تعني شيئاً أحياناً.

كلّ منهما خائفٌ ألّا يكون الثاني قد أخذ القرار نفسَه، لكنّ الاثنين فكّرا، طوال هذه المدّة التي ابتعدا فيها عن بعضهما البعض، أنّ حياةَ كلّ واحدٍ منهما ستكون أفضل بعد الانفصال، وكانا قد اتخذا قرار الطلاق.

ذات ليلةٍ جلسَت إيمان في الشرفة، وراحتْ تفكّر في طريقةٍ لإخبارِ زوجِها بقرارها. اطّلعت على حسابِها البنكي. لديها ما يكفي من المال لاستئجار شقّةٍ جميلة في بيه أوغلو، وربّما ما يكفي من القوة لتتغلّب على ألمِها بسرعة. لم تلاحظ وجودَ خالد عند بابِ الشرفة. كانَ هناك منذ ما يقارب الدقيقة يرمقُ وجهها من دون أيّ حنانٍ أو عاطفة، وأصابِعَها التي تعلّقتْ بالشبّاك الحديدي، بينما كانت تطلّ إلى الشارع، مسندةً رأسَها إلى الشبّاك. لطالما أحبّ هذه الأصابع. كانَ العالمُ حولَهما مظلماً لا تضيئه سوى النجوم التي نجَت من اكتساح الغيومِ للسماء. لم تعد أصابع إيمان تثيرُ انبهار خالد، ولا عيناها، ولا خدّاها، ولا شعرُها. أصبحت مجرّد امرأةٍ عادية مثل جميع النساء اللواتي يصادفهنّ في الشارع. أدارت رأسَها ناحية الباب ورأتْه. لم يعد وجهه يثير أيّ حنانٍ أو عاطفةٍ في قلبها، كأنّه شخصٌ غريبٌ التقته للتوّ. كانت تريد أن تسأله لماذا ينظر إليها هكذا، لكنّها دعتْه للجلوس قبالتها فقط.

ظلّ واقفاً ينظر إليها، وأشعلَ سيجارة. عمّ صمتٌ مريب، لم ينكسر إلا بصوتِ هبوب رياحٍ قوية. انبعثتْ رائحةُ كحولٍ قوية من فمه حين غمغم:

- لماذا؟

لم تردّ. تذكّرت إحدى الليالي الباردة في المغرب، حين كانت في حضنه. كان ذلك بعد أشهرٍ فقط من بداية علاقتِهما، وكانت تسند رأسَها إلى صدره، بينما كان هو يطوِّقها بذراعَيه بحنان. كانت تمسكُ

ساعتَه اليدوية وتقلّبها في يدِها كأنّها لعبة، وهي تصِف له بدقّة مشاعرَها في تلك اللحظة:

- حين أكون بجانبك، أشعر أنني فقاعة أو... فراشة... لا أعرِف كيف أعبِّر عن فكرتي.. أقصِد أنني أكون خفيفةً جداً، متخفّفة من كلّ شيء، منسجمةً مع الكون. أشعرُ أنني في مكاني الذي يجب أن أكونَ فيه. صدرُكَ هو بيتي.

همسَ:

- لماذا؟

حاولت أن تستدير، لكنّه كان مُحكِماً قبضةَ ذراعيه عليها. قالتْ:

- لماذا ماذا؟

قالَ بصوتٍ هادئ ودافئ:

- لماذا تحبّينني؟

ردّت بنبرةِ طفلة. كانت معتادةً على الحديثِ معه بهذه النبرة حينَ تشعرُ بحنانه يغمرها.

- الحبّ لا يُفسَّر.. بل هو الذي يفسِّر كلّ شيء.

قالَ بنبرةٍ ممازحة وهو يداعب خصلاتِ شعرِها بأصابِعه:

- أريد جواباً بسيطاً عن سؤالٍ بسيط يا فيلسوفتي الصغيرة!

كان عالمهما في تلك الفترة مكوّناً من القُبَل، والضّحك، والعناقات، وعطرَي شانيل وبوس، وسجائر مارلبورو لايت، وأسطوانات نينا سيمون، ورائحة البنّ، والذهاب إلى السينما، والنّظر إلى القمر المكتمل، والسّيرِ على الكورنيش. وكانا يتقاسمان كلّ شيء، حتى عندما يدخّنان، كانا يدخّنان سيجارةً واحدة معاً.

دغدغها في بطنِها عندما لم يتلقَّ منها أيّ جواب. كانَ يعرِف أنّ نقطةَ ضعفِها تكمن هناك. وراحت هي تصرخ وتركله برجليها الصغيرتي الحجم، وتعِدُه أنها ستخبره بالأسبابِ بدقّة.

نظر إلى أصابعها المتعلّقة بشبّاك الشرفة الحديديّ، وكرّرَ سؤاله بحزن:

- لماذا يا إيمان؟

قالت وهي تنظر إلى الشارع:

- لماذا ماذا؟

قالَ:

- لماذا كنتِ تحبّينني؟

قالت بحدّة:

- إذا كنتَ تريد الصراحة، لم يكنْ هناك أيّ سبب. كنتُ محتاجةً إلى أن أحبّ، ولم أعد كذلك الآن. هذا كلّ ما في الأمر.

تمدّدت إيمان على فراشِها تلك الليلة، وهي تشعر أنها قد تخفّفت فعلاً الآن، بعد أن قالت الحقيقة. شعورٌ يشبه الخروج من حمّام ساخن، بعد الاغتسال جيّداً والتخلّص من الأوساخ وثقل البشرة الميّتة. عند الرابعة صباحاً، كانت لا تزال مستلقيةً على السّرير، غير قادرةٍ على النوم. تذكّرت أنّ أمّها لم تُصَب بالوسواس القهريّ المرتبط بالنظافة إلّا بعد حملِها. عندما بلغت إيمان الثامنة عشرة، حكَت لها جدّتها أنّ والدتَها كانت امرأةً طبيعية ومعتدلة، قبلَ أن تتعرّف إلى ذلك الرّجلِ القذر الذي لوّثَ حياتَها، وحرَمها من أن تعيشَ حياةً طبيعية وزواجاً طبيعياً مثلَ جميع الفتيات، بل هو الذي دفعَها دفعاً لأن تكون مع رجلٍ آخر، وليسَ أيّ رجل، بل سجينٌ سابق من دون شغل، لأنّه الوحيد الذي قبِلها على عيبِها، وليسَ أيّ عيب، بل مصيبة، كارثة، حملٌ خارجَ إطار الزواج. كانت جدّتها تتكلّم بحقدٍ كبير، كأنّ ابنتَها لم يكن لها أيّ نصيبٍ من المسؤولية في ما حصلَ لها. تتحدّث كأنّ المرأةَ تمّ اغتصابُها ولم تذهب مع ذلك الرّجل إلى بيتِه برجليها.

ومنذ تلك الحادثة، تقول الجدّة، أصبحت الأمّ غير قادرةٍ على

ضبطِ نفسِها إزاء الأواني غير المغسولة، والغبار غير الممسوح، وآثارِ الأيدي على الزّجاج، والفتات على طاولة الطعام، والشعرِ غير الممشوط، والأشياء غير المرتّبة، وأصبحت تتقزّز من رائحةِ العرق المنبعثة من إبطَي أحدٍ ما، والأشخاص الذين يدخلون إلى البيت بأحذيتهم، ومن الصراصير والنّمل والذباب والبعوض على الجدران والمنضدات، ومن جلوس أحدِهم على كنباتِها، ومن تقبيلِ أحدِهم لوجنةِ ابنتها، ومن لمس أيدي الآخرين أثناء المصافحة. لقد جُنّت الأمّ بسبب ذلك الرجل القذر. من سيقبل بامرأةٍ مجنونة سوى رجلٍ مجرم؟ إنّ كلّ شخصٍ دخل السجن، بالنسبة إلى جدّة إيمان، مجرم.

بدأت حساسية الأمّ تجاه هذه الأشياء باهتمام بسيطٍ بالتنظيف، خاصّةً بتنظيف جسدِها، لدرجةِ أنّها أصبحت تذهبُ إلى الحمّام خارج البيت يومياً لتحكّ جسَدها حدّ سلخِ جلدها، كأنّما بذلك كانت تنظّف القذارة التي التصقت بها مثل لعنة، منذ أن ارتكبت ذلك الخطأ الفادح الذي دنّسها إلى الأبد. لكنّ الدّنَس لم يذهب رغم الحكّ المستمرّ، بل انتقل إلى كلّ الأشياء الأخرى المحيطةِ بها، إلى أرضية البيت الذي تعيشُ فيه، والسرير الذي تنام عليه، والطعام الذي تأكله، إلى الطاولات والمنضدات والثلاجة والنوافذ والكنبات والشراشف والستائر، ثمّ انتشر أكثر، مثلما ينتشر السرطان في الجسم، ليطال أيضاً الناس الذين تعرفهم والذين لا تعرفهم. صارَ كلّ شيءٍ حولها، حتى الهواء الذي تتنفسه، مدنّساً وقذراً وملوَّثاً ومثيراً للقرف بالنسبة إليها.

كانت الأمّ تنظّف كلّ شيءٍ أمامَها بلا هوادة، لتطهّر نفسَها من الخطيئة التي اقترفت. خطيئةٌ جاءتها من العالم الخارجيّ، ولا تزال تدفعُ ثمنها كلّ يوم إلى الآن. لكنّ الدّمَ الذي يسيلُ من كفّيها وهي تحكّ بعنفٍ كلّ شيءٍ تراه أمامها، كانَ يمنحها شعوراً باللذّة والرضى والتكفير عن الذنب. ومثلما هناك أناسٌ يولدون طاهرين، ثم تلتصقُ

بهم الخطيئةُ بسبب الحياةِ وصروفها، هناك أشخاصٌ وُلِدوا بسببِ الخطيئةِ، حاملين إياها في دمائهم وجيناتهم. وُلِدت إيمان حاملةً هذه الخطيئة، كأنّما وُلِدت بعيبٍ خلقيّ أو مرضٍ مزمن، وستظلّ تحملُها إلى أبد الآبدين.

أحياناً يولَد الناسُ ويموتون دون أن يعرِف أحدٌ أسرارهم، لأنها تُدفن معهم في قبورهم. أحياناً يدخل الناس في علاقاتٍ مع أشخاصٍ لا يعرفون عنهم كلّ شيء، ثم تستمرّ العلاقةُ أعواماً طويلة وتنتهي دون أن يعرِفوا كلّ شيء. لذلك، لم يعرِف أحدٌ أنّ إيمان لا أبَ لها، ولا حتى خالد. هذا الرّجل الذي عوّضت به غياب الأب في عقلِها لسنوات. لهذا أحبّته وتعلّقت به. وها هي الآن تقتلِع نفسَها من جذوره التي امتدّت عميقاً في تربةِ الزمن، لتصبح، من جديد، بلا أب.

الطريقُ في حدّ ذاته وصول

قالت غزَل لأسمر الذي يتقدّم نحوها بالعرض البطيء:

- حبيبي، سأظلّ أنتظرك حتى آخر العمر...

قال أسمر لغزل التي تتقدّم نحوه حاملةً طفلها:

- حبيبتي، من الآن فصاعداً، لن نفترق حتى لحظةً واحدة...

قالت غزل وقد بدأت تركض نحو أسمر:

- أريد أن أظلّ معكَ حتى آخر لحظةٍ في حياتي.

قالَ أسمر وقد مدّ يده لغزل:

- سأعوّضكِ عن كلّ السنين التي ضاعت، وسنكون أسعد من أيّ وقتٍ مضى.

قالت غزل وهي ترتمي في حضن أسمر ضاحكةً بسعادة:

- أسمر، لا تترك يدي أبداً...

تتصوّر إيمان وهي تشاهِد الحلقةَ الأخيرة من مسلسل «وتمضي الأيام»، أنها هي غزَل، وأن أسمر هو كِنان. سبَق لنفسِ الممثل الذي لعبَ دور أسمر في «وتمضي الأيام» أن لعِب دوراً في مسلسلٍ آخر باسم كِنان. وكانت الفتياتُ في الثانوية يهِمنَ حبّاً فيه، ويتخيّلن أنفسهنّ في حضنه، رغمَ أنه في الحقيقة يكبرهنّ بسنواتٍ كثيرة. تتخيّل أنّها ترتمي في حضن كِنان، وأنّها تضحكُ بتلك القوةِ سعادةً ونشوة، وأنّ شعرَها هو الذي يتحرّك مع نسماتِ الريح الخفيفة بدلَ شعرِ غزَل، وأنّها

هي التي تحمِل بين ذراعَيها طفلاً هو ثمرةُ حبّ. تشعُر بقوةٍ تحثّها، رغماً عنها، لتقتربَ من شاشةِ التلفاز وتحدّق فيها بعُمق. ثمّ تدفعها داخل الشاشة. وفي لحظةٍ ما، تجدُ نفسَها في جسدِ غزَل، واقفةً داخلَ كوخٍ غريب. في الكوخ، لا يوجدُ سوى كرسيّ واحد، وطاولةٍ خشبية فوقَها منفضة سجائر فارغة، وآلة كاتبة، وقلم رصاص، وأوراق بيضاء، وفنجان قهوة. في زاويةِ الكوخ، توجدُ منضدةٌ صغيرة، وُضِع فوقها مُشغّل أسطواناتٍ قديم، وصورةٌ بالأبيض والأسود لأورهان باموق خلال شبابِه، وفستانٌ مزركش يشبه فستان فسون الموجود في متحف البراءة معلّقاً إلى مسمارٍ على الحائط. تتوجّه نحو الخارج بفضول، حيث شرفة صغيرة عُلّقَ فيها حبلُ غسيل رفيع، ومزهرياتٌ بها زهور توليب ذابلة. تتقدّم إلى الأمام أكثر، مبتعدةً عن الكوخ الغريب وقلبُها ينبض بقوة. تسمعُ صوتاً يناديها من هناك. صوتاً مألوفاً جداً. تلتفت فترى أمّها واقفةً في الباب، وهي تصيح بها: «لا تبتعدي، ستضيعين». لا تهتمّ لهرطقات أمّها. تتقدّمُ إلى الأمام أكثر، وهي تشعر أنّ قلبَها ينبضُ وسطَ معدتِها من مفعولِ الأدرينالين. تظهرُ لها طريقٌ طويلةٌ بلا أفق ولا نهاية، مُحاطةٌ بأشجارِ الصنوبر والزيزفون والأكاسيا، وحشائش وأزهار من أنواعٍ مختلفة لا تعرف إيمان أسماءها. تمشي بلا هوادة، تابعةً الدربَ المرسومَ أمامها، غيرَ مكترثةٍ لأيّ شيء. ومثلما تتشابك الأحداث والشخصيات مع تطوّر قصّةٍ مشوّقة، تزداد الأشجارُ تشابكاً وكثافةً كلّما تقدّمت إيمان داخل الغابة، وتصبح الطريق مُظلمةً أكثر. صمتٌ مريب يكتسحُ الغابةَ كأنّ لا كائن حيّ فيها، لا حيوانات ولا طيور ولا حشرات. لكنّها لا تلتفتُ وراءها، ولا تهتمّ لتذكُّر طريق الرجوع. كلّ ما يهمّها هو التقدُّم إلى الأمام. تتقدّم شاعرةً بلذّةٍ غريبة لم تحسّ بها من قبل، مثل طفلٍ يجرّب لأوّل مرّة ركوبَ درّاجة، وينجح في قيادتِها.

تتقدّم أكثر في ذلك الطريقِ المجهول، الذي يُصبح غامضاً أكثر فأكثر مع مرور الوقت. تتداخل أغصان الأشجار ببعضها، لدرجةٍ يصعب معها تمييز أغصانِ شجرةٍ من أغصانِ أخرى. ينتشر ضبابٌ كثيفٌ في الأُفُق، ولا يظهر من الطريقِ أمامها سوى مسافةِ متر أو مترَين. تخطو بدقّةٍ وحذر كالعمياء مخافةَ أن ينتهي الطريق عند حافّةٍ ما، فتسقط. تنظر يمنةً ويسرة، فترى نباتاتٍ غريبة الأشكال. نباتاتٍ لم ترَ مثلها في حياتِها. تندهشُ بقوة، لكنّها تتذكّر كلامَ جدّتها. قالت لها يوماً إنّنا كلّما تقدّم بنا الزّمن، نكتشف أننا لا نعرِف شيئاً عن هذا العالم، لأنه متنوّع وعجيب ومليء بالأشياء الغامضة والأشياء التي لا نستطيع رؤيتها. يخفُت انبهارها. ينزع النّاس إلى تربية الحيوانات الأليفة، والاعتناء بالنباتات الأليفة، وتخزين المشاعر الأليفة، والاحتفاظ بالأشياء الأليفة، لكنّ العالم مليءٌ بالأشياء المتوحّشة والهجينة والغريبة والمدهشة، التي تستحقّ عناء الاكتشاف، والتي تبعثُ في النفس شعوراً بالانتماء الكامل إلى العالم. يخفتُ انبهار إيمان وهي تفكّر أنّ الشيء الوحيد الذي يمكننا معرفته هو أننا لا نعرف أيّ شيء.

تمشي بحذر وهي تنظر مباشرةً أمامها، ثمّ تنتبه إلى أنّ قدمَيها حافيتان. ترفع قدمها اليمنى وتنظر إلى باطنِها. هناك بعضُ الخدوش الصغيرة ولكن لا بأس. ما معنى الحياة بلا خدوش ولا آلام؟ ينبغي الاستمرارُ في المسير حتى آخر نَفَس. تصطدِم بحجرةٍ كبيرة في الطريق. تُحاول إبعادَها على الرغم من كلّ الآلام التي تغلي في كاحلَيها. تصرخُ بقوة وهي تحاول دفع الصّخرة إلى جانبِ الطريق. تتحرّك الصخرةُ من مكانِها قليلاً، بينما تتطايرُ الدّموع من عينَي إيمان واللعاب من فمِها. تستمرّ في الدّفع بكلّ ما أوتيت من قوة وأمل وتحدٍّ. تندفع الحجرةُ بعيداً كأنّ قوةً سحرية حملتها. تسقُط إيمان على ركبتيها، منهارةً من التعب، وقد تعرّق جسدُها كلّه. وبينما تحاول

النهوض، تسمعُ صوتاً قريباً منها يشبه أصواتَ الوحوش في أفلام الرّعب. تترنّح، وتسقط مرّة أخرى. تصيخُ السّمع جيّداً، لكنّ الصوتَ كان قد صمت. تحاول النهوض مرّةً أخرى، ثمّ تسمعُه من جديد، قريباً جداً، من أذنِها. «ليسَ هناك أيّ مبلغٍ للطريق الذي تسلكين»، يقول الصّوت. تتسع عيناها وهي تتمايلُ من التعب كأنّه سيغمى عليها. يقول الصّوفيون إنّه لا وجودَ لنقطةِ وصولٍ نهائية، وإنّ كلّ طريقٍ هي في حدّ ذاتها وصول. تتماسك، وتقفُ على رجليها بثبات. «لا يهمّ الوصول وإنما ما نتعلّمه خلال الطريق»، تقولُ للصوتِ بثقة، وهي تمسحُ العرق من جبينها، ثمّ تستمرّ في المشي.

ليسَت لهذا الطريق نهاية. لا تعرِف إيمان كم مرّ من الوقت وهي تمشي دون توقّف، لكنّ الوقتَ الذي خرجت فيه من الكوخ كانت له رائحة وألوان وضوء الصباح، أمّا الآن فقد بدأ الظلام يسقطُ على العالم. اللونُ العامّ الذي يصبغ المكان عبارةٌ عن أزرق غامق، يصعب معه رؤية الدرب بوضوح. تخطو بحذرٍ أكبر كمن يحاول تجاوز مكانٍ مليء بالألغام. وسط صمتِ الليل تبدأ أصواتُ الغابة في التسرّب إلى سمعِها بوضوح، خشخشة أوراق الأشجار تحت قدميها، صرير الحشرات، حفيف الثعابين، عواء الذئاب، خرير الأنهار... يبدأ الذعر في التسرّب إلى أعماقها. الحياةُ مُهوِّلة في بعضِ الأحيان، مثلَ الغابة تماماً، غامضة ومجهولة. تحاول التغلّب على الخوف، ليسَ لتصلَ إلى نهايةِ الطريق، بل لتستطيع الاستمرار في المشي. يتناهى إلى سمعِها صوتُ خطواتٍ قادم من بعيد، كأنّه ركضُ حصان. تجمّدت في مكانِها. يقترب الصوتُ أكثر فأكثر. يتراءى لها في الظلمة حصانٌ أبيض كالثلج، وفوقَه رجلٌ وسيم يرتدي بذلةً تشبه بذلاتِ الأمراء في الأزمنة القديمة. تتّسعُ عيناها وهي تنظر إلى نصاعةِ الحصان التي تُنير المكان، وابتسامةِ الرّجل اللطيفة. وحين يقِف أمامها مباشرةً، يمدّ يدَه

إليها قائلاً بنبرةٍ هادئة كنبرةِ الجدّات وهنّ يروين قصصهنّ في آخر الليل: «لتذهبي معي، لديّ قصرٌ فسيحٌ في منعطفِ الطريق، ولن تكوني في حاجةٍ إلى المشي مجدّداً. . انظري إلى قدميكِ المليئتين بالجروح والدماء، فتاةٌ مثلُكِ تستحقّ أن تعيش مثلَ الأميرات، لا أن تتعذّب هكذا». ترمقه شزراً، لأنّها في الحقيقة، تشعر بالمُتعةِ وهي تسير. حياةُ الأميراتِ مملّة. والمُتعة كلّ المتعة أن يصارِع الإنسانُ أمواجَ الحياةِ الهائجةِ بنفسه، مثلَ بحّارٍ شجاع، وأن يُقارِع الحياةَ نِدّاً لندّ بشراسة وقوة لينتزعَ منها ما يستحقّه. تنظرُ إلى يدِه الممدودة بريبة وهي تفكّر في الأضواءِ، وأرضياتِ القصورِ اللامعة، والفساتين الطويلة والمنتفخةِ ابتداءً من الخصرِ والتي تعرقِل الحركة، والشعورِ النّاعمةِ المرتّبة، والخادمات المرتدياتِ لبذلاتٍ بيضاء أنيقة اللواتي يلبّين كلّ الطلبات، والأطباقِ اللذيذة الموضوعةِ فوقَ طاولاتٍ ضخمة، والفرشات والسكاكين، والأسرّةِ الضخمة، والمرايا في كلّ مكان، وروائح العطور المختلفة، فتشعرُ بالاشمئزاز، وتُطلِق رجليها للرّيح.

لا تدري كم من المسافةِ قطعتْ راكضةً على قدمَين مجروحَتين، هاربةً من ذلك الأمير الغريب، لكنّها عندما عادتْ إلى الشعورِ بالحياةِ حولَها، كانَ الظلامُ قد انقشع، والغيم قد زال، والشمس قد أطلّت على العالمِ لتغمره بضوئها. تتنبّه إلى قطراتِ دماء وهي تمسحُ شفتَيها الجافّتَين. ترتمي فوق الحشائش الخضراء وهي تستمع إلى زقزقاتِ العصافير ممتزجةً بخرير نهرٍ قريب.

تنهض، وتسيرُ من جديد باحثةً عن النهر وقد ألمّ بها عطشٌ رهيب. تنعطِف إلى اليسارِ عشوائياً، فتبدو لها مساحةٌ خضراء شاسعة، يتدفّق فيها نهرٌ صغير. وقرب النهر، يجلسُ رجلٌ عجوز يرتدي جلباباً واسعاً، معلّقاً على ظهره قربةَ ماء خزفية، ممسكاً بناي صغير بين يديه كأنّما يستعدّ للعزف. تقتربُ في وجل، وهي تحاولُ التعرُّف إلى ملامحِ

الرجل المألوفة، ولو أنّ الزّمن محاها تقريباً. وحين يرفعُ نظره نحوَها، يراودُها شعورٌ غريب كأنّها هي التي نظرتْ إلى نفسِها. له نفسُ نظرتِها. أمّا الأنف فقد كان يشبِه أنفَها أيضاً، والشفتان الرّفيعتان نفسُهما، والجسدُ الضئيل، والشعرُ الذي يبدو ناعماً رغم قِصَره، والحزنُ الطفوليّ في سحنته. يرمُقها بريبة، ثمّ سرعان ما يضعُ النّاي بين شفتيه ويبدأ في العزف غير مكترثٍ لوجودِها. تقتربُ أكثر. تتحرّك الرياح، ويخرج من النّاي صوتٌ كأنّه نقيق ضفادع. تلمسُ كتِفه، فيتوقّف عن العزف، ناظراً إليها شزراً. يتحرّك في مكانه كأنّما يحاول النهوض، لكنْ يبدو أنه غير قادرٍ على ذلك.

تسأله بانفعال:

- من أنت؟

يردّ بهدوء:

- لا أحد.

تصرخ بانفعالٍ أكبر، وقد عرفته من صوتِه، كما يعرف الرّضيع ثديَ أمّه:

- أنت أبي!

يقول كأنما يحاول التحكّم في أعصابه، لكنّ رائحةَ الخوفِ كانت تنبعثُ منه:

- لستُ أباكِ. . أنت ليس لديكِ أب.

تقول وقد خارت قواها:

- أنتَ السّبب في كلّ شيء.

ثم تنهار بالبكاء.

لا ينفعل الرّجل. كأنه صخرة. يحاول النهوض، لكنّه لا يستطيع، كأنه فعلاً صخرةٌ ملتصقةٌ إلى الأرض. ترنو إليه باشمئزاز وهي تمسحُ دموعها. صمتُه المحايد يزيد حلقَها مرارةً. ينخرُها البغض. تمسِكه من

رقبتِه بقوة. «لماذا تنكرني أيها المعتوه؟» تسأله وهي تهزّ جسدَه بعنف. ثمّ تشعر بقطراتِ العرقِ تطفرُ من جسدِها. لا يجيب. تزداد حقداً. تُحكِم قبضَتها على رقبتِه. ودون تفكير، تدفعُ برأسِه داخلَ الماء. تستمعُ إلى غرغرته بلذّة. تنفتح مسامّها بينما يختنق. تتنفّس بعمق شاعرةً بالهواء يغسِلها. هناك لحظاتٌ تتيح للإنسان فرصةَ أن يقتلَ ما يقتله، أن يخنق ما يخنقه، أن يدهس ما يدهسه، وهنا تكمن عدالة الحياة. تستغلّ إيمان تلك الفرصة بكلّ ما لديها من نشوة. تغمضُ عينَيها في غِبطة وهي تشعرُ برأسِ الرّجل يتثاقل أكثر فأكثر. تتهلّل أساريرها وهي تحسّ بالموتِ يدبّ داخل ذلك الرأس، فيسقطُ في الماء، بينما يظلّ جسده خارجه.

تفتحُ عينيها، فتجِد نفسَها على السّرير، في الشقّة الواقعة في بشكتاش، وفوقَها يتمدّد خالد، واضعاً في فمِها فوّهةَ مسدّس. تلتقي نظرتاهما، ثمّ يُطلِق النّار.

تفتحُ عينيها مرّةً أخرى. تجدُ نفسَها مستلقيةً على الكنبة، في شقّتها الواقعةِ في زقاقِ بالاسكا في بيه أوغلو، والتي استأجرتها قبل ثلاثةِ أيام، بعدَ أن غادرت بيتَ خالد، وبدأت إجراءاتِ الطلاق في المحكمة. كان التلفاز لا يزال يشتغل، وقد بدأ مسلسلٌ تركيّ ثانٍ بعدَ نهاية الحلقة الأخيرة من دراما «وتمضي الأيام»، التي كانت تشاهدها قبلَ أن يحملَها النوم إلى عوالمه. تنفّست عميقاً وهي تشعرُ بالخلاص. أمسكت هاتفها وهي لا تزال مستلقيةً على ظهرها، وكتبت لزهرة التوليب:

عزيزتي زهرة التوليب الرقيقة،

المغامرة تجربة داخلية أولاً، أن تكوني مستعدّةً للغوص في سبيل التحرّر، أن تكسّري كل الحواجز النفسية في سبيل هذا الغوص. تغمضين عينَيك وأنت تضغطين بقلبك على حرّيتِك، بقوة وعمق

وحنان، كأنك تعانقينها، ثم ترمين بنفسك من حافّة الخوف نحو الحياة واللذة والأدرينالين.

يستدعي ذلك أن تنسي الزّمن، أن تتقيئي هلعَ الخيبة، أن تُخرِجي من رأسِكِ ألمَ الخسارة، وتملئي روحك بالحبّ. كلّ شيءٍ ماضٍ إلى العدم في نهاية المطاف، حتى أكثرُ المشاعرِ بشاعة. عليكِ فقط أن تتذكّري أنّك مجرّد ذرّةٍ في هذا الكون الفسيح، وتقفزي من هذا العلوّ الزائف. هكذا كنتُ أفعلُ في أحلامي كلّ ليلةٍ وأنا صغيرة.

ما الذي سينقذني من كلّ هذا التيه سوى ذلك؟ أنا أعرِف أنني لن أستيقظ إلّا بالقفز من حافّة، أو برصاصةِ طيش. لن أستيقظ إلّا بالموت. لم أعرِف قيمة الحياة إلّا بعد موتٍ طويل. لقد تحرّرتُ فعلاً.

مع محبّتي
نبتة صبّار

66

نيرفانا

رمت إيمان لِحافاً أخضر من الصوف على كتفَيها، وتوجّهت نحو الباب بخطواتٍ سريعة. وقبلَ أن تفتحه، توقّفت وتنفّست بعمق، وقد ساورها القلق والفضول بخصوص هوية «زهرة التوليب» التي توجد الآن على بُعدِ أقلّ من خطوتَين منها، ولا يفصِلها عنها سوى باب.

لم يكن اهتمامُها مركّزاً على كِنان، ولا على سؤال ما إن كانت زهرة التوليب هي والدتُه المختفية قبل سنوات أم لا، بل كان فضولاً خالصاً، مثل الفضول الذي يعتري الناس وهم يفتحون الهدايا التي تلقّوها في أعياد ميلادهم.

وبمجرّد ما فتحت الباب، حتى تناهت إلى أنفِها رائحةُ عطر قوية بنكهةِ البرتقال. كانت واقفةً أمامها امرأةٌ طويلة ذات شعرٍ أحمر كثيف ومجعّد. تضعُ نظارةً طبّية، وعلى صدرِها الأبيض البارز من الفستان الأسود الذي ترتديه، وشمٌ على شكلِ كلمة «حرّية» نُقِش بحروفٍ عربية.

ارتسمت الدهشةُ على وجهها وهي تنظر إلى إيمان، ثم قالت بالإنجليزية وهي تمدّ يدَها:

- بَهار.. زهرة التوليب...

اختلطت مشاعر إيمان بين الدهشة والخيبة والإعجاب والحسد.

مدّت يدَها في ارتباك وهي تبتسم:

- اسمي إيمان، وأنا سعيدةٌ جدّاً بمجيئك. . أرجوكِ تفضّلي!

خطت الفتاة خطوةً إلى الداخل، بينما كانت إيمان تفسِح لها المجال لذلك وهي ترمقها بإعجاب. وحين أصبحت داخلَ الشقّة، ضحِكت بحماس وهي تقول:

- من يصدّق؟ لقد التقينا أخيراً!

سكتت قليلاً ثمّ فتحت ذراعَيها وعانقت إيمان المرتبكة عناقاً حارّاً وحنوناً، كأنّها تعرِفها منذ زمنٍ طويل.

كلّ ما كان يدور في ذهنِ إيمان لحظتها هو: كيف يمكن أن تكون هذه المرأة هي نفسُها التي تكتب لها الرّسائل منذ شهور؟

توجّهت إلى المطبخ لإعداد الشاي، وفكّرت أنّ لكلّ إنسان شخصيتان: شخصيةٌ واقعية، هي ما هو عليه فعلاً في الواقع، وشخصيةٌ افتراضية، هي التي يكوّنها عنه الآخرون من خلال الرسائل أو العالم الافتراضي بصفةٍ عامّة. تختلف شخصيةُ بَهار في ذهن إيمان عن المرأةِ التي التقتْها الآن. تخيّلتها، من خلال كِتاباتها ورسائلها، امرأةً في العقدِ الخامس، لكنّها لا تزال محافظةً على رشاقتِها وشبابِها، رزينةً وهادئة وحكيمة، وعلى وجهها مسحةُ حزنٍ ناتجة عن الآلام التي تكبّدت طوال حياتِها. لكنّ المرأة التي كانت تقِف قُبالتَها قبل ثوانٍ تبدو في العقد الثالث من العمر، تضعُ طبقاتٍ سميكة من الماكياج. شفتاها مصبوغتان بأحمرٍ قانٍ. وتنتعل حذاءً بكعبٍ عالٍ. مندفعة ومتحمّسة. تتكلّم كثيراً وتضحكُ بلا هوادة. أمّا مسحة الحزن، فلا وجودَ لها نهائياً على تقاسيمها، كأنّما لم تعرِف في حياتِها ألماً ولا عذاباً. لكنّ تقاسيم الوجهِ أحياناً لا تعني شيئاً، فكّرت إيمان.

تركت أوراق الشاي تغلي في الماء وعادت إلى البهو حاملةً طبق حلويات مغربية صغير. قالت بَهار وهي تجلسُ على الكنبةِ واضعةً رجلاً على رجل:

- إذاً، كيفَ استقبلتِ حياة العزوبية من جديد؟

هزّت إيمان كتفيها، وقالت وهي تنظرُ إلى قدمَيها الحافيتَين:

- العزوبية ليست إلّا مجرّد جزءٍ صغير من حياتي الآن.. إنني في حاجةٍ إلى اختبار الحياة كلّها من جديد.

ضحِكَت بَهار من دون سبب. رفعَت إيمان نظرَها إليها، وقالت وهي تشير إلى الوشم على صدرِ بهار:

- ظننتُكِ عربية قبل أن تخبريني باسمك.

كان ثغرُها لا يزال ضاحكاً. قالت بحماسٍ:

- أحبّ اللغة العربية. وقد بدأتُ آخذ دروساً فيها منذ بضعةِ شهور. أنتِ من أيّ بلد؟

قالت إيمان بفتور:

- المغرب.

مكتبة
t.me/t_pdf

قالت بَهار بحماس أكبر:

- آه فاس!

لم تكن إيمان مصدّقةً أنّ هذه الفتاة هي نفسُها التي كانت تراسلها بكلّ تلك الحكمة. قالت:

- فاس كانت عاصمةَ المغرب خلال الفترة التي وصلَ فيها المدّ العثماني إلى الجزائر وحاولَ التوسُّع في المغرب، عبر نفسِ المدينة. لكنّه فشل في ذلك. لذلك ما زلتم تعرفونه بهذا الاسم.

كانت بَهار تصغي إلى كلامِ إيمان بانتباه. لكنّها سُرعان ما وجّهت النّقاش إلى منحىً آخر.

- هل لديكِ مكبّرات صوت؟

اتّسعت عينا إيمان. قالت باستغراب:

- لماذا؟

قالت بَهار:

- لنستمِع إلى الموسيقى.

قالت إيمان:

- ليست لديّ مكبّرات صوت، لكنّني أستطيع أن أشغّل الموسيقى على الحاسوب. أيّ نوعٍ من الموسيقى تفضّلين؟

قالت بَهار:

- فِرقة نيرفانا من فضلك.

قالت إيمان وهي تجرُّ الحاسوب الموضوعَ على الطاولة نحوَها:

- آه، يذكّرني هذا بالنيرفانا في الفكرِ البوذي. التحرّرُ من المعاناة والسّلامُ النفسيّ التامّ!

كانت بَهار ترمقها بفتور غريب. تابعت إيمان كأنّها تحدّث نفسَها:

- لا يمكن أن تصلي إلى ذلك التحرُّر إلّا بتركيز الانتباه على اللحظة الحاضرة والمكان الحاليّ الذي توجدين فيه، وتبتعدي عن التفكير في المستقبل.

قالت بَهار:

- شغّلي Come As You Are.

كتبت إيمان عنوان الأغنية في شريط البحث على يوتيوب.

- إنّ استسلام الإنسان لفكرةِ التوق لمسبّبات السعادة، وطموحَه الدائم إلى هذه المسبّبات، وعدم قدرتِه في نفسِ الوقت على الوصولِ إليها، هي التي تُدخِله في دائرة المعاناة الدائمة.

بدأت الأغنية تصدح من الحاسوب، بينما كانت بهار تصغي لكلام إيمان بانتباه.

- ليصِل الإنسان إلى مرحلة النيرفانا عليه أن يتخلّص من هذا التطلُّع الدائم إلى مسبّبات السعادة، وأن يتحلّى بالّرضى.

قالت بَهار وهي تزيدُ مستوى الصّوت في الحاسوب:

- أفضّل أن أعيشَ هذا على أن أتكلّم عنه! صحيحٌ أنني أكتب عنه

لأشفى تماماً، لكنّني أعيش كلّ لحظاتِ حياتي كما ينبغي، ولا أدعُ الأفكار الكبيرة تسيطر عليّ.

كان صوتُ الموسيقى يرتفِع في الشقّة، وكانت بهار تبدو مستمتعةً بتلكَ اللحظة إلى أبعدِ حدّ، لدرجةٍ لم تكن تبذل أيّ مجهود لتتظاهر بأيّ شيءٍ آخر غير الاستمتاع. إنّها متحمّسة، وتحمّسها يظهرُ في كلامِها وحركاتِها. إنها عفوية، وعفويتها تظهر في تصرّفاتها حتى مع الغرباء.

تابعت:

- لقد تعرّضتُ للاغتصاب من طرف طليقي الذي كان يريد الانتقام منّي، وفقدتُ طفلي لاحقاً بسبب اللوكيميا، وبعدَها بسنةٍ فقط، مات والدَيّ في يومٍ واحد بسبب حادث سير. كنتُ بلا بيت ولا ملجأ لفترة طويلة، أمضي النهار في الشارع، وأقضي الليل عند بعضِ الأصدقاء القدامى، لكنْ، كم سيتحمّلكِ الأصدقاء؟ لم يدم ذلك فترةً طويلة، ثمّ اضطررتُ للعمل بائعةً عند بقّالٍ يملِكُ محلّاً صغيراً في تشوقور جمعة، فعلَ ذلك فقط رأفةً بي، وكان يعطيني فقط ما يكفيني لطعامي ولاستئجار غرفةٍ صغيرة في سطح أحدِ المباني، حيث كنت أقضي ليلي في البكاء ولوكِ شعري. كنتُ على شفا فقدان عقلي، لكنّني أدركتُ بعد فترة، أنّ الحياةَ تستمرّ، وأنّ أمامي خيارَين لا غير: إمّا أن أعيشَ ما تبقى لي على هذه الأرض سعيدةً، وإمّا أن أقضي أيامي تعيسةً. الأمرُ بهذه البساطة ولا يحتاج إلى كثيرٍ من التحليل. استيقظتُ ذات صباحٍ ماطر من شهر ديسمبر عام 2015، أعددتُ ورقةً عليها سيرتي الذاتية، استعرضتُ فيها كلّ ما أعرف فعله: حاصلة على البكالوريا، درستُ السّنة الأولى جامعة في شعبةِ علوم الرياضيات، قادرة على الكتابة باللغة الإنجليزية والتكلّم بها بطلاقة، سبقَ وأن عمِلتُ في مكتبٍ للترجمة مِن وإلى اللغتين التركية والإنجليزية، سبقَ وأن عمِلتُ بائعةً في سوبرماركت، وبائعةً في محلّ Koton للألبسة، يُشهَد بقدراتي في جذب الزبائن والتعامل معهم بشكلٍ جيّد...

كانت إيمان جامدةً في مكانِها، بعينَين لا ترمشان. «كيف يمكن لإنسانٍ أن يتجاوز كلّ هذا ويصبِح عبارةً عن امرأةٍ كهذه؟»، تساءلت وهي تتذكّر أنها كانت ستنتحر لو حصل معها هذا.

- خرجتُ في ذلك الصباح الماطر، ورحتُ أوزّع الورقة على كلّ مكاتب الترجمة في إسطنبول. لففتُ على كلّ المؤسسات والمحلّات الموجودة في كلّ شوارع وأزقّة المدينة، سواء المتخصّصة في بيع المواد الغذائية أو الألبسة أو العطور والماكياج أو أثاث البيت أو حتى محلّات الوشم وصالونات التجميل. كنتُ مستعدّة لعملٍ أيّ شيء كي أتقدّم إلى الأمام، حتى لو كلّفني ذلك أن أشتغلَ عاملةَ نظافة. كان الحظّ واقفاً معي وقفةَ امرأةٍ حقيقية، إذ وجدتُ عملاً في أحدِ مكاتب الترجمة، وشغلتُ نفسي بالقراءة، واستأجرتُ شقةً صغيرة، لكنْ جميلة في الفاتح، ثمّ تحسّنت ظروفي وانتقلتُ إلى أورتاكوي... وبدأتُ أكتب، ثمّ فتحتُ مدوّنتي على الإنترنت، وأفكّر في كتابةِ كتابٍ عن حياتي. الحياةُ ليست سهلةً يا عزيزتي، يجبُ أن نتعارك معها لننتزع ما نستحقّه، وعندما نربحُ الحياة، يجب أن نعيشَ فرحةَ الانتصار إلى آخر رمق.

قالت إيمان وقد اتّسعت عيناها:

- نسيتُ الشاي!

ركضتِ المرأتان إلى المطبخ في هلع. كانَ القِدر قد جفّ من الماء، واحترقَ قاعُه، وتصاعدَ دخانٌ كثيفٌ منه. وبينما كانت إيمان واقفةً لا تعرِف ماذا تفعل ولا كيف تتصرّف، حملت بَهار القِدر بسرعةٍ عن النّار، وفتحتِ الصنبور فوقَه، فتصاعد دخانٌ أكثر كثافةً. أطفأت إيمان النّار، وجلستِ الاثنتان على كرسيَّين بلاستيكيَّين صغيرَين في المطبخ وهما تتنفّسان بعمق. في لحظةٍ ما، التقت نظراتُهما وراحتا تضحكان معاً مثل طفلتَين متواطئتَين في مصيبة، بينما كانت أغاني فرقة نيرفانا تتناهى إليهما من البهو بأصواتِها الهادرة والغاضبة، وكلماتها المتمرّدة والتوّاقة للحرّية.

المعاناة في إسطنبول أفضل!

سارت زْهور ذهاباً وإياباً في بهو شقّتها، واضعةً يدَها فوق رأسِها كأن مصيبةً حلّت بها، مردّدةً «لا حولَ ولا قوة إلّا بالله»، قبلَ أن تتوقّف، مباشرةً قُبالة ابنِها الجالس على الكنبة، وتقول:

- إذاً، تركتَ لها إسطنبول وجئتَ لتجلسَ في الستّين متراً هذه؟ أينَ كان عقلُك عندما كانت تنفّذ مخططاتِها؟ لقد قلتُ لكَ مراراً إنّ تلك المرأةَ أفعى سامّة، وإنّها ستؤذيك، لكنّك لم تسمع كلامي!

كانَ رأسُ خالد منحنياً، كأنّه لم يعد قادراً على حملِه، وكتِفاه متهدّلتان، شاعراً بضعفٍ غريب ينتابه، كأنّما فقدَ ذلك الطموح الذي كان يجعله قادراً على الوقوفِ على قدميه لوقتٍ طويل. لكنّ أكثر شيءٍ يحطّمه الآن، ليسَ هو فقدان الطموح، وإنّما عِتاب أمّه اللاذع الذي لا يزال يوقِع داخله التأثيرَ نفسَه الذي كان يوقِعه فيه خلال الطفولة.

- لماذا طلّقتَها بتلك السهولة؟ كان عليكَ أن تستشيرني، وكنتُ سأجعلُها تندم على اليوم الذي وُلِدت فيه.

توقّفت قليلاً. رفعتْ يدَها، وأغلَقت كفّها كأنّها قبضت على ذبابة أزعجتها لوقتٍ طويل، وتابعت:

- آه لو تقعين في يدي يا إيمان، سأسحلُكِ سحلاً يا بنتَ نعيمة!

لم يكن خالد قادراً على التفوّه بأيّ كلِمة، كأنّ بحلقه صخرة.

- لقد حقّقت هدَفها الآن، وحصلت على طلاقِها، وتخلّصت

منك، وبقيت في إسطنبول لتفعلَ ما تريد، وأنتَ، أيها الحمار، عُدتَ إلى المغرب لتعيشَ نفسَ المعاناة التي هربتَ منها.

للمرّة الأولى، سقطَ السؤال على رأسِ خالد المنحني مثلَ قطرةِ ماء باردة: لماذا عُدت؟ وماذا سأفعلُ هنا الآن؟

- الخطأ خطئي، لأنني أنا التي أنجبتُ حماراً مكانَ رجل. النّساء ينجبن الرجال وأنا أنجبُ الحمير. هل هناك رجلٌ عاقلٌ يترك زوجته تفعل ما تشاء وتخرج متى تشاء وتلبس ما تشاء وتتطلّق متى تشاء؟ هل أنتَ رجلٌ أم ماذا؟

أصدرت تنهيدةً عميقة، ثمّ تابعت بنبرةٍ أقلّ حِدّة وعتاباً، لكنْ أكثر حسرةً وألماً:

- تركتَ الخيرَ في بلدِ الخير وعُدتَ إلى العذاب.. تركتَ الجنّةَ يا ولدي وعُدتَ إلى جهنّم!

مشتْ بخطى ثقيلة جارّةً جسدها المترهّل نحو الكنبة. كانَ ابنُها يبدو لها في تلكَ اللحظة نقطةً سوداء في حياتِها. جلسَت وهي تتنهّد وتلطِم فخذَيها، ثمّ أضافت وقد التمعت عيناها أملاً:

- ألا يُمكنك العودةُ إلى إسطنبول الآن؟

لم يردّ. ولم يكن راغباً في رؤيةِ إيمان أو مُصادفتِها في مكانٍ ما بعد الآن. كان يريد أن يكون بعيداً ما أمكن عن تلك الصّورة التي يرى نفسَه عليها كلّما تطلّع إلى وجهها، ولو كان الثمنُ طموحَه.

نظرتْ إليه شزراً، ثمّ قالت:

- لا تريد؟ حسناً... سأدعُك وشأنَك، لكنْ، لا تأتِ وتشتكي لي، بعد ذلك، لأنني لن أستمع إليك.

تمدّدت على الكنبة، متظاهرةً بعدم الاكتراث، بينما كان قلبُها ينبضُ حقداً تجاه إيمان، تلك المرأة التي أرادت هي أن تكونَها دائماً، ولم تستطع. شاهدت قدمَيها الجافّتَين المتقشّرتَين مرّةً أخرى، وسرعان

ما أبعدت نظرها عنهما. أشعلَت التلفاز، وغرِقت في الحلقة الخامسة والثمانين من مسلسل «فضيلة وبناتها» التركي.

يحكي المسلسل قصّةَ امرأةٍ فقيرة لديها بنتان جميلتان تسعى بكلّ ما تملك من وسائل إلى التقرُّب من عائلةٍ غنيّة، للتخلُّص من فقرها، لكنّها تقع في مشاكل لا تُحمَد عقباها.

قالت بنت فضيلة الأصغر سنّاً، الأنيقة ذات العينَين الزرقاوين لنفسِها بحقد:

- كلّ ما أبذله من مجهود يذهب سدىً... كلّ ما أبذله...

التفتَ سائق سيّارتِها الفخمة، وسأل:

- هل تتحدّثين معي يا إنجي خانم؟

ارتعدت وقالت بعصبية:

- لا أتحدّث معك.. استعجل، وتوقّف عند المقهى في آخر هذا الطريق!

المعاناة قدرُ الإنسان في الحياة، لكنّ المعاناة داخل قصرٍ فخم أو سيارة رباعية الدفع يقودها سائق خاصّ في إسطنبول تختلِف عن المعاناة داخل شقة تبلغ مساحتها ستين متراً مربّعاً في الدار البيضاء. تنهدت زهور، ورمقت من جديد قدميها السّمراوين الجافّتَين والمتقشّرتَين بحزن.

68

أدركتِ المرأةُ كمالَها أخيراً

تجمهرَ جمعٌ غفير من النّاس قربَ المبنى الواقع في نهايةِ زقاق داوود أفندي في بشكتاش، بينما كان رجالُ الإسعاف يخرجون جثّة الفتاة التي كانت تسكن في الطابق الثالث، والتي تحلّلت وانتفخت وتراكَم فيها الدود.

قالت امرأةٌ بدينة تسكن في الطابق الرابع من المبنى نفسِه:

- لقد بدأت رائحةُ العفَن تتسلّلُ إلينا منذ ثلاثة أيّام، لكنّنا لم نتوقّع أن تكون هناك جثّة، اعتقدنا أنها رائحةُ القمامة فقط!

قالَت امرأةٌ في العقد الخامس تسكنُ في الطابق الخامس من المبنى نفسه:

- يا للفتاة المسكينة! لقد كانت لطيفة جداً وطيبة وجميلة. . .

قالت امرأةٌ عجوز تسكنُ في المبنى المجاور:

- لا إله إلّا الله! الموتُ لا يميّز بين كبيرٍ وصغير. . لقد وصلَ أجلُ المسكينة، فقبضَ الله روحَها. . إنا لله وإنا إليه راجعون.

قالت فتاةٌ في العقد الثاني من عمرها تسكن في الطابق الثالث من المبنى نفسِه:

- هذه ليست مِيتةً طبيعية. إنّ الفتاةَ ماتت بسبب تسرّبٍ للغاز!

قالت المرأةُ البدينة، كأنّها تتحسر لأن شيئاً ما فاتَها في القصّة:

- لكنّنا لم نشمّ رائحةَ الغاز!

قالت الفتاة التي تسكن في الطابق الثالث بثقة:

- لقد قامت الفتاة بسدّ كلّ الفتحاتِ في بيتِها، حتى لا يتسرّب الغازُ إلى الخارج ولا ينقذَها أحد.

قالت المرأة العجوز التي تسكن في المبنى المجاور وقد اتسعت عيناها رعباً:

- ماذا تقصدين بأنّها أغلقت كلّ الفتحات؟

كان الجميع يُنصت إلى الفتاة الشابة في تلك اللحظة، حتى الرجال الذين لم يشاركوا في محاولةِ حبكِ قصّةٍ لموتِ الفتاة التي تسكن في الطابق الثاني.

قالت بنبرةٍ تنمّ عن معرفةٍ كبيرة بخبايا الأمور:

- أقصدُ أنّ الفتاة انتحرت!

بدا على ملامِح المرأة العجوز أنّ هذه أول مرةٍ تسمع فيها كلمة انتحار. تراجعت إلى الوراء مرعوبةً، بينما كان الجميع يردّدون: «لا حولَ ولا قوة إلا بالله! إنا لله وإنا إليه راجعون!» وهم ينظرون إلى سيارة الإسعاف التي تتحرّك مبتعدةً عن الزقاق. سمِعت المرأةُ البدينة مواءً وسطَ الصخب. كان هناك قطٌّ بدين رماديّ اللون ذو عينَين خضراوين ينظرُ إليها، كأنّما يريد أن يقول شيئاً أيضاً عن الحادثة.

* * *

في ليلة رأس السنة، وقبلَ منتصف الليل بثلاثِ دقائق، قرّرت هازال أن تضع حدّاً لحياتِها.

لم يسبِق لها أن فكّرت في الانتحار من قبل، ولا كانت تؤمن أنّ هناكَ سبباً لتقرّر في يومٍ من الأيام، وضعَ حدّ لحياتِها، لأنّها كانت تعرف أن الموت آتٍ بلاً شكّ، ليضعَ نهاية لكلّ شيء، بما في ذلك الألم.

لكنْ، في ليلةِ رأسِ السّنة، وقبل أن يدخل العام الجديد بثلاث دقائق، أدركت هازال فجأةً أنّه ليس ثمّة سببٌ لتظلّ على قيدِ الحياة أيضاً. وفي لحظةٍ واحدة فقط، ضغطت هذه الفكرةُ على قلبِها، ونظرَت إلى القطّ باكي الذي يقِف مباشرةً قبالتَها محرّكاً ذنبَه باستمرار، وبدأت طُرُق الانتحار تنسكِب فوق رأسها بلا توقّف.

لم يكن الموتُ شنقاً فكرةً جيّدة، لأنها لا تملِك حبلاً متيناً، وحتى لو امتلَكت الحبل، فإنّها لا تعرفُ كيف تربطه إلى السّقف، قبلَ أن تلفّه حول عُنقِها، وتُسقِط الكرسيّ، ثمّ تموت معلّقةً.

فكّرت في الإلقاء بنفسِها من سطحِ المبنى الذي تعيش فيه، لكنّها تذكّرت قصّةَ سيّدةٍ في العقد الرابع، كانت جارتهم في شوقور جمعة، أقدمت على رمي نفسِها من الطابق الرّابع لإنهاء حياتِها، إلّا أنّ المحاولةَ لم تنجح. بل إنّ الأمر لم يتوقّف عند هذا الحدّ، إذ أنّ المرأة أصيبت بالشلل نتيجةَ كسرٍ في عمودِها الفقري، وظلّت مستلقيةً في مكانٍ واحد مدّةَ عشر سنوات، حتى ماتت مؤخّراً بسبب نوبة قلبية.

أمّا فكرةُ الموتِ غرقاً، فلم تُثِرها، لأنّ ذلك سيستدعي منها جهداً كبيراً، يتمثل في الخروج من البيت والتوجه إلى أورتاكوي والصعود إلى الجسر المعلّق، قبل الإلقاء بنفسِها في مياه البوسفور.

نظرتْ يمنةً ويسرة كأنّها تبحثُ عن طريقةٍ ما للموت، فوقَع نظرُها على الديوان الشعري لسيلفيا بلاث الموضوعِ على الطاولة. لم تفكّر، لأن الانتحار لا يستدعي التفكير، وإنما التنفيذ. نهضت مباشرةً. حملت القطّ باكي من دون أيّ حنان، ونزلت في درج المبنى راكضةً إلى الخارج، حيث تركته. رجعت إلى المبنى مغلقةً الباب خلفَها، دون أن تلتفتَ إلى القطّ الذي كان يموء، كأنّما يرجوها أن تعود.

اندفعت إلى الداخل وهي تلهث. أغلقَت بابَ الشقّة، ثمّ النوافذ. توجّهت إلى المطبخ بثبات. فتحتِ الغاز، وأحدثت بواسطةِ سكّين حادّ

ثقباً في الأنبوب، ثم ذهبت إلى البهو، ودخّنت آخر سيجارةٍ في حياتِها.

عادت إلى المطبخ. أغلقت الباب. وضعت منشفةً تحته. لم تكن تفكّر في أيّ شيء سوى لذّة الغرقِ في العدم. جلست على الأرض، وهي تنظرُ في فراغٍ ما كأنّما ترى فيه الظلمة الموجودةَ داخلها. وعندما امتلأ المكانُ بالغاز، وغابت عيناها، وارتخى جسدُها، رأتْ نفسَها ترتدي فستاناً عليه زهورٌ مختلفة الألوان، وقرطَين فيروزيَّي اللون، تنتقلُ بين لوحةٍ ولوحة، مثلَ فراشةٍ تنتقل بين زهرةٍ وزهرة.

أغلقت عينَيها، فسقطَ العالم كلّه ميّتاً.

في يومٍ من أيام الربيع المشمسة، كانت هازال جالسةً في حديقةِ بشكتاش، مبتسمةً وممتلئةً بالأمل، إلى جانبِها يجلسُ كِنان، مطوّقاً إياها بذراعه. نظرتْ إلى أطفالٍ يلعبون وينطّون ويزقزقون كالعصافير، ثمّ سحبَت من حقيبة يدِها البنيّة اللون ديوان سيلفيا بلاث الشعري، وراحت تقرأ بصوتٍ مرتفع:

أدركتِ المرأةُ كمالها أخيراً.
جسدها الميّت
يحمل ابتسامة التحقّق.
وهمُ قدرٍ إغريقي
ينساب بين طيّات ثوبِها.
قدماها العاريتان كأنهما تقولان:
كثيراً مشينا. كفى.

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة

telegram @t_pdf

كريمة أحداد

حُلم تركي

تركيا الازدهار والرخاء وتكافؤ الفرص، تركيا الحريات ورغد العيش والمسلسلات الرائعة... هذا ما يحلم به الكثير من العرب اللاهثين وراء مجد العصر الإسلامي المفقود، وهكذا خُيّل لإيمان وخالد اللذين غادرا المغرب حالمَين ببدايةٍ جديدة تُنقِذ طموحاتهما، وما تبقّى من حبّهما القديم.

وفي رحلةٍ عصيبة لاكتشاف ذاتَيهما، يلتقيان أشخاصاً آخرين قادمين من بلدانٍ عربية مختلفة وفي حقائبهم خيباتٌ وجراحٌ وبعضٌ من أملٍ في حياة أفضل: إيناس من سوريا الهاربةُ من الحرب، نبيل من مصر الهاربُ من حكمٍ بالإعدام، ناجي من تونس الحالم بالعبور نحو أوروبا ونحو هويةٍ مختلفة، إسراء من غزة الفاقدة لعائلتها في حرب تموز 2014... تتشابك الأحداث والمصائر في غياهب الغربة. فهل يضيء «الحلم التركيّ» كوابيس العالم العربيّ، أم أنّ الواقع يجعل من هذا الحلم مجرّد أوهام؟

ISBN 978-9953-68-986-9

9 789953 689869

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
بيروت: ص. ب. 113/5158
markaz.casablanca@gmail.com
cca_casa_bey@yahoo.com